# الموسوعة الشامية في ناريخ النسامية في الن

المصادر العربية مؤرخو القرن السابع (٦)

تأليف وتحقيق وترجة الأسسا والدكنورية بالأركار

دمشق ۱۹۹۰ – ۱۹۹۳هـ

الجزءالتاسع عشر

المصادر العربية مؤرخو القرن السابع الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية لأبي شامة

الجزء الثالث

دمشق ۱۹۹۰/۱٤۱٦

#### فصل

# في ذكر ما استأنفه السلطان بمصر والشام من نقل الولايات بين أولاده

قال العهاد: وكان السلطان لملازمة أخيه العادل له قد مال إلى رأيه، وكان الملك الأفضل نور الدين علي بمصر، وهو ولده الأكبر، وقد بدأ يظهر، وعلى تجويد الخط والأدب وسهاع الأحاديث النبوية يتوفر، وقد مالت إليه بمصر جماعة، وله منهم طاعة، وربها نقم تقي الدين النائب هناك من أحد أمرأ فوقعت منه فيه شفاعة، فكتب يشكو من اختلال أمره، واشتغال سره، وكان في نفس السلطان أن ينقل ولده الملك العزيز عثمان إلى مصر ليكون عزيزها، وليحرز مملكتها ويحوزها، وهو مفكر في طريق تدبيره ووجه تقريره، حتى بدا له نقل الأفضل إلى الشام، فكتب إليه يتشوقه ويستدعيه بجميع أهله وجماعته ووالدته وحشمه وأصحابه، فخرج ووصل دمشق يوم الاثنين الثالث والعشرين من جمادى الأولى، فخرج السلطان لاستقباله وأنزله بالقلعة في دار رضوانه، وكتب إلى تقي وخرج السلطان وعصمته، وإن تمام حرمته بحرمته.

قال: ولما وصلنا إلى دمشق كان بها من أولاد السلطان الملك الظاهر غازي غياث السدين، فزار عمه العادل، وهو صهره، وقد اشتد بمصاهرته، ظهره، فقال له: قد نزلت عن حلب لك، وأنا أقنع من أخي باقطاع أين كان، وألزم الخدمة ولاأفارق السلطان، فأطلبها من أبيك إن كانت ترضيك، وجاء الى السلطان وقال هذه حلب مع رغبتي لتوليها أرى أن أحد أولادك بها أحق، وهذا ولدنا الملك الظاهر أحب أن أوثره بها، فقال السلطان: المهم الآن تدبير ولدي الملك العزيز فإن مصر لابد

أن يكون لى بها ولـد أعتمد عليه، وأسند ملكها إليه، ورحل إلى الزرقا، ومعه ولداه العزيز والظاهر وأخوه العادل، فالتمس العادل عوض حلب بلادا عينها، ونواحى بمصر بينها وكان قد مال الملك العزيز إليه لاشف\_\_\_\_\_ه، فسأل أباه أن يسير معه العادل فإنه نعم الكافي الكافل، فأعطاه السلطان بمصر البلاد المعروفة بالشرقية، واعتمد عليه في نيابته في سائر المالك المصرية، ولما سمع تقى الدين هذا الخبر نبا ونفر، وذم الغير، واستبدل من الصفو الكدر، وغار من تغير الرأي فيه، وإذا تولى أبو بكر فلا عمر، فعبر إلى الجيزة، مظهرا أنه يمضى إلى بلاد المغرب ليتملكها، وكتب يسأل السلطان أن لايمنعه من سلوك مسلكها، وسمت همته إلى مملكة جديدة، وأقاليم ذات ظلال مديدة، وبلاد واسعة، ومدن شاسعة، وقد كان أحد مماليكه المعروف بقراقوش، قد جمع من قبل الجيوش وسار إلى بـ الد برقة فملكها، وهزته الأمنية للنفائس من بلاد نفوسة فأدركها، وتجاوز إلى إفريقية وهو يكتب أبدا إلى مالكه الملك المظفر يرغبه في تلك المملكة ويقول إن البلاد سائبة، فلما تجدد لتقيى الدين ماتجدد، وتمهد لعمه العادل ماتمهد، عاد له ذكر المغرب فعبر بعسكره، ومالت إليه عساكر مصر لبذله، وقدم مملوكه بموزبا في المقدمة، فلما انتهمي الى السلطان خبر عزمه قال: لعمري إن فتح المغرب مهم، ولكن فتح البيت المقدس أهم، والفائدة به أتم، والمصلحة منه أخص وأعم، وإذا توجه تقي الدين، واستصحب معم رجالنا المعروفة، ذهب العمر في اقتناء الرجال، وإذا فتحنا القدس والساحل طوينا إلى تلك المالك المراحل، وعلم لجاج تقى الدين في ركوب تلك اللجة، فكتب إليه يأمره بالقدوم عليه، وجهز ولده العزيز إلى مصر، وقرر له قوص، وأعمالها، وسار معه عمه العادل، فدخلا القاهرة في خامس شهر رمضان، وأما الملك الظاهر فسيره السلطان إلى حلب وأنعم عليه بها، وبسائر قالاعها وأقاليمها، وندب معه الحاجب شجاع الدين عيسى بن بالاشو، وعاد السلطان ومعه الأفضل، وقدم تقى الدين في آخر شعبان، وتلقاه السلطان وخيم على المصري فوق قصر أم حكيم، فلها قرب ركب إلى موكبه، ورحب به ودخل دمشق، وعاد إلى ماكان له من البلاد ومنح المعرة وسائر أعهالها، ثم أضاف إليه ميافارقين، وجميع مافي ذلك الاقليم من المعاقل، وكتب إلى مصر باستدعاء رجاله، وإعلامهم بتأخير عزم المغرب بل ابطاله، فامتثلوا الأمر، وفارقوا إلى الشام مصر، سوى مملوكه زين الدين بوزبا فإنه رتب له عسكر إلى المغرب فمضى واستصحبه وغلب على بلاد إفريقية، ثم قصده صاحب المغرب فأخذه مأسورا، ثم أغزاه مع الغز في ثغر من الثغور فألفاه مشهورا مشكورا، فقدمه عليهم.

قلت: وكتب الفاضل إلى تقي الدين: "سبب هذه الخدمة مااتصل بالمملوك من تردد رسائل مولانا في التهاس السفر إلى الغرب، والدستور إليه— يكفي الزمان في لنا نستعجل— يام ولانا ماهذا الواقع الذي وقع، وماهذا الغريم من الهم الذي مااندفع، بالأمس ماكان لكم من الدنيا إلا البلغة، واليوم قد وهب الله هذه النعمة، وقد كان الشمل مجموعا، والهم مقطوعا ممنوعا، أفتصبح الآن الدنيا ضيقة علينا، وقد وسعت، والأسباب منا مقطوعة، ولا والله ماانقطعت، يامولانا إلى أين وماالغاية وهل نحن في ضائقة من عيش، أو في قلة من عدد، أو في عدم من بلاد، أوفي شكوى من عدم، كيف نختار على الله، وقد اختار لنا، وكيف ندبر لأنفسنا وهو قد دبر لنا، وكيف ننتجع الجدب، ونحن في دار الخصب، وكيف نعدل إلى حرب الاسلام المنهي عنها، ونحن في المدعو إليها من وكيف نعدل إلى حرب الاسلام المنهي عنها، ونحن في المدعو إليها من وكيف رجل رشيد:

تعلقب الرأي وانظر في أواخروه فطل المحمة قدما أوائله

لازال مولانا يمضي الآراء صائبة، ويلحظها بادية وعاقبة، ولاخلت

منه دار إن خلت فهيهات أن تعمر، ولاعدمته أيام إن لم تطلع فيها شمس وجهه دخلت في عداد الليالي فلم تذكر».

وقال القاضي ابن شداد: وفي سابع عشر جمادى الأولى سنة اثنتين وصل الملك الأفضل إلى دمشق، ولم يكن رأى الشام قبل ذلك، وكان السلطان رأى رواح الملك العادل إلى مصر، فإنه كان آنس بأحوالها من الملك المظفر، فها زال يفاوضه في ذلك وهو على حران مريض، وحصل ذلك في نفس العادل فإنه كان يجب الديار المصرية، فلما عاد السلطان إلى دمشق ومن الله بعافيته سير يطلب العادل إلى دمشق، فتجهز من حلب جريدة، وأقام بدمشق في خدمة السلطان يجري بينها أحاديث ومراجعات في قواعد تقرر إلى جمادى الآخرة، فاستقر عود العادل إلى مصر ويسلم بلاد حلب إلى الظاهر،، وسلم السلطان إليه ولده الملك العزيز، وجعله أتابكه.

قال: ولقد قال لي الملك العادل لما استقرت هذه القاعدة: اجتمعت بخدمة الملك العزيز، والملك الظاهر، وجلست بينها، وقلت للعزيز: إعلم يامولاي أن السلطان قد أمرنى أن أسير في خدمتك إلى مصر، وأ نا أعلم أن المفسدين كثير وغدا فيا نخلوا عمن يقول مالايجوز عني، ويخوفك مني، فإن كان لك عزم تسمع فقل لي حتى لاأجيء، فقال: لاأسمع وكيف يكون ذلك، ثم التفت وقلت للملك الظاهر: وأنا أعرف أن أخاك ربها سمع في أقوال المفسدين، وأنا فهالي إلا أنت وقد قنعت منك بمنبج، متى ضاق صدري من جانبه، فقال: مبارك، وذكر كل خير، ثم إن السلطان سير ولده الظاهر إلى حلب، وأعادها اليه، وكان رحمه الله يعلم أن حلب هي أصل الملك وجرثومته وقاعدته، ولهذا دأب في طلبها ذلك الدأب، ولما حصلت له أعرض عها عداها من بلاد الشرق، وقنع منهم بالطاعة والمعونة على الجهاد، فسلمها إليه علم منه بحذاقته وحزمه، بالطاعة والمعونة على الجهاد، فسلمها إليه علم منه بحذاقته وحزمه، وحفظه، فسار حتى أتى العين المباركة، وسير في خدمته شحنة حسام الدين بشارة، وواليا شجاع الدين عيسى بن بلاشو، ونزل يـوم الجمعة الدين بشارة، وواليا شجاع الدين عيسى بن بلاشو، ونزل يـوم الجمعة

بالعين المباركة، وخرج الناس إلى لقائه في بكرة السبت تاسع جمادى الآخرة، وصعد القلعة ضاحي نهاره، وفرح الناس به فرحا شديدا، ومد على الناس جناح عدله، وأفاض عليهم وابل فضله.

وأما الملك العزيز والعادل فإن السلطان قرر حالها، وكتب إلى الملك المظفر يخبره بمسيرهما إلى مصر، ويأمره بالوصول الى الشام، فشق ذلك عليه حتى ظهر للناس، وعزم على المسير إلى ديار الغرب إلى برقة، فقبح ذلك عليه جماعة من أكابر الدولة، وعرفوه أن عمه السلطان يخرج من يحده في الحال، والله يعلم مايكون منه بعد ذلك، فرأى الحق بعين البصيرة، وأجاب بالسمع والطاعة، وسلم البلاد، ورحل واصلا إلى خدمة السلطان، فسار السلطان الى لقائه، فلقيه بمرج الصفر، وفرح بوصوله فرحا شديدا، وذلك في الثالث والعشرين من شعبان، وأعطاه معاة وسار اليها، وكان عقد بين الظاهر وبعض بنات العادل عقد نكاح، فتمم ذلك، ودخل بها يوم الأربعاء السادس والعشرين من شهر مضان، ودخل الملك الأفضل على زوجته بنت ناصر الدين محمد بن شهر مضان، ودخل الملك الأفضل على زوجته بنت ناصر الدين محمد بن

ومن كتاب فاضلي إلى السلطان: «الملك العادل والملك المظفر المذكوران ماهما أخ وابن أخ بل هما ولدان لايعرفان إلا المولى والدا ومنعا، وكل واحد منها له عش كثير الفراخ، وبيت كرقعة الشطرنج فيه صغار وكبار كالبيادق والرخاخ، فلا يقنع كل واحد منها إلا طرف يملكه، وأقليم يتفرد به، فيدبر مولانا في ذلك بها يقتضيه صدره الواسع، وجوده الذي مانظر مثله الناظر، ولاسمع السامع، ولاينس قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «مروا القرابة أن يتزاوروا ولايتجاوروا»، وماعلى مولانا عجلة في تدبير يدبره، ولافي أمر يبته « وستبدي لك الأيام ماكنت عرافا»، وفي غد ماليس في اليوم، ولله اقدار، ولها أمد، وقد رزق الله مولانا ذرية تود لو قدمت أنفسها بين يديه، ولو اكتحلت اجفانها بغبار مولانا ذرية تود لو قدمت أنفسها بين يديه، ولو اكتحلت اجفانها بغبار

قدميه، مافيها من يشكي منه الا التزايد في الطلب، وهو من باب الثقة بكرم المنعم، ولهم أولاد، والمولى مد الآمال لهم، كما قال مولى الأمة: « تناكحوا تناسلوا فإني مكاثر بكم الأمم «(٣٤) طالما قال لهم المولى لدوا وعلي تجهيز الإناث وغنى الذكور، وسواء على أفق البيت طلوع الشموس والبدور».

قال العماد: ومدحت تقي الدين بقصيدة سينية سنية، قطوفها دانية جنية، تشتمل على مائة وأربعين بيتا، أنشدته إياها في ثالث شهر رمضان من هذه السنة بدمشق، وأوردت بعضها ومطلعها:

عفاالله عنكم عن ذوي الشوق نفسوا

فقد تلفت منا قلوب وأنفس

ألم تعلموا أني من الشوق موسر

ألم تعلم والله الصبر مفلسس الم تعلم والله من الصبر مفلسس ظننت مبعين أنها تسأل فالكرى

فهــــلا بعثتــــم طيفكـــم يتجســـس

و فقلبي على الأحزان وقف محبس

ومنها:

لفتك محبيه تيقطط طروف

وتحسب من سقم عينيه ينعمس

لــه نـــاظـــر عنـــــدالخلاف منـــاظــــر

يق ول دليل الدل عندي أقيس

إذا درست ألحاظه السحر أصبحت

رسوم اصطباري درسا حين تدرس

ولمأنسس أنسسي بسالحمسي رعسى الحمسي

عشيـــة لي مجنـــى ومجلى ومجلـــس

لحى الله أبناء الزمان فكلهم

صحیفت\_\_\_\_ أودى بها المتلم\_\_\_\_س

ولولاابتسامات المظفر بالندى لما راق نفسي صبحــــه المتنفــــسر جلت شمس لقياه الحنادس بعدماً عرتنا وهل يبقى مع الشمس حندس وصاربه هداالزمان جميعه نهارًا فها للنـــاس ليــل معسعـــس إذاصال فالمفلول ألف مدرع وإن جياد فسالمسذول ألسف مكيس وليسس بمغبسون على فضلل رأيسه ويغبُّ في الأمروال منه ويبخس إذا أطلق الملك المظفر في السوغسى أعنته فالشمس بالنقع تحبس فداك ملوك لايلبون داعيا وكلهم عسن دعوة الحق يخسس تشكي إليك الغرب جور ملوكه فاشكيته والجور بالعدل يعكس سيهدى إلى المهدديدة النصر والهدى بهديكمم فيها وتونسس تونسس رددت كراديس الفرنج وكلهم م لدت كراديس الفرنس في غل الصغرار مكردس وبيضت وجمه الدين يوم لقيتهم وأبيضكم من أسبود القصر أشوس أفاددم الأنجاس طهر سيوفكم ومايستفاد الطهر لولا التنجس شموس ظبى تغدو لهاالهام سجدا فللـــه نصرانيــة تتمجــس وكمم كفي الاسلام سوءا بملككمم كفيتهم على رغم المعهادية كل سو

ولايفت ح البيت المقدس غيركم وبيتكم من كل عاب مقدس طم ككلي وم في جهاد مثلث إذا نصروا التوحيد في عندس إذا ما تقي الدين صال تساقطت لأقدامه من عصبة الشرك أرؤس وماعم رالاشبيه مسميه شديد على الأعداء ثبت عمرس

#### فصل

## في باقي حوادث هذه السنة

قال العهاد: كان المنجمون في جميع البلاد يحكمون بخراب العالم في هذه السنة في شعبان عند اجتهاع الكواكب الستة في الميزان بطوفان الريح في سائر البلدان، وخوفوا بذلك من لاوثوق له باليقين ولاإحكام له في الدين، من ملوك الأعاجم والروم، وأشعروهم من تأثيرات النجوم، فشرعوا في حفر مغارات في التخوم، وتعميق بيوت في الأسراب، وتوثيقها، وسد منافسها على الريح وقطع طريقها ونقلوا إليها الماء والأزواد، وانتقلوا إليها وانتظروا الميعاد، وكلما سمعنا بأخبارهم استغربنا في الضحك من عقولهم، وسلطاننا متنمر من أباطيل المنجمين، موقن أن قولهم مبني على الكذب والتخمين، فلما كانت الليلة التي عينها المنجمون لمثل ريح عاد، وقد شارفنا الميعاد، ونحن جلوس عند السلطان في فضاء واسع، وناد للشموع المزهرات جامع، وما يتحرك لنا نسيم ولالسرح الهواء في رعي منابت الأنوار مسيم، فما رأينا ليلة مثلها في ركودها وركونها، وهدوها وهدونها.

قال ابن القادسي: وحكم أصحاب النجوم أن في الثامن والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة تقترن الكواكب السيارة الخمسة، والشمس والقمر في برج الميزان، ويؤثر ذلك هواء عظيا وغيا سموميا، وفي يوم الثلاثاء التاسع والعشرين تهلك البلاد، وتحمل الرمل ونسبوا ذلك إلى الخوارزمي، وقالوا: يكون أشد ذلك من ليلة الثلاثاء إلى نصف ليلة الأربعاء، فاستعد لذلك أقوام في البلاد، وجمعوا الكعك وحفروا ليلة الأربعاء، فأهل رجب وماجرى مما قالوا شيء فخزي أهل التنجيم الذلك، ولم يهب في ذلك اليوم هواء البتة، وكان الزمان حارا واشتد الحرفي ذلك اليوم وبعده، ولم يظهر مما قالوا شيء، وعمل الشعراء في ذلك في ذلك اليوم وبعده، ولم يظهر مما قالوا شيء، وعمل الشعراء في ذلك

شعرا يزرون عليهم في حكمهم، منهم نجم الدين أبو الغنائم محمد بن على بن المعلم الهرثي، وفخر الدين عيسى بن مودود دزدار قلعة تكريت، وأبو الفتح سبط ابن التعاويذي. قال أبو الغنائم بن المعلم: ق\_\_\_\_ل أي الفض\_\_\_ل قـــول معترف مضيى جمادى وجياءنيا رجيب ومساجسرت زعسزعسا كها حكمسوا ولابدا كـوكـب لـه ذنـب أبـــدت أذى في قــرانها الشهـــب . يقضيعليهـامــنليــسيعلــممــا يقضى عليه هذا هر العجب فارم بتقويمك الفرات والاصد \_\_طرلاب خير من صفرة الخشب قددبانك ذب المنجمين وفي أي مقال قال والما كذب لاالمشتري سلم ولازحسل بـــــــاق وَلازهــــــــرة ولاقطـــــــب تسارك الله حصحص الحق وانجسا ب التهادي وزالست السريسب فليبط\_\_ل المدع\_ون م\_اوضع\_وا في كتبه م ولتخروق الكترب

قال عيسى بن مودود: مـــزق التقـــويــم والــزيــج فقـــد بــان الخفــاء إنهاالتقــويــموالــز يـــج هــواء وهبــاء

ــــــيزان يستــــولي الهواء يمتلي منـــــه الفضــــاء ....ف وكسالطسود العسراء وحكمتمم فمسأبسي الحا كيم إلا مسايشاء مـــــاأتــــا جاءت بهذا الأنبياء \_\_\_\_ العلماء حسبكـــــم خــــزيـــــا وعـــــارا \_\_\_\_اتق\_\_\_ول الشعيراء ثـــم مــــاأطمعكــم إلـــى الـــــ \_\_\_حكم إلا الأم\_\_\_\_راء ــــدين ظنـــا ومـــاأســـاءوا فعلى اصطــــرلاب بطـــــــ ــــــليموس والــــزيـــج العفــــاء وعليــــــــهالخزيمـــــا جــــادت على الأرض الساء

ولم يذكر شعر سبط ابن التعاويذي

قال: وفي السابع والعشرين من شوال توفي محمد أبو عبد الله بن بري ابن عبد الجبار النحوي، وكان آية في النحو ثقة عالما صالحا، مبلدا في أمر دنياه حدث عن ابن الخطاب، ومرشد بن صادق وغيرهما.

قال العهاد: وفي هذه السنة جاء نعي أتابك محمد بن أتابك إيلدكز المعروف بالبهلوان، وهو الذي كان نزل على خلاط في العام الماضي، وكانت حياته متصلة الجد والجدى، واضطربت من بعده تلك المهالك، واختربت أصفهان وإلى اليوم من سنة أربع وتسعين ماوضعت الحرب أوزارها، وتولى بعده أخوه قزل أرسلان، فأزال مهابة الملك السلجوقي، وسلك نهج السعيد الشقي، إلى أن ذهب،فاتضع الملك، وانقطع السلك، واتسع الهلك، وطمعت خراسان في العراق، وعدمت الإفاقة من الآفاق، وأظلمت مطالع الإشراق.

قال:واشتغل السلطان في بقية سنة اثنتين وثهانين بدمشق بالصيد والقنص والانتهاز فيه لبوادر الفرص، وكان يركب إلى تل راهط للصيد بالبزاة والشواهين مع مماليكه الخواص المينامين، وله شاهين يجري كأنه بحر، إذ حلق فشرار، وإن أحرق فجمر، فكم صاد ليوسف يعقوبا، وعقر بإنجاز وعد صيده عرقوبا، فطلبته من السلطان، فقال: أنت للقلم والدواويين، فهالك والبزاة والشواهين؟ فقلت: يكون في ملكي وكل مايقنصه يأمر لي به المولى، وهذا أربح لي وأنفع وأولى، فقال: نعم، فلما أصبح سير لي سبع عشرة قطعة من طير وحجل، وقال: هذا صيد أصبح سير في طلق واحد على عجل، فملكت ذلك الشاهين خمس ست أسنين والسلطان يصطاد به ولي قنصه، وله مطلعه، فها زال لي على هذا الحق محافظا، ولهذه النكتة ملاحظا إلى أن أودى الجارح وانقطعت تلك المناقح، فيالله دره من سلطان لم ينس ذكر هذه القضية التي أعاد مزحها جدا، واعتده في حقامعدا، فدون حقه على مثله أن يؤسف، ومن حقنا بعده أن نتلوا (يا أسفى على يوسف) (٥٣).

قال: ولما دخل شهر رمضان نوع أقسام الإنعام، واتفق أن بعض التجار كانت بضاعته بقلير رفيعه، ومالها نفاق، وهي أكثر من مائة قطعة فحملها إلى الخزانة السلطانية في بضاعات، وقال: خدوها واكتبوالي بأثمانها في مصر على بعض الجهات، فاشتريت منه بها كان يرجوه من الربح، وكان من كرم شيم السلطان إذا عرف في خزانته موجودا، أنه لايستطيب تلك الليلة حتى يفرقه جودا، فقال لي: قد اجتمعت لنا بقلير وعمائم، وقد تقاضتني نفسي بخلعها على أهل الفضل والمكارم، فنبـدأ بأهل الدين والتقوى، ونُجعل لهم أوفر حظ من الجدوى، وكان في الوافدين ومن أهل البلد وعاظ وعلماء وحفاظ، فيكون كل يوم بكرة نوبة لمن يتكلم على المنبر، ويذكرنا بالحلال والحرام والبعث والمحشر، ثم يخلع عليهم وعلى القراء فاشتغل مدة اسبوعينُ بالمواعظ، ووضع المنبر في إيوان القلعة، فقلت: بقي إحضار الفقهاء في المدة الباقية من الشهر، فقال: إنهم يمضي بهم الخلاف إلى التشاجر والتضاغن، فقلَّت: أنَّا أضمنهم، ولا يحضر إلا أوقرهم وأرزنهم، فاستدل أول يوم برهان الدين مسعود مدرس الحنفية في المدرسة المعمورة النورية، واعترض عليه العماد الكاتب، وفي اليوم الثاني استدل أكبر مشايخ الحنفية بدر الدين عسكر واعترض عليه قاضي القضاة محيي الدين بن الزكي، فكان السلطان يجلس في كل يوم لطائفة، فلما دّنا العيد أصر بابتيّاع العمائم وغيرها وصرفها إليهم.

قال القاضي ابن شداد: وفي شهر ربيع الأول من سنة اثنتين وثهانين وقعت وقعت وقعات كثيرة بين التركهان والأكراد بأرض نصيبين وغيرها، وقتل من الفئتين خلق عظيم، وبلغ السلطان أن معين الدين قد عصى بالراوندان، فكتب إلى عسكر حلب أن حاصروه، وكان نزولهم عليه في العشر الأول من سنة اثنتين وثهانين، وأعطى برج الرصاص لتميرك في بقية ذلك الشهر، وفي ثاني جمادى الأولى وصل معين الدين من

الراوندان، وقد سلمها إلى علم الدين سليان، ثم مضى إلى خدمة السلطان.

قال ابن القادسي: وقدم الحاج في عاشر صفر، فأخبروا أن سيف الاسلام أخا صلاح الدين ملك مكة وضرب الدنانير فيها باسم أخيه، ومنع من قولهم حي على خير العمل، وشرط على العبيد أن لايؤذوا الحاج، وأخبر الحاج أن قفل باب الكعبة تعسر حتى فتح، ولما فتح مات في الدوسة أربعة وثلاثون شخصا من بين رجل وامرأة.

قال: ووصل الخبر أن ريحا هبت بالبصرة فكسرت نخيلا كثيرا، وماتت بهائم كثيرة، ووصل الخبر إلى بغداد بقتل البهلوان، وأن القتال وقع هناك، واحرقت المحال، ونهبت الأموال، واقتتل أهل المذاهب، واحترقت مدارس وبقي الأمر على ذلك من سابع محرم إلى ربيع الآخر، فاحصوا من القتلي أربعـة آلاف رجل وسبع عشرة امرأة بعـد أن احترق أطفال في المهود بالليل،وقام قزل أخو البهلوان، فكف الناس.وكان قزل قد رتب شحنة في إصفهان بعد الفتنة التي وقعت بها، ومعه ألف فارس، فما زال يهذب البلد والرساتيق بالقتل والصلب، وصادرهم وأشير على قرل بأن يلزم أهل البلد سبعين ألف دينار، فقال له الشحنة: أهل البلد فقراء، فقال بعيض المصالحة لقزل: مانأخذ إلا من الأغنياء، فوثب عيار فقتل المصلحي، وكان العيار متعلقا على قاضي البلد، فوكل الشحنة بدار القاضي، فجاء ابن الخجندي إلى دار القاضي فحسن لـ إحراج الموكلين به وتحالفا على إخراج الشحنة من البلد، وأن يقطعوا خطبة السلطان الذي نصب قزل، ففعل ذلك في سابع شوال، ثم كثر القتل في البلد فكل من في قلب على أحد شر وثب عليه فقتله من رجل أو امرأة، وكان القتل الكثير في أصحاب ابن الخجندي، وكان الحريق والنهب واحراق الدور في أصحاب القاضي، وجرى القتال يوم عرفة، ويـوم العيد ودام، وبطل الناس من المعايش، وخربت الأسواق ووقع الغلاء، ومات الناس

#### - 7837 -

من الجوع، وبقي أهل أصفهان على قدم الخوف، وأخذت ثياب الناس فلا يتجاسر أحد ان يلبس ثوبا جديدا، والعيارون يأخذون أموال الناس مقاواة، وهرب الناس من أصفهان.

#### فصل

قال العماد: مما قدره الله تعالى مـن أسباب نصرة الاسلام، ووهن الكفر أن قمص طرابلس رغب في مصافاة السلطان والالتجاء إليه والمساعدة له على أهل ملته بسبب أنه كان تزوج بالقمصية صاحبة طبرية، وكان أخوها الملك المجذوم لما هلك أوصى بالملك لابن أخته هذه وهو صغير فتزوج القمص أمه ورباه، فهات الصغير وانتقل الملك إلى أمه، ثـم أنها مدت عينها إلى بعض المقدمين من الغرب فتـزوجته وفوضت الملـك إليه فشرع يطلب حساب البلاد من القمص، (٣٦) فوقع الاختلاف بينهم لذلك فالتجأ القمص إلى ظل السلطان، فصار له من جملة الأتباع فقبله السلطان وقواه، وشد عضده بإطلاق من كيان في الأسر من أصحابه، فقويت مناصحته للمسلمين، حتى كاد لولا خوف أهل ملته يسلم، وصار بدولة السلطان وملكه يقسم، ومال إليه من الفرنج جماعة، وظهرت له منهم للطماعة طاعة، ودخلت إلى بلادهم من جانبه السرايا، وخرجت بالغنائم والسبايا، وأعطى الدنية في دينه بها استدناه من العطايا، فصار الفرنج يدفعون شره، ويحذرون مكره، فتارة يـدارونه، وآونة يهارونه، وللقمص قوم صدق يساعدونه في كل حق وباطل، فبلى منهم أهل الساحل بشغل شاغل، وهذا الملك المجذوم وهو ابن الملك أماري إبن فلك، وهو مري الذي تقدم ذكره، وتوفي أماري في آخر سنة تسع وستين سنة مات نور الدين رحمه الله تعالى، وخلف الملعون هذا الولد المجذوم، فبقى بينهم زهاء عشر سنين ملك مطاعا، فلما حضره الموت أوصى لابن أخته بالملك.

قال: وكان ابرنس الكرك أرناط أغدر الفرنجية وأخبثها، وأفحصها عن الردى والرداء، وأبحثها وأنقضها للمواثيق المحكمة والأيان المبرمة، وأنكثها وأحنثها، ومعه شرذمة لها شر ذمة، وهي من شر أمة، على طريق الحجاز، ومن نهج الحج على المجاز، وكنا في كل سنة نغزوه، وبالبوائق

نعروه، ويصيبه منا المكروه، فأظهر أنه على الهدنة، وجنح للسلم، وأخذ الأمان لبلده وأهله وقومه وروحه، وبقي الأمن له شاملا، والقفل من مصر في طريق بلده متواصلا، وهمويمكن الجائي والذاهب، حتى لاحت له فرصة في الغدر، فقطع الطريق وأخاف السبيل، ووقع في قافلة ثقيلة، معها نعم جليلة، فأخذها بأسرها، وكان معها جماعة من الأجناد، فأوقعهم في الشرك، وحملهم إلى الكرك، وأخذ خيلهم والعدة، وسامهم الشد والشدة، فأرسلنا إليه وذممنا فعاله، وقبحنا احتياله واغتياله، فأبى الالإصرار والإضرار، فنذر السلطان دمه ووفى في إراقة دمه بها التزمه، وذلك في السنة، وهو في الإستعداد للجهاد، وقد أرسل في طلب بدمشق بقية هذه السنة، وهو في الإستعداد للجهاد، وقد أرسل في طلب العساكر من البلاد المشرقية والمصرية، فانتظمت أموره على أحسن قضية.

ومن كتاب فاضلي إلى بعض أخوانه: « كتبت هذه المكاتبة من جسر الخشب ظاهر دمشق، وقد ورد السلطان أعز الله أنصاره للغزاة إلى بلاد الكفر في عسكر فيه عساكر، وفي جمع البادي فيه كأنه حاضر، وفي حشد يتجاوز أن يحصله الناظر إلى أن لا يحصله الخاطر، وقد نهضت به همة لا يرجى غير الله لإنهاضها ونجحت به عزمة الله المسؤول في حسم عوارض اعتراضها، وباع الله نفسا يستمتع أهل الاسلام بصفقتها، ويذهب الله الشرك بهيبتها، وأرجو أن يتمحص عن زبدة، وتستريح الأيدي بعدها عن المخض، وأن يكون الله قد بعث سفتجة نصرة الاسلام، وسلطانه قد نهض للقبض.»

### ثم دخلت

#### سنة ثلاث وثمانين

# وهي سنة كسرة حطين، وفتح الساحل والأرض المقدسة

#### للمسلمين

قال العهاد في كتاب البرق: وهي السنة الحسنة المحسنة، والزمان الله ي تقضت على إنتظار إحسانه الأزمنة، وطهر فيه المكان المقدس الذي سلمت لسلامته الأمكنة، وخلصت بمنحة الله من المحنة الأرض المقدسة الممتحنة، وكفى الله شر الشرك، وحكم على دماء الكفرة بالسفك، ونصرت الدولة الناصرية، وخذلت الملة النصرانية، وانتقم التوحيد من التثليث، وشاع في الدنيا بمحاسن الأيام الصلاحية حسن الأحاديث.

ثم ذكر في كتابي الفتح والبرق ماجملته أن قال: فبرز السلطان من دمشق يوم السبت أول المحرم في العسكر العرمرم، ومضى بأهل الجنة لجهاد أهل جهنم، فلما وصل إلى رأس الماء أمر ولده الملك الأفضل بالإقامة هناك يستدني إليه الأمراء الواصلين والأملاك، ويجمع الأعارب والأعاجم والأتراك، وسار السلطان إلى بصرى، وخيم على قصر السلامة، وأقام على إرتقاب إقتراب الحجاج، وكان فيهم حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين، ووالدته أخت السلطان مع جماعة من الخواص، وقد تقدم ذكر غدر ابرنس الكرك وهو على الكرك وأخاف أهله وأخذ ماكان حوله، ورعى زرعهم، وقطع أشجارهم وكرومهم، ثم سار إلى الشوبك وفعل به مثل ذلك، ووصل عسكر مصر فتلقاه بالقريتين، وفرقه على أعال القلعتين، وأقام على هذه الحالة في ذلك الجانب شهرين، والملك

الأفضل ولده مقيم برأس الماء في جمع عظيم من العظماء، وعنده الجحافل الحافلة والحواصل الحاصلة، والعساكر الكاسرة، والقساور القاسرة، وهـ وينتظر أمرا من أبيه، ويكتب إليه ويقتضيه، وانقضى من السنة شهران، وطال بهم انتظار السلطان، فأنهض منهم سرية سرية، وأمرها بالغارة على أعمال طبرية، ورتب على خيل الجزيرة ومن جاء من الشرق وديار بكر مظفر الدين كوكبري صاحب حران، وعلى عسكر حلب والبلاد الشامية بدر الدين دلدرم بن ياروق، وعلى عسكر دمشق وبلادها صارم الدين قايهاز النجمى، فساروا مدججين، وسروا مدلجين، وصبحوا صفورية، وساء صباح المنذرين، فخرج إليهم الفرنج في حشدهم فآتاهم الله النصر الهني، والظفر السني، وشفوا منهم حنين الحنايا، وأدركوا فيهم منى المنايا، وفازوا وظفروا، وقتلوا وأسروا، وهلك مقدم الإسبتار، وحصل جماعة من فرسانهم في قبضة الأسار، وأفلت مقدم الداوية وله حصاص، ووقع الباقون ولم يكن لهم من الهلاك خلاص، وعادوا سالمين سالبين غانمين غالبين، فكانت هذه باكورة البركات، ومقدمة مابعدها من ميامن الحركات، وجاءتنا البشري، ونحن في نواحي الكرك والشنوبك، فسار السلطان ووصل السير بالسرى، وخيم بعشترا، والقدر يقول له تعيش وترى، وقد غصت بخيل الله الوهاد والذرى، وامتد العسكر فراسخ عرضا وطولا، وملأ بالملأ حزونا وسهولا، ومارأيت عسكرا أبرك منه ولآأكبر، ولاأكرث للكفر ولا أكثر، وكان يـوم عرضه مذكرا بيوم العرض، وما شاهده إلا من تلا: (ولله جنود السموات والأرض )(٣٧).

وعرض العسكر في اثني عشر ألف مدجج في ليل العجاج مدلج، ولما تم العرض، حسم الفرض، وسالت بأفلاك السماء والأرض، وتعين الجهاد، وتبين الاجتهاد، ثم رتب السلطان للعسكر أطلابا، وحزبه أحزابا، وسار يوم الجمعة سابع عشر ربيع الآخر عازما على دخول الساحل، فأناخ ليلة السبت على خسفين، ثم سار في الأردن إلى ثغر

الأقحوانة، وأقام هناك خمسة أيام، وقد عين مواقف الأمراء وشعارهم، وأحاط ببحيرة طبرية بحره المحيط، وضاق ببسائط خيامه ذلك البسيط، ولما سمع الفرنج باجتماع كلمة الاسلام عليهم، وسير ذلك الجيش إليهم، علموا أنه جاءهم مالا عهد لهم بمثله، وإن الإيمان كله قد برز إلى الشرك كله، فاجتمعوا واصطلحوا وحشدوا وجمعوا، وانتخوا و دخل القمص معهم بعد أن دخل عليه الملك، ورمى بنفسه عليه، وصفوا راياتهم بصفورية، ولووا الألوية، وحشدوا الفارس والراجل والرامح والنابل، ورفعوا صليب الصلبوت، فاجتمع إليه عباد الطاغوت، وضلال الناسوت واللاهوت، ونادوا في نوادي أهل أقاليم أهل الأقانيم، وصلبوا للصليب الأعظم بالتعظيم، وماعصاهم من له عصا، وخرجوا عن العدد والإحصا، وكانوا عدد الحصى، وصاروا في زهاء خمسين ألف أويزيدون، ويكيدون مايكيدون، قد توافوا على صعيد، ووافوا من قريب وبعيد، وهم هناك مقيمون لايريمون، والسلطان في كل صباح يسير إليهم ويشرف عليهم ويراميهم، وينكي فيهم، ويتعرض لهم ليتعرضوا لـه ويردوا عن رقابهم سيوفه، وعن شعابهم سيوله، فربضوا ومانبضوا، وقعدوا ومانهضوا، فلو برزوا للمصاف لطالت عليهم يد الانتصاف، فلما رأى السلطان أنهم لايبرحون، ومن قرب صفورية لاينزحون أمر أمراءه أن يقيموا في مقابلتهم، ويديموا على عزم مقاتلتهم، ونزل هو في خواصه العسسية على مدينة طبرية، وعلم أنهم إذا علموا بنزوله عليها بادروا للوصول إليها، فحينتذ يتمكن من قتالهم، ويجهد في استئصالهم، ثم أحضر الجاندارية والنقابين والخراسانية والحجارين، وأطاف بسورها، وشرع في تخريب معمـورهـا، وأخـذ النقابـون في النقـب في بـرج فهـدوه وهدموه، وتسلقوا فيه وتسلموه، ودخل الليل، وصباح الفتح مسفر، وليل الويل على العدو معتكر، وامتنعت القلعة بمن فيها من القمصية وبنيها، ولما سمع القمص بفتح طبرية وأخذ بلده سقط في يده، وخرج عن جلد جلده، وسمح للفرنج بسبده ولبده، وقال لهم: لاقعود بعد اليوم ولابد لنا

من لقاء القوم، وإذا أخذت طبرية أخذت البلاد، وذهبت الطراف والتلاد، ومابقي لي صبر، ومابعد هذا الكسر لي جبر

وكان الملك قد خلفه، ووافقه فها نافقه، ورحل بجمعه وأتباعه وشياطينه وأشياعه فهادت الأرض بحركته ، وغامت السهاء من غيرته، ووصل الخبر بأن الفرنج ركبوا ووثبوا ففرح السلطان وقال: جاءنا مانريد، ونحن أولو بأس شديد، وإذا صحت كسرتهم فطبرية وجميع الساحل مادونه مانع، ولاعن فتحه وازع، واستخار الله تعالى وسار، وعدم القرار، وذلك يوم الخميس ثالث عشري ربيع الآخر، والفرنج سائرون إلى طبرية بقضهم وقضيضهم، وهم كالجبال آلسائرة، والبحار الزاخرة، أمواجها ملتطمة وأفواجها مزدحة، فرتب السلطان في مقابلتهم أطلابه، وحصل بعسكره قدامهم، وحجز بينهم وبين الماء، واليوم قيظ وللقوم غيظ، وحجز الليل بين الفريقين، وحجرت الخيل على الطريقين، وهيئت دركات النيران، وهنئت درجات الجنان وانتطر مالك واستبشر رضوان، فهي (ليلة القدر .خير من ألف شهر. تنزل الملائكة والروح فيها)(٣٨) وفي سحرها نشر الظفر يفوح، وفي صباحها الفتوح، فما أبهجنا بتلك اللَّيلة الفاخرة، فقد كنا بمن قال الله تعالى فيهم (فأتاهم الله ثواب ألدنيا وحسن ثواب الآخرة)(٣٩) وبتنا والجنة معروضة، والسنة مفروضة، والكوثر واقفة سقاته والخلد قاطفة جناته، والسلسبيل واضح سبيله، والإقبال ظاهر قبيله، والظهور قائم دليله، والله ناصر الاسلام ومديله، وسهر السلطان تلك الليلة حتى عين الجاليشية من كل طلب، وملا جعابها وكنائنها بالنبال، وكان مافرقه من النشاب أربعائة حمل، ووقف سبعين جمازة في حومة الوغى يأخذ منها من خلت جعابه، وفرغ نشابه، حتى إذا أسفر الصباح خرج الجاليشية تحرق بنيران النصال أهل الناره ورنت القسى وغنت الأوتار، إذ ذاك، واليوم ذاك، والجيش شاك، وللقيظ عليهم فيض، وماللغيظ منهم غيض، وقد وقد الحر، واستشرى الشر، ووقع الكر والفر، والسراب طافح، والظماء لافح، والجو محرق، والجوى مقلق،

ولاؤلئك الكلاب من اللهب لهث، وبالعيث عبث، في ظنهم انهم يريدون الماء فاستقبلتهم جهنم بشرارها، واستظهرت عليهم الظهيرة بنارها، وذلك في يوم الجمعة بجموع أهلها المجتمعة ووراء عسكرنا بحيرة طبرية، والورد عد، ومامنه بعد، وقد قطعت على الفرنج طريق الورود، وبلوا من العطش بالنار ذات الوقود، فوقفوا صابرين مصابرين مكابرين مضابرين، فكلبوا على ضراوتهم، وشربوا مافي أداوتهم، وشفهوا ماحولهم من موارد المصانع، واستنزفوا حتى ماء المدامع، وأشرفوا على المصير إلى المصارع، ودخل الليل وسكن السيل، وباتوا حياري، ومن العطش سكارى، وهم على شغف البحيرة بحيرة، وقووا أنفسهم على الشدة، واستعدوا بالعزائم المحتدة، وقالوا: غدا نصب عليهم ماء المواضى، ونقاضيهم إلى القواضي، فأجدوا عزم البلاء، وطلبوا البقاء بالتورط في الفناء، وأما عساكرنا فإنها اجترأت، ومن كل مايعوقها برئت، فهذا لسنانه شاحد، وهذا لعنانه آخذ، وهذا سهم مفوق، وهذا شهم موفق، وهذا مكثر للتكبير، ومنتظر للتبكير، وهذا ناج للسعادة، وهذا راج للشهادة فيالله تلك من ليلة حراسها الملائكة، ومن سحر أنفاسها ألطاف الله المتداركة، والسلطان رحمه الله قد وثق بنصر الله فهو يمضى نفسه على الصفوف، ويحضهم ويعدهم من الله بنصره المألوف، ويُغري المئين بالألوف، وهم بمشاهدته إياهم يجيدون ويجدون، ويصدون العدو و يردون.

وكان للسلطان مملوك اسمه منكورس حمل في أول الناس، وكان حصانه قوي الراس، فأبعد عن أخوانه، ولم يتابعه أحد من أقرانه، فانفرد به الفرنج فاثبث في مستنقع الموت رجله، وقاتل إلى أن بلغوا قتله، فلما أخذوا رأسه ظنوا أنه أحد أولاد السلطان، وانتقل الشهيد إلى جوار الرحمن، ولما شاهد المسلمون استشهاده وجلاه وجلاده، حميت حميتهم، وخلصت لله نيتهم، وأصبح الجيش على تعبيته، والنصر على تلبيته، وذلك يوم السبت الخامس والعشرين من ربيع الآخر، وهو يوم النصرة،

ووقوع الكسرة، وبرح بالفرنج العطش وأبت عشرتها أن تنتعش، وكان النسيم من أمامها والحشيش تحت أقدامها، فرمى بعض مطوعة المجاهدين النار في الحشيش، فتأجيج عليهم استعارها، وتوهيج أوارها فبلوا وهم أهل التثليث من نار الدنيا بشلائة أقسام: في الاصطلاء، . والاصطلام نار الضرام، ونار الأوام، ونار السهام، فرجا الفرنج فرجا، وطلب طلبهم المخرج مخرجا، فكلما خرجوا جرحوا وبرح بهم حر الحرب فها بسرحوا، وهم ظهاءى ومالهم ماء سوى ما بأيديهم من ماء الفرند، فشوتهم نار السهام وأشوتهم، وصممت عليهم قلوب القسى القاسية، وأصممتهم وأعجز وا وأزعجوا، وأحرجوا وأخرجوا، وكلما حملوا ردوا وأردوا، وكلم ساروا او شدوا أسروا وشدوا، وما دبت منهم نملة، ولاذبت عنهم حملة، واضطرموا واضطربوا، والتهفوا والتهبوا، وناشبهم النشاب، فعادت أسودهم قنافذ، وضايقتهم السهام فوسعت فيهم الخرق النافذ، فأووا إلى جبل حطين ليعصمهم من طوفان الدمار، فأحاطت بحطين بوارق البوار، ورشقتهم الظبي، وفرشتهم على الربي، ووسقتهم الحنايا، وقسرتهم المنايا، وقرشتهم البلايا، ورقشتهم الرزايا، ولما أحس القمص بالكسرة حسر عن ذراع الحسرة، وأقتال من العزيمة، واحتال في الهزيمة، وكان ذلك قبل اضطراب الجمع واضطرام الجمر، فخرج بطلبه يطلب الخروج، وأعوج إلى الوادي وماود أن يعوج، ومضى كومض البرق، ووسع خطا خرقه قبل اتساع الخرق، وأفلت في عدة معدودة، ولم يلتفت إلى ردة مردودة، وكان قال الصحابه: أنا أسبقكم بالحملة، وأفضلكم في الجملة، فاجتمع هو ومؤازروه، وجماعة من المقدمين مظافروه، وصحبه صاحب صيدا وباليان بن بارزان، وتوامروا على أنهم يحملون، ويبلغون الطعان، فحمل القمص ومن معه على الجانب الذي فيه الملك المظفر تقي الدين وهو مؤيد من الله بالتوفيق والتمكين، ففتح لهم طريقا، ورمى من أتباعهم فريقا، فمضوا على رؤوسهم ونجوا بنفوسهم، ولما عرف الفرنج أن القمص أخذ بالعزيمة، ونفذ في الهزيمة، وهنوا وهانوا، ثم اشتدوا

ومالانوا، وثبتوا على ماكانوا واستقبلوا واستقتلوا واستحلموا وحملوا، ووقعنا عليهم وقوع النار في الحلفاء، وصببنا ماء الحديد للإطفاء، فزاد في الإذكاء، فحطوا خيامهم على غارب حطين، حين رأونا بهم عيطين، فأعجلناهم عن ضرب الخيام بضرب الهام، ثم استحر الحرب، واستمر الطعن والضرب، وأحيط بالفرنج من حواليهم، ودارت الدوائر عليهم، وترجوا خيرا فترجلوا عن الخيل وجرفهم السيف جرف السيل، وملك عليهم الصليب الأعظم، وذاك مصابهم الأعظم، ولما شاهدوا الصليب سليبا، ورقيب الردى قريبا، أيقنوا بالهلاك، وأثخنوا بالضرب الدراك، فها برحوا يؤسرون ويقتلون، ويخمدون ويخملون، وللوثوب يخفون، وبالجراح يثقلون، ومن مصارع القتل إلى معاصر الأسر ينقلون، ووصلنا إلى مقدمهم وملكهم وإبرنسهم، فتم أسر الملك وإبرنس الكرك وأخى الملك جفري، وأوك صاحب جبيل، وهنفري، وابن صاحب اسكندرونة، وصاحب مرقية، وأسر من نجا من القتل من الداوية ومقدمها، ومن الإسبتارية معظمها ومن البارونية من أخطأه البوار، فأصابه وساءه الأسار، وأسر الشيطان وجنوده، وملك الملك وكنوده، وجبر الاسلام بكسرهم، وقتلوا وأسروا بأسرهم، فمن شاهد القتلي قال: ماهناك أسير، ومن عاين الأسرى قال: ماهناك قتيل، ومذ استولى الفرنج على ساحل الشام ماشفي للمسلمين كيوم حطين غليل، فالله عز وجل سلط السلطان وأقدره على ماأعجز عنه الملوك وهداه من التوفيق لامتشال أمره، ومن إقامة فرضه للنهج المسلوك، ونظم له في حتوف أعدائه والفتوح لأوليائه السلوك، وخصه بهذا اليوم الأغر، والنصر الأبر، واليمن الأسر، والنجح الأدر، ولـو لم يكـن لـه إلا فضيلـة هـذا اليـوم لكـان متفـردا على الملـوك السالفة، فكيف ملوك العصر في السمو والسوم، غير أن هذه النوبة المباركة كانت للفتح القدسي مقدمه، ولمعاقد النصر وقواعده مبرمة محكمة.

ومن عجائب هذه الوقعة، وغرائب هذه الدفعة، أن فارسهم مادام - 26 -

فرسه سالمًا لم يذل للصرعة، فإنه من لبسه الزردي من قرنه إلى قدمه كان كأنه قطعة حديد، ودارك الضرب إليه غير مفيد، لكن فرسه إذا هلك، فرس وملك، فلم يغنم من خيلهم ودوابهم، وكانت ألوفا، ماهو سالم، وماترجل فارس إلا والطعن والرمي لمركوبه كالم، وغنمنا مالا يحصر من بيض مكنون، وزغف موضون، وبلاد وحصون، وسهول وحزون، وابتذلنا منهم لهذا الفتح كل إقليم مصون، وذلك سوى مااستبيح من مال مخزون، واستخرج من كنز مدفون، وصحت هذه الكسرة، وتمت هذه النصرة يوم السبت، وضربت ذلة أهل السبت على أهل الأحد، وكانوا أسودا فعادوا من النقد، فما أفلت من تلك الآلاف إلا آحاد، ومانجا من أولئك الأعداء إلا أعداد، وامتلا الملا بالأسري والقتلى، وانجلى الغبار عنهم بالنصر الذي تجلى، وقيدت الأسارى في الحبال، واجبة القلوب، وفرشت القتلي في الموهاد والجبال واجبة الجنوب، وحطت حطين تلك الجيف عن متنها، وطاب نشر النصر بنتنها، وعبرت بها فألفيتها محل الإعتبار، وشاهدت مافعل أهل الإقبال بأهل الإدبار، وعاينت أعيانهم خبرا من الأخبار، ورأيست الرؤوس طائرة، والنفوس بـاثرة، والعيون غائرة، والجسوم رسمتها السوافي، والرسوم درستها العوافي، وأشلاء المشلولين في الملتقى ملقاة بالعراء عراة ممزقة بالمازق، مفصلة المفاصل، مفرقة المرافق، مفلقة المفارق، محذوفة الرقاب، مقصوفة الأصلاب، مقطعة الهام، موزعة الأقدام مجدوعة الآناف، منزعة الأطراف، مفقوءة العيون، مبعوجة البطون، منصفة الأجساد، مقصفة الأعضاد، مقلصة الشفاه، مخلصة الجباه، سائلة الأحداق، مائلة الأعناق، عديمة الأرواح، هشيمة الأشباح، كالأحجار بين الأحجار عبرة لأولي الأبصار، ولمآ أبصرت خدودهم ملصقة بـالتراب، وقد قطعوا آرابـا تلوت قـول الله تعالى:﴿ ويقول الكـافرُ یالیتنی کنت ترابا)(۱۹۰۰)

فها أطيب نفحات الظفر من ذلك الخبث، وماألهب علمبات العذاب في تلك الجثث، وماأحسن عهارات القلوب بقبح ذلك الشعث، وما أجزأ

صلوات البشائر بوقوع ذلك الحدث، هذا حساب من قتل، فقد حصرت ألسنة الأمم عن حصره وعده، وأما من أسر فلم تكف أطناب الخيم لقيده وشده، ولقد رأيت في الحبل الواحد ثلاثين وأربعين يقودهم فارس، وفي بقعة واحدة مائة ومائتين يحميهم حارس، وهناك العتاة عناة، والعداة عدرة، وذوو الأسرة أسرى، وأولوا الأثرة عثرى، والقوامص قنائص، والفوارس فرائس، وغوالي الأرواح رخائص، ووجوه الداوية عوابس، والرؤوس تحت الأخامص، فكم أصيد صيد، وقائد قيد وقيد، وملك مملوك، وهر في الرق ومبطل في يد المحق.

ولم يؤسر الملك حتى أخذ صليب الصلبوت، وأهلك دونه الطاغوت، وهو الذي إذا انصب وأقيم ورفع سجد له كل نصراني وركع، وهم يزعمون أنه من الخشبة التي يزعمون أنه صلب عليها معبودهم، وقد غلفوه بالذهب الأحمر، وكللوه بالدر والجوهر، وأعدوه ليوم الروع المشهود، ولموسم عيدهم الموعود، فإذا أخرجته القسوس، وحملته الرؤوس تبادروا إليه، وانثالوا عليه، ولايسع أحدهم عنه التخلف، وللمتخلف عن أتباعه في نفسه التصرف، وأخده عندهم أعظم من أسر الملك، وهو أشد مصاب لهم في ذلك المعترك، فإن الصليب السليب ماله عوض، ولالهم في سواه غرض، والتألـه له عليهم مفترض، فهو إلههم، تعفر لـه جباههم، وتسبح له أفواههم، يتغاشون عند إحضاره، ويتعاشون الإبصاره، ويتلاشون الإظهاره، ويتغاضون إذا شاهدوه، ويتواجدون إذا وجدوه، ويبذلون دونه المهج، ويطلبون به الفرج، بل صاغوا على مثله صلبانا يعبدونها، ويخشعون لها في بيوتهم، ويشهدونها، فلما أخمذ هذا الصليب عظم مصابهم، ووهت أصلابهم، وكان الجمع المكسور عظيها، والموقف المنصور كريها، فكأنهم لما عرفوا إخراج هذا الصليب لم يتخلف أحد عن يومهم العصيب، فهلكوا قتلا وأسرا، وملكوا قهرا وقسرا.

ولما صبح الكسر، وقضي الأمر، وتمكن النصر، وسكن البحر، ضرب

السلطان في تلك الحومة دهليز السرادق، وتوافت إليه حماة الحقائق، ونزل السلطان وصلى للشكر وسجد، وجدد الإستبشار بها وجد، وأحضر عنده من الأسارى الملك والبرنس وأجلس الملك بجنبه.

وقال في كتاب الفتح: وجلس السلطان لعرض أكابر الأسارى، وهم يتهادون في القيود تهادي السكارى، فقـدم بدايـة مقدم الـداوية، وعـدة كثيرة منهم ومن الإسبتارية، وأحضر الملك كي وأخوه جفري، وأوك صاحب جبيل وهنفري والإبرنس أرناط صاحب الكرك، وهو أول من وقع في الشرك، وكان السلطان نذر دمه، وقال لأعجلن عند وجدانه عدمه، فلم حضر بين يديه أجلسه إلى جنب الملك والملك بجنبه، وقرعه على غدره، وذكره بذنبه، وقال له: كم تحلف وتحنث، وتعهد وتنكث، وتبرم الميثاق وتنقض، وتقبل على الوفاق ثم تعرض؟! فقال الترجمان عنه: إنه يقول: قد جرت بذلك عادة الملوك، وماسلكت غير السنن المسلوك، وكان الملك يلهث ظمأ، ويميل من سكرة الرعب منتشيا، فآنسه السلطان وحاوره، وفثأ سورة الوجل الذي ساوره، وسكن رعبه وأمن قلبه، وأمر له بهاء مثلوج فشربه، وأطفأ به لهبه، ثم ناول اللك الإبرنس القدح فاستشفه وبرد به لهفه، فقال السلطان للملُّك: لم تأخذ في سقيه منى إذنا، فلا يوجب ذلك له منى أمنا، ثم ركب وخلاهما وبنار الوهل أصلاهما، ولم ينزل إلى أن ضرب سرادقه، وركزت أعلامه وبيارقه، وعادت إلى الحمى عن الحومة فيالقه، فلما دخل سرادقه استحضر الإبرنس فقام إليه وتلقاه بالسيف فحل عاتقه، وحين صرع أمر برأسه فقطع، وجر برجله قدام الملك حتى أخـرِج، فارتاع الملك وآنزعج، فعرف السلطان أنه خامره الفزع، وساوره الهلع، وسامره الجزع، فأستدعاه واستدناه، وأمنه وطمنه، ومكنه من قربه وسكنه، وقال له: ذاك رداءته أردته، وغدرت كما تراه غادرته، وقد هلك بغيه وبغيه، ثم جمع الأسارى المعروفين، وسلمهم إلى والي قلعة دمشق الناصح الغيدي، فقال لهم: انتم تحت قيدي، وسلمهم الى أصحابه فتسلمتهم الأيدي، وأمرهم أن يأخذوا خط الصفي بن القابض في دمشق بوصولهم، ويحتاط عليهم في أغلالهم وكبولهم، فتفرق العسكر بمن ضمته أيدي السبي أيدي سبأ، وهادتهم الوهاد والربى.

قال: ولما أصبح السلطان يوم الأحد استقام على الجدد وحيم على طبرية، وراسل القمصية وأخرجها من حصنها بالأمان، ووفي لها وللفرسان بنيها بشروط الأيمان، فخرجت بمالها ورحالها ونسائها ورجالها، وسارت إلى طرابلس بلد زوجها القمص بهالها وحالها، وولى طبرية قايهاز النجمى، وكانت طبرية في عهد الفرنج تقاسم على نصف مغل البلاد من الصلت والبلقاء وجبل عوف والحيانية والسواد، وتناصف الجولان، ومُايقربها إلى بلد حوران، فخلصت المناصفات، وصفت الصفات وأمنت الآفات، هـذا والسلطان نـازل ظاهـر طبرية، وقـد طب البريـة، وعسكره قد طبق البرية، فلم أصبح يوم الإثنين بعد الفتح بيومين طلب الأسارى من الداوية والإسبتارية، وقال: أنا أطهر الأرض من هذين الجنسين النجسين، فما جرت عادتهما بالمفاداة، ولايقلعان عن المعاداة، ولايخدمان في الأسر، وهما أخبث أهل الكفـر، فتقدم بـإحضار كــل أسير داوي واسبتاري ليمضي فيه حكم السيف، ورأى البقيا عليه عين الحيف، ثم علم أن كل من عنده أسير لايسمح به، وأنه يضن بعطبه، فجعل لكل من يأتيه بأسير منهما من الدنانير الحمر خمسين، فأتوه في الحال بمثين، فأمر بإعطابهم، وضرب رقابهم، ومحو حسابهم، وكان بحضرته جماعة من المتطوعة المتورعة، والمتصونة المتصوفة، والمتعممة المتصرفة، ومن تمت له المعرفة بالزهد والمعرفة، فسأل كل واحد في قتل واحد، وسل سيفه وحسر عن ساعد، والسلطان جالس، ووجهه باشر والكفر عابس، والعساكر صفوف، والأمراء في السماطين وقوف، فمنهم من فرى وبرى، فشكر ومنهم من أبى ونبا وعدر، ومنهم من يضحك منه، وينوب سواه عنه، وشاهدت هناك الضحوك القتال، ورأيت منه القوال الفعال، فكم وعدا أنجزه، وحمداً أحرزه، وأجراً استدامه بدم أجراه، وبرا عنق إليه بعنق براه وسير ملك الفرنج وأخاه وهنفري وصاحب جبيل ومقدم الداوية وجميع أكابرهم المأسورين إلى دمشق ليودعهم السجون، وتستبدل حركاتهم بالسكون، وتفرقت العساكر بها حوت أيديهم من السبى وسبق بهم إلى البلاد الناس ولم يقع على عددهم القياس، فكتب إلى الصفي بن القابض نائبه بدمشق أن يضرب عنق من يجده من الداوية والإسبتارية، فامتثل الأمر في إرهاقهم، وضرب أعناقهم، فها قتل إلا من عرض عليه الاسلام فأبى أن يسلم، وما أسلم أعناقهم، فها قتل إلا من عرض عليه الاسلام فأبى أن يسلم، وما أسلم إلا آحاد حسن إسلامهم، وتأكد بالدين عزامهم.

قال العهاد: ومازلت أبحث عن سبب نذر السلطان إراقة دم الإبرنس، حتى حدثني الأمير العزيز عبد العزيز بن شداد بن تميم بن المعز بن باديس، وهو ذو البيت الكبير، والحسب الجليل، وكان جده صاحب إفريقية والقبروان، وكانوا يتوارثون ملكه إلى قريب من هذا الزمان، ذكر أن الأجل الفاضل حدثه أن السلطان لما عاد إلى دمشق من حران بعد المرضة التي صاربها كل قلب عليه حران، وذلك في سنة اثنتين وثمانين، وهو من عقابيل سقمه لايفارق الأنين، فقلت له: مامعناه قد أيقظك الله وما يعيذك من هذا السوء سواه، فأنذر أنك إذا أبللت من هذا المرض، تقوم بكل مالله من المفترض، وأنك لاتقاتل من المسلمين أحدا أبدا، وتكون في جهاد أعداء الله مجتهدا، وأنك إذا نصرك الله في المعترك وظفرت بالقومص وإبرنس الكرك تتقرب إلى الله بإراقة دمهما، فما يتم وجود النصر إلا بعدمها، فأعطاه يده على هذا النذر، ونجاه الله ببركة هذا العدر من الذعر، وخلصه إخلاصه في مرضاة الله، فأبل من مرضته، واستقل بنهضته، واستقبل السنة القابلة بسنة الغزو وفريضته، ثم جـرى من مقــدمات الجهــاد ونتائجهــا ماجـرى، وخيم السلطــان في جمعً الاسلام بعشترا، وركب يوما في عسكره وعزم على نشر القساطل، وطي المراحل، ودخول الساحل والقذف بالحق على الباطل، فبدأ بلقاء الطلعة المباركة من الأجل الفاضل، فقال له ليكن نذرك على ذكرك، واستزد نعمة الله عنده بمزيد شكرك، ولاتحط غير قمع أهل الكفر بفكرك، فها أنقذك الله من تلك الورطة، وأنعشك من تلك السقطة، إلا ليوفر حظك من هذه الغبطة، فتوكيل على الله عازما، وجاز الأردن جازما، وأرعب جأش الكفر وكسر جيوشه، وثل عروشه، وقع في الشرك أبرنس الكرك فوفى بضرب عنقه نذره، وأما القومص فإنه أخذ في الملتقى بالهزيمة خذره، ولما وصل إلى طرابلس أخافه في منامه القدر، وفجأة في صفوه الكدر، وتسلمه مالك إلى سقر.

#### فصل

هذا الذي تقدم من وصف كسرة حطين، هو عين ماذكره عهاد الدين رحمه الله في كتابيه الفتح والبرق، اختصرته منهها، وهو مطول فيهها، وقد وقفت على كلام لغيره في ذلك فأحببت إيراده على وجهه لما فيه من شرح ماتقدم وتقويته، وربها اشتمل على زيادات من فوائد تتعلق بذلك لم يتعرض العهاد لها، أو: مخالفة لبعض ماذكره.

قال القاضي أبو المحاسن بن شداد: لما كان المحرم سننة ثلاث وثمانين عزم السلطان على قصد الكرك، فسير إلى حلب من يستحضر العسكر، وبرز من دمشق في منتصف المحرم، فسار حتى نزل بأرض الكرك منتظرا لإجتباع العساكر المصرية والشامية، وأمر العساكر المتواصلة إليه بشن الغارة على مافي طريقهم من البلاد الساحلية، ففعلوا ذلك، وأقام رحمه الله بأرض الكرك حتى وصل الحاج الشامي إلى الشام، وأمنوا غائلة العدو، ووصل قفل مصر، ومعه بنت الملك المظفر، وماكان لـ بالـ ديار المصرية، وتأخرت عنه العساكر الحلبية، بسبب اشتغالها بالفرنج بأرض انطاكية وبلاد ابن لاون، وذلك أنه كان قد مات ووصى لابن أخيه لاون بالملك، وكمان الملك المظفر بحياة، وبلغ الخبر السلطان فأمره بالـدخول إلى بـ العدو وإخماد نـ ائرته، فـ وصل تقـي الديـن حلب، ونـزل في دار العفيف بن زريق، وانتقل إلى دار طمان، وفي تاسع صفر خرج بعسكر حلب إلى حارم ليعلم العدو أن هذا الجانب ليس بمهمل، وعاد السلطان فوصل إلى السواد ونزل بعشترا سابع عشر ربيع الأول، ولقيه ولده الأفضل، ومظفر الدين، وجميع العساكر، وكان تقدم إلى الملك المظفر بمصالحة الجانب الحلبي من الفرنج ليتفرغ البال مع العدو في جانب واحد، فصالحهم وتوجه إلى حماة يطلب خدمة السلطان للغزاة، فسارت العساكر الشرقية في خدمته، وهم عسكر الموصل يقدمه مسعود ابن الزعفراني، وعسكر ماردين إلى أن أتوا عشترا، فلقيهم السلطان

وأكرمهم، ثم عرض السلطان العساكر منتصف ربيع الآخر على تـل يعرف بتل تسيل، ورتبهم واندفع قاصدا بلاد العدو في وسط نهار الجمعة، وكان أبداً يقصد بوقعاته الجمع لاسيها أوقات صلاة الجمعة، تبركا بدعاء الخطباء على المنابر، فربها كانت أقـرب إلى الإجابة، وبلغه أن الفرنج اجتمعوا في مرج صفورية بأرض عكا فقصد نحوهم للمصاف معهم، فسار ونزل على بحيرة طبرية عند قرية تسمى الصنبرة، ورحل من هناك ونزل غربي طبرية على سطح الجبل لتعبية الحرب منتظرا أن الفرنج إذا بلغهم ذلك قصدوه فلم يتحركوا من منزلهم، فنزل جريدة على طبرية وترك الأطلاب على حالما قبالة وجه العدو، ونازل طبرية وزحف عليها، فهجمها وأخذها في ساعة من نهار، وامتدت الأيدي إليها بالنهب والأسر والحريق والقتل، وامتنعت القلعة وحدها، فرحل الفرنج وقصدوا طبريـة للدفع عنهـا، فأخبرت الطلائع الاســـلامية الأمراء بحـركة الفرنج، فسيروا إلى السلطان من عرف ذلك، فترك على طبرية من يحفظ قلعتها، ولقى العسكر هو و من معه، فالتقى العسكران على سطح جبل طبرية الغربي منها، وحال الليل بين الفئتين، فباتتا على مصاف شاكيتين في السلاح إلى صبيحة الجمعة، فركب العسكران وتصادما، وذلك بأرض قرية تسمَّى اللوبيا، ولم تزل الحرب إلى أن حال بينهم الظلام، وجرى في ذلك اليوم من الوقائع العظيمة والأمور الجسيمة مالم يحك عن من تقدم، وبات كل فريق في سلاحه ينتظر خصمه في كل ساعة،وقد أقعده التعب عن النهوض، حتى كان صباح السبت الذي بورك فيه، فطلب كل من الفئتين مقامه، وعلمت كل طائفة أن المكسورة منهما مدحورة الجنس، معدومة النفس، وتحقق المسلمون أن من ورائهم الأردن، ومن بين أيديهم بلاد القوم ولاينجيهم إلا الله، وكان الله قد قدر نصر المسلمين فيسره، وأجراه على وفق ماقدره، فحملت الأطلاب الاسلامية من الجوانب، وحمل القلب وصاحوا صيحة الرجل الواحد، فألقى الله الرعب في قلوب الكافرين ( وكان حقا علينا نصر المؤمنين)(٤١)، وكان القمص ذكى القوم

وألمعهم، فرأى أمارات الخذلان قد نزلت بأهل دينه، ولم يشغله ظن مخاشنة جنسه عن يقينه، فهرب في أوائل الأمر قبل اشتداده، وأخذ طريقه نحو صور، وتبعه جماعة من المسلمين فنجا وحده، وأمن الاسلام كيده، واحتاط أهل الاسلام بأهل الكفر والطغيان من كل جانب، فانهزمت منهم طائفة فتبعها أبطال المسلمين فلم ينج منها واحد، واعتصمت الطائفة الأخرى بتل حطين، وهي قرية عنده، وعندها قبر النبي شعيب عليه السلام، فضايقهم المسلمون على التل، وأشعلوا حولهم النيران، وقتلهم العطش، وضاق بهم الأمر حتى كانوا يستسلمون للأسر خوفا من القتل، فأسر مقدومهم، وقتل الباقون وأسروا، وكان الواحد العظيم منهم يخلد إلى الأسر خوفا على نفسه.

ولقد حكى لي من أثق به أنه لقي بحوران شخصا واحدا ومعه طنب. خيمة فيه نيف وثلاثون أسيرا يجرهم وحده بخذلان وقع عليهم، وأما القمص الذي هرب فإنه وصل إلى طرابلس، وأصابه ذات الجنب فأهلكه الله بها، وأما مقـدمو الاسبتـارية والـداوية فـإن السلطان اختـار قتلهم، فقتلوا عن بكرة أبيهم، وأما البرنس أرناط، فكان السلطان قد نذر أنه إن ظفر به قتله، وذلك أنه كان عبر بـ بالشوبك قفل من الديار المصرية في حالة الصلح فنزلوا عنده بالأمان، فغدر بهم وقتلهم، فناشدوه الله والصلح الذي بينه وبين المسلمين، فقال: ما يتضمن الاستخفاف بالنبي صلى الله عليه وسلم، وقال: قولوا لمحمدكم يخلصكم، وبلغ ذلك السلطان فحمله الدين والحمية على أنه نذر إن ظفر بـ قتله، فلما فتـم الله عليه بالنصر والظفر جلس في دهليز الخيمة فإنها لم تكن نصبت، والناس يتقربون إليه بالأسارى، وبمن وجدوه من المقدمين، ونصبت الخيمة وجلس فرحا مسرورا شاكرا لما أنعم الله بـ عليه، ثم استحضر الملك كي وأخاه جفري والبرنس أرناط، وناول الملك شربة من جلاب بثليج فشرب منها، وكان على أشد حال من العطش، ثم ناول بعضها البرنس أرناط، فقال السلطان للترجمان: قل للملك أنت الذي تسقيه، وإلا أنا ماسقيته، وكان على جميل عادة العرب وكريم أخلاقهم أن الأسير إذا أكل أو شرب من ماء من أسره أمن، فقصد بذلك الجري على مكارم الأخلاق، ثم أمر بمسيرهم إلى موضع عين لنزولهم، فمضوا وأكلوا شيئا ثم عاد استحضرهم ولم يبق عنده أحد سوى بعض الخدم، فأقعد الملك في الدهليز واستحضر البرنس أرناط، وأوقفه على ماقال، وقال: ها أنا انتصر لمحمد صلى الله عليه وسلم، ثم عرض عليه الاسلام فلم يفعل، ثم سل النمجاة وضربه بها فحل كتفه، وتم عليه من حضر وعجل الله بروحه إلى النار، فأخذ ورمى على باب الخيمة، فلما رآه الملك قد أحرج على تلك الصورة لم يشك في أنه يثني به، فلما رآه الملك قد أحرج على تلك الصورة لم يشك في أنه يثني به، فاستحضره وطيب قلبه، وقال: لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك، وأما هذا فإنه جاوز حده فجرى ماجرى، وبات الناس في تلك الليلة على أتم سرور، وأكمل حبور، ترتفع أصواتهم بالحمد لله والشكر له والتكبير والتهليل، حتى طلع الصبح في يوم الأحد، فنزل رحمه الله على طبرية، والتهليل، حتى طلع الصبح في يوم الأحد، فنزل رحمه الله على طبرية، وتسلم في بقية ذلك اليوم قلعتها، وأقام بها إلى يوم الثلاثاء.

قلت: وذكر محمد بن القادسي في تاريخه أنه ورد في هذه السنة كتب إلى بغداد في وصف هذه الوقعة، منها كتاب من عبد الله بن أحمد المقدسي يقول فيه: «كتبت هذا الكتاب من عسقلان يوم الثلاثاء ثالث عشر جمادى الآخرة سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة وفيه : «ولو حمدنا الله عز وجل طول أعمارنا ماوفينا بعشر نعمته التي أنعم بها علينا من هذا الفتح العظيم، فإنا خرجنا إلى عسكر صلاح الدين، وتلاحق الأجناد حتى جاء الناس من الموصل وديار بكر وإربل، فجمع صلاح الدين الأمراء وقال: هذا اليوم الذي كنت أنتظره، وقد جمع الله لنا العساكر، وأنا رجل قد كبرت، ومأدري متى أجلي، فاغتنموا هذا اليوم وقاتلوا لله تعالى لامن كبرت، ومأدري متى أجلي، فاغتنموا هذا اليوم وقاتلوا لله تعالى لامن أجلي فاختلفوا في الجواب، وكان رأي أكثرهم لقاء الكفار، فعرض جنده ورتبهم وجعل تقي الدين في الميمنة ومظفر الدين في الميسرة، وكان هو في القلب، وجعل بقية العسكر في الجناحين، شم ساروا على مراتبهم

حتى نزلوا الأقحوانة، فتركوا بها أثقالهم، وساروا حتى نزلوا بكفر سبت فأقاموا يـومين ينتظرون أن يبرز لهم الكفار، وكان عسكـر الكفـار على صفورية، فلم يبرزوا فعاد صلاح الدين حتى نزل على طبرية، فتقدم فرسانه وحماته ورماته والنقابون فدخلوا تحت الحصن، فلما تمكن النقب منه انهال من غير وقود نار، ودخل المسلمون فانتهبوا يوم الخميس، وأصبحوا يوم الجمعة فشرعوا في نقب القلعة فلما كان وقت الصلاة جاء الخبر أن الكفار قد توجهوا إلينا، فارتحل صلاح الدين على صفوفه فلقيهم، ثم لم يزالوا يتقدمون حتى صار المسلمون محيطين بهم، وصار قلب المسلمين خلفهم، فتراموا ساعة، وبات كل فريق على مصافهم، ثم أصبحوا فسار الكفار يقصدون طبرية والمسلمون حولهم يلحون عليهم بالسرمي، فاقتلع المسلمون منه فوارس، وقتلوا خيالة ورجالة، فانحاز المشركون إلى تـل حطين فنزلوا عنده ونصبوا الخيام، وأقام الناس حولهم إلى أن انتصف النهار، وهبت الرياح فهجم المسلمون عليهم، فانهزموا لايلوون على شيء، ولم يفلت منهم إلا نحو من مائتين، وكانوا كما قيل اثنين وثلاثين ألفا، وقيل ثلاثة وعشرين ألفا، لم يتركسوا في بلادهم من يقدر على القتال إلا قليلا، وكان الذي أسر الملك هو درباس الكردي وغلام الأمير إبراهيم المهراني أسر الإبرنس، وقتل صلاح الدين الإبرنس بيده لأنه كان قد غدر، وأخذ قافلة من طريق مصر، ثم عاد صلاح الدين إلى طبرية فأخذ قلعتها بالأمان، ثم ضرب أعناق الأسارى الذين كانوا في العسكر، وأرسل إلى دمشق فضربت أعناق الذين بها منهم».

قال: وورد كتاب آخر فيه هذه الفتوح التي ماسمع بها قط،وهذه ذكر بعضها مختصرا مع أنه لايقدر أحد يصف ذلك لأن الأمر أكبر من ذلك اللذي يبشر به المسلمون: « إن مدينة طبرية فتحت بالسيف وأخذت قلعتها بالأمان، واجتمع عسكر الأفرنج جميعهم والتقوا بالمسلمين عند

قبر شعيب النبي صلى الله عليه وسلم، وقتل من الأفرنج ثلاثون ألفا، وكان عدد الأفرنج ثلاثة وستين ألفا بين فارس وراجل، وأسر منهم ثلاثون ألفا، وبلغ ثمن الأسير بدمشق ثلاثة دنانير، واستغنى عسكر الاسلام من الأسرى والأموال والغنائم، بحيث لايقدر أحد يصف ذلك، وماسلم من عسكر الفرنج سوى قمص اطرابلس مع أربعة نفر، وهو مجروح ثلاث جراحات، وأخذ جميع أمراء الفرنج، وكم قد سبي من النساء والأطفال يباع الرجل وزوجته وأولاده في المناداة بيعة واحدة، ولقد بيع بحضوري رجل وامرأته وخمسة أولاد ثلاث بنين وابنتان بثمانين دينارا، وأخد صليب الصلبوت فعلق على قنطارية منكسا، ودخل به القاضي ابن أبي عصرون إلى دمشق، وكل يوم يرى من رؤوس الفرنج مثل ابين أبي عصرون إلى دمشق، وكل يوم يرى من رؤوس الفرنج مثل البطيخ، وأخذ من البقر والغنم والخيل والبغال مالم يجيء من يشتريها من كثرة السبي والغنائم.

قال: وفي كتاب آخر: « وكان الفرنج خمسة وأربعين ألفا فلم يسلم منهم سوى ألف، وقتل الباقون واستأسروهم، وكذلك الملوك».

قلت: وبلغني أن بعض فقراء العسكر وقع بيده أسير، وكان محتاجا إلى نعل فباعه بها، فقيل له في ذلك فقال: أردت أن يذكر ذلك، ويقال بلغ من هوان أسرى الفرنج وكشرتهم أن بيع منهم واحد بنعل ولله الحمد، وماأحسن ماقال أبو الحسن ابن الذروي من قصيدة:

شرحت صلاح الدين بالسمر والظبى من المجدمعنى كان من قبل يغمض وماكداد جيسش الروم يبرم كيده إلى أن سرت منك المهابة تنقضض ميت ثغر و المسلمين فأصبحت ثغر و رابسأم و الحديد تمضمض

#### أسرت ملسوك الكفسس حتسى تسركتسه ومافيه عرق عسن قوى النفسس ينبض

وكان القاضي الفاضل غائبا عن هذه الكسرة بدمشق، فلما بلغته كتب الى السلطان: "ليهن المولى إن الله قد أقام به الدين القيم، وإنه كما قيل أصبحت مولاي ومولى كل مسلم، وإنه قد أسبغ عليه النعمتين: الباطنة والظاهرة، وأورثه الملكين: ملك الدنيا وملك الآخرة، كتب المملوك هذه الخدمة والرؤوس إلى الآن لم ترفع من سجودها، والدموع، لم تمسح من خدودها، وكلما فكر الخادم أن البيع تعود وهي مساجد، والمكان الذي كان يقال فيه إن الله ثالث ثلاثة يقال اليوم فيه: إنه الواحد، جدد لله شكرا تارة يفيض من لسانه، وتارة يفيض من جفنه، وجزا يوسف خيرا عن إخراجه من سجنه، والمهاليك ينتظرون أمر المولى، فكل من أراد أن يدخل الحهام بدمشق قد عول على دخول حمام طبرية: "تلك المكارم لاقعبان من لبن وذلك السيف لاسيف المن أبن ذي يزن، وللألسنة بعد في هذا الفتح شرح طويل وقول جليل».

وللعماد رحمه الله قصائد يذكر فيها وقعة حطين، لم يلذكر منها شيئا هنا بل ذكر بعضها عند ذكر فتح نابلس، وبعضها عند فتح القدس، فنقلت إلى هذا المكان منها ما يتعلق به والباقى يذكر في مكانه قال:

يايوم حطين والأبطال عابسة وبالعجاجة وجه الشمس قدعبسا رأيت فيه عظيم الكفر محتقرا معفراخده والأنف قدتعس معفراخده والأنف قدتعس ياظهر سيف برى رأس البرنس فقد أصاب أعظم من بالشرك قدنجسا وغاص إذطار ذاك السرأس في دمه كانه ضفدع في الماء قد غطسا مازال يعطسس مرزكوما بغدرته والقتل تشميت من بالغدر قدعطسا عسرى ظبساه من الأغماد مهسرقة دمسامسن الشرك رد إهسابه وكسسا مدن سيفه في دمساء القدوم منغمسس من كل من لم يرزل في الكفر منغمسا أفناهم وتلهم والأسر فانتكسوا وبيت كفر من خبثهم كنسا

وقال أيضا يخاطب صلاح الدين رحمه الله:

سحبت على الأردن ردنا مسن القنا ردينية ملدا وخطية ملسا حططـــت على حطين قـــدر ملـــوكهـــم ولم تبــق مـن أجناس كفرهـم جنسا ونعمم مجال الخيمل حطين لم تكسن معاركهاللجارد ضرسا ولادهسا أساودتبغي من نحور العدانهسا أتوا شكيس الأخيلاق خشنا فلينت حي ــدودالرقاق الخشن أخلاقها الشكسا طـــردتهم في الملتقـــي وعكستهـــم مجيدا بحكم العرزم طردك والعكسا فكيف مكست المشركين رؤوسهم ودأبك في الإحسان أن تطلق المكسا كسرتهم إذ صـــح عــــزمـــك فيهـــم ونكستهـــم إذ صـــارسهمهــــم نكســـا بـــواقعــة رحــت بها الأرض جيشهـــم دمـــاراكمابســتجبــالهمبســا

بط ون ذئاب الأرض صارت قب وره م ولم تــــرض أرض ان تكـــون لهم رمسـا وطسارت على نسار المواضي فسسراشهسم صلالا فرادت من خودهمم قبسا وقد دخشع تأصروات أبط الهافها يعي السمع إلامن صليل الظبي همسا تقسادبسدأمساءالسيدمساءملسوكهسم أسارى كسفن اليم نطت بها القلسا ايـــابــلدالله عمـــوءة ما وقددشر يست بخسا وقدع رضت نخسا يط\_\_اف باالأس\_واق لاراغ\_بلا لكثرتها كسم كثرة تروجب الوكسا شكايبسارأس البرنسس السذي بسه تندى حسام حاسم ذلك اليبسا حسادميه مساض الغسرار لغسدره وماكسان لسولاغسدره دمه يحسي فلله المائه دى دافتكت به وأطهر سيف امعد مارجسه النجسا نسفىت بسه رأس البرنسس بضربسة فأشبه رأسي رأسه العهن والبرسا تبـــوغ فــــيأوداجـــــهدم بغيــــه فصال عليه السيف يلحسه لحسا بعثست أمسام أمسة النسار نحسوهسا أمامهم أرناطها ذلك الجبسا ولله نــــــص النصر جـــــاء لنصلــــه فللقونساأبقي السرأس ولاقنسا حكيى عنق السداوي صل بضربة طسريسر الشباعسودابمضرابسه حسا أيسوم وغسى تسدعسوه أم يسوم نسائل وأنت وهبت الغانمين به الخمسا

وقددطاب رياناعلى طبريسة فياطيبهارياوياحسنهام

وللشهاب فتيان الشاغوري من قصيدة سيأتي بعضها في مدح صلاح الدين رحمه الله:

جا شتجيوش الشرك يدوم لقيتهم

أوردتأطـــرافالـــرمــاحصـــدورهـــم فــــولغـــن في علــــقالنجيـــع الأجمر

فهناكلم يسرغيرنجم مقبل فأأشر عفسريست رجيسم مسدبسر

فمننالندي مسن جيشهسم لم يخترم

ومنن السذي من جمعهم لم يسوسر حتى لقديعت عقائل أرهقت

بالسبي بالثمن الأخسس الأحقر

سقت الماليك الكرام ملوكهم

وعجم تعسود صليبهم فكسرتسه

وسيواك ألفياه صليب المكسر

أغلس الأداهسم من أسسرت وأرخصت

بيسض الصوارم مننهاب العسكر

وجعل تشرق الأرض يحسد غربها

بكفه وداع دع و المستنصر

لايع دمنك المسلم ون فكرم يدا

أوليته معروفه المتنكر

آمنست سربهم وصنست حسريمهسم

ودرأت عنه مقاصات الأظهر مــــاأن رآك الله إلا آمــــار

فيهــــم بمعـــروف ومنكــر منكــر

مت واضع الله جل جلاله

وباك اضمحلت سط وة المتكبر

لم يخل سمع من هناء مهنى والمسلمين ومباع مبشر
واستعظم الأخبار عنائه معاشر
فاستصغروا ما استعظم وابالمخبر مضت الملسوك ولم تنال عشر الدي

وقال أبو الحسن على بن الساعاتي في فتح طبريه:

جلت عزماتك الفتح المبينا فقدد قرت عيرن المؤمنينا وهانبك الصليب وكان قدما يعــــزعلى العـــوالي أن يهونـــا يقاتل كالخيمات كرياء وأنت تقاتل الأعداء دينا غدت في وجنة الأيام خسالا وفي جيدالعدالعالميندا في\_\_الل\_\_ه كه مسرت قله وبــا ويالله كرماً بكت عيرونا ومـــاطبريــــة إلاهــــدي تسرفع عسن أكف السلامسينا وسل عنها الليالي والسنين فضضت ختامها قسراومن ذا يصدالليث أن يلج العرينا

لقــــد أنكحتهــا صـــم العـــوالي فكسان نتساجها الحرب السزبون هناك نسدى أهسل الأرض طسرا سيواك ومعقبل أعيساالقسروني قست حتى رأت كفروا فسلانت وغياية كسل قساسان يلينا قضيت فريضة الاسلام منها وصالدقست الأمساني والظنسونسا تهز معاطف القددس ابتهاجا وترضي عنك مكة والحجونا فلـــوأن الجهاديطيـــق نطقـــا لنادتك أدخل وها آمنينا جعلت صباح آهلهاظ لاما وأبسدلتك السزئير بهاأنينسا تخال هماة حــــوزتها نســــاء لموض ون الحديد مقنعين الموض فهل أمست رماحا أم غصونا يكاد النقع يلملها فلولا بـــروق القـــاضبـات لما دهينـــا فكمم حسازت قدود قناكمنها قددودا كسالقنا السونا ولينا كغيددندداك ابكراوعدونا ولما بـــاكـــرتها منسك نعمسي بنان تفضيح الغيث المتونا

أعددت بها الليالي وهمي بيسض وقد كانت باالأيام جسونا فليـــسبعـادممــرعـــى خصيبـــا أخرو سغب ولاماء معينا فسلاعسدم الشسآم وسساكنسوه ظبيى تشفي بهاالسداء السدفينسا سهاد جفرونها في كول فتصح سهاديمناح الغمض الجفون فسالم بالسواحل فهي صور فقلبب القسدس مسرور ولسولا سط اك لك ان مكتثب حزينا أدرت على الفررسج وقدد تسلاقست جموعهم عليك رحسى طحسونا ففي بيسان ذاق وامنك بوسا وفي صفّ دأت وك مصف دينا لقد د جداءتهم الأحداث جمعا كأن صروفها كانت كمينا وخسانهم السزمسان ولامسلام فلست بمبغ ض زمنا خرونا لقدد جسردت عسزمسا نساصريسا يحدث عـــن سنـاه طــور سنيـا فكنست كيسوسف الصديق حقسا لــههــوت الكــواكــب ســاجــدينــا لقد أتعبت من طلب المعسالي وحـــاول أن يســوس المسلمينـــا  قال ابن أبي طي: حدثني والدي عن أحد التجار قال: كنت بالموصل في سنة خمس وخمسين وخمسيائة، فزرت الشيخ عمر الملا. فدخل إليه رجل فقال: أيها الشيخ رأيت البارحة في العوم كأني بأرض غريبة لأعرفها، وكأنها مملوءة بالخنازير، وكأن رجلا في يده سيف، وهو يقتل الخنازير، والناس ينظرون إليه، فقلت لرجل: هذا عيسى بن مريم، هذا المهدي، قال: لا، فقلت: من هذا؟ قال: هذا يوسف مازادني على ذلك، قال: فتعجب الجهاعة من هذه الرؤيا، وقالوا: إنه سيقتل النصارى رجل يقال له يوسف، وحدست الجهاعة أنه يوسف بن عبد المؤمن صاحب الغرب، وكان المستنجد بالله قد ولي الخلافة تلك السنة فحدس بعض الجهاعة عليه، قال: وأنسيت أنا هذه الوقعة، فلها كانت سنة كسرة حطين ذكرتها، فكان يوسف الملك الناصر رحمه الله.

قال: وحدثني ظئر لي من نساء الحلبيين، كانت تداخل أخت السلطان الملك الناصر، قالت: كانت والدة السلطان تخبر أنها أتيت في نومها وفي حامل بالسلطان، فقيل لها: إن في بطنك سيف من سيوف الله تعالى.

#### فصل

### في فتح عكا وغيرها

وهي باللالف الممدودة، ويدل على ذلك أنه يقال في النسبة إليها عكاوي، وقد وجدت ذلك في شعر قديم، ومنهم من يقول عكة بالهاء ومثل ذلك حصن عرقة، وبعضهم يقول عرقا بالألف ونهر تورا، وبعضهم يقول: نهر توره بالهاء.

قال القاضي ابن شداد: ثم رحل السلطان طالبا عكا، وكان نزوله عليها يوم الأربعاء سلخ ربيع الآخر وقاتلها بكرة الخميس مستهل جمادى الأولى، فأخذها واستنقذ من كان فيها من الأسارى، وكانوا زهاء أربعة آلاف نفر، واستولى على مافيها من الأموال والذخائر، والبضائع والتجائر، فإنها كانت مظنة التجار.

وتفرقت العساكر في بلاد الساحل يأخذون الحصون والقلاع والأماكن المنيعة، فأخذوا نابلس وحيفا، وقيسارية وصفورية، والناصرة، وكان ذلك لخلو الرجال بالقتل والأسر.

قال العهاد: ورحل السلطان ظهر يوم الثلاثاء، والتوحيد ظاهر على التثليث، والطيب قد امتاز من الخبيث، ونزل بأرض لوبية عشية، وأعادها بأزهار بنوده، وأنوار جنوده، روضة موشية، ثم أصبح سائرا إلى عكا، فاشيا سره، بارا بأهل الدين بره، وكان أمير المدينة النبوية صلوات الله على ساكنها في موكبه، فكأن رسول الله صلى الله عليه وسلم سير إلى نصرته من يثري به من يثربه، وهذا الأمير عز الدين أبو فليته القاسم بن المهنا الحسني، قد وفد في تلك السنة أوان عود الحاج، وهو ذو شيبة تقد كالسراج، ومابرح مع السلطان مأثور المآثر ميمون الصحبة، مأمون

المحبة، مبارك الطلعة، مشاركا في الوقعة، فما تم فتح في تلك السنين إلا بحضوره، ولاأشرق مطلع من النصر إلا بنوره، فرأيته في ذلك اليوم للسلطان مسايرا، ورأيت السلطان له مشاورا محاورا، وأنا أسير معهما، وقد دنبوت منهما ليسمعاني وأسمعها، ولاحت أعلام عكا، وكأن بيارق الفرنج المركوزة عليها ألسنة من الخوف تتشكى، وكأن عـذبات النيران تصاعب لعذاب أهلها، وقد توافرت عساكر الاسلام إليها من وعرها وسهلها، ولما أشرفنا عليها مستظهرين أيقنا بفتحها مستبشرين، فما كان فيها من يحميها، فما صدقنا كيف نملكها ونحويها، وظهر على السور أهلها لأجل المانعة، والثبات على المدافعة، وخفقان ألويتها يشعر بقلوبها الخافقة، وأرواح جلدهم الزاهقة، ووقفنا نتأمل طلولها، ونؤمل حصولها، وخيم السلطان بقربها وراء التل، وانبثت عساكره في الوعر والسهل، وبتنا تلك الليلة وقد هزتنا الإطراب، نقول متى يجتمع الأصباح والأصمحاب، فما هجمدنا ولاغرارا، ولاوجدنا من الفرح قراراً، والسلطان جالس ونحن عنده، وهو يحض جنده، ويقدح معهم في اقتباس الأراء زنده، ومنا من يستنجز وعده، ومنا من يستميح رفده، ومنا من يواصله بالدعاء، ومنا من يشافهه بالهناء، وأصبح يوم الخميس فركب في خميسه، ووقف كالأسد في عريسه، ووقفنا بإزاء البلد صفوفا، وأطللنا على أطلاله وقوفا، فخرج أهل البلد يطلبون الأمان، ويبذلون الإذعان، فأمنهم وخيرهم بين المقمام والانتقمال، ووهب لهم عصمة الأنفس والأموال، وكان في ظنهم أنه يستبيح دماءهم، ويسبي ذريتهم ونساءهم، وأمهلهم أيامًا حتى ينتقل من يختبار النقلة، فباغتنموا تلك المهلة، وفتح الباب للخاصة، واستغنى بالدخول إلى البلد جماعة من ذوي الخصاصة، فإن القوم ماصدقوا من الخوف المزعج، والفرق المحرج، كيف يتركون دورهم بها فيها ويسلمون، وعندهم أنهم إذا نجو بأنفسهم أنهم يغنمون، فلما دخل الجند ركز كل واحد منهم على دار رمحه، وأسام فيها سرحه، فحصلوا على دور أخلاها أربابها، وأموال خلاها أصحابها، وكنا لأجل

الأمان نهابها، فطاب لأولئك نهابها، وجعل السلطان للفقيه عيسى الهكاري كل ماكان للداوية من منازل وضياع ومواضع ورباع، فأخذها بها فيها من غلال ومتاع، واستخرجوا الدفائن، وولجوا المخازن، وداروا الأماكن، وكذلك مماليك الملك الأفضل وأصحابه، وولاته ونوابه نبشوا المحارز، وفتشوا المراكز، واستباحوا الإهراء واجتاحوا الأشياء، وكان المسلطان قد فوض عكا وضياعها ومعاقلها وقلاعها إلى ولده الأكبر الملك الأفضل نور الدين على.

ثم ذكر العهاد أنواع مااستولوا عليه من الأموال، ثم قال: ومن جملة. ذلك أنهم احتاطوا بغير علمي على دار باسمي، فباعوا منها متاعا بسبعهائة دينار، وأخلوها مما كان فيهاآلات وأذخار، وقلدوني المنة في تحصيل تلك الدار، فإنها كانت من أنفس العقار، وسلموها إلى غلام صديق لي يصونها، ويقوم بحفظها والذب عنها، والدفاع دونها، فذكر أن الغلام انتفع من آلاتها بعد خلوها بها قيمته سبعون دينارا، وأن الأولين نقلوا منها من الذخر أوقارا.

قال: وإنها وصفت هذا ليعلم ماغنموه، والتهبوا على حيازته والتهموه، وتصرف الملك المظفر تقي الدين في دار السكر فأفنى قنودها، واستوعب موجودها، ونقل قدورها وأنقاضها، وحوى جواهرها وأعراضها.

وقال في كتاب الفتح وخلى سكان البلد دورهم، ومخزونهم ومدخولهم، وتركوها لمن أخذها، ونبذوا ماحوه لمن حواها ومانبذها، وافتقر من الفرنج أغنياء، واستغنى من أجنادنا فقراء، ولو ذخرت تلك الحواصل، وحصلت تلك الذخائر، وجمع لبيت المال ذلك المال المجموع الوافر، لكان عدة ليوم الشدائد، وعمدة لنجح المقاصد، فرتعت في خضرائها، بل في صفرائها وبيضائها سروح الأطهاع، وطال لمستحلبها ومستحيلها الأمتاع بذلك المتاع.

وقال في البرق: وقرىء على السلطان ليلة من كتاب الفتح ونحن بالقدس، يعني هذا المكان، وذلك سنة ثمان وثمانين، فقال السلطان: هذه رفيعة على ثلاثة، اثنان منهم في جوار الرحمة، والآخر باق في مقر العصمة، يعني بالاثنين، الفقيه عيسى، وتقي الدين، وبالآخر الباقي ولده نور الدين.

قال: ولعمري هو كها ذكره، لكن الأفضل ماحصل له ولخواصه بل لذوي اختصاصه واستخلاصه، وفتحوا البلد يوم الجمعة مستهل جمادى الأولى، فجئنا إلى كنيستها العظمى، فأزحنا عنها البؤسى بالنعمى، وحضر الأجل الفاضل فرتب بها المنبر، والقبلة وهي أول جمعة أقيمت بالساحل بعد يوم الفتح، وكان الخطيب والإمام فيها الفقيه جمال الدين عبد اللطيف بن الشيخ أبي النجيب السهروردي، وولاه السلطان مناصب الشريعة بعكا، تولى الخطابة والقضاء والحسبة والوقف.

ومن كتاب فاضلي إلى بغداد بعد فتح عكا يصف كسرة حطين: همبح الخادم طبرية فافتض عدرتها السيف، وهجم عليها هجوم الطيف، وتفرق أهلها بين الأسر والقتل وعاجلهم الأمر، فلم يقدوا على الحداع والختل، وجاء الملك ومن كان معه من كفاره، ولم يشعر أن ليل الكفر قد آن وقت إسفاره، فأضرم الخادم عليها نارا ذات شرار، أذكرت بها أعد الله لهم في دار القرار، فترجل هو ومن معه عن صهوات الجياد، وتسنموا هضبة رجاء أن تنجيهم من حر السيوف الحداد، ونصبوا للملك خيمة حمراء، وضعوا على الشرك عهدها، وتولت الرجال حفظ أطنابها، فكانوا أوتادها، فأخذ الملك أسيرا (وكان يوما على الكافرين عسيرا) (٢٤) وأسر الإبرنس لعنه الله فحصد بذره، وقتله الخادم بيده ووفى بذلك نذره، وأسر جماعة من مقدمي دولته وكبراء ضلالته، وكانت القتلى تزيد على أربعين ألفا، ولم يبق أحد من الديوية، فلله هو من يوم تصاحب فيه الذئب والنسر، وتداول فيه القتل والأسر، أصدر الخادم هذه الخدمة من

ثغر عكا والاسلام قد اتسع مجاله، وتصرف أنصاره ورجاله والكفر قد ثبت أوجاله، ودنت آجاله».

#### فصل

# في فتح نابلس وجملة من البلاد الساحلية بعد فتح عكا و طبرية وذكر بعض كتب البشائر الشاهدة لذلك

قال العهاد: وأقام السلطان أياما بعد فتح عكا على التل مخيها، وعلى سائر بلاد الساحل مصمها، وكان قد كتب إلى أخيه العادل بمصر بها فتحه الله عليه، فوصل بعسكره وفتح في طريقه حصن مجدل يابا، ومدينة يافا عنوة، فقصده من عسكرنا القصاد، ووفد إليه الوفاد، وأمره السلطان بأن يقيم في ذلك الجانب، جامعا للكتائب ليجتمع به الواصلون من مصر الآملون معه بالنصر.

قال: وتوجه عدة من الأمراء والعسكرية إلى الناصرة وقيسارية، والبلاد المجاورة لعكا وطبرية، ومضى كل فريق في صوب، وآبوا بالغنيمة والسبى خير أوب.

قال: فأما الفولة فهي قلعة للداوية حصينة، وفيها ذخائرهم وأموالهم، فلما خرج الداوية منها وقتلوا لم يبق فيها إلا اتباع وغلمان فسلموها وجميع ما يجاورها، كدبورية وجينين وزرعين والطور وزاد في كتاب الفتح: واللجون وبيسان والقيمون، وجميع مالعكا وطبرية من الولايات، والزيب ومعليا والبعنة وإسكندورنة ومنوات.

قال: وتوجه مظفر الدين كوكبري إلى الناصرة فاستباحها، وصفرت صفورية من سكانها، وتوجه بدر الدين دلدرم وغرس الدين قليج وجماعة من الأمراء إلى قيسارية فافتتحوها بالسيف، وتسلمت بعدها حيفا وأرسوف، واستولى على تلك الشموس والأقهار الكسوف والخسوف، وحيفا بين عكا وقيسارية على البحر.

قال: وأما نابلس فإن أهل ضياعها ومعظم أهلها، كانوا مسلمين، وفي سلك الرعية مع الفرنج منتظمين، وهم يجبون كل عام منهم قرارا، ولايغيرون لهم شرعاً ولاشعارا، فلما عرفوا كسرهم، وأنهم لايرجون جبرهم، خافوا من مساكنة المسلمين فتفرقوا، وكبسهم أهل الضياع في الدور والرباع، وغنموا ماوجدوه من الذخائر والمتاع، وأوقعوا بضعفائهم، وضايقوا الحصون على أقوياتهم، وطلبها من السلطان ابن أخته حسام اللدين عمر بن محمد بن لاجين، وهو عزيز عند خاله، ملي، بفضله وأفضاله، فأقطعه السلطان نابلس وأعمالها وضياعها، ونواحيها وقلاعها، فتوجه إليها بعسكره، فأول ما أناخ على سبسطية وفيها مشهد زكريا عليه السلام، وقد اتخذه الأقساء كنيسة منذ فارقه الاسلام، وهو متعبدهم المعظم، والمشهد المكرم، وقد حجبوه بالأستار، وحلوه بالفضة والنضار، وعينوا له مواسم الزوار، وقومته من الرهابين فيه مقيمة، ولايدؤذن في الزيارة إلا لمن معه هدية لها قيمة، فدخله وحوى مافيه، وأبقى مالايحسن أن يخلو من مثله المسجد، وفتح للمسلمين أبوابه، وأظهر للمصلين عرابه، ثم سار إلى نابلس ففتحها بالأمان، واستمال من سكانها من ضرب عليه الجزية بعد زمان، وأجراهم على مالهم من العمارة والبنيان ويقبت بيده الى آخر عهده، وعمرت بعدله ورفده.

قال العهاد: وأنشدته يوم فتح القدس قصيدة أولها:

استوحدش القلب مذغبت مفهاأنسا وأظلم اليوم ملابنت مفهاشمسا ماطبت نفسا ولااستحسنت بعدكم شيئانفسيا ولااستعدب نفسا قلبسي وصبري وغمضي والشباب وما الفتم من نشاطي كلمه خلسا

وكيسف يصبحح أويمسي محبكسم وشـــوقكــم يتــولاه صبـاح مسـا عسادت معساهسدكسم بسالجزع دارسسة وإن معهد كرم في القلب ما درسا وكنست أحسدس منكسم كسل داهيسة ومادهانا من الهجران ماحدسا لما هددت نار شوقي ضيف طيفكم قـــریتـــه بـالکـــری زار مقتبسـا ورمىت تىئانىسى دىسى وهبىت لىه إنسان عينسى أفسديسه فهاأنسا أناالخيال نحرولاف الخيال إذا مازارني كيف يلقى من بالتبسا لهفىسى على زمىن قضيت وطرب إذلم أكنن من صروف السدهسر محترسا عسسى يعسود شبسابي نساضرا ومتسى أرجونضارة عودللشباب عسا وسادن يفرس الأساد نساطره فديته شادنا للأسدمفترسا في العطف لين وفي أخسلاقه شهوس يالين عطفيه جنب خلقه الشوسيا

#### ومنها في المديح:

إن بان البسس مضينا الاجئين إلى الساسة من الحسام بن الاجين بنابلسا مضينا الحسام بن الاجين بنابلسا يميات أعداءه بأساونا الله علي من نجحه أيسا محسوج عثيره عشيره وقد محااليوم ليل النقع فا نطمسا

لازلىت مستويسا فوق الحصان وفي حصاداك منتكسا حصاط ومن عاداك منتكسا

وهي طويلة وقد تقدمت منها أبيات في وصف كسرة حطين، وسيأتي منها أيضا أبيات عند فتح القدس في مدح السلطان صلاح الدين رحمه الله.

ومن كتاب عن السلطان إلى سيف الاسلام أخيه: «كاتبنا أخانا العادل أن يدخل بالعساكر المصرية من ذلك الجانب، فلما بشر بكسر الفرنج وفتح عكا وطبرية، كان قد وصل إلى السواد، فحاز العريش، وزار الداروم، وأجفلت قدامه البلاد، ووصل إلى يافا ففتحها عنوة، ثم حصر مجدل يابا، فطلبت منه الأمان، وقد اشتمل الفتح على البلاد المعينة بعد وهي:

طبرية. عكا. الزيب، معليا. اسكندرونة. تبنين. هونين. الناصرة. الطور. صفورية. الفولة، جينين. زرعين. دبورية، عفربلا. بيسان. سبسطية، نابلس، اللجون. أريحا، سنجل، البيرة، يافا، أرسوف، قيسارية، حيفا، صرفند، صيدا. بيروت، قلعة أبي الحسن، جبيل، مجدل يابا، جبل الجليل، مجدل حباب، الداروم، غزة، عسقلان، تل الصافية، التل الأحمر، الأطرون، بيت جبريل، جبل الخليل، بيت لحم، لد، الرملة، قرتيا، القدس، صوبا، هرمز، سلع، عفرا، الشقيف.

قال: ولم يذكر ماتخللها من القرى والضياع والأبراج الحصينة الجارية مجرى الحصون والقلاع ولكل واحدة من هذه البلاد التي ذكرناها أعمال وقرى ومزارع وأماكن ومواضع قد جاسوا خلالها واستوعبوا ثمارها وغلالها.

قال العماد: وبما أنشأته من شرح الفتوح وكتبت به إلى الديوان

وبدأت بقوله تعالى: «(ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون)(٤٥) الحمد لله على ماأنجز من هذا الوعد، وعلى نصرته لهذا الدين الحنيف من قبل ومن بعد، وجعل بعد عسر يسرا، وقد أحدث الله بعد ذلك أمرا، وهون الأمر الندى ماكان الاسلام يستطيع عليه صبرا، وخوطب المدين بقوله: ( ولقد مننا عليك مرة أخرى)(٢٦) فالأولى في عصر النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة، والأخرى هذه التي عتق فيها من رق الكآبة، فهو قد أصبح حرا، ريان الكبد الحرا، والزمان كهيئته استندار، والحق ببهجته قند استنار، والكفر قد رد ماكان عنده من المتاع المستعار، فالحمد لله الذي أعاد الاسلام جديدا ثوبه، بعد أن كان جـذيذا حبله، مبيضا نصره، مخضرا نصله، متسعا فضله، مجتعما شمله، والخادم يشرح من نبأ هذا الفتح العظيم، والنصر الكريم، مايشرح صدور المؤمنين، ويمنح الحبور لكَّافة المسلمين، ويورد البشرى بها أنعم الله به من يوم الخميس الثالث والعشرين من شهر ربيع الآخر إلى يوم الخميس منسلخه ، وتلك سبع ليال وثمانية أيام حسوما، سخرها الله على الكفار فترى القوم فيها صرعًى كأنهم أعجاز نخل خاوية، وإذا رأيت ثم رأيت البلاد على عروشها خالية، ورأيتها إلى الاسلام ضاحكة، كما كانت من الكفر باكية، فيوم الخميس الأول فتحت طبرية، ويوم الجمعة والسبت نوزل الفرنج فكسروا الكسرة التي مالهم بعدها قائمة، وأخذ الله أعداءه بأيدي أولياته أخذ القرى وهي ظالمة، وفي يوم الخميس منسلخ الشهر فتحت عكما بالأمان، ورفعت بها أعلام الإيهان، وهي أم البلاد، وأخت إرم ذات العهاد، وقد أصدر هذه المطالعة وصليب الصلبوت مأسور، وقلب ملك الكفر الأسير بجيشه المكسور مكسور، والحديد الكافر الذي كان في يد الكفر يضرب وجه الاسلام، قد صار حديدا مسلما يعوق خطوات الكفر عن الإقدام، وأنصار الصليب وكباره، وكل من المعمودية عمدته والمدير داره قد أحاطت به يد القبضة، وغلق رهنه فلا تقبل فيه القناطير المقنطرة من الذهب والفضة، وطبرية قد رفعت أعلام الاسلام عليها، ونكصت من عكا ملة الكفر على عقبيها، وعمرت إلى أن شهدت يوم الاسلام وهو خير يوميها، وقد صارت البيع مساجد يعمرها من آمن بالله واليوم الآخر، وصارت المدابح مواقف لخطباء المنابر، والهتزت أرضها لموقف, المسلم فيها، وطالما ارتجت لموقف الكافر، فأما القتلى والأسرى فإنها تزيد على ثلاثين ألفا، وأما فرسان الداوية والاسبتارية فقد أمضى حكم الله فيهم وقطع بهم سوق نار الجحيم، ورحل الراحل منهم إلى الشقاء المقيم، وقتل الإبرنس كافر الكفار، ونشيدة النار، من يده في الاسلام كما كانت يد الكليم، والبلاد. والمعاقل التي فتحت هي طبرية. عكا. الناصرة. صفورية. قيساريه والملك المظفر تقي الدين ظفره الله مضايق لصور، وحصن تبنين، والأخ نابلس. حيفا. معليا. الفولة. الطور. الشقيف. وقلاع بين هذه كبيرة، والملك المظفر تقي الدين ظفره الله مضايق لصور، وحصن تبنين، والأخ العساكر لينزل في طريقه على غزة وعسقلان ويجهز مراكب الاسطول المنصورة إلى عكا، وما يتأخر النهوض إلى القدس، فهذا هو أوان فتحه، المنصورة إلى عكا، وما يتأخر النهوض إلى القدس، فهذا هو أوان فتحه، ولقد دام عليه ليل الضلال، وقد آن أن يسفر فيه المدى عن صبحه».

#### فصل

# في فتح تبنين وصيدا وبيروت وجبيل وغيرها ومجيء المركيس

#### إلى صور

قال العهاد: أرسل السلطان إلى تبنين ابن أخيه تقي الدين فضايقها، وكتب إلى السلطان أن يأتيه بنفسه فوصل إليها في ثلاث مراحل، ونزل عليها يوم الأحد الحادي عشر من جمادى الأولى، فراسلوا السلطان، وسألوا الأمان، واستمهلوا خسة أيام لينزلوا بأموالهم فأمهلوا، وبذلوا رهائن من مقدميهم، ووفوا بها بذلوا، وتقربوا بإطلاق الأسارى المسلمين، فخرج الأسارى مسرورين، فسر بهم السلطان وسر بهم، وأقرهم وقربهم، وكساهم وحباهم، وأتاهم بعد ردهم إلى مغانيهم غناهم، وهذا دأبه في كل بلد يفتحه، وملك يربحه، أنه يبدأ بالأسارى فيفك قيودها، ويعيد بعد عدمها وجودها، فخلص تلك السنة من الأسر أكثر من عشرين ألف أسير، ووقع في أسره من الكفار مائة ألف، ولما خلوا القلعة، وأخلوا البقعة سيرهم، ومعهم من العسكر المنصور من أوصلهم إلى صور، وتسلمها يوم الأحد الثامن عشر من جمادي الأولى، وكان شرط عليهم تسليم العدد والدواب والخزائن.

وقال القاضي ابن شداد: فتحها السلطان عنوة، وكان بها رجال أبطال، شديدون في دينهم، فاحتاجوا إلى معاناة شديدة، ونصر الله عليهم، وأسر من بقي بها بعد القتل، ثم رحل منها إلى مدينة صيدا، فنزل عليها، ومن الغد تسلمها وهو يوم الأربعاء الحادي و العشرون.

قال العهاد: سنحت له صيدا فتصدى لصيدها، وكانت همته في

قيدها، وبادرها اشفاقا من مكر العداة وكيدها، ووصلنا في يومين إلى صيدا إلى منهل فتحها صادين، وعن حمى الحق دونها لأهل الباطل صادين، ولما نزلنا من الوعر إلى السهل سهل ماتوعر، وصفا من الأمر ماظن أنه تكدر، فصرفنا الأعنة إلى صرفند، وهي مدينة لطيفة على الساحل، مورودة المناهل، ذات بساتين وأشجار ورياحين وأزهار، فأخذناها، وخيمنا على صيدا وقد جاءت رسل صاحبها بمفاتيحها، وطلعت الراية الصفراء على سورها وأقيمت بها الجمعة والجماعة، واستديمت مها بعد العصيان لله الطاعة.

ثم سار في يومه على سمت بيروت، فنزل عليها يوم الخميس، وضايقها وحاصرها ثمانية أيام، ثم طلبوا الأمان فأمنهم وتسلمها يوم الخميس التاسع والعشرين من جمادى الأولى.

ومرض العهاد فأملى كتاب صلح بيروت، ورجع إلى دمشق للمداواة، ثم وجد الشفاء، وعاد إلى السلطان يوم فتح القدس كها سيأتي.

قال: وسلمت بيروت بحضوري، فكان من سبب ابلالي سروري بفتحها وحبوري، وخرج منها ومن قلعتها الفرنج وامتلأ بهم إلى صور النهج، وعاد الاسلام الغريب فيها إلى وطنه، وتوطن الدين بها في مأمنه وسكن في مسكنه، وأما جبيل فإن صاحبها أوك كان في جملة من نقل إلى دمشق مع الملك الأسير، فضاق ذرعا بسجنه الذي تعجل له فيه عذاب السعير، فتحدث مع الصفي بن القابض في أمره، وباح إليه بسره، وقال: مالكم في أسري فائدة ولاغنيمة على فتح جبيل زائدة، وأنا أسلمها بشرط سلامتي، فخذوها ولاتفقدوني، فقد قامت قيامتي، فأنهى الصفي حاله، واستصوب ماقاله، فأمر باحضاره في قيده والإحتراز من كيده، فوصل به ونحن على بيروت فسلم جبيل وسلم وربح نجاته وغنم، ومضى إليها من تولاها، وانسل منها صاحبها وسلاها، وتبعها فتح بيروت وتلاها،

فانتظمت هذه البلاد المتناسقة بالساحل في سلك من الفتوح متسق، وأمر من الاستقامة متفق، وكان معظم أهل صيدا وبيروت وجبيل مسلمين، مساكين لمساكنة الفرنج مستسلمين، فذاقوا العزة بعد الذلة، وفاقوا الكثرة بعد القلة، وصدقت البشائر، وصدحت المنابر، وظهر عيب البيع، وشهر جمع الجمع، وقرىء القرآن، واستشاط الشيطان، وخرست النواقيس، وبطلت النواميس، ورفع المسلمون رؤوسهم، وعرفوا نفوسهم، وكان كل من استأمن من الكفار يمضي إلى صور محمي الذمار، فصارت صور عش غشهم، ووكر مكرهم، وملَّجاً طريدهم، ومنجا شريدهم، وهي التي فر القومص إليها يوم كسرتهم بل يوم حسرتهم، ولما عرف القومص قرب السلطان منها أخلاها وخلاها، وآوى إلى طرابلس وثواها فها متع بها ملك وكان كها قيل: « راح يبغي نجوة من هلاك فهلك»، وتعوضت صور عن القومص بالمركيس كما يتعوض عن الشيطان بإبليس، فأدرك ذماء الكفر بعدما أشفى، وأيقظ روع الروع بعدما أغفى، وضبط صور بمن فيها، من مهزومي الفرنج ومنفيها، وكان المركيس من أكبر طواغيت الكفر وأغول شياطينه، وأضرى سراحينه، وأخبث ذئابه، وانجس كلابه، وهو الطاغية الداهية، الذي خلقت له ولأمثاله الهاوية، ولم يكن وصل إلى الساحل قبل هذا العام، واتفق وصوله إلى مينا عكا وهو بفتحها جاهل، وعمن فيها من المسلمين ذاهل، فعزم على إرساء الشيني بالمينا،ثم تعجب وقال: مانري أحدا من أهليها يلتقينا، ورأى زي الناس غير الزي الذي يعرف، فارتاب وارتاع، وحدث عن الدخول توقفه، وبان تندمه، وتأخر تقدمه، وسأل عن الحال فأخبر بها ففكر في النجاة والهواء راكد، والقضاء عنه راقد، فإنه لو خرج إليه مركب لأخذه، ولو وقف له قاصد لـوقذه، فاحتـال كيف يخرج بسفينته، ولا يدخـل مع فقد سكينته، فسأله عن متولي البلد، وقال:خذوا لي منه أما نا حتى أدخل وأرفع ما معي من المتاع، وأنقل ما عندي من الثقل، فجيء إليه من الأفضل بالأمان، فقال: ما أثنق إلا بخط يده، ولاأنزل

إلا بعهده إلى بلده، وهو ينتظر هبوب الريح الموافقة، فها زال يردد الرسل، ويدبر الحيل، حتى وافقته الريح فأقلع وأفلت من الشرك بعدما وقع، وصار في صور فرم الأمور وجرأ الكفر بعد خوره، وبصر الشيطان بعدد عهاه وعوره، وأرسل رسله إلى الجزائر وذوي الجرائر يستعدي ويستذعي، ويستودع ملة الصليب عباده ويسترعي، ويستشير ويستزير، ويستنفر ويستنصر، وثبت في صور ونبت، وجمع إليه من الفرنج من تشتت، ومافتح بلد بالأمان إلا سار أهله في حفظ السلطان حتى يصيروا بصور ويأمنوا المحذور، فاجتمع إليها أهل البلاد المفتوحة بالقلوب المقفلة المغلوبة المقروحة، فامتلأت وكانت منحلة، وإنتاشت وكانت بالية، وتعللت وكانت معتلة، وتعقدت وكانت منحلة، وإنتاشت ما فأخر فتحها فاستجدت رمقا بالمهلة، وتصعبت بعد مقادتها السهلة، وألهى عن طلبها طلب ماهو أشرف وهو البيت المقدس، فإن فتحه من وألهى عن طلبها طلب ماهو أشرف وهو البيت المقدس، فإن فتحه من كل فتح أنفس والمركيس في أثناء ذلك يحفر الخندق ويحكمه ويعقد الموثق ويبرمه، ويجمع المتفرق وينظمه.

#### فصل

## فتح عسقلان وغزة والداروم وغيرها

قال العهاد: لما فرغ السلطان من فتح بيروت وجبيـل ثني عنانــه عائدا على صيدا وصرفند، وجاء إلى صور ناظرا إليها، وعابرا عليها غير مكترث بأمرها، ولامتحدث في حصرها، ودلته الفراسة على أن محاولتها تصعب، ومزاولتها تتعب، وليس بالساحل بلد منها أحصن، فعطف الأعنة إلى ماهـ و منها أهـون، وكان قـد استحضر ملك الفرنج ومقـدم الداويـة في قيودهما، وشرط معهما واستوثق منهما أنه يطلقهما من الأسر والبلية، متى تمكن بإعانتهما من البلاد البقية، وعبر والعيون صور إلى صور، وماشك المركيس أنه محصور محسور، فلما أرخي من وثاقه، واتسع ضيق خناقه، حلق في مطار أوطاره، وحرك لغواته أوتار أوتاره، واجتمع السلطان بأخيه العادل واتفقا على طي المراحل، ونشر القساطل، فنزل على عسقلان يوم الأحد سادس عشر جمادي الآخرة، وشديدها قد لان، فتجلد من بها على الحصار وتربصوا وتصبروا، فنصب السلطان عليها مجانيق ورماهم بها، وجسر النقاب فحسر النقاب، وباشر الباشورة، فرفع الحجاب، واشتد القتال واحتد المصال، وراسلهم عند ذلك الملك المأسور وقال: قد بان عذركم حين نقب السور، وجرت حالات، وتكررت حوالات، وترددت رسالات، وقال لهم الملك الأسير: لاتخالفوا مابه أشير، واحفظوا رأسي فهو رأس مالكم، ولاتخطروا غيري ببالكم فإني إذا تخلصت خلصت، وإذا استنقذت استنقذت، وخرج مقدمون وشاوروا الملك، ونهجوا في التسليم نهجه الذي سلك، وسلموا عسقلان على خروجهم بأموالهم سالمين، واستوفوا بذلك الميشاق واليمين، وذلك يوم السبت لانسلاخ جمادى الآخرة، وخرجوا بنسائهم وأموالهم، وبمن استشهد على عسقلان من الأمراء الأكابر حسام الدين ابراهيم بن حسين المهراني، وهو أول أمير افتتح بالشهادة واختتم بالسعادة، وكان السلطان قد أخذ في طريقه إليها الرملة، وتبنين، وبيت لحم، والخليل، وأقام بها حتى تسلم حصون الداوية: غزة والنطرون، وبيت جبريل، وكان قد استصحب معه مقدم الداوية، وشرط معه أنه متى سلم معاقلهم أطلقه، فسلم هذه المواضع الوثيقة، كما أخذ مواثيقه.

كذا قال العهاد في كتاب الفتح، وقال في كتاب البرق: ومابرح السلطان مقيها بظاهر عسقلان حتى تسلم المعاقل المجاورة لها، والبلاد المتخللة فيها بينها، فذكر الداروم، وغزة والرملة وتبنين، وبيت لحم ومشهد الخليل عليه السلام، ولد، وبيت جبريل، والنطرون.

قال ابن شداد: لما فرغ بال السلطان من هذا الجانب يعني ناحية بيروت رأى قصد عسقلان، ولم ير الإشتغال بصور بعد أن نزل عليها ومارسها، لأن العسكر كان قد تفرق في الساحل، وذهب كل انسان يأخذ لنفسه شيئا، وكانوا قد ضرسوا من القتال، ومن ملازمة الحرب والنزال، وكان قد اجتمع في صور — يسر الله فتحها كل فرنجي بقي في الساحل فرأى قصد عسقلان لأن أمرها كان أيسر، وتسلم في طريقه مواضع كثيرة: كالرملة، وتبنين، والداروم. فأقام عليها المنجنيقات وقاتلها قتالا شديدا، وتسلمها سلخ جمادى الآخرة، وأقام عليها إلى أن تسلم أصحابه غزة، وبيت جبريل، والنطرون بغير قتال.

قال: وكان بين فتح عسقلان وأخما الفرنج لها من المسلمين خمس وثلاثون سنة، فإن العدو ملكها في السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وخمسمائة.

وذكر ابن القادسي نسخة كتاب كتبه السلطان إلى بعض أهله وفيه: « انتقلنا إلى الجانب الـذي فيه القدس، وعسقـلان ففتحنا قـلاعه كلهـا وحصونه جميعها ومعاقله بجملتها ومدنه بأسرها وهي: حيفا، وقيسارية، وأرسوف، ويافا، والرملة، ولد، وتل الصافية، وبيت جبريل، والدير، والخليل، ونازلنا عسقلان، وهي المعقل المنيع، والحصن الحصين، والتل الرفيع، وفيهم من القوة والعدة والعدد ماتتقاصر الآمال عن نيل مثله، فافتتحناها سلم لتهام أربعة عشر يوما من يوم نزولنا عليها، ونصبت أعلام التوحيد على أبراجها وأسوارها، وعمرت بالمسلمين، وخلت من مشركيها وكفارها، وكبر المؤذنون في أقطارها، ولم يبق في الساحل من جبيل إلى أوائل حدود مصر سوى القدس، وصور، والعزم مصمم على قصد القدس، فالله يسهله ويعجله، فإذا يسر الله تعالى فتح القدس ملنا إلى صور، والسلام».

وفي كتاب آخر تقدم ذكر بعضه قال: « وقد تفرق العسكر، وتوجه قوم إلى القدس وابن زين الدين وتقي الدين نازلان على صور، وفتحت هونين بالسيف وتبنين، بالسيف واسكندرونه بالسيف».

وفي كتاب آخر: « ونزلوا على صور وكاتبهم ملك بيت المقدس يطلب الأمان، فقال له صلاح الدين: أنا أجيء إليكم، فقال له المنجمون: على نجمك أن تدخل بيت المقدس وتذهب عين واحدة منك، فقال: قد رضيت بأن أعمى وآخذ البلد».

قال: « ولم يمنعه من ذلك إلا فتح صور، وماهي شيء يقف عليه، وقد خطب لأمير المؤمنين الناصر لدين الله على ثلاثين منبرا من بلاد الفرنج».

قال العماد: وفوض السلطان القضاء والحكم والخطابة وجميع الأمور الدينية بمدينة عسقلان وأعمالها إلى جمال الدين أبي محمد عبد الله بن عمر الدمشقي، المعروف بقاضي اليمن.

قال: ووصل إلى السلطان من مصر ولده الملك العزيز عثمان، واجتمع - 64 - · المسوعة الشامية ٢٦ ج٠٠

به على عسقلان، فقرت عينه بولده، واعتضد بعضده، ووضع يده بتأييد الله في يده، وكان قد استدعى بالأساطيل المنصورة فوافت كالفتخ الكواسر بالفلك المواخر، وجاءت كأنها أمواج تلاطم أمواجا، وأفواج تزاحم أفواجا، تدب على البحر عقاديها، وتخب كقطع الليل سحائبها، لؤلؤ مقدمها ومقدامها، وضرغام غابها وهمامها، فطفق يكسر ويكسب، فيسل ويسلب، ويقطع الطريق على سفن العدو ومراكبه، ويقف له في جزائر البحر على مذاهبه، وسيأتي ذكر ذلك إن شاء الله تعالى.

#### فصل

# فتح البيت المقدس شرفه الله تعالى

قال القاضي ابن شداد: لما تسلم السلطان عسقلان والأماكن المحيطة بالقدس، شمر عن ساق الجد والاجتهاد في قصده، واجتمعت إليه العساكر التي كانت متفرقة في الساحل بعد قضاء لبانتها من النهب والغارة، فسار نحوه معتمداً على الله، مفوضا أمره إلى الله، منتهزا فرصة فتح باب الخير الذي حث على انتهازه إذا فتح بقوله عليه السلام: « من فتح له باب خير لينتهزه، فإنه لايعلم متى يغلق دونه» وكان نزوله عليه قدس الله روحه يوم الأحد الخامس عشر من رجب، فنزل بالجانب الغربي، وكان مشحونا بالمقاتلة من الخيالة والرجالة، ولقد تجاوز أهل الخبرة عدة من كان فيه المقاتلة بها يزيد على ستين ألفا ماعدا النساء والصبيان، ثم انتقل رحمه الله تعالى لمصلحة رآها إلى الجانب الشهالي.

وكان انتقاله يوم الجمعة العشرين من رجب، ونصب عليه المنجنيقات وضايقه بالزحف والقتال وكثرة الرماة حتى أخد النقب في السور مما يلي وادي جهنم في قرنة شهالية، ولما رأى أعداء الله مانزل بهم من الأمر الذي لايندفع، وظهرت لهم أمارات نصرة الحق على الباطل، وكان قد ألقى الله في قلوبهم مما جرى على أبطالهم ورجالهم من السبي والقتل والأسر وماجرى على حصونهم من الاستيلاء والأخذ، علموا أنهم إلى ماصاروا إليه صائرون، وبالسيف الذي قتل به أخوانهم يقتلون، فاستكانوا وأخلدوا إلى طلب الأمان، واستقرت القاعدة بالمراسلة بين الطائفتين، وكان تسلمه له يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب، وليلته كانت ليلة المعراج المنصوص عليها في القرآن المجيد، فانظر إلى هذا الاتفاق العجيب، كيف يسر الله عوده إلى أيدي المسلمين في مثل

زمان الأسراء بنبيهم صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، وهذه علامة قبول هذه الطاعة من الله تعالى.

قلت: هذا أحد الأقوال في ليلة المعراج، وفي ذلك اختلاف كثير ذكرناه في موضع غير هذا والله أعلم.

ثم قال القاضي: وكان فتوحا عظيها شهده من أهل العلم خلق عظيم، ومن أرباب الخرق والحرف، وذلك أن الناس لما بلغهم مامن الله به على يده من فتوح الساحل، شاع قصده للقدس، فقصده العلماء من مصر والشام بحيث لم يتخلف معروف عن الحضور، وارتفعت الأصوات بالضجيج والدعاء والتهليل والتكبير، وخطب فيه وصليت فيه الجمعة يوم فتحه، وحط الصليب الذي كان على قبة الصخرة، وكان شكلا عظيما، ونصر الله الاسلام نصر عزيز مقتدر، وكانت قاعدة الصلح أنهم قطعوا على أنفسهم عن كل رجل عشرة دنانير، وعن كل امرأة خسة دنانير، وعن كل صغير ذكر أو أنثى دينارا واحدا.

قلت: كذا قال، وسيأتي في كلام العهاد أن على كمل صغير ديناريس، وكذا قال: ان الجمعة صليت ببيت المقدس يوم فتحه، وسيأتي في كلام العهاد التصريح بأن يوم الفتح ضاق عمن ذلك، فصليت في يموم الجمعة الآتي.

ثم قبال القاضي: فمن أحضر القطيعية سلم بنفسه، وإلا أخذ أسيرا، وفرج الله عمن كان فيه من أسرى المسلمين، وكانبوا خلقا عظيها زهاء ثلاثة آلاف نفس، وأقام عليه رحمه الله يجمع الأموال ويفرقها على الأمراء والعلماء ويوصل من دفع قطيعته منهم إلى مأمنه وهو صور.

قال: ولقد بلغني أنه رحمه الله رحل عنه ولم يبق معه من ذلك المال

#### - AOTY -

شيء، وكان مائتي ألف دينار وعشرين ألف، وكان رحيله عنه يوم الجمعة الخامس والعشرين من شعبان سنة ثلاث وثمانين، كما سيأتي.

#### فصل

هذا الذي ذكره القاضي في أمر فتح بيت المقدس مختصرا مجموعاً، وقد بسطه العماد فقال: رحل السلطان من عسقلان للقدس طالبا، وبالعزم غالبا، وللنصر مصاحبا ولذيل العز ساحبا، والاسلام يخطب من القدس عروساً، ويبذل لها في المهر نفوساً، ويحمل إليها نعمى ليحمل عنها بوسى، ويهدي بشرى ليذهب عبوساً، ويسمع صرخة الصخرة المستدعية المستعدية لإعدائها على أعدائها، وإجابة دعائها، وتلبية ندائها، واطلاع زهر المصابيح في سمائها، وإعادة الايمان الغريب منها إلى وطنه، وردّه إلى سكونه وسكنه، وإقصاء أعداء الدين أقصاهم الله تعالى بلعنته من الأقصى، وجذب قياد فتحه الذي استعصى، واسكات الناقوس منه بانطاق الأذان، وكف كف الكفرعنه بأيهان الإيهان، وتطهيره من أنجاس تلك الاجناس، وأدناس أدنى الناس، وطار الخبر إلى القدس فطارت قلوب من به رَعبا واطاشت، وخفقت أفتدتهم خوفاً من جيش الاسلام وجاشت، وتمنت الفرنج لما شاعت الأخبار أنها ماعاشت، وكمان به من مقدّمي الفرنج باليان بن بارزان، وهو وملكهم في التسلط شيئان بارزان، والبطرك الأعظم وهو الثاني العظيم الشان، واللذين أعظمتهم حياطة حطين به من الفرسان الداوية والاسبتاربة و البارونية من ذوي الكفر والشنآن، وقد حشروا وحشدوا، ونشروا ونشدوا، وحميت حميتهم وأبت الضيم أبيتهم، وحارت غيرتهم، وغارت حيرتهم، وتبلدوا وتلدّدوا، وقاموا وقعدوا، وصوبوا وصعدوا، فاشتغل بال باليان، واشتعل بالنيران، وخمدت نار بطر البطرك، وضاقت بالقوم منازلهم، فكانت كل دار منها شركا للمشرك، وقاموا للتدبير في مقام الإدبار، وتقسمت أفكار الكفار، وايس الفرنج من الفرج، وأجمعوا على بذل المهج، وقالوا: هاهنا نطرح الرؤوس، ونسلو النفوس، ونسفك الدماء، ونهلك الدهماء، ونصبر على اقتراح القروح، واجتراح الجروح، ونسمح بالأرواح شحا بمحل الروح، فهذه

الأماكن فيها قهامتنا، ومنها تقوم قيامتنا، وتصيح هامتنا، وتصح ندامتنا، وتسيح عـ الامتنا، وتسح غمامتنا وبها غرامنا، وعليها غـ رامتنا، وباكـ رامها كرامتنا، وبسلامتها سلامتنا، وباستقامتها استقامتنا، وفي استدامتها استدامتنا، وإذا تخلينا عنها لزمت لامتنا، ووجبت ملامتنا، ففيها المصلب والمطلب، والمذبح والمقرب، والمجمع والمعبد، والمهبط والمصعد، والمرقى والمرقب، والمشرب والملعب، والمحق والمذهب والمطلع والمقطع والمربى والمربع، والمرخم والمخرّم، والمحلل والمحرّم، والصور والاشكال، والانظار والأمثال، والأشباء والأشباح، والأعمدة والألواح، والأجساد والأرواح، وفيها صور الحواريين في حوارهم، والأحبار في أخبارهم والسراهبين في صوامعهم، والاقساء في مجامعهم، والسحرة وحبالها، والكهنة وخيالها، ومثال السيدة والسيد، والهيكل والمولد، والمائدة والحوت، والمنعوت والمنحوت والتلميذ والمعلم، والمهد والصبي المتكلم، وصورة الكبش والحمار، والجنة والنار والنواقيس والنواميس، قالوا: وفيها صلب المسيح، وقرب الذبيح، وتجسد اللاهوت، وتأله الناسوت، واستقام التركيب، وقام الصليب، ونزل النور، وزال الديجور، وازدوجت الطبيعة بالاقنوم، وامتزج الموجود بالمعدوم، وعمدت معمودية المعبود ومخضت البتول بالمولود، وأضافوا إلى متعبدهم من هذه الضلالات ماضلوا فيه بالشبه عن نهج الدلالات، وقالوا: دون مقبرة ربنا نموت، وعلى خوف فوتها منا نفوت، وعنها ندافع، وعليها نقارع، ومالنا لانقاتل، وكيف لاننازع ولاننازل، ولأي معنى نتركهم حتى يأخلوا وندعهم حتى يستخلصوا مااستخلصناً منهم ويستنقلوا، وتأهبوا وتناهوا، وماانتهوا بل تناهوا، ونصبوا المجانية على الأسوار، وستروا بظلمات الستائر وجوه الأنوار، واستشاطت شياطينهم، وسرحت سراحينهم، وطغت طواغيتهم، وأصلتت مصاليتهم، وهاج هائجهم، وماج مائجهم، وحضهم قسوسهم، وحرضتهم رؤوسهم، وحركتهم نفوسهم، وجاءتهم بنجوى السوء جواسيسهم، ونصبوا على كل نيق منجنيقا، وحفروا في الخندق حفراً عميقا، وشادوا في كل جانب ركنا وثيقا، وفرقوا على كل برج فريقا، وجعلوا إلى كل طارق بالردى للرّد طريقًا، وأعادوا كل نهج واسع بها وعروه وعورق به مضيقا، وتحمل كل منهم مالم يكن له من قبل مطيقا، وخرج جماعة منهم على سبيل الينزك فأدلجوا ليلا، واعترضوا عدّة من أصحابنا غارة، على طريق السلامة ماره، وكان قد شذ من المقدمة المنصورة أمير تقدم، وماتحرز، ولاتحزم، وماظن أن قدامه من له جراءة الإقدام، ومن يعتقد أن ربح كفره خسارة الاسلام، وهوالأمير جمال الدين شروين حسن الزرزاري، فوقعوا عليه في موضع يعرف بالقبيبات، فاستشهد رحمه الله، ولما بلغ السلطان خبره ساءه وغمّه ثم أقبل باقبال سلطانه وأبطال شجعانه، واقيال أولاده، وأخوانه، وأشبال مماليكه وغلمانه، وكرام أمرائه وعظام أوليائه، وأصبح يسأل عن الأقصى وطريقة الأدنى، وفريقه الأسنى، ويذكر مايفتح الله عليه بحسن فتحه من الحسنى، وقال إن أسعدنا الله على إخراج أعدائه من بيته المقدس فها أسعدنا، وأي يـد له عندنا إذا أيـدنا، وإنه مكث في أيـدي الكفر احدى وتسعين سنة، ولم يتقبل الله فيه من عابد حسنه، ودامت همم الملوك دونه متوسنة، وخلت القرون عنه متخليه، وخلت الفرنج به متوليه، فما ادخر الله فضيلة فتحه إلا لآل إيوب ليجمع الله لهم بالقبول القلوب، كيف لايهتم بفتح البيت الأقوى، والمسجد الأقصى المؤسس على التقوى، وهو مقام الأنبياء، وموقف الأولياء، ومعبد الأتقياء، ومزار أبدال الأرض، وملائكة السياء، ومنـه المحشر والمنشر، ويتوافد إليه مـن أولياء الله المعشر بعد المعشر، وفيه الصخرة التي صينت جدة ابهاجها من الانهاج، ومنهاج المعراج، لها القبة الشماء التي هي على رأسها كالتاج، وفيه ومض البارق، ومضى البراق، وأضاءت ليلمة الاسراء بحلول السراج المنير في الآفاق، ومن أبـوابه بـاب الرحمة، الذي يستـوجب داخله إلى آلجنـة بالـدخول إلى الخلود، وفيه كرسي سليمان ومحراب دواد، وفيه عين سلوان التي تمثل لواردها من الكوَّثر الحوض المورود، وهو أوَّل القبلتين، وثاني البيتين، وثالث الحرمين، وهو أحد المساجـد الثلاثة التي جاء في الخبر النبوي أنها تشد إليها الرحال وتعقد الرجاء بها الرجال، ولعل الله يعيده بنا إلى أحسن صوره، كما شرفه بذكره مع أشرف خلقه في أول سوره، فقال عز من قائل: (سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى)(٤٧) وله فضائل ومناقب لاتحصى، ومنه كان الاسراء، ولأرضه فتحت السماء، وعنه تؤثر أنباء الانبياء، وآلاء الأولياء، ومشاهد الشهداء، وكرامات الكرماء، وعلامات العلماء، وفيه مبارك المبار، ومسارح المسار، وصخرته الطولي، والقبلة الأولى، ومنها تعالت القدم النبوية، وتوالت البركة العلوية، وعندها صلى نبينا بالنبيين، وصحب الروح الأمين، وصعد منها إلى أعلى عليين، وفيه محراب مريم عليها السلام، الذي قال فيه: (كلم دخل عليها زكريا المحراب)(٤٨) ولنهاره التعبد، ولليله المحيا، وهو الذي أسسه داود وأوصى ببنائه سليمان، ولأجل إجلاله أنزل الله سبحانه « سبحان»، وهو الذي افتتحه الفاروق وافتتحت به سورة من الفرقان، فها أجله وأعظمه، وأشرفه وأفخمه، وأعلاه وأسناه وأكرمه، وأيمن بركاته، وأبرك ميامنه، وأحسن حالاته، وأحلى محاسنه، وأزين مباهجه، وأبهج مزاينه، وقد أظهر الله طوله وطوله بقوله: ( الذي بـاركنا حوله) وكم فيه من الآيات التي أراها الله نبيه، وجعل مسموعاتنا من فضائله مرويه، ووصف السلطان من حصائصه ومزاياه ماوثق على استعادة آلائه مواثيقه وألاياه، وأقسم لايبرح حتى يبر قسمه، ويرفع بأعلاه علمه، وتخطر إلى زيارة موضع القدم النبوية قدمه، وتصغي إلى صرخة الصخرة أذنه، وسار واثقا بكمال النصره.

### فصل

# في نزول السلطان على البيت المقدس وحصره وما كان من أمره

قال العماد: نزل السلطان على غربي القدس يوم الأحد خامس عشر رجب، وكان في القدس حينئذ من الفرنج ستون ألف مقاتل من فارس وراجل، وسائف ونابل، فاستهدف واللسهام، واستوقفوا للحمام، وقالوا كل واحد منا بعشرين، وكل عشرة بمئتين، ودون القامة تقوم القيامة، وبحب سلامتها تقلى السلامة، وأقام السلطان خمسة أيام يدور حول البلد، ويقسم على حصاره أهل الجلد، وأبصر في شماليه أرضاً رضيها للحصار، متسعة المجال للاسماع والابصار، وممكنة للدنو منه للنقب إن صار من حيز الانصار، فانتقل إلى المنزل الشمالي يوم الجمعة العشرين من شهر رجب، فما أصبح يوم السبت إلا على منجنيقات قد نصبت بلا نصب، فدام القتال والنزال، وفرسانهم في كل يوم يباشرون دون الباشورة، أمام جموعهم المحسورة المحشورة، ويبرزون ويبارزون، ويطاعنون ويحاجزون ، والمطيعون لله عليهم يحملون، ومن دمائهم ينهلون ويُنهلون كما قال الله تعالى فيهم (يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون) وعن استشهد مبارزا ولم يشهد بينه وبين الجنة حاجزا الامير عز الدين عيسى ابن مالك كان أبوه صاحب قلعة جعبر، فانه حاز لشهادته في المحشر المفخر وأكثر ورود الموت إلى أن ورد الكوثر، وكان في كل يـوم يفـرس فوارس، ويلقى ببشر وجهه وجوه المنون العوابس ، فاغتم المسلمون من صرعته، وهان عليهم اتلاف المهج بعد اتلاف مهجته، فركبوا أكتاف الرهج، حتى وصلوا إلى الخندق فخرقوه وبددوا جمعهم وفرقوه، والتصقوا بالسور فنقبوه وعلقوه وحشوه وأحرقوه، وصدقوا وعد الله في القتال لأعدائه وصدقوه ، ولما عضتهم الحرب، وقع السور واتسع النقب، فصعب عليهم الهين وهان لنا الصعب، وعقدوا مابينهم مشورة، وقعدوا

مابينهم ضرورة، وقالوا: مالنا إلاّ الإستثمان ، فقد أخمذ لنا بخطة الخذلان والحرمان، وأخرجوا كبراءهم ليؤخذ لهم الأمان، فأبي السلطان إلا قتالهم، وتدميرهم واستئصالهم ، وقال: لاآخذ القدس إلا كما أخذوه من المسلمين منذ احدى وتسعين سنة، فإنهم استباحوا القتل ولم يتركفوا طرفا يستزير سنة، فأنا أفني رجالهم قتلا، وأحوي نساءهم سبيا، فبرز ابن بارزان ليأمن من السلطان بموثقه ، وطلب الأمان لقومه، وتمنع السلطان وتسامى في سومه، وقال: لاأمن لكم ولاأمان، وماهوانا إلا أن نديم لكم الهوان، وغدا نملككم قسرا، ونوسعكم قتلاً وأسرا، ونسفك من الرجال الدماء، ونسلط على الذرية والنساء السباء، وأبى في تأمينهم إلا الإباء ، فتعرضوا للتضرع وخوّفوه عاقبة التسرع، وقالوا: إذا أيسنا من أمانكم وخفنا من سلطانكم، وخبنا من احسانكم، وأيقنا أنـه لانجاة ولانجاح، والاصلح ولا صلاح، والسلم والسلامه، ولا نعمة والكرامة، فانا نستقتل فنقاتل قتال الدم والندم، ونقابل الوجود بالعدم، ونلقى أنفسنا على النار، ولانلقي بأيدينا إلى التهلكة والعار، ولايجرح منا واحد حتى يجرح عشره، وإنا نحرق الدور، ونخرب القبه، ونترك عليكم في سبينا السبم، ونقلع الصخرة، ونوجدكم عليها الحسره، وقبة الصخرة نرميها، وعين سلوآن نعميها، والمصانع نخسفها ، والمطالع نكسفها، وعندنا من المسلمين خمسة آلاف أسير مابين غنى وفقير وكبير وصغير، فنبدأ بقتلهم، وشت شملهم، وأما الأموال فإنا نعطبها ولانعطيها، وإما الذراري فإنا نسارع إلى اعدامها ولانستبطيها، فلا يحصل لكم سبي، ولايقبل لكم سعي، ولايسلم عمر ولاعماره، ولانضار ولانضاره، ولانساء ولاصبيان، ولاجماد ولاحيوان، فأي فائدة لكم في هـذا الشح، وكل خسر لكم في هذا الربح، ورب خيبة جاءت من بعد رجاء النجح، ولايصلح السوء سوى الصلح، فشاور السلطان أصحابه فقيل له الصواب إن نحسبهم أسارانا فنبيعهم نفوسهم، ونعمم لصغار الجزية رؤوسهم، ويدخل في القطيعة مرؤوسهم ورئيسهم، واستقر الحال بعد مروادات ومعاودات ومفاوضات

وتفويضات وضراعات من القوم وشفاعات، على قطيعة تكمل بها الغبطة، ويحصل منها الحوطة، اشتروا بها منا أنفسهم وأموالهم، وخلصوا بها رجالهم ونساءهم وأطف الهم، على أنه من عجز بعد أربعين يـوما عما لزمه أو امتنع منه وماسلمه، ضرب عليه الرق، وثبت في تملكه لنا الحق، وهمو: عن كلُّ رجل عشرة دنانير، وعن كل امرأة خمسة، وكل صغيرة أوصغير ديناران، الـذكر والأنثى فيهما سيان، ودخل ابن بارزان والبطرك ومقدّمو الداوية والاسبتار في هذا الضمان، وبذل ابن بارزان ثلاثين ألف دينار عن الفقراء، وقام بالاداء ولم ينكل عن الوفاء، فمن سلم خرج عن بيته آمنا، ولم يعد إليه ساكنا، وسلموا البلد يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب على هذه القطيعة، وردّوه بالرغم والغصب لاالوديعة، وكان فيه أكثر من مائة ألف انسان من رجال ونساء وصبيان، فأغلقت دونهم الأبواب، ورتب لعرضهم واستخراج مايلزمهم النواب، ووكل بكل باب أمير ، ومقلّم كبير، يحصر الخارجين، ويحسر الوالجين، فمن استخرج منه خرج، ومن لم يقم بها عليه قعد في الحبس وعدم الفرج، ولـو حفظ ذلك المال حق حفظه لفاز منه بيت المال بأوفر حنظه، لكن تسم التفريط وعم التخليط، فكل من رشا مشى، وتنكب مناهج الرشد بالرشا، فمنهم من أدلي من السور بالحبال، ومنهم من حمل مخفيا في الرحال، ومنهم من غيرت لبسته، فخرج مخفيا بـزي الجند، ومنهـم من وقعـت فيـه شفاعـة مطاعة لم تقابل بالرد، والنقاب الأكابر استنابوا أصاغر، فأقاموا في تقصيرهم المعاذر، وقنوا لأنفسهم الذخائر، وادّعى مظفر الدين كوكبري أن منهم جماعة من أرمن الرها، وعددها ألف نسمة، فجعل إليه أمرها، وكذلك صاحب البيرة ادّعى بها لعدته الكثيرة زهاء خمسهائة أرمنى ذكر أنهم من بلده، وأن الواصل منهم إلى القدس لأجل متعبده، وكذلك كل من استوهب عدة استطلقها، وحصل له مرفقها، ثم تولى الملك العادل استخراجهم، وقيق على الأداء منهاجهم، وسهل على السلطان لفرط جوده الاستخراج والإخراج، وتوفر لعامة الناس وخاصتهم بهجة سهاحة

الابتهاج، وما فينا من فاز بأوفى نصيب، ورعى منه في مرعى خصيب، وكان السلطان قد رتب عدّة دواوين في كل ديوان منها عدّة من النواب المصريين، وفيهم من الشاميين، فمن أخذ من أحد الدواوين خطاً بالأداء انطلق مع الطَّلقاء، بعد عرض خطه على من بالباب من الأمناء والوكلاء، فذكر لي من لاأشك في مقاله أنه كان يحضر في الديوان ويطلع على حاله، فربها كتبوا خطا لمن نقده في كيسهم، وتلبس أمر تلبيسهم ، فكانوا شركاء بيت المال لاأمناءه، وحانوه على ماحصل لكل من الغنى والنفع وماأضر غناءه، ومع ذلك حصل لبيت المال مايقارب مائة ألف دينار، وبقى من بقى تحت رق إسار ينتظر انقضاء المدّة المضروبه، والعجز عن الوفاء بالقطيعة المطلوبة، وكانت بالقدس ملكة رومية متعبدة مترهبة في عبادة الصليب متصلبه، وعلى مصابها متلهبة، وفي التمسك بملتها متصعبة متعصبة، أنفاسها متصاعدة للحزن وعبراتها منحدرة تحدّر القطرات من المزن، ولها حال ومال ومتاع، وأشياء وأشياع وأتباع، فاستعاذت بالسلطان فأعاذها، ومنّ عليها وعلى كل من معها بالافراج، وأذن في اخراج كل مالها في الأكياس والأخراج، وأبقى عليها من مصوغات صلبانها اللهبية المجوهرة ونفائسها وكرائم خزائنها، فخرجت بجميع مالها وحالها، ونسائها ورجالها، واسفاطها وأعدالها، والصناديق بأقف آلها، وتبعها من لم يكن من أتباعها، فراحت فرحى، وإن كانت من سجنها قرحى، وكذلك خرجت زوجة الملك المأسور كي، وهي ابنة المك اماري، وكانت مقيمة في جوار القدس مع مالها من الخول والخدم والجواري، فاستأذنت في الالمام بزوجها، وكان بقيده مقيها في برج نـابلس، موكـالاً به ليوم وعـد تسريحه، فأذن لها ، فخلصت هـي ومن تبعها، وأقامت عند زوجها، وكذلك خرجت الابرنسة أم هنفري وهي ابنة فليب وزوجة الابرنس الذي سفك دمه يـوم حطين، وهي صاحبة الكرك والشوبك، وهي بنـقابها محوطة وبرأيها منـوطه، فجاءت سـائلة في ولدها العانى، فوعدت أنها إن سمحت بحصنها سمح لها بابنها، ثم

أعفيت وأطلقت وعصمت، واستحضر ابنها هنفري بن هنفري من دمشق إليها وأقر برؤيته عينها، وسار معها من الأمراء الأمناء من يتسلم منهم تلك المعاقل، فخرجت فمضت إلى حصوبها لتسلمها فهانعها أهلها ودافعوها وردّوها ذليلة خائبة، فسكنت صور، واستودعت السلطان ابنها المأسور، ووعدها باطلاقه إذا تسلم تلك الحصون.

# فصل

# في ذكر يوم الفتح وبعض كتب البشائر إلى البلاد

قال العماد: تسلم المسلمون المدينة يوم الجمعة أوان وجوب صلاتها، وطلعت الرايات الناصرية على شرفاتها، وأغلقت أبوابها، لحفظ ناسها في طلب القطيعة والتهاسها، وضاق وقت الفريضة وتعذر أداؤها، وللجمعة مقدّمات وشروط لم يمكن استيفاؤها، وكان الأقصى لاسيها محرابه مشغولًا بالخنازيـر والخناء، مملوءًا بها أحدثوا من البناء، مسكـونا بمن كفر وغوى، وضل وظلم وجنى، مغمورا بالنجاسات التي حرم علينا في تطهيره منا الونا، فوقع الاشتغال بالأهم الأنفع، والأتم الأنجع الأنجع، وهو حفظهم وضبطهم، إلى أن يوجد شرطهم، ويؤخذ قسطهم، واتفق فتح البيت المقدس في يوم كان في مثل ليلته منه المعراج، وتم بما وضح من منهاج النصر الابتهاج، وجلس السلطان بالمخيم ظاهر القدس للهناء، وللَّقاء الأكابر والأمراء،والمتصوفة والعلماء، وهو جالس على هيئة التواضع، وهيبة الوقار بين الفقهاء وأهل العلم جلسائه الابرار، ووجهه بنور البشر سافر، وأهله بعز النجح ظافر، وبابه مفتوح، ورفده ممنوح، وحجابه مرفوع، وخطابه مسموع، ونشاطه مقبل، وبساطه مقبل، ومحياه يلوح، ورياه يفوح، قد حلت له حالة الظفر، وكأن دسته به هالة القمر، والقراء جلوس يقرأون ويرشدون، والشعراء وقوف ينشدون، وينشدون، والاعلام تبرز لتنشر، والأقلام تزبر لتبشر، والعيون من فرط المسرة تـدمع، والقلوب للفرح بالنصرة تخشع، والألسنة بالابتهال إلى الله تضرع، وبشر المسجد الحرام بخلاص المسجد الأقصى، وتلي: (شرع لكم من الدين ماوصى )(٥٠)وهنتي الحجر الأسود بالصخرة البيضاء، ومنزل الوحي بمحل الاسراء، ومقر سيد المرسلين وخاتم النبيين بمقر الرسل والانبياء، ومقام ابراهيم، بموضع قدم المصطفى عَلَيْ وعليهم أجمعين، وأدام أهل

الاسلام بشرف بنيته مستمتعين، وتسامع الناس بهذا النصر الكريم، والفتح العظيم، فوفدوا للزيارة من كل فج عميق، وسلكوا إليه في كل طريق، وأحرموا من البيت المقدّس إلى البيت العتيق، وتنزهوا من زهر كراماته في الروض الأنيق.

وقد سبق أن العهاد كان توجه إلى دمشق، والسلطان على بيروت للألم الذي ألم به، فلها سمع بنزول السلطان على القدس أبل من مرضه، وتوجه إليه، فوصل يوم السبت ثاني يوم الفتح، قال: وطلعت عليه صبحا عند طلوع الصبح، فاستبشر بقدومي، وخلع على البشير قبل رؤيتي، وكان أصحابه يطالبونه بكتب البشائر ليغربوا بها ويشرقوا، وهو يقول لهم: لهذه القوس بار ولهذه المأدبة قار، قال فكتبت في ذلك اليوم سبعين كتاب بشاره، كل كتاب بمعنى بديع وعباره، فمنها الكتاب إلى الديوان العزيز ببغداد افتتحته بهذه الآية (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كها استخلف الذين من قبلهم وليمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا) (١٥).

الحمد لله الذي أنجز لعباده الصالحين وعد الاستخلاف، وقهر بأهل التوحيد أهل الشرك والخلاف، وخبص سلطان الديوان العزيز بهذه الخلافة، ومكن دينه المرتضى، وبدل الأمن من المخافة، وذخر هذا الفتح الأسنى، والنصر الأهنى للعصرالامامي النبوي الناصري على يبد الخادم أخلص أوليائه، والمختص من اعتزازه باعتزائه إليه وانتهائه، وهذا الفتح العظيم، والنجح الكريم، قد انقرضت الملوك الماضية، والقرون الخالية، على حسرة تمنيه، وحيرة تسرجيه ووحشة الياس مسن تسنيه، وتقاصرت عنه طوال الهمم، وتخاذلت عن الانتصار له أملاك الامم، فالحمد لله الذي أعاد القدس، وأعاذه من الرجس، وحقق من فتحه ماكان في النفس، وبدّل وحشة الكفر فيه من الإسلام بالأنس،

وجعل عز يومه ماحياً ذل أمس، وأسكنه الفقهاء والعلماء بعد الجهال والضلال من البطرك والقس، وعبدة الصليب، ومستقبلي الشمس، وقد أظهـر الله على المشركين الضـالين جنـوده المؤمنين العـالمين، وقطـع دابـر القوم الظالمين والحمد لله رب العالمين، فكأن الله شرف هذه الامة وقال لهم: اعزموا على اقتناء هذه الفضيلة التي بها فضلكم وحقق في حقهم امتشال أمره في قــولــه الكريــم:( ادخلوا آلارض المقــدّســة التي كتــب اللهُ لكم)(٥٢) وهذا الفتح قد أقدره الله على افتضاضه بالحرب العوان، وجعل ملائكته المسوّمة له من أعز الانصار وأظهر الاعوان، واخرج من بيته المقدس يوم الجمعة أهمل الأحد، وقمع من كان يقول إن الله ثمالث ثلاثة بمن يقول : هو الله أحد، وأعان الله بانزال الملائكة والروح، وأتى بهذا النصر الممنوح، الـذي هو فتح الفتوح، وقد تعالى أن يحيط به وصف البليغ نظماً ونشراً، وعبد الله في البيت المقدّس سراً وجهراً، وملكت بـلاد الأردن وفلسطين غوراً ونجـداً وبراً وبحـراً، وملئت اسلامـا وكانـت قد ملئت كفراً، وتقاضى الخادم دين الدين الذي غلق رهنه دهرا، والحمد لله شكرا، حمدا يجدد للاسلام كل يوم نصرا، ويزيد وجوه أهله بشرى، فتوجه بشرا، وأبى الخادم إلا استباحة أموالهم وأرواحهم، وحسم داء اجتراحهم باجتياحهم، وإنه لابد من تطهير الأرض المقدّسة برجس دمائهم، وقتل رجالهم وسبي ذراريهم ونسائهم، ولما أيسوا من النجاة، وفتحوا أبوابها المرتجة من أُسبابها المرتجاه، خوَّفُوا بقتل الأساري المسلمين، وهم أكثـر من ثلاثة آلاف، وأنهم يفسدون جميع ما في البلد من مال وبناء بهدم واحراق واتلاف، وعرف ان جهلهم يحملهم على كل مكر شنيع، وأنهم تدعوهم فظاظتهم إلى كل أمر فظيع، وبـذلوا اطـلاق الاسري، وشرطوا حمل مال الفداء ومازالـوا يبتهلون ويضرعون، ويـذلون ويخشعـون، حتى استقرّ الأمر أنهم يفادون، وأجيبت الصخرة المقدّسة عند استصراخها، وبركت البركة الناهضة اليها في مناخها، وغسلت من أوضارها وأوزارها بعبرات العيون، ورجع اضطرابها إلى السكون، وفديت بنواظر أهل الايهان، وصوفحت للوفاء بعهدها المجدد بالايهان، وذكرت في يوم خلاصها من رجب بليلة المعراج، وتجلى اظلامها بإنارة سناء السراج، واعيدت الكنائس مدارس، وأضحت باحياء رميم التوحيد رسوم الكفر عافية دوارس، وزالب ضجرة الصخرة، ونعشها الله من العثرة، وبدّل بالأنس فيها ماكان من الوحشة والحسرة، والحمد لله على هذه النصرة، والمنة له على هذه المبرة، وقد تسلمنا مع بيت المقدس جميع المعاقبل من حد الداروم إلى حد طرابلس، وكل ماكان جاريا في مملكة ملك القدس ونابلس، ولم يبق إلا صور فإنها قد تأخر انتزاعها، وتقدم امتناعها، والفرنج فيها قد ضربت بآمالها وأطاعها، وهي بتأييد الله مستفتحة، والقرب بتذليل جاعها منشرحة».

ومن كتاب آخر: « فتح بيت الله المقدس الذي عجز الملوك عن تمنيه، فكيف تسنيه، وماتت الأطهاع دونه فلم تطمع فيه، فمن الله علينا بتذليل صعبه، وإعذاب شربه، وتسهيل وعره، وتحصيل فخره، وقضى الملوك في ليله، وجئنا نحن عليه بأسفار فجره، وقد كانت الصخرة مستصرخة، ومطايا الكفر بكلاكلها عليها منوخة، فأجيبت دعوتها، وأصيبت خطوتها، وتناثرت على صخرتها يواقيت الشفاء، وقوبلت قبلتها بقبل خطوتها، ودنا المسجد الأقصى للقاصي والداني، وزال رين العائن وقرت عين الراني.

هذا فتح عظيم قدره، جسيم فخره، فاضل عصره، كامل نصره، غير منسي إلى يوم الحشر ذكره، وقد افتض بنا بكره، واقتضى بسيفنا وتره، وزهر زهره، وظهر قهره، وهلك الكافر وكفره، وجاء من الله مالزم على الأبد شكره، أبينا إلا إحراقهم بنيران الصوارم، واغراقهم في أمواه الطلى والجهاجم، وتسلمنا القدس في يوم كانت في مثل ليلته ليلة المعراج، وحنت الصخرة حنين جذع المعجزة الأولى في ظلمة ليلها إلى ذلك

السراج الوهاج، والحمد لله على سلوك ماوضح من المنهاج، ونضوب ماكان نبع من الاجاج، وخلا بيت الله لقصد الحاج، وصدق الحاج.

مبشرة بها فضل الله به عصرنا، وعجل به نصرنا، ونظم به سلكنا، وطرز به ملكنا، وهو فتح بيت الله المقدس الذي غلق رهنه دهراً، واغتصب من الاسلام قهراً، وارتد كفراً، وامتدت به الأيام عمراً فعمرا، وتقاصرت الهمم عن استفتاحه، وأصلد زند الملوك فيه فعجزوا عن اقتداحه، ونزلوا بالرغم على التهاس الكفر واقتراحه، واحتملوا لحفظ مواضعهم نكاية اجتراحه، فلا جرم أعده الله لأيامنا وذخره لمواسم اعتزامنا، وفتدمه بنا اظهاراً لفضل هذه الأيام، وإيثاراً لما نحن نـؤثره من إعلاء كلمة الاسلام، فأصرخنا الصخرة، وأهدينا إليها النصرة، ومكنا من قلبها وإن كان من الحجر المسرة.

تسلمنا القدس يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب، وقضينا من حق هذا البيت ماوجب، وجاء القدس إلى القدس، وزال الرجس وذهب، وتولى فيه الاسلام، وتولى عنه الكفر، وعظم الأجر وفخم الفخر، وطاب النشر، وزاد البشر، ومحي الرجس، وثبت الطهر، وهلك المشرك وذل البطرك، وأقصي من المسجد الاقصى الساجد إلى الشمس، وتجلى الحق بنوره الكاشف للبس.

عاد بيت الله المقدس إلى طهارته، ونطق منه لسان التقديس بعبادته، وتهلل وجه السعد بنضارته، وخصنا القدر في اتمام أمره بخطابه واشارته، وزادت الوجوه بشراً ببشارته، وقد أعاد الله إلى الاسلام المسجد الأقصى، وملكنا أدناه وأقصاه، وأسنى دولتنا بها سناه، من فتحه وهناه، وعلموا أنهم هالكون، وأنا لهم بالقهر مالكون، وفي سبيل القتل والاسر والسبي سالكون، فخرجوا يطلبون الأمان ، ويبذلون الاذعان، حتى يسلموا المكان، فقيل لهم: الآن وقد عصيتم ورضيتم بها فيه هلاككم

وأبيتم، فروّعوا بقتل أسارى المسلمين، وهم ألوف، وعرفنا انهم لايقصرون في الشرّ فإن جهلهم معروف، فتضرعوا وتشفعوا وتعفروا في تراب الذل وتوقعوا، وتقرر عليهم مال اشتروا به أنفسهم، فنزعوا به من الخوف ملبسهم، وسلموا القدس، فأعدناه إلى القدس، وطهرناه من الرجس، وأجبنا دعوة الصخرة، وغسلنا عنها وضر الكفر بعبرات العبرة.

فتح بيت الله المقدّس الذي غلق رهنه، وطال في يد الكفر أسره وسجنه، واستهل بغرّ أيامنا مزنه، وأنار يمنه، وعاد باحساننا حسنه، وزال بنا خوفه وزاد أمنه، وبقي قريب مائة سنة في يد الكفر مسجونا وبرجس الشرك مشحونا، حتى أعاد الله بنا رونقه، وأذهب قلقه، وأعدم فرقه.

وهذا فتح لم يكن منذ عصر الصحابة رضي الله عنهم له نظير؛ وأفق الدين به منيف منير، وشرف أيامنا به كثير، وهو إمام فتوحنا المدخرة لنا ومالها بتأييد الله تأخير.

فتح البيت المقدس الذي لم يخطر تمنيه بخاطر الملوك، وتوعر على عزائمهم نهج طريقه المسلوك، وحالت دونه قنطاريات الفرنج وطوارقها، وجنت على الاسلام فيه حوادث الليالي وطوارقها، حتى دعانا الله لفتحه فأجبناه، ووعدنا بالفوز فأصبناه، وأوردنا مشرع صفائه فاستعذبناه، وعرفنا طيب عرفه فاستطبناه، وذخر لعصرنا هذا الفخر فاستقبلناه.

رأوا أحجار المنجنيقات قد أنزلت الأسواء بالاسوار، وغارت الصخور للصخرة المباركة فجدّت في انقاذها من الاسار، وهتمت ثنايا الأبراج، وأعضل بهافي العلاج داء الاعلاج، فعاينوا الحام، وشاهدوا الموت الزؤام.

أقامت المنجنيقات على عصابته حـد الرجـم، وواقعت ثنايا شرفاته

بالهتم، وتطايرت الصخور في نصرة الصخرة المباركة، وحجرت على حكم السور بشفة الأحجار المتداركة، وحسرت النقوب عن عروس البلد بنقب الاسوار، وانكشفت للعيون انكشاف الأسرار.

نهضت لاصراخ الصخرة المقدّسة الصخور، وطارت من أوكار المجانيق كأنها الصقور، فها أسرّ البيت الحرام، بفكاك أخيه من الأسر، واجراء الاسلام فيه لغسل أوضار الكفر، وإنقاذ الصخرة المباركة ممن قلوبهم كالحجارة أو أشدّ قسوه، والحافها من البهاء والرونق والعز الاسلامي بكسوه، ولقد غسلت من أدران الكفر وأدناسه، وطهرت من أرجاس نجاسه، بمياه العيون التي بها قذيت، وصقلت بشفاه المؤمنين وطالما بأيدي الشرك صديت، وأعيد إليها ذكر الله تعنالى بعد طول الغربة، وتذكرت بصحبة الأولياء ماسلف لها في عهد الصحابة رضي الله عنهم من حسن الصحبة، ودنا المسجد الأقصى فأقصى منه الساجد للشمس، وسكن العلماء والفقهاء في مواطن البطرك والقس، وأبدل للشمس، وسكن العلماء والفقهاء في مواطن البطرك والقس، وأبدل الذي أسلم، وقدسنى الله تعالى هذا الفتح الأعظم، والنجح الأفخم، ولذي الرسالة القدسية والبشارة العرسية، التي تم به مأتم الكفر وعرس الاسلام، وعادبها المسجد الأقصى إلى مداناة المسجد الحرام.

وتجلت عروس الصخرة لعيون الناظرين، وفاضت عليها مياه أحداق . الأولياء، فرحضت عنها أوضار الكافرين، وكان الاسلام منه غريبا، فرجع إلى وطنه، وسكن منه إلى التوطن في مسكنه، وزالت مخاوفه وعاد إلى مأمنه ، وفاض العرف من منبعه، وأنار التوحيد من مطلعه، وعلا سنا السنه، وحلا جنا الجنه، وخلصت مواضع المخلصين من أولياء الأمة، وخرج البطاركة والقسيسون من مساجد الائمة، وعادت الكنائس مدارس، وآيات التثليث بها دوارس، ووجوه الايهان باشرة، ووجوه أهل

#### \_ A00 & \_

الصليب عوابس، ومحت من هذه الأيام تلك الليالي الدوامس، وقد أقيمت الجمع والجهاعات ونظفت بل طهرت تلك الساحات، وصلى في عرابه المحرب، ودرس فيه الخلاف والمذهب، والحمد لله الذي تسنى بفضله هذا المطلب، وتيسر بتأييده الأمر الاصعب».

# فصل

قال العماد: وكان المولى الأجل الفاضل متأخرا بدمشق لعارض مرض منّ الله بشفائه فمن جملة ماكتب السلطان إليه: «أما الفتح فمن جملة بركات همته، وآثار جذبات عزمته، فإن الله تعالى سهل ماسجل أهل الدهر بانه صعب، واهب نسيم النصر إبان يقال ليس له مهب، وخصنا بهذا الشرف، وألحقنا بهذه الفضيلة بصالحي السلف، وقد بدّل الكفر بالايهان، والناقوس بالأذان، وجلس العلماء والفقهاء في مجالس الرهبان، وفتحت بهذا الفتح من بيت الله المقدس أبواب الجنان، وتزاحم الخارجون من البلد من الفرنج والنصارى في دخول أبواب النيران، وصلى محارب الدين في المحراب، ورفع الملائكة ماكان تكاثف بأنفاس الكفر من الحجاب، وغسلت الصخرة المباركة من أوضارها بهاء العيون الفائض الفائق غزارة الأمواه، وقبلت بالشفاه وبوشرت بالأفواه، وطهرت بأهل العلم والحلم من أدناس أهل الجهل والسفاه، والحمد لله، ثم الحمدلله، وماكان يعوزنا ويعوزه إلا حضور المجلس السامي أسهاه الله، فما لهذا الأمر رواء إلا بروائه، ولا للانس لقاء إلا بأنس لقائه، وكاد يتصحف الفتح لولا صالح دعائه، وحسن آلائه، والحمد لله الذي خصنا بهذه الخاصية، وفضلنا بالنصرة القدسية، وذخر لنا هذا البر الذي عجز بل قصر عنه ملوك البرية، والحمد لله على هذه النعمة السنية، فها أشوقنا وأشوق القدس إلى قدومه، وماأظمأنا وأظمأه إلى خصوص الري به وعمومه، وماحظ هذا البيت الذي هو أخو البيت الحرام من زيارته، وماآنق روضه وأوفق رضاه إذا فاز بنظره ونضارته، ونحن نعرف أن همته العالية تحدوه، وأن دينه إلى إجابة دعوته تبدعوه، ونسأل الله أن يكمل صحته، وينعش قوّته، ويقوّي نهضته، وما أقمنا بهذا البلد إلا لتطهيره، وترتيب أمره وتدبيره».

ومين كتاب آخر: «نصرنا الله بمالائكته المسومين، وأوليائه المؤمنين،

واستخلصنا بتأييده البلاد وانتزعناها ، وافتضضنا بالبيض الذكور من الحرب العوان أبكار الفتوح وإفترعناها، وهذه موهبة مذهبة ومنقبة لايبلغ الى وصفها بلاغة موجزة ولا مسهبة، ونوبة مابعدها للاسلام نبوه، وحظوة في مذاق أهل التقوى والمغفرة حلوه، وبشرى تجلو الوجوه ببشرها وتضوع مهاب المحاب بنشرها، ويعرف أهل الشرق والغرب سجال غربها، وتقر عين المؤمنين في البعد والقرب بأنوار قربها.

عاد التقديس إلى الأرض التي به وصفت، وأحاطت البركة بالبقعة التي بقوله تعالى باركنا حوله) عرفت ، وظهرت الصخرة المقدسة وطهرت، وزهيت أيامن هذه الأيام وزهرت، وقمعت الطائفة الطاغية من أهل التثليث بجهل التوحيد وقهرت، واستبشر المنبر والمحراب بخطيبه وإمامه، وافتخر الزمان بعصر مولانا أمير المؤمنين وأيامه، وقد تملكنا البلاد الساحلية وتسلمناها حصنا حصنا، ونقضنا من الكفر ركنا ركنا، واجلينا الكفار منها فاجتلينا بها من الحسنى حسنى.

فتح شرف الله به هذه الأمة، وجلا به الغمه، وكشف الملمة بل شرفنا بفخره، وأعدّنا لذخره، وخصنا بفضيلته في عصره، وأجرى لنا ماكان قد أبطأ من عادة نصره، وقمع بأهل دينه من عساكرنا أهل كفره، وقامت بواترنا بوتره، وغرق البلاد الساحلية من دم الكفار ببحره، واصرخت الصخرة، وحفت بها النصره، وزالت عنها المضره، وعادت إليها المبره، ونعشت منها العثرة، وفاضت لها من عين المؤمنين العبره، وزفت عروسها البكر محصنة لم تفتض منها العذره، وحالت العره ولاحت الغره، وظهرت من صدف قبتها الدره، وصوفحت آثار القدم النبوية بالايمان، وجددت بعهدها صفقة الايمان، وبطل الناقوس بحق الأذان، وفتحت أبواب بعهدها صفقة الايمان، وبطل النيمان، والحمدلله على هذا الاحسان، الجنان لأهلها وأخرج منها أهل النيمان، والحمدلله على هذا الاحسان،

ومن كتاب الى سيف الاسلام باليمن: "فتح بيت الله المقدس الذي غلق نيفا وتسعين سنة مع الكفر رهنه، وطال في أسره سجنه، واستحكم وهنه، وقوي سكره وضعف ركنه، وزاد حزنه، وزال حسنه، وأجدبت من الهدى أرضه وأخلف مزنه، وواصله خوفه وفارقه أمنه، واشتغل خاطر الاسلام بسببه وساء ظنه، وذكر فيه الواحد الأحد الذي تعالى عن الولد أن المسيح ابنه، وربع فيه التثليث فعز صليبه وصلبه، وافرد عنه التوحيد فكاد يهي متنه، ودرج الملوك المتقدمين على تمني استنقاذه، فأبى الشيطان غير استيلائه واستحواذه، وكان في الغيب الالهي أن معاده في الآخرة إلى معاذه، وطنت أوطانه بقراءة القرآن ورواية الحديث وذكر الدروس، وجليت الصخرة المقدسة جلوة العروس، وزارها شهر رمضان مضيفا لها وجليت الصخرة المقدسة جلوة العروس، وزارها شهر رمضان مضيفا لها نهار صومها بالتسبيح، وليل فطرها بالتراويح».

ومن كتاب آخر: «البيت المقدّس صار مقدساً ، وأصبح للاسلام معرّسا، ورجع الاذى بالأذان، وصوفحت الصخرة المقدسة بأيهان أهل الإيهان، وماصلت في محراب البيت المقدس الثقاة حتى صلت في محاريب رقاب الكفر المشرفيات، وماتم الرضى بفتح المسجد الأقصى حتى أقصي منه من أقصاه الله عن رضاه، وماتبوأ المسلم المصلى فيه مثواه من الجنة حتى تبوأ الكافر المصلى بالنار مثواه، صوفح موضع القدم المباركة ليلة المعراج بالأيدي ، وقال لأولياء الله أهل الاخلاص أهلا بكم فها أحسن الخلاص من ولاية أهل التعدي، وعاد المسجد الأقصى للمصلين المقربين جنة ومنارا، بعد أن كان للمقصين المصلين ناراً دارا، وتسلم محرب الاسلام محرابه، وأصحب لآلافه لما ألفى أصحابه، وترنح المنبر لترنم الخطيب، وانجبر الدين بانكسار صلب عابد الصليب السليب.

خلا باله من أمر القدس بإعادته إلى قدسه، وإخلائه من رجز الشرك

ورجسه، وإجلاء داويه واسبتاره وبطركه وقسه، وتعويضه من وحشة الضلال من الهدى بأنسه، ورد الاسلام الغريب إلى بيته المقدس، ونفي الكافر منه كاسف البال راغم المعطس، ونصب المنبر للمسجد الاقصى لاقامة الخطبة الإمامية، ورفع مارفع قدره من الأعلام العباسية، والافراج عن محرابه بهدم مابني دونه من مباني الشرك، وكشف استار الكفرة التي حجبت بالهتك والفتك، وإقامة الجمع فيه والجهاعات، وإدامة أوراد العبادات به ووظائف الطاعات، وغسل الصخرة المقدسة بدم الكافر ودمع المؤمن، وننزع لباس بأس المسىء عنها بافاضة ثوب المحسن، وتنزيله تلك الجنلة من دنس أهل النار؛ واعلاء ماكان درس من معالم الأبرار، ومطالع الأنوار، وقد رجع الاسلام الغريب منه إلى داره، وخرج قمر الهدى به من سراره، وذهبت ظلم الضلالة بأنواره، وعادت الأرض المقدسة إلى ماكانت موصوفة به من التقديس، وأمنت المخاوف فيها وبها فصارت صباح السرى، ومناخ التعريس، وقد أقصى عن المسجد الأقصون من الله الأبعدون، وتوافد إليه المصطفون الأقربون، والملائكة المقربون، وخرس الناقوس بزجل المسبحين، وخرج المفسدون بدخول المصلحين، وقال المحراب لأهله مرحبا وأهلاً، وشمل جماعة المسلمين من إقامة الجمعة والجماعة ماجمع الاسلام فيه شملاً، ورفعت الاعلام العباسية على منبره فأخذت من بـره أوفي نصيب، وتلت بألسنة عذبها﴿ نصر من الله وفتح قريب)، وغسلت الصخرة المباركة بدموع المتقين من دنس المشركين، وبعد أهل الأحد من قربها بقرب الموحدين، فذكر بها ماكاد ينسى من عهد المعراج النبوي، وأقامت بدلائلها براهين الاعجاز المحمدي.

عاد الاسلام باسلام البيت المقدس إلى تقديسه، ورجع بنيانه من التقوى إلى تأسيسه، وزال ناموس ناقوسه، وبطل بنص النصر قياس قسيسه، وفتح باب الرحمة لأهلها، ودخلت فيه الصخرة لفضلها، وباشرت الجباه بها مواضع سجودها، وصافحت أيدي الأولياء آثار القدم

النبوية بتجديد عهودها، وشهد مقام المعراج وموطىء براقه، ورأى نور الاسراء ومطلع إشراقه، ودنا المسجد الأقصى للراكع والساجد، وإمتلأ ذلك الفضاء بالأتقياء الأماجد».

ومن كتاب فاضلي إلى بغداد: «تقلص ظل الكافر المبسوط، وصدق الله أهل دينه، فلما وقع الشرط وقع المشروط، وجاء أمر الله وأنوف أهل الشرك راغمه، وادلجت السيوف والآجال نائمة، واسترد المسلمون تراثا كان عنهم آبقا، وظفروا يقظة بها لم يصدقوا انهم يظفرون به طيفا على النائم طارقا».

ومنه في وصف نقب السور: « فأخلي السور من السيارة، والحرب من النظاره، وأمكن النقاب أن يسفر للحرب النقاب، وأن يعيد الحجر إلى سيرته من التراب، فتقدم إلى الصخر فمضغ سرده بأنياب معوله، وحل عقده بضربه الأخرق الدّال على لطافة أنمله، واسمع الصخرة الشريفة حنينه فاستغاثته إلى أن كادت ترق لمقتله، وتبرأ بعض الحجارة من بعض، وأخذ الخراب عليها موثقا فلن تبرح الأرض.

ثم قال: واستقرت على الأعلى أقدامهم، وخفقت على الأقصى أعلامهم، وتلاقت على الصخرة قبلهم، وشفيت بها وإن كانت صخرة كما يشفى بالماء غللهم، وملك الاسلام خطة كان عهده بها دمنة سكان، فخدمها الكفر إلى أن صارت روضة جنان، لاجرم أن الله أخرجهم منها وأهبطهم، وأرضى أهل الحق وأسخطهم، وأوعز الخادم برد الأقصى إلى عهده المعهود وأقام له من الائمة من توفيه ورده المورود، وأقيمت الخطبة يوم الجمعة رابع شعبان، فكادت السموات للنجوم ينفطرن، والكواكب منها للطرب ينتشرن، ورفعت إلى الله كلمة التوحيد، وكانت طريقها مسدودة، وظهرت قبور الأنبياء وكانت بالنجاسات مكدودة، وأقيمت الخمس، وكان التثليث يقعدها، وجهرت الالسنة بالله أكبر وكان سحر

الكفر يقعدها، وجهر باسم أمير المؤمنين في وطنه الأشرف من المنبر فرحب به ترحيب من بر، وخفق علماه في حفافيه، فلو طار سروراً لطار بجناحيه، وكان الخادم لايسعى سعيه إلا لهذه المنقبة العظمى، ولايقاسي تلك البؤسى إلا رجاء هذه النعمى، ولايجارب من يستظلمه إلا لتكون الكلمة مجموعة فتكون كلمة الله هي العليا، وليفوز بجوهر الآخرة لا بالعرض الأدنى من الدنيا، وكانت الألسنة ربها سلقته فانضج قلوبها بالاكتفاء والاقتصار، وكانت الخواطر ربها غلت عليه مراجلها فأطفأها بالاحتمال والاصطبار، ومن طلب خطيراً خاطر، ومن رام صفقة رائجة جاسر، ومن سها لأن يجلى غمرة غامر».

ووصف فيه يوم حطين فقال: «وكان اليوم مشهوداً، وكانت الملائكة شهودا، وكان الضلال صارخا وكان الاسلام مولوداً، وأسر الملك وبيده أوثق وثائقه، وأكد وصله بالدين وعلائقه، وهو صليب الصلبوت، وقائد أهل الجبروت، مادهموا قط بأمر إلا وقام بين دهمائهم يحرضهم، يبسط لهم باعه، وكان مد اليدين في هذه المدفعة وداعه، لاجرم أنه يتهافت على ناره فراشهم، ويجتمع في ظل ظلامه خشاشهم، ويقاتلون تحت ذلك الصليب أصلب قتال وأصدقه، ويرونه ميثاقا يبنون عليه أشد عقد وأوثقه، ويعدونه سوراً تحفر حوافر الخيل خندقه، ولم يفلت منهم معروف وأوثقه، وكان لعنه الله مليا يوم الظفر بالقتال، ومليئا يوم الخذلان بالاحتيال فنجا ولكن كيف، وطار خوفا من أن يلحقه منسر الرمح وجناح السيف، ثم أخذه الله بعد أيام بيده، وأهلكه لموعده، وكان لعدتهم فذلك وانتقل من ملك الموت إلى مالك، وبعد الكسرة مرّ الخادم على البلاد فطواها بها نشر عليها من الراية السوداء صبغاً للبيضاء صنعاً على البلاد فطواها بها نشر عليها من الراية السوداء صبغاً للبيضاء صنعاً على المؤقة هي وقلوب أعدائها، العالية هي وعزائم أوليائها».

# فصل

قال العماد ومن قصائدي التي هنأت بها السلطان بفتح القدس وهو مخيم عليه: أطيب بانف اس تطيب لكرم نفسا وتعتساض من ذكسراكم وحشى أنسسا وأسال عنكم عافيات دوارس غدت بلسان الحال ناطقة خرسا معاهدكم مابالها كعهودكم وقد كررت من درس آشارها درسا وقد كان في حدسي لكمم كل طارق وماجئتم من هجركم خالف الحدسا أرى حدثان الدهرينسي حديثه وأماحديث الغدر منكم فلاينسي ترول الجبال السراسيات وثابت رسيسس غرام في فرادي لكم أرسي حسبت حبيبى قاسى القلب وحده وقلب الذي يهوى بحمل الهوى أقسى أمالكم يامالكسى السرق رقسة يطيب بهامملوكك منكم نفسا وإن سروري كنـــت أسمـــع حســـه فملسرت عنكم ماسمعت له حسا

وإن نهاري صارلي الألبعد كرام فها أبصرت عيني صباحا ولا شمسا بكيت على مستودعات قلوبكم كها قدما على صخرها الخنسا كها قد بكت قدما على صخرها الخنسا فلا تحبسوا عني الجميل فإنني جعلت على حبى لكم مهجتى حبسا

رأيت صلاح الدين أفضل من غدا وأشرف من أضحى وأكسرم من أمسى وقيل لنافي الأرض سبعة أبحر ولسنانرى إلا أنامله الخمس سجيته الحسنسي وشيمته السرضسي وبطشت الكبرى وعزمت القعسى فلاعدمت أيامنا منه مشرقا ينير بها يصولي ليسالينا الدمسا جنودك أمسلاك السماء وظنهسم عداتك جنن الأرض في الفتك لا الانسا فلليستحق القدس غيرك في الورى فأنت المدي من دونهم فتح القدسا ومن قبل فتح القدس كنت مقدّسا فلاعدمت أخلاقك الطهر والقدسا وطهرته من رجسهم بدمائهم فأذهبت بالرجس الذي ذهب الرجسا نزعت لباس الكفرعن قدس أرضها وألبستها الدين الدي كشف اللبسا وعادت ببيت الله أحكام دينه فلل بطركا أبقيت فيهاولا قسا وقددشاع في الآفاق عنك بشارة بان أذان القدس قدبطال النقسا جرى باللوي تهوى القضاء وظاهرت مالائكة الرحن أجنادك الحمسا وكمم لبنسي أيسوب عبسد كعنتر فإنذكروا بالباس لايلكر عبسا وقند طاب رياناعلى طبريسة فياطيبهامغنسي وياحسنهامرسسي

وعكاوماعكافقدكان فتحها لاجه لاتهم عن مدن ساحلهم كنسا \_\_\_داوبيروت وتبنين كله\_\_\_\_ بسيفك ألفي أنفه الرغم والتعسا ويـافـاوأرسـوف ويبنـ وغـزة تخذت مهابين الطلى والظبي عسرسا وصاربصورعصبة يسرقبونكم فللاتبطئه واعنها وحسروهم حس توكل على الله الدي لك أصبحت كسلاءته درعا وعصمته ترسا ودمر على الباقين واجتث أصلهم فإنك قد صيرت دينارهم فلسا ولاتنسس شرك الشرق غسربك مسرويا خــراســان والنهــريــن والترك والفــرســا وبعدالفرنج الكرج فاقصد بالادهم بعنزمك والملامن دمائهم الرمسا أقامت بغاب الساحلين جنودكم وقد دطروت عنده ذئابهما الطلسا

وهي طويلة وقد تقدّم بعضها في ذكر كسرة حطين، وللعهاد أيضا من جملة القصيدة التي مدح بها حسام الدين بن لاجين وقد تقدّم بعضها: قال للمليك صلاح الدين أكرم من يعلى الأرض أومن يسركب الفرسا من بعد فتحك بيت القدس ليس سوى من بعد فتحك بيت القدس ليس سوى مسور فإن فتحت في العصد طرابلسا أشرعلي يسوم انطرسوس ذا لجب وابعث إلى ليسل انطاكية العسسا

وأخلساح المداالشام أجمعه مسن العداة ومن في دينه وكسا ولاتدع منه الفسساولانفسسا فلي النفسس والنفسا في النفسس والنفسا في النفسس في النفسس في النفسس في النفسس في النفسس القيدس في النفسي الن

ومن قصيدة أخرى له أنفذها الى الخليفة الناصر: أبشر بفتح أميسر المئين أتى وصيت والمسوال مناسب والمساون و ماكان يخطر في بال تصورة واستصعب الفتح لما أغلق الباب وخسام عنسه الملسوك الأقسد مسون وقسد مضت على الناس من بلواه أحقاب وجاءعصرك والأيام مقبلة فكانفيان فيالفيض الكفرانضاب نصراًعــادصــلاحالــديـــنرونقــه إيجازه ببلي القرول اسهاب قرع الظبسى بسالظبسى في الحرب يطرب لاقينة صنع باللحن مطراب أحيا الهدى وأمات الشرك صارمه لقـــد تجلى الهدى والشرك منجـــاب بفتحه القدس للاسلام قدفتحت في قمع طاغية الاشراك أبواب ففي موافقه البيت المقدس للسف ــــبيت الحرام لنــاتيــه و إعجـاب والصخر والحجر الملشوم جانبه 

# نفى مىن القدس صلباناكها نفيت مىن بيست مكة أزلام وأنصاب

وكثر مدح الفضلاء للسلطان.عند فتح القدس، وقد ذكر العهاد من ذلك جملة في أواخر كتاب البرق، فرأيت تقديم مااخترته منها هنا، وزدت عليه مالم يذكره، فمن ذلك قصيدة الحكيم أبي الفضل عبد المنعم ابن عمر بن حسان الاندلسي الجلياني منها أبساالمظف رأنت المجتبى لهدى أحسرى السيام على خبر بخبرته

المسروراك وقد دحزت العلى عمرور في عبر بعروب في المسروراك وقد مسروب العلى عمروب عبرت في قلمة التل قضي كنيه عبرت في قلمة التل

ولـــورآك وأهـــل القــدس في ولــه أبــوعبيدة فــدى مــن مسرتــه

غيداة جيزوا النيواصي في قمامتيه

وأعولوابالتباكسي حول صخرته

دارت بسك الملسة الحسنسي فنحسن على عهدالصحابة في استمسرار مسرتسه

وأنت كاسمك صديق وصاحبه

الملك كالمظف رسام في مبرته

وفي السلالة عثمان يطويده

عسلاعليّ على ايشارنصرتسه

وكم لمديمك ذوو قسربسي رقسوا شرفسا

وكمم بعيد درأى الزلفي بهجرتسه

يشبه الفتخ (٥٣) مابين البزاة لقي

ملك الفرنج أخيدابين عترتسه

أمارأيت معالي يوسف بسقت

حتى رمىت كىل ذي ملىك بحسرتىه

أضحى لنشر الهدى في فتح منهجه وبات يطوي العدى في سدّ ثغرته وبات يطوي العدى في سدّ ثغرته واستقبح السرجس ممنوا بمشهده فلاستفتح القدس محشوا بزمرت لكرن بأس صلاح الدين أنهلهم بسوقعة التلو واستشراء سورت يعمي الجوارح والفرسان وهسوعلى بسدء النشاط عشيام شل بكرت يساف اتسح المسجد الأقصى عليّ بهم وقانص الجيش لا يحصى بقف زته أبشر بملك كظهر الشمس مطلع على البسيطة فتاح بنشرت على البسيطة فتاح بنشرت محتى يكون لهذا الدين ملحمة

قال: وأنفذ من مصر نجم الدين يوسف بن الحسن بن المجاور، الوزير العزيزي، قصيدة ، وعرضتها على السلطان بالقدس، وفيها ذكر الانكلتيز، وفتح يافا، وذكر الهدنة التي يأتي ذكرها في آخر الكتاب، فمنها وسيأتي الباقي المختار أيضا:

السوقست أضيق مسن سماع قصيدة

موسومة لصفات أغيد أهيف

والهزل فيسمه مسع الغسوا يسة مختسف

بـــالنـــاصرالمهـــدي والهادي إلى

سبل الجهادأي المظفريوسف

المستعين بسربسه والسؤاثسق السسس

....منصور والمستظهر البرالسوفي

وتجمل سببجه اده في الموقسف

ملك إذا أم الملوك جنابه لاذوبا أكررم من يسوم وأشرو واذاأتـــواأسرى إلى أبــوابـوابــوابــاعظــممــنيصــول وأرأف مسولى غسداللديسن أكسرم والسد عـــزل الفــرنجـة ثــم ولى جيشــه أعظهم به مسن صارف ومصرف قمدأنصف التوحيد من تثليثهم وأقسام في الأنجيل حدالصحف مغسرى بتجسر يسيح السرجسال لأنسه يروى أحاديث العوالي الرعف ملك لسه في الحسرب بحسر تفقسه وليه غيداة السلم زهد تصيرف وعليه أنرافي الجهادمفصل عــزم وحلــم انسيـامــاكـان مــن عيزم ابسن مسرداس وحلسم الأحنسف ياأيها الملك السذى لطباعه وسيحوفه خلقهارضي وتعسف للهيدوم عسروبسة إذاعسربست سساعاته عسن نصرك المتعسرف سنت سيوفك في الرؤوس ختانة ذهبت بمهجة كسل عليج أقلف آف اتهم وافت باخد لكُ منهم من حسرة وتسأسف يساف فكم من حسرة وتسأسف أومـــارأى الأعـــلاج حين دعـــوتها بلسان سيففي الكريهة ملحف

لم تستطيع عصيان أمرك بسل أتست منقبادة طروعساولم تتخلف فاستدع جارتها وثن بأختها ماللسواحل غيربحرك حافظ بشباسنانأوبصفحة مسرهف فزهي بشوب من علاك مسجف أحييت دين محمد وأقمت وسترته مسن بعدطسول تكشف وضبطت ديوان الجهادبعامل منن عسامسل وبمشرف مسن مشرفي وبجهب ذالع زم الكذي لاينتنسي وبنساظ رالسرأي السذي لم يطسرف واستسأد فسرضي جرزيسة ومسوظف واقبيض على الدنيابكف زهادة وابسط لرحمتها جناح تعطف جاءت جنودالله تطلب أسارها وصدورها بالعن قليل تشتفي فانهض بها وتقاض حقاك مروقنا أن الإل\_\_\_ بها ت\_\_ومل\_\_ه حفي همم فتيسة الاتسراك كسل مجمّحه يغشم الكريهة فسوق كل مجفجف قـــوم يخوضـــون الحام شجـاعــة لاينظـــرون إليـــهمــن طـــرف خفــي إن صبح واالأعداء في أوطانهم تركواديارهم كقاع صفصف

## 

قلت: وذكرت بقوله «هذا الطراز الأخضر استفتحته» حكاية حسنة لائقة بالحال، حدثني به شيخنا أبو الحسن علي بن محمد السخاوي قال: قرأت بخط شيخنا أبي الفضائل بن رشيق بمصر عقيب موته في سنة ثلاث وسبعين وخمسائة، نال رأى انسان كأن شخصا ذا جهامة واقفاً على حائط بجامع دمشق يسمى النسر، وهو يقول:

ملك الصياصي والصواصي نساصر

للتدين بعد إيساسه أن ينصرا وسيفتح البيت المقسس بعدما وسيفتح البيت المقسس بعدما والمساوي المساوي المسا

قلت :وهذا قبل أن يفتح صلاح الدين البلاد بعشر سنين

وقرأت بخط بعض أصحابنا قال : وجدت على حاشية كتاب يروى عن خطيب كان بالرقة، أنه رأى من ينشده هذا الشعر في النوم سنة احدى وثلاثين وخمسائة، فذكر لبيتين وهذا قبل الفتح باثنتين وخمسين سنة، وقبل مولد صلاح الدين بسنة ، والمعني بالطراز الأخضر بلاد الساحل المصطفة على بلاد البحر من الداروم، وغزة، وعسقلان، وعكا وصيدا، وبيروت، وجبيل، وغير ذلك، ولم يبق من الطراز في أثناء ذلك سوى صور بين صيدا و عكا، وهكذا كان الأمر على ماسبق بيانه فتح هذا الطراز أولاً ثم فتح البيت المقدس، وكنى بقيصر عن الأبرنس الذي قتله بيده لأنه كان من رؤرس الكفر وملوكهم وغلاتهم في معاداة الإسلام والله أعلم.

قال العماد: وكان فخر الكتاب أبو علي الحسن بن علي الجويني المقيم بمصر من أهل بغداد ينفذ إلي قصائده لأعرضها، فرأيت أن أثبت له - 100 - هذه القصيدة في الفتح و هي مشتملة على ذكر ملوك الاسلام واهمالهم له تسعين عاماً، حتى تجرد له سلطاننا فذكرها منه:

جنددالساء لهذا الملك أعسوان

من شك فيهم لهاالفتح بسرهان

متى رأى النماس ممانحكيم في زمن

وقسدمضست قسل أزمسان وأزمسان

\_\_\_\_\_الأفعال أثمان المسروى الشكور المسال أثمان

أضحت ملوك الفرنج الصيدفي يده

صيداً وماضف وايوماً وماهانوا

كممسن فحول ملوك غسودروا وهمم

خ وف الفرنجة ولدان ونسوان

استصرخت بملكشاه طرابلسس

فخام منها وصمت منه آذان

هـذاوكهمملك مسن بعده نظهر الاسني

\_\_\_لام يط\_وى و يحروى وهرو سكران

تسعون عساماب الادالله تصرّخ وال

\_\_\_\_إسلام أنصــاره صــم وعميان

فالأنابسي صلاح السديسن دعوتهم

بامرمن هوللمعوان معوان

للناصر ادّخرت همذي الفتوح ومسا

سمت لماهم الامسلاك مسذكانوا

حباه ذوالعرش بالنصر العزيز فقا

لالناسساس داودهسد أأم سليان

في نصف شهر غداللشرك مصطلها

فطه رت مه أقط ار وبلدان

فأين مسلمة عنها وأخروته

بل أيسن والدهسم بسل أيسن مسروان

وعسدّعهاسواه فسالفرنجسة لم يبدهم من ملوك الارض انسان لسوأن ذاالفترح في عصر النبسي لقدل تنـــــزلـــــــفيــــهآيـــاتوقـــرآن ياقبح أوجه عبادالصليب وقد غدا يبرقعها شؤم وخذلان خسزنست عند إلسه العسرش سسائر مسا ملكت ـ ومل وك الأرض خرزان فالله يبقيك للسلام تحرسه منن أن يضام ويلفي وهسوحيران ب. فــالكفــرفي سنــة والنصريقظــان ياجامعاكلمة الايهان قامع من معبر ودهدون رب العرص صلبان إذا طـــوى الله ديــوان العبــاد فها يطوى لأجسر صلاح المديسن ديوان

وللشريف النسابة المصري محمد بن أسعد بن على بن معمر الحلبي المعروف بالجواني نقيب الأشراف بالديار المصرية، من قصيدة:

أترى منامامامابعينى أبصر القدس يفتح والفرنجة تكسر وقها مة قمست من السرجس السذي بسروالسدي بسروالها يتطهسر ومليكه مفيالقيدم مفسود ولم يسرقبل ذاك لهم مليك يسوسر قسر قسد جاءنصر الله والفتح السذي وعدالسرسول فسبحوا واستغفروا

فتسح الشسآم وطهسر القسدس السذي هـوفي القيامة للانام المحشر مسن كسان هسلاافتحسه لمحمسد مساذايقالك ومساذايل كسر يايوسف الصديق أنت لفتحها فاروقهاعمر الإمام الأطهر ولأنبت عثمان الشريعية بعسده ولأنسست في نصر النبسسوة حيسدر ملك غداالاسلام من عجب به يختال والدنيابه تتبختر نشر ونظرم طعنه وضرابه ف السرميحينظ موالمهندينشر حيث الرقاب خواضع حيث العيون خــواشـع حيـث الجباه تعفـر غــان خطبـت لــه فيها السيوف فكل هام منبر تحذى نع الأأودم اء تهدر وصوافنا تختارإن تطاالسرى فيصده اعنه طلي وسنور تمشى على جشت العداع رجاولا عـــرج بها لكنهــــا تتعثـــر وقال أبو الحسن بن جبير الاندلسي: أطلبت على أفقيك السيزاهير سع ودم نالفلك السدائر فـــابشر فــان رقـاب العـــدا تمدّ الى سيف ك البات السات

وكسم لك من فتكة فيهم حكست فتكه الأسدا لخادر وكسرت صليبه معنصوة في من كسس في المساره من كسس في المساره من كلها في غيرت آثياره من جابر وأمضيت جدك في غيروه من فتعسا لجدّهم لعاثير وأدبير ملكهم بالشام وولى كيامسهم السدابير وولى كيامسهم السدابير

جنودك بالسرعب منصورة فناجرز متى شت أوصابر فكله مغرق هالك بتيـــارعسكــرك الـــزاخــر السارت لسديسن الهدى في العسدا فـــاثـــردالله مـــن ثـــائر وقم تبنصر إلى والسوري فسسله أجسوك مسسن صسابسر تبيــــت الملـــوك على فـــرشهـــم وتــرفــل في الــزرد الســابــر وت وت رجاه دعي شالجهاد على طيب عيشه الناضر وتسهـــرليلـــك في حـــقمــن سيرضيث في جفنك الساهر فتحست المقسدة س مسن أرضه فعيامت إلى وصفها الطام

وجئتالى قددسة المرتضى فخلصته من يدالكافرو فخلصت في من يدالكافرو وأعليت في من والهدى وأحييت من رسمة الدائد ولكرالله هداالفتو حمن الرزمين الاوّل الغابور وخصك من بعد في الوقية الأخرو بها لاصطناعا في الآخرو بها لاصطناعا في الآخرو بها لاصطناع في القيامة في النفوس بها لاصطناع في النفوس بها لاصطناع في المنافرة وكلم في الدورى طائر في ما في ما في ما في ما في المنافرة وكلم وكلم في المنافرة وكلم في المنافرة وكلم وكلم في المنافرة وكلم في

وباقي القصيدة تقلم في أخبار سنة أربع وسبعين، وقال أبو الحسن علي بن محمد الساعاتي:

أعيّاوقدعاينه الآية العظمى الأية حال تدخرواالنشروالنظها وقدشاع فتح القدم في كلمنطق وشاع فتح القدم في كلمنطق وشاع إلى أن أسما الصها وشاع الحسنى وشي بيشرب

وأطرب ذياك الضريح وماضا فليت فتى الخطاب شاهد فتحها فيشهد أن السيف من يوسف أصمى وماكان إلا الداء أيسادواؤه مغير الحسام العضب لايحسن الحسا وأصبح ثغير الدين جذلان باسها واست الاغهاد تسوسعسه لثما سلواالساحل لخشي عن سطواته فهاكسان إلاسساحسلاصسادف اليها

وله من قصيدة أحرى في السلطان:
عصفت به ريح الخطوب زعازعا
فلقين طورة و الاتخاف أنات و فلقين طورة و الاتخاف أنالي و فلقين طورة و التنابية و المسلمات في المسلمات في المسلمات في المسلمات و ال

وله من قصيدة في بعض أارب السلطان: السـتمـنالقـومالأولىبيـوفهـم نـواصخـرةالبيـتالمقـدسمسجـدا وللعماد الكاتب من قصيدة يمدح بها الملك الأفضل:

وله قصيدة في مدح الملك المؤيد: وكسم لبنسي صلاح الدين فينا على الاسلام من حسق تاكسد وإن لهم على الأمسلاك طسسرا بفتح القدس فضل اليس يجحد

وله من أخرى في مدح الملك الظاهر غازي:
هـــمالملــوك ذووبــاس ومكــرمــة
إن سـالمواأمنــواأوحـاربــواخيفــوا
أغناهـم القدس عـن قـول الـورى فتحت
عكـــاوصيـــدا وبيروت وأرســوف

جيس الفرنج إذا لاقى سوابقهم كسأنه جبسل بسالسريسح منسسوف

وقرأت على شيخنا أبي الحسن على بن محمد السخاوي رحمه الله من جملة قصيدة مدح بها بعض ولد السلطان أظنه الملك المحسن ظهير الدين أحمد بن صلاح الدين رحمها الله

ملك به وأبيه يفتخر العلا

ويفوق فخرهما السهاوالفرقدا

مايوسف محن يقاس بحاتم

أنسى وقسد وهسب الحصون وأصفدا

اوان يقال كاند

والسروع كالاسدالهصور إذاعدا

أومىن يشبه جسوده بغمامسة

أومن يقال لثلبه عمر السردي

بل مالك الدنيا ومالى ورحبها

ومخلص البيت المقددس بعدما

رفيع الصليب على ذراه ومجدا ومن الملسوك الصيديلة المساهم إذا

رفــــعالسرادق راكعين وسجـــدا وبـــهأتـــى البيست الحرام وفـــوده

م نین المردا

من بعدمادرست معالم سبله

دهـــراوء حرمزههـاأن يقصــدا

# في صفة إقامة الجمعة بالأقصى شرفه الله تعالى في رابع شعبان ثامن يوم الفتح

وقد وهم محمد بن القادسي في تاريخه فيها قرأته بخطه، فإنه قال: فتح صلاح الدين بيت المقدس وخطب على المنبر فيه بنفسه وصلى فيه، ولبس خلعة سوداء ، ولم يكن السطان هو الذي باشر الخطبة على ماسنذكره، وقد تقدم أن يوم الفتح وإن كان يوم الجمعة ، إلا أن الوقت ضاق عن إقامة فرض صلاة الجمعة فيه

قال العماد: لما تسلم السلطان القدس أمر بإظهار المحراب، وكان الداوية قد بنوا في وجهه جدارا، وتركوه للغلة هرياً، وقيل كانوا اتخذوه مستراحاً عدواناً وبغيا، وكانوا قد بنوا من غربي القبلة داراً وسيعة وكنيسة رفيعة، فأوعز بكشف ذلك الحجاب، وكشف النقاب عن عروس المحراب، وهدم ماقد دامه من الأبنية وتنظيف ماحوله من الأفنية، بحيث يجتمع الناس للجمعة في العرصة المتسعة، ونصب المنبر وأظهر المحراب المطهر، ونقض ما أحدثوه بين السواري، وفرشوا تلك البسيطة بالبسط الرفيعة عوض الحصر والبواري، وعلقت القناديل، وتلى التنزيل، وحق الحق، وبطلت الأباطيل، وتولى الفرقان وعزل الإنجيل، وصفت السجادات، وصفت العبادات، وأقيمت الصلوات، وأديمت الدعوات، وتجلت البركات، وانجلت الكربات، وانجابت الغيابات، وانثابت الهدايات، وتليت الآيات، وأعليت الرايات، ونطق الأذان ، وخرس الناقوس، وحضر المؤذنون وغاب القسوس، وزال العبوس والبؤس، وطابت الانفاس والنفوس، وأقبلت السعادات، وأدبرت النحوس ، وعاد الإيهان الغريب منه إلى موطنه وطلب الفضل من معدنه، وورد القرّاء وقرأوا الأوراد، واجتمع الزهاد والعباد والابدال والاوتاد، وعبد الواحد،

ووحد العابد، وتوافد الراكع والساجد والخاشع والواجد، والزاهي والزاهد، والحاكم والشاهد، والجاهد والمجاهد، والقائم والقاعد، والمتجهد والساهد، والزاثر والوافد، وصدح المنبر، وصدع المذكر، وانبعث المعشر، وذكر البعث والمحشر ، وأملى الحفاظ، وأبكى الوعاظ، وتـذاكر العلماء، وتناظر الفقهاء، وتحدّثت الرواة، وروى المحدّثون وتحنف الهداة، وهدى المتحنفون، وأخلص الداعون، ودعا المخلصون، وأخل بالعزيمة المترخصون، ولخص المفسرون، وفسر الملخصون، وانتدى الفضلاء، وانتدب الخطباء، وكثر المترشحون للخطابة، المتوشحون بالاصابة، المعروفون بالفصاحة، الموصوفون بالحصافة، فما فيهم إلا من خطب الرتبة، ورتب الخطبة، وانشأ معنى شائقاً، ووشى لفظا رائقاً ،وسوى كلاماً بـالموضع لاثقاً،و روى مبتكراً من البـلاغة فاثقاً، وفيهـم من عرض على خطبته، وطلب منى نصبته، وتمنى أن ترجح فضيلته، وتنجح وسيلته، وتسبق بمنيته فيها أمنيته، وكلهم طال إلى الإنتهاء بها عنقه، وسال من الإلتهاب عليها عرقه، ومامنهم إلا من يتأهب ويترقب، ويتوسل ويتقرب، وفيهم من يتعرض ويتضرع ، ويتشوف ويتشفع، وكل قد لبس وقاره ووقر لباسه، وضرب في أخماسه أسداسه، ورفع لهذه الرياسة رأسه، والسلطان لا يعين ولايبين، ولايخص ولاينص، ومنهم من يقول ليتني خطبت في الجمعة الأولى وفرت باليد الطولي، وإذا ظفرت بطالع سعدي، فما أبالي بمن خطب بعدي، فلما دخل يوم الجمعة رابع شعبان أصبح الناس يسألون في تعيين الخطيب السلطان، وامتلا الجامع، واحتفلت المجامع، وتوجست الأبصار والمسامع، وفاضت لـرقة القلوب المدامع، وراعب لجليه تلك الحالمة وبهاء تلك البهجة الروائع، وغصت بالسآبقين إليها المواضع، وتوسمت العيون، وتقسمت الظنون، وقال الناس: هذا يوم كريم، وفضل عميم، وموسم عظيم، هذا يوم تجاب فيه الدعوات، وتصب البركات، وتسال العبرات، وتقال العثرات، ويتيقظ الغافلون، ويتعظ العاملون، وطوبى لمن عاش حتى حضر هذا اليوم

الندي فيه انتعش الإسلام وانتاش، وماأفضل هذه الطائفة الحاضرة، والعصبة الطاهرة، والامة الظاهرة، وماأكرم هذه النصرة الناصرية، والاسرة الإمامية، والدولة العباسية، والمملكة الأيوبية، والدولة الصلاحية، وهل في بلد الإسلام أشرف من هذه الجماعة التي شرفها الله بالتوفيق لهذه الطاعة، وتكلموا فيمن يخطب، ولمن يكون المنصب، وتفاوضوا في التفويض، وتحدّثوا بالتصريح والتعريض، والأعلام تعلى، والمنبر يكسى ويجلى، والأصوات ترتفع، والجماعات تجتمع، والأفواج تزدحم، والأمواج تلتطم، وللعارفين من الضجيج مافي عرفات للحجيج، حتى حان الزوال، وزال الإعتدال، وحيعل الداعي، وأعجل الساعي، فنصب السلطان الخطيب بنصه، وأبان عن اختيارة بعد فحصه، وأوعز إلى القاضي محيي الدين أبي المعالي محمد بن زكي الدين علي القرشي بأن يرقى ذلك المرقى، وترك جباه الباقين بتقديمه عرقى، فأعرته من عندي أهبة سوداء من تشريف الخلافة حتى يكمل له شرف الإفاضة والإضافة، فرقى العود، ولقى السعود، واهتزت أعطاف المنبر، واعتزت أطراف المعشر، وخطب وانصَّتوا، ونطق وسكتوا وأفصح وأعرب، وأبدع وأغرب، وأعجز وأعجب، وأوجز وأسهب، ووعظ في خطبتيه وخطب بموعظتيه وأبان عن فضل البيت المقدّس وتقديسه، والمسجد الأقصى من أول تأسيسه، وتطهيره بعد تنجيسه، و إخراس ناقوسه، وإخراج قسيسه، ودعا للخليفة والسلطان، وختم بقوله تعالى: (إن الله يأمر بالعدل والإحسان)(٥١) ونزل وصلى في المحراب وافتتح ببسم الله الرحمن الرحيم من أم الكتاب، فأم بتلك الأمة، وتم نـزول الرّحمة، وكمل وصول النعمة، ولما قضيت الصلاة انتشر الناس، واشتهر الإيناس، وانعقد الإجماع، واطرد القياس، وكان قد نصب للوعظ تجاه القبلة سرير ليفرعه كبير، فجلس عليه زين الدين أبو الحسن على بن نجا، فذكر من خاف ومن رجا ومن سعد ومن شقى، ومن هلك ومن نجا، وخوّف بـذي الحجة ذوي الحجا، وجلا بنور عظاته من ظلم الشبهات مادجا، وأتى بكل عظة للراقدين موقظة، وللظالمين محفظة، ولأولياء الله مرققة ولأعداء الله مغلظة، وضج المتباكون وعبج المتشاكون، ورقت القلوب، وخفت الكروب، وتصاعدت النعرات، وتحدرت العبرات، وتاب المذنبون وأناب المتحوبون، وصاح التوابون، وناح الأوابون، وجرت حالات جلت، وجلوات حلت، ودعوات علت، وضراعات قبلت، وفرص من الولاية الالهية انتهزت، وحصص من العناية الربانية أحرزت، وصلى السلطان في قبة الصخرة، والأيدي إلى الله مرفوعة، والدعوات له مسموعة، ثم رتب في المسجد الاقصى خطيباً استمرت خطبته، واستقرت نصبته.

قلت: هذه الفاظ العهاد في هذا الفصل من كتاب الفتح، وذكره في كتاب البرق بعبارة أخرى، تشتمل على فوائد زائدة، وفي تكرار ماتقدم أيضاً بغير تلك العبارة فائدة، فإنها معان جليلة، كلها ذكرت جلت، وكلها تكررت حلت.

قال العماد في كتاب البرق: لما كان يوم الجمعة التالية لجمعة الفتح، تقدم السلطان في المسجد الاقصى ببسط العراص، واخلائها لأهل الاخلاص، وتنظيفها من الأذناس ، وكنس مافي أرجائها من الأنجاس ، وقد كان سبق أمره من مبدأ الامر بهدم ما هناك من أبنية الكفر، وإبراز المحراب القديم، وإعادة موضعه إلى الوضع الكريم، فقد كان الداويه بنوا غربيه داراً وأدخلوه فيها وخلطوه بمبانيها، واتخذوا منه جانباً مستراحاً للاعلال؛ وجانباً هريا للغلال، فأمر في العاجل بكشف قناعه، ورفع الوضيع من أوضاعه، ونقل ماوقع من انقاضه، ونقض مااعتور ذلَّك الجوهر النفيس من اعراضه، حتى ظهر موضع المنبر والمحراب، واستظهر بإزالة ماقدًامه من الحجاب، واجتمع الخلق في ذلك الاسبوع على تفريق ذلك الهدم المجموع، وتعاونوا وتعانوا حتى كشفوه، ونظفُوه ورشوه وفرشوه، وكان قد أمر باتخاذ منبر في تلك الأيام فنجروه وركبوه، ولما أصبحنا يوم الجمعة وجدنا العلل مزاحه، والهمم مراحه، والخواطر إلى وردها ملتاحة مرتاحة، وهناك فضلاء بلغاء، وعلماء أتقياء، وكل منهم قد سبق بخطبة الخطبة، وأمل الفوز بفضيلة تلك الرتبة، وأعد لذلك المقام مقالاً، ونشط بشقشقة فصاحته من قرم حصافته عقالاً، حتى إذا حيعل الداعي، وتعين الفرض على الساعي، حضر السلطان للصلاة من قبة الصخرة ، بادية على أساريره أسرار سروره بالأسرة، وامتلأت تلك العراض والصحون، واستعبرت للفرح بها يسره الله العيون، وآن لدين الله أن تقضى له الديون وتفك الرهون، ووجلت القلوب وخشعت الأصوات ، وحسنت الظنون ، وعين السلطان القاضي محيي الدين أبا المعالي محمد بن علي القرشي، الزكي بن الزكي، للصلاة والخطبة، وفرع تلك الرتبة، فصعد وسعد، وحمد و أحمد، وأدت المعاني الشريفة ألفاظه، ونبه الأقاصي والأداني إيقاظه، وجلا المسامع ، وجلب المدامع، وأتى بالخطبتين المفروضتين على الوجه المشروع

والنهج المتبوع، والشرط الموضوع، وذكر في الفتح البكر ماافتض به ابكار الاستعارات بأبدع البراعات ، وأبرع العبارات ، وصدح بالصدق، ونطق بالحق ، وفياز بالسبق، وحياز على فضيلاء الغرب والشرق، فهو لنشر المعاني أضم خطيب، له بنشر المعالي أضمخ طيب، فأين قس في عكاظه، من قياس ألفاظه، وأين سحبان من سجعاته، وأين ابن نباتة من نباته، ولمو عاشما لافتقرا إلى فقره واحتقرا أعراضهما عنمد جموهره، ودعما لأمير المؤمنين، ثم لسلطان المسلمين، ونبزل وقام إماماً أكمل بصلاته الفرض، وأرضى بسمت دعواته والطمأنينة في ركعاته وسجداته أهل السهاء والأرض، وسر السلطان بنصب ورفعه ، وامتلاً صدره حبوراً منه بجلاء بصره وسمعه، فقد أخذت بالأبصار أشعة أنوار الخطبة، في سواد الأهبة ، وعظمت أخطار المهابة في خواطر المحبة، وكرمت سرائر الزلفي إلى الله والقربة، ثم رتب السلطان بعده خطيباً يستمر إقامته للجمع والجماعات، وتستقر ملازمته لأداء الصلوات، ولما قضيت الصلاة تلك الجمعة، نصب سرير للوعظ أبقى تلك الأمة المجتمعة، وتقدم السلطان إلى زين الدين الواعظ ليفرع السرير، وينفع بعظاته الصغير والكبير، وحضر المجلس بمرأى منه ومسمع، فكان أنور مجلس ومجلى وأشرف جمع ومجمع، فحقق ورقق وأشهد وأشهق، وخلب بعباراته الحلوة العبرات، وشار العسل بمعسول الإشارات، وبشر البشر بشارة البشارات، وذكر الفتح وبكارته، والقدس وطهارته، والدين وجسارته، والكفر وخسارته، والقدر وإعانته، والظفر وإبانته، والصخرة وإصراحها، والروعة وإفراخها، والنار وصراطها، والقيامة وأشراطها، والرحمة وبابها من باب الرحمة، والجنة وجناها لهذه الأمة، وماأعده الله لهذه الطائفة، وماأنزله من الأمن على القلوب الخائفة، ووصف ببلاغته مالايبلغ إليه نطق الالسنة الـواصفة، ووصف الجهاد وفرائضه وفضائله والخير ودلائله، والنجمح ووسائله، والشرع ومسائله، واللنب وغوائله، وإحسان السلطان وفواضله، والبحر وساحله، والدين وحقه، والكفر وباطله، وكان يـوماً راجيحاً وسهماً رايحاً.

## في إيراد ماخطب به القاضي محيي الدين رحمه الله

قال العماد وخطب القاضي محيي الدين بن زكي الدين أربع خطب في أربع جمع كلها من إنشائه، وأودعها سر بلاغة عنيت بافشائه، وذكرت الخطبة الأولى ويد الفصاحة فيها طولى، افتتحها بهذه الآيات:

(فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين) (٥٥) (الحمد لله رب العالمين الرحن الرحيم مالك يوم الدين) (٢٥) (الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور) (٧٥) (وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً) (٥٨) الآية (الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب) (٥٩) (قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى) (٢٠) (الحمد لله الذي له ما في الأرض) (٢١) و (الحمد لله فاطر السموات والأرض) (٢١)

## والخطبة هي:

«الحمد لله معز الإسلام بنصره، ومذل الشرك بقهره، ومصرف الامور بآمره، ومديم النعم بشكره، ومستدرج الكافرين بمكره، الذي قدر الأيام دولا بعدله، وجعل العاقبة للمتقين بفضله، وأفاء على عباده من ظله، وأظهر دينه على الدين كله، القاهر فوق عباده فلا يهانع، والظاهر على خليقته فلا ينازع، والآمر بها يشاء فلا يراجع، والحاكم بها يريد فلا يدافع، أحمده على اظفاره وإظهاره وإعزازه لأوليائه ونصره لأنصاره، وتطهيره بيته المقدس من أدناس الشرك وأوضاره، حمد من استشعر الحمد باطن سره وظاهر جهاره، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لاشريك له الأحد (الصمد) الذي (لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد) شهادة من طهر بالتوحيد قلبه وأرضى به ربه، وأشهد أن محمداً صلى الله عليه وسلم عبده ورسوله رافع الشك وداحض الشرك. وراحض الأفك.

الذي أسرى به من المسجد الحرام إلى هذا المسجد الأقصى. وعرج به منه إلى السموات العلى إلى (سدرة المنتهى، عندها جنة المأوى، إذ يغشى السدرة مايغشى، مازاغ البصر وما طغى) (٦٣) صلى الله عليه وعلى خليفته أبي بكر الصديق السابق إلى الإيهان، وعلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أول من رفع عن هذا البيت شعار الصلبان، وعلى أمير المؤمنين عثمان ذي النوريس جامع القرآن، وعلى أمير المؤمنين على بن أبي طالب مزلزل الشرك، ومكسر الأوثان، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم باحسان.

أيها الناس أبشروا برضوان الله اللذي هو الغاية القصوى، والدرجة العليا، ولما يسره الله على أيديكم من استرداد هذه الضالة من الأمة الضالة، وردِّها إلى مقرها من الإســلام بعد ابتذالها في أيدي المشركين قريباً من مائة عام، وتطهير هذا البيت الذي أذن الله أن يرفع وأن يذكر فيه اسمه (٦٤) و إماطة الشرك عن طرقه، بعد أن امتد عليها رواقه، واستقر فيها رسمه، ورفع قواعده بالتوحيد، فإنه بني عليه وبالتقوى فإنه أسس على التقوى من خلفه ومن بين يديه، فهو موطن أبيكم ابراهيم، ومعراج نبيكم محمد عليه السلام، وقبلتكم التي كنتم تصلون إليها في ابتداء الإسلام، وهو مقر الأنبياء ومقصد الأولياء ومقر الرسل، ومهبط الوحى، ومنزل تنزل الأمر والنهي، وهو في أرض المحشر، وصعيد المنشر، وهو في الأرض المقدسة التي ذكرها الله في كتابه المبين، وهو المسجد الذي صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالملائكة المقربين، وهو البلد الذي بعث الله إليه عبده ورسوله، وكلمته التي ألقاها إلى مريم وروحه عيسى الذي شرفه الله برسالته وكرمه بنبوته ولم يزحزحه عـن رتبة عبوديته، فقال تعالى: (لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله) (٦٥) وقال : (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم ) (٦٦) وهو أول القبلتين وثاني المسجدين وثالث الحرمين، لآتشد الرحال بعد المسجدين إلا إليه، ولاتعقد الخناصر بعد الموطنين إلا عليه، ولـولا أنكم ممن اختـاره الله من عباده واصطفاه من سكان بالده، لما خصكم بهذه الفضيلة التي لايجاريكم فيها مجار، ولايباريكم في شرفها مبار، فطوبي لكم من جيش ظهرت على أيديكم المعجزات النبوية. والوقعات البدرية، والعزمات الصديقية. و الفتوح العمرية، والجيوش العثانية. والفتكات العلوية. جددتم للإسلام أيام القادسية . والوقعات اليرموكية. والمنازلات الخيبرية والهجات الخالدية. فجازاكم الله عن نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أفضل الجزاء، وشكر لكم مابدلتموه من مهجكم في مقارعة الأعداء. وتقبل منكم ماتقربتم به إليه من مهراق الدماء، وأثبابكم الجنة فهي دار السعداء فأقدروا رحمكم الله هذه النعمة حتى قدرها. وقوموا لله تعالى بواجب شكرها. فله النعمة عليكم بتخصيصكم بهذه النعمة وترشيحكم لهذه الخدمة. فهذا هو الفتح الذي فتحت له أبواب السهاء وتبلجت بأنواره وجوه الظلماء، وابتهج به الملائكة المقربون وقر به عينا الأنبياء والمرسلون، فهاذا عليكم من النعمة بأن جعلكم الجيش الذي يفتح عليه البيت المقدس في آخر الزمان. والجند الذي تقوم بسيوفهم بعد فترة من النبوة أعلام الإيمان، فيوشك أن تكون التهاني به بين أهل الخضراء أكثر من التهاني به بين أهل الغبراء. أليس هو البيت الذي ذكره الله في كتابه. ونص عليه في خطابه. فقال تعالى: (سبحان اللي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله) الآية. أليس هو البيت الـذي عظمته الملوك و أثنت عليه الرسل ، وتليت فيه الكتب الأربعة المنزلة من الهكم عز وجل ، أليس هو البيت الذي أمسك الله عز وجل الشمس على يوشع لأجله أن تغرب، وباعد بين خطواتها ليتيسر فتحه ويقرب، أليس هو البيت الذي أمر الله موسى أن يأمر قومه باستنقاذه فلم يجبه إلا رجلان وغضب عليهم لأجله فألقاهم في التيه عقوبة العصيان، فأحمدوا الله الذي أمضى عزائمكم لما قعد عنه بنوا اسرائيل، وقد فضلهم على العالمين ووفقكم لما خدل فيه من كان قبلكم من الأمم الماضين. وجمع لأجله كلمتكم وكانت شتى. وأغناكم بها أمضته كان وقد عن سوف وحتى، فليهنكم إن الله قد ذكركم به فيمن

عنده. وجعلكم بعد أن كنتم جنوداً لاهـويتكم جنده. وشكركم الملائكة المنزلون على ما أهديتم إلى هذا البيت من طيب التوحيد ونشر التقديس والتحميد، وما أمطتم عن طرقهم فيه من أذى الشرك والتثليث. والاعتقاد الفاجر الخبيث، فألآن يستغفر لكم أملاك السموات. وتصلي عليكم الصلوات المباركات. فاحفظ وا رحمكم الله هذه الموهبة فيكم. وأحرسوا هذه النعمة عندكم بتقوى الله التي من تمسك بها سلم، ومن اعتصم بعروتها نجا وعصم. واحذروا من اتباع الهوى. وموافقة الردى. ورجوع القهقرى. والنكول عن العدا، وخذوا في انتهاز الفرصة وإزالة مابقى من الغصة. وجاهدوا في الله حق جهاده. وبيعوا عباد الله أنفسكم في رضاه إذ جعلكم من خير عباده. وإياكم أن يستزلكم الشيطان. وأن يتداخلكم الطغيان، فيخيل لكم إن هذا النصر بسيوفكم الحداد. وبخيولكم الجياد. وبجلادكم في مواطن الجلاد. لا والله (ما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم) (١٧). وإحذروا عباد الله بعد أن شرفكم بهذا الفتح الجليل. والمنح الجزيل. وخصكم بهذا الفتح المبين. وأعلق أيديكم بحبله المتين. أن تقترفوا كبيراً من مناهيه. وأن تأتوا عظيماً من معاصيه، فتكونوا (كالتي نقضت غزلها من بعد قوة انكاثاً)(١٨٥) (والذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين)(٦٩) والجهاد الجهاد، فهو من أفضل عباداتكم. وأشرف عاداتكم انصروا الله ينصركم. اذكروا أيام الله يذكركم، اشكروا الله يزدكم ويشكركم. جدوا في حسم الداء. وقطع شافة الأعداء. وتطهير بقية الأرض التي أغضبت الله ورسوله. وأقطعوا فروع الكفر واجتثوا أصوله. فقد نادت الأيام: بالثارات الإسلامية والملَّـة المحمدية. الله أكبر فتح الله ونصر . وغلب الله وقهر، أذل الله من كفر. واعلموا رحمكم الله أن هذه فرصة فانتهزوها. وفريسة فناجزوها، ومهمة فأخرجوا لها هممكم وأبرزوها. وسيروا إليها عزماتكم وجهزوها. فالأمور بأواخرها. والمكاسب بذخائرها. فقد أظفركم الله مهذا العدو المخذول. وهم مثلكم أو يزيدون. فكيف وقد أضحى في

قبالة الواحد منهم منكم عشرون. وقد قال الله تعالى: ( إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين) (٧٠٠ أعاننا الله وإياكم على اتباع أوامره والازدجار بزواجره، وأيدنا معشر المسلمين بنصر من عنده (لأن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده) (٧١٠).

وتمام الخطبة الثانية قريب مما جرت به العادة، وقال بعد الدعاء للخليفة:

اللهم وأدم سلطاننا عبدك الخاضع لهيبتك، الشاكر لنعمتك المعترف بموهبتك، وسيفك القاطع، وشهابك اللامع، والمحامي عن دينك المدافع، والذابّ عن حرمك المهانع، السيد الأجل الملك الناصر، جامع كلمة الإيان، وقامع عبدة الصلبان، صلاح الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، مطهر البيت المقدس، أبا المظفر يوسف بن أبوب، محيى دولة أمير المؤمنين، اللهم عم بدولته البسيطة، واجعل ملائكتك برآياته محيطة، وأحسن عن الدين الحنيفي جزاءه، واشكر عن الملة المحمدية عزمه ومضاءه، اللهم أبق للإسلام مهجته ، ووق للايمان حوزته ، وانشر في المغارب والمشارق دعوته. اللهم فكما فتحت على يده البيت المقدّس بعد أن ظنت الظنون، وابتلى المؤمنون. فافتح على يده أدانى الأرض وأقاصيها، وملكه صياصي الكفرة ونواصيها، فلرتلقاه منهم كتيبة إلا مزقهـا ولاجماعة إلا فرقها، ولاطـائفة بعد طائفـة إلا ألحقها بمن سبقها، اللهم اشكر عن محمد صلى الله عليه وسلم سعيه وأنفذ في المشارق والمغارب أمره ونهيه، اللهم أصلح به أوساط البلاد وأطرافها وأرجاء المالك وأكنافها، اللهم ذلل به معاطس الكفار، وأرغم به أنوف الفجار، وانشر ذوائب ملك على الأمصار، وأثب سرايا جنوده في سبل الأقطار، اللهم ثبت الملك فيه وفي عقبه إلى يوم الدين واحفظه في بنيه. وبني أيوب الملوك الميامين، واشدد عضده ببقائهم، واقض باعزاز أوليائه وأوليًا تهم . اللهم كما أجريت على يده في الإسلام هذه الحسنة التي تبقى على الأيام وتتخلد على مر الشهور والأعوام، فارزقه الملك الأبدي اللذي لاينفد في دار المتقين، وأجب دعاءه في قوله: (رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت على وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه)(٧٢) (وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين)(٧٢) ثم ماجرت العادة به

## في المنبر

قال العهاد: لما فتحنا القدس أمر بتعمير المحراب وترخيمه، وتكميل حسنه وتتميمه، ووضع منبر رسمي في أول يـوم قضي به الفرض، واحتيج بعد ذلك إلى منبر حسن رائق بحسن لائق، وبجماله شائق، وبكماله فائق، فذكر السلطان المنبر الذي أنشأه الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله لبيت المقدس قبل فتحه بنيف وعشرين سنة، وأودعه له من ذَخائره عند الله حسنه، فأمر أن يُكتب إلى حلب ويطلب فحمل وعمل على ماأمره به وامتثل، فجاء كالروض النضير، والوشي الحبير، عديم النظير، وكان من حديث احداثه ما ألهم الله نور الدين رحمه الله لارتياح خاطره إليه وانبعاثه، وقد أوقع في روعه من النور الفائض من ينبوع ضلوعه، أن البيت المقدس بعده سيفتح، وأن صدور المسلمين الحرجة لأجله ستشرح، وهو من أولياء الله الملهمين، وعباده المحدثين المكرمين، وكان بحلب نجار يعرف بالاختريني، من ضيعة تعرف باخترين، لم يلف له في براعته وصنعته قـرين، فأمره نور الدين بعمل منبر لبيت الله المقدس، وقال له: اجتهد أن تأتي به على النعت المهندم والنحت المهندس، فجمع الصناع، وأحسن الإبداع وأتمه في سنين، واستحق بحق إحسانه التحسين، والناس يقولون هذا أمر مستحيل وحكم ماله دليل ،و ذكر جميل وأجر جزيل، لو كان إليه سبيل، وهيهات أن يعود القدس إلى الإسلام، ويقضي الإصباح فيه على الإظلام، فإن الفرنج عليه مستولون مستعلون، وهم يكثرون على الأيام ولايقلون، أما ناصفونا على أكثر أعمال حوران، وقابلوا بالكفر الإيمان؟ وقد أعجزوا ملوك الإسلام إلى اليوم، فما أصعب واتعب وقم القوم، ويقول من له قوّة اليقين وعرف أن الله كافل بنصرة الدين: اصبروا فلسر هذه الامة نبأ، وهسو كما قال الله تعالى: (ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملاً) (٧٤) ولم يزل لنور الدين في قلبه من الدين نور، وأثر تقواه للمتقين مأثور، أزهد العباد، وأعبد الزهاد، وهو من الأولياء الأبرار والاتقياء الأخيار، وقد نظر بنور الفراسة أن الفتح قريب، وأن الله لدعائه ولو بعد فتحه مجيب، ويزيده قوة عزمه جداً، ويمده بحياء الحياة الربانية مداً، وقد طهره الله من العيب، وأطلعه على سر الغيب، ونزهه من الريب، لنقاء الجيب، وشملت الإسلام بعده بركته، وختمت بافتتاح ملك صلاح الدين مملكته، وهو الذي رباه ولباه وأحبه وحباه ،و هو الذي سن الفتح وسنى النجح، واتفق أن جامع حلب في الأيام النورية احترق فاحتيج إلى منبر ينصب فنصب ذلك المنبر، وحسن المنظر وترولى حينئذ النجار عمل المحراب المنبر في الرسم، ومن رأى عمل المحراب على الرقم، وشابه المحراب المنبر في الرسم، ومن رأى حلب الآن شاهد منه على مثال المنبر القدسي الاحسان

ولما فتح السلطان القدس تقدم بحمله، وصح به في محراب الأقصى تفريق شمله، وظهر سر الكرامة في فوز الإسلام بالسلامة، وتناصرت الألسن بالدعاء لنور الدين بالرحمة، ولصلاح الدين بالنصرة والنعمة

وقال العهاد في موضع آخر من كتاب البرق: وكان الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله في عهده عرف بنور فراسته فتح البيت المقدس من بعده، فأمر في حلب باتخاذ منبر للقدس، وتعب النجارون والصناع والمهندسون فيه سنين، وابدعوا في تركيبه الأحكام والتزيين، وأنفق في إبداع محاسنه وإبداء مزاينه ألوفاً، وكان لترديد النظر فيه على الأيام ألوفاً، وبقي ذلك المنبر بجامع حلب منصوباً ، سيفاً في صوان الحفظ مقروباً، حتى أمر السلطان في هذا الوقت بالوفاء بالنذر النوري، ونقل المنبر إلى موضعه القدسي، فعرفت بذلك كرامات نور الدين التي أشرق نورها بعده بسنين، وكان من المحسنين الذين قال الله تعالى فيهم: (والله يحب المحسنين). (٥٥)

قلت : وهذا الذي نسبه إلى نور الدين رحمه الله من أنه كرامة من كراماته لائق بمحله ومنزلته من الدين، وليس بالبعيد من مثل ذلك ،و كان رحمه الله قد بدت لـ عايل ذلك بها تسنى له من فتـ البلاد الشامية والمصرية، وقهر العدوّ بين يديه مراراً، وكان فتح القدس في همته من أول ملكه، فإن لم يكن حصل له مباشرة فقد حصل له تسبباً، فإن الفاتحين له رحمهم الله بنوا على ماأسسه لهم من الملك والتدبير، وهم أمراؤه وأتباعه وأجناده وأشياعه، ثم يحتمل أن يكون رحمه الله وقف على ماذكره أبو الحكم بن برجان الأندلسي في تفسيره فإنه أخبر عن فتح القدس في السنة التبي فتح فيها ،و عمر نبور الدين إذ ذاك إحدى عشرة سنة، وقد رأيت أنا ذلك في كتابه ذكر في تفسير أول سورة الروم أن البيت المقدس استولت عليه الروم عام سبع وثهانين وأربعهائة، وأشار أنه يبقى بأيديهم إلى تمام خمسمائة وثلاث وثمانين سنة، قال : ونحن في عام اثنتين وعشرين وخمسهائة، فلم يستبعد نور الدين رحمه الله لما وقف عليه أن يمتد عمره إليه فهيأ أسباب حتى منبر الخطابة فيه تقرباً إلى الله تعالى بها يبديه من طاعته ويخفيه ، وهذا الـذي ذكره أبو الحكـم الأندلسي في تفسيره مـن عجائب مااتفق لهذه الأمة المرحومة، وقد تكلم عليه شيخنا أبو الحسن على بن محمد في تفسيره الأول فقال: وقع في تفسير أبي الحكم الأندلسي في أول سورة الروم إخبار عن فتح البيت المقدس وأنه ينزع من أيدي النصارى سنة ثلاث وثمانين وخمساتة. قال: وقال لي بعض الفقهاء: إنه استخرج ذلك من فاتحة السورة. قال: فأخذت السورة وكشفت عن ذلك، فلم أره أخل ذلك من الحروف وإنها أخله فيها زعم من قوله تعالى (غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين) فبنى الأمر على التاريخ كما يفعل المنجمون، ثم ذكر أنهم يغلبُون في سنة كذا، ويغلبون في سنة كذا على ماتقتضيه دوائر التقدير، قال وهذه نجامة وافقت إصابة إن صح أنه قال ذلك قبل وقوعه، وكان في كتاب قبل حدوثه وليس ذلك بمأخوذ من الحروف ولاهو من قبيل

الكرامات، أيضاً فإن الكرامة لاتكتسب بحساب، ولاتفتقر إلى تاريخ، وللذلك لم يوافق الصواب لما أدار الحساب على القراءة الأخرى الشاذة التي هي بفتح الغين من (غلبت الروم) ويوضح ذلك أنه قال في سورة القدر: لو علم الوقت الذي أزل فيه القرآن لعلم الوقت الذي يرفع فيه.

قال العهاد: وأما الصخرة المقدسة فإن الفرنج كانوا بنوا عليها كنيسة ، وأعادوا رسومها القديمة دريسه، وستروها بالأبنية، وعوَّجوا أوضاعها بزعم التسوية، وكسـوها صوراً هي أشنع من التعريه، وملـؤوها بتصاريف التصاوير، ونبتوا في ترخيمها اشباه الخنازير، وجعلوا المذبح لها مذبحاً، ولم يتركوا فيها لـ الأيدي المتبركة، ولا للعيون المدركة ملمساً ، والمطمحاً، وقد زينوها بالصور والتهاثيل، وعينوا بها مواضع الرهبان ومحط الإنجيل، وكملوا بها أسباب التعظيم والتبجيل ، وافردوا فيها لموضع القدم قبة صغيرة مذهبه بأعمدة الرخام منصبه، وقالوا محل قدم المسيح، وهو مقام التقديس والتسبيح، وكان فيها صور الأنعام منبتة في الرخمام، والصخرة المقبصودة المزورة بها عليها من الأبنية مستوره، وبتلك الكنيسة المعمورة مغمورة، فأمر السلطان بكشف نقابها، ورفع حجابها ،و حسر لشامها ، وقشر رخامها ورحض وضرها، ونقض أبنيتها، ونقل حجرها، وإبرازها للزائرين، وإظهارها للناظرين، فبانت من الشين، وبانت للعين، وحبيت بالقبل، و فديت بالمقل، فعادت كما كانت في الزمن القديم، وشهدت حين شوهدت بحسبها الكريم، وما كان يظهر منها قبل الفتح إلا قطعة من تحتها، قد أساء الكفر في نحتها، فظهرت الآن أحسن ظهور، وسفرت أيمن سفور، وأشرقت القناديل من فوقها نوراً على نور، وعملت عليها حظيرة من شبابيك حديد، والاعتناء بها إلى كل يوم في مزيد

قال: وكان الفرنج قد قطعوا من الصخرة قطعاً وحملوا منها إلى قسطنطينية، ونقلوا منها إلى صقليه، وقيل باعوها بوزنها ذهباً، واتخلوا ذلك مكتسباً، ولما طهرت ظهرت مواضعها، وقطعت القلوب لما بانت مقاطعها، فهي الآن مبرزة للعيون بحزها، باقية على الأيام بعزها، مصونة للإسلام في خدرها وحرزها.

وقال في البرق: ولما ظهرت الصخرة وجدناها وقد أبقت لها النوائب حزوزا، وأودعت ضميرها من شر أهل الكفر شراً مرموزاً، فإن الفرنج نقلوا منها إلى بلادهم قطعاً، وأبدعوا فيها بدعاً حتى قيل إنها بيعت بوزنها ذهباً، وأفضى الأمر بها أن يكون حجرها منتهباً، فغطاها بعض ملوكهم إشفاقاً عليها لئلا تمتد يد ضيم إليها ، فأبقت حزوزها في القلوب حزازات، وسار حديث حادثها في الآفاق بروايات وإجازات، وتولاها بعد ذلك الفقيه ضياء الدين عيسى فصانها بشبابيك من حديد، وثبت أركانها بكل تسديد.

وقال في الفتح؛ ورتب السلطان في قبة الصخرة إماماً حسناً، ووقف عليها داراً وأرضاً وبستاناً، وحمل إليها وإلى محراب المسجد الأقصى مصاحف وختيات، وربعات معظيات، لاتزال بين أيدي الزائريين على كرسيها مرفوعة، وعلى أسرتها موضوعة، ورتب لهذه القبة خاصة وللبيت المقدس عامة قومة من العارفين العاكفين القائمين بالعبادة الواقفين، فيا أبهج ليلها وقد حضرت الجموع، وزهرت الشموع، وبان الخشوع، ودان الخضوع، ودرت من المتقين الدموع، واقشعرت من العارفين الضلوع، فهناك كل ولي يعبد ربه، ويأمل بره، وكل أشعث أغبر لايؤبه له، لوأقسم على الله لأبره، وهناك كمل من يحيي الليل ويقومه، ويسمو بالحق ويسومه، وهناك كل من يختم القرآن ويرتله، ويطرد الشيطان ويبطله ومن عرفته لمعرفته الأسحار، ومن ألفته لتهجده الأوراد والأفكار، وماأسعد نهارها حين يستقبل الملائكة زوارها، وتلحق الشمس أنوارها، وتحمل القلوب إليها سرارها.

قال: وتنافس ملوك بني أيوب فيها يؤثرونه بها من الآثار الحسنة، وفيها يجمع لهم ود القلوب وشكر الألسنة، فها منهم إلا من أجمل وأحسن وفعل ماأمكن، وجلى وبين، وحلى وزين، وأتى العادل أبو بكر بكل صنع بكر، وتقي الدين عمر بكل ماعم وعمر، ومن جملة أفعاله المشكورة، - 126 -

ومكرماته المشهورة أنه حضر يوماً في قبة الصخرة ومعه من ماء الورد أحمال، ولأجل الصدقة والرفد مال، فانتهز فرصة هذه الفضيلة التي ابتكرها، وتولى بيده كنس تلك الساحات والعراص، وغسل جدرانها، ثم أتى بمجامر الطيب فتبخرت وتضوعت، ثم فرق ذلك المال فيها على ذوي الاستحقاق، وافتخر أن فاق الكرام بالإنفاق، وجاء الملك الأفضل نور الدين علي، بكل نور جلي، وكرم ملي، وبسط بها الصنيعة، وفرش فيها البسط الرفيعة، وسيأتي ذكر مااعتمده من بناء أسوار القدس وخفر خنادقه، وأعجز بها أعجب من سوابق معروفه ولواحقه، وأما الملك العزيز عثمان فإنه لما عاد إلى مصر ترك خزانة سلاحه بالقدس كلها، ولم ير بعد حصولها به نقلها، وكانت أحمالاً بأموال، وأثقالاً كجبال، وذخائر وافية، وعدداً واقيه، وكان من جملة ماشرط على الفرنج أن يتركوا لنا خيلهم وعدتهم، فتوفرت بذلك عدد البلد، واستغنى به عها يصل من خيلهم وعدتهم، فتوفرت بذلك عدد البلد، واستغنى به عها يصل من

قال وأما محراب داود عليه السلارم خارج المسجد الأقصى، فإنه في حصن عند باب المدينة منيع، وموضع عال رفيع، وهو الحصن الذي يقيم به الوالي، فرتب السلطان له إماماً، ومؤذنين وقواماً، و هو مشابة الصالحين، ومزار الغادين والبرائحين، فأحياه وجدّده، ونهج لقاصديه جدده، وأمر بعهارة جميع المساجد، وصون المشاهد، وانجاح المقاصد، واصفاء الموارد للقاصد والوارد، وكان موضع هذه القلعة دار داود وسليان عليها السلام، وكان ينتابها فيها الأنام، وكان الملك العادل نازلاً في كنيسة صهيون وأجناده على بابها مخيمون، وفاوض السلطان خلساؤه من العلماء والأكابر الأبرار والأتقياء الأخيار في أن يبنى مدرسة للفقهاء الشافعية، ورباطاً للصلحاء الصوفية فعين للمدرسة الكنيسة المعروفة بصندحنه عند باب أسباط، وعين دار البطرك وهي بقرب كنيسة المعروفة بصندحنه عند باب أسباط، وعين دار البطرك وهي بقرب كنيسة قامة للرباط، ووقف عليها وقوفاً، وأسدى بذلك إلى الطائفتين معروفاً، وارتاد أيضاً مدارس للطوائف ليضيفها إلى ماأولاه من العوارف.

قال البرق: وشرع الفرنج في إخلاء البيوت، وبيع ماأدخروه من الأثاث والقوت، وأمهلوا حتى باعوا بأرخص الاثمان، وكان خروجهم شبيها بالمجان، لاسيها ماتعذر لثقله نقله، وصعب حمله، وكانوا كها قال الله تعالى: (كم تركوا من جنات وعيون ﴿ وزرع ومقام كريم ﴿ ونعمة كانوا فيها فاكهين الله كذلك وأورثناها قوما آخرين (٢٧١) ، فباعوا ماتهيا لهم على البيع إخراجه رخيصاً، وأبقوا مالم يجدوا من تركه محيصاً ، وغلبوا على مافي الدور من الماعون والمذخور، أما الصناديق والأخشاب والرخام وما يجري مجراها مما توفرت منه الأنواع والأقسام، فإنها بقيت بحالها متروكه، ولمن يسكن تلك الأماكن عملوكه، وكانت قمامة وهي كنيستهم العظمى ومتعبدهم الذي يجمعون به الدين والدنيا، مفروشة بالبسط الرفاع مكسوة بـالستور النسيج والحرير الممزوج من سائر الأنـواع، والذي يذكرون أنه قبر عيسى عليه السلام محلى بصفائح الفضة والعين، ومصوغات الذهب واللجين، مصفح بالنضار، مثقل من نفائس الحلي بالأوقار، فأعاده البطرك منه عاطلاً، وتركه طللاً ماثلاً، فقلت للسلطان : هـؤلاء إنها أخـذوا الأمان على أمـوالهم فها بال هـذا المال وهـو بـألـوف يحملونه في أثقالهم ؟ فقال: هم مايعرفون هذا التأويل وينسبون إلينا لما حرمناه التحليل، ويقولون إنهم لم يحفظوا العهد، ولم يلحظوا العقد، ونحن نجريهم على ظاهر الأمان، ونغريهم بذكر محاسن الإيان، وكانت المهلة أنه من عجز بعد أربعين يوماً عن أداء ماعليه من القطيعة ضرب عليه الرق بحكم الشريطة، ووفق الشريعة، فتولاهم النواب، بعد خروجنا من القدس، وبقي منهم ممن ضرب عليه الرق خمسة عشر ألفاً في الحبس، ففرقهم السلطان، وتناهبتهم البلدان، وحصل لي منهم سبايا نسوان وصبيان، وذلك بعد أن وفي ابن بارزان بالضمان وأدى ثلاثين ألف دينار، وأخرج من ذكر أنه فقير بحسب الإمكان، وكانوا تقدير

ثهانية عشر الفا واعتقد أنه لم يبق غير فقير، وبقي بعد أدائه على ماذكرناه كثير، وأما النصارى الساكنون بالقدس فإنهم بذلوا مع القطيعة الجزية ليسكنوا ولايزعجوا، ويؤمنوا ولايخرجوا، فأقروا بوساطة الفقيه عيسى وأقر من قسوس النصارى أربعة قوام لقهامة، فأعفاهم ولم يكلفهم الغرامة، وأقيام بمدينة القدس وأعهالها منهم ألوف فشمروا وعمروا وعرشوا وغرسوا، فلهم منها مجان وقطوف، وكانت لأمراء الفرنج ومقدميهم مجاورة للصخرة، وعند باب الرحمة، مقبرة وقباب معمرة، فعفينا آثارها، ورحضنا أوضارها.

وقال في الفتح: وأمر السلطان بإغلاق كنيسة قيامة، وحرم على النصارى زيارتها ولا إلمامه، وتفاوض الناس عنده فيها، فمنهم من أشار بهدم مبانيها وتعفية آشارها، وتعمية نهج مزارها، وقالوا:إذا هدمت، ونبشت المقبرة وعفيت وخربت أرضها، ودمر طولها وعرضها انقطعت عنها امداد الزوار، وانحسمت عن قصدها مواد اطاع أهل النار، ومها استمرت العارة، استمرت الزيارة، وقال أكثر الناس لافائدة في هدمها وهدها ، فإن متعبدهم موضع الصليب والقبر لامايشاهد من البناء، ولاينقطع عنها قصد أجناس النصرانية ولو نسفت أرضها في الساء، ولما فتح أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه القدس في صدر الإسلام أقرهم على فتح أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه القدس في صدر الإسلام أقرهم على هذا المكان، ولم يأمر بهدم البنيان.

قال: وأقام السلطان على القدس حتى تسلم مابقربها من حصون، واستباح كل مالكفر بها من مصون، ثم عمد إلى ماجمعه ففرقه، وأخرجه في ذوي الاستحقاق وأنفقه، فأكثروا عذله على بذله، واستكثروا مأفاضه بفضله، فقال: كيف أمنع الحق مستحقيه، وهذا الذي أنفقه هو الذي أتقيه، وإذا قبله مني المستحق فالمنة له علي فيه، فإنه يخلصني من الأمانة ويطلقني من وثاقها فإن الذي في يدي وديعة أحفظها لذوي استحقاقها، وقيل له: لو أدخرت هذا المال للهآل، فقال: أملي قوي من

الله الكافل بنجح الآمال، وجمع الأسراء المطلقين، وكانوا الوفا من المسلمين فكساهم ، وأساهم وواساهم، وأذهب أساهم، فانطلق كل منهم إلى وطنه ووطره، ناجياً من ضره وضرره.

وقال في البرق: سمعت الملك العادل يوماً في أثناء حديثه في ناديه، وهو يجري ذكر إفراط السلطان في أياديه، يقول: إني توليت استيفاء قطيعة القدس، فأنفذت له ليلة سبعين ألف دينار، فجاءني خازنه بكرة وقال: نريد اليوم مانخرجه في الإنفاق، فما عندنا مما كان بالأمس شيء باق، فنفذت له ثلاثين ألف دينار أخرى في الحال، ففرقتها على رجال الرجاء يد النوال.

قال العماد: وللحكيم أبي الفضل قصائد قدسيات طوال خثيرة الفوائد

قلت: قد وقفت على بعضها وتقدم قبل ذلك أن قال: لم أزل من أول ما ول ما ولى الملك الناصر الأمر في مصر أعلم أنه مؤيد بعناية من الله سبحانه، فامتدحته في سنة خمس وستين بقصيدة تنيف على مائة بيت منها في التباشير:

وفيها قدساداسكندر أهل الزمان معا في سن عشرين وامتدت له الحيل في سن عشرين وامتدت له الحيل وافي الثين والاقطال أجمعها طوعال المرض والمللل

قال: ومدحته سنة سبع وستين عند قفوله من غزاة غزة بقصيدة منها: أبالظفر فاهنا حسظ منتخب أجرى الرائدين كالديتبتر

زهدت فيهاسبسى الأملك منكدرا علما بملك نعيسم مابسه كدر

وطبت نفساعن السدنيا وزخرفها وجئت تقدم حيث الهول والخطر

قال، ومدحته سنة ثمان وستين بقصيدة تنيف أيضاً على مائة بيت منها في التباشير:

أرى الراية الصفراء يرمى اصطفاقها بني أصفر بالسراعف ات اللهاذم بني أصفر بالسراعف ات اللهاذم فتسبي فلسطينا وتجبي جزائرا وتحلك من يونان أرض الأساحم وتعنوا لها الأملاك شرقا ومغربا بذاحكمت حذاق أهل الملاحم

قال: وبعثت إليه في غزة سنة اثنتين وثمانين وهو على حمص بقصيدة هنأته فيها بالعافية منها:

فياملكالميبقللديسنغيره

وهستعمد الاسلام فاشدد لهادعها

فشار ما ما الشرك في الشام طائر

فقص جناحيه بأقصى القوى قصها

خصصت بتمكين فعمم العمداردي

فإنهم يسأجوج أفسرغ بهاردما

. إذاصفرت مـنآلالأصفر سـاحــةالــ

\_\_مقدّس ضاهت فتح أم القرى قدما

فذاالمسجدالأقصي وهمتك العلى

وعزمتك القصوى ورميتك الصمى

فهاهمو إلا أنتهم وقددأتست

فتروح كما فاض الخضم الذي طما

وإنأنت لم تسردالف رنسج بسوقعة

فمن ذاالني يقوى لبنيانها هدما

وماكل حين تمكن المرء فسرصة

ولاكرل حال أمكنت تقتضي غنما

وليسس كفتح القددس منية قسادر

وماأن تلقاها سوى يرسف جراما

قال: وأنشأت قصيدة أخرى في سنة اثنتين وثهانين، وحضرت بها بين يديه منها:

الله أكبر أرض القددس قدد صفرت

مسنآل الاصفر ذاحين بسه حسانسوا

أسباط يروسف من مصر أتواولهم

مسن غيرتيسه بهاسلسوى وامنسان

هم فلسطين إن يخرج عــــداتهم

عنها وإلاعدت بيض وخرصان

حتى بنيت رتاج القدس منفرجا

ويصعدالصخرة الغراءعثمان

واستقبسل الناصر المحراب يعبدمن

قدتم من وعده فتع وامكان

وجاز بعض بنيه البحر تجفل من

غاراته السروم والصقلاب والسلان

حتى يروحد أهل الشرك قاطبة

ويسرهب القسول بسالشالوث رهبان

ولابسن أيسوب في الافسرنسج ملحمة

دلت عليهاأساطير وحسبان

ومن أحق بملك الارض من ملك

كـــأنــهملــكفي الخلــق حنــان

ثم قال : وأما القصيدة الفتحية الناصرية فأولها:

في بساطسن الغيب مالاتسدرك الفكر

مالى أرى ملك الأفرنج في قفص

أين القواضب والعسالة السمر

والاسبتار إلى السداوية التسأمسوا

ك أنهم سدياج وجاذا اشتجروا

والنفسس مسولعة عجبا بسيرتها

وفي المقادير ما تسلى بالسير

ياوقعة التسل ماأبقيت من عجب

جحافل لم يفت من جمعها بشر

وياضحي السبت ماللقوم قدسبتوا

تهودوا أم بكاس الطعن قسد سكسروا

وياضريسح شعيب سالهم جثموا

كمديسن أم لقو ارجفابها كفروا

حطوا بحطين ملكاكافيا عجبا

في ساعة زال ذاك الملك والقدر

أهسوى اليهم صلاح السديس مفترسا

وهسو الغضنفسر أعسدي ظفسره الظفسر

أملى عليهم فصاروا وسطكفته

كسرب طير حواها القانس المذكر

وأنجيز الله للسلطان مسوعسده

وعبايسن الملك الابرنسس في دميه

فهات حيا وحيى وهسويعتار

رأى مليك\_امل\_وك الارض تتبع\_ه

والنجم يخدمه والشمسس والقمسر

إذابداتبه رالأعيان هيبته

يختفى وهو في الأذهان مشتهر

تقدة مالجيل في أخسرى السنومان ب

على صدور علا من قبلنا صدروا

أمارأيتهم فتوح القادسية في أكنـــاف لـــو بيـــة تجلى وذاعمـــر والحق يعرس والطغيان منتحب والكفسر يطمسس والايبان مسزدهسر في فتنه البغيي للسسلام ينتصر أنسي ملاحم ذي القرنين واعترفت لـــه الـــرواة بما لم ينمــه اثـــر أعين اسكندر بالخضر وهرولسه عسون مسن الله يستغنسي بسه الخضر وصنع ذي العرش ابداع بسلاسبب فلاتقل كيف هذا الحادث الخطر بيناسباياه تجلى في دمشق إذا ملك الفسرنج مع الاتسراك محتجس ازاءه زعماء الساحلين معا مصفدين بحبل القهر قدأسروا يتلوهم صلبوت سيق منتكسا وحسوله كسل قسيسس لسه زبسر ونحسن في بسلاا وذاطير صحيفتسه بفتع عكاالتي سدت باالثغر تغزو أساطيلنامنهاصقلية فتذعر الروم والصقلاب والخزر من ذايقول لعل القدس منفتح إلىك بسل سفر يعقبوب لمه السفر أبسوا لمظفسرينسويها فخسذ سفنا

من بابعكالي طرطوس تنتشر

يسبي فرنجة من أقطار هاوله مع المجوس حروب قد حهاسعر مع المجوس حروب قد حهاسعر وبعض أبنائه بالقدس منتدب وبعضهم رومة الكبرى لده وطر بسرايسة تخرق الأرض الكبيرة في جمع تقول لده الاجسام لاوزر عماليات مديجا فيه قلت كها فيال المحبوب مديجا فيه قلت كها بدأت فالصب للمحبوب مدكور

وأما القصائد التي له فمنها التائية له، وقد تقدم ذكرها، ومنها القدسية الكبرى عددها مائة واثنان وخمسون بيتا أولها تصاريف دهر أعربت لمن اهتدى وبسطه أمر أغربت مصن تمردا لسرعة فتحالقدس سر مغيب وفي صرعة الافرنج معتبر بدا أولى صرعة الافرنج معتبر بدا أبرمت لأسارنا فسقناهم فيها قطينا بجددا وساموا تجارا تشترينا غواليا فبعناهم بالرخص جهرا على الندا وجروا جيوشا كالسيول على الصوا فبعناهم بالرخص جهرا على الندا وجروا جيوشا كالسيول على الصوا فياضت غثاء في البطاح محددا وقالوا ملوك الأرض طوع قيادنا وقالوا ملوك الأرض طوع قيادنا وقد أقطع الكند العراق موقعا

وقد أقطع الكند العراق موقعا فأودع سجنا وسط جلق مؤصدا وأقسم أن يسقي بدجلة خيله فا ورد الاردن إلا مصفيدا فكم واثمق خجملان قهقمه خصممه

وكم سمائق عجمان قهقر مقعدا

أتسى الكندمن اسبان يحمسي قمامة

فكان تقضى ملكه قبل يبتدى

فهاعقد السرايات إلامحلل

ولاحلال السرايسات إلامعقدا

ووقعة يــوم التـــل إذ قبضــتبــه

جبابرة الافرنسج حيرى وشردا

عليهم مسن البلوى سرادق ذلسة

ومن ذل ما تست نفسه فتقيدا

تىرى المنسر الديوى يلقى سلاحه

وينساق مابين السبايا ملهدا

يباعسون أسرابا شرائح أحبل

كشكة عصف ورمن الريس جردا

فتلقى نصارى جلى في ماتىم

ألم تبرللسلطان صدق ندره

دم الغادر الابرنس فاقتيد اربدا

وباشر بالقتل وسط خباثه

وعاينه الكند المليك فارعدا

وضاقت بنفس القمص الأرض مهربا

فأدركه الموت المفاجسيء مكمدا

وماطرق الاسهاع من عهد آدم

كملحمة التل التي ثلت العدا

أتسواواديسامسازال ينفسي خبسا ثثسا

ويصفى بعقبى الدارطائفة الهدى

به جثمت أصحاب ليكة وهي في ذراه ذا فيـــه شعيــب تـــا يـــدا أرى الله فيسه معجيز النصر مخلصيا

لأمر صلاح الدين في الناس مخلدا وإعدى جنودالرعب تردى عداتيه

وسلم جميسع المسلمين مجندا وسلمين محناتل ومن عجب خمسون ألف مقاتل

سبتهم جيموش ليس فيهاممن ارتدى

فليـــوف لله أقـــوام بما نـــدروا بمشل ذاالفتح لاوالله ماحكيت

في سسالسف السدهسسر أخبسار ولا سير حين بـــه حــان هلــك المشركين فيـــا

لله طيب العشايا منه والبكر الآن قـــرت جنــوب في مضـــاجعهـــا

ونام من لم يزل حافاله السهر يابهجة القدس إذأضحي بمعلم ال

يانسور مسجده الأقصى وقدوقعت

بعدالصليب بهالآيات والسور شتان مابين ناقوس يدان به

وبين ذي منطق يصغي له الحجر الله أكبر صــوت تقشعـــر لـــه شماللرى وتكادالأرض تنفطر

يامالك الأرض مهدها فهاأحد

سرواكمن قائم للمهدينتظر

مااخضر هداالطراز الساحلي ثمرا

الالتعلوب أعلامك الصفر

أضحى بنوالأصفر الانكاس موعظة

فيها لأعدائك الإيات والندر

صاروا حديثا وكانوا قبل حادثة

على الصورى يتقيه البدو والحضر

سلبته م دولة الدنيا وعيشتها

حتى لقد ضجرت من وفدهم سقر

وملكهم ياملوك الارض فاعتبروا

مراكز مااختطاها الخوف ملدماثة

عاماولاريع أهلوها ولاذعروا

ولا أصرح باسماء البلد فقدد

أسهبت والقائل المنطيت يختصر

يغنيك مجمل قولي عن مفصلة

فالفظة البحسر معنى تحتسه المدرر

وهي طويلة وله من قصيدة أخرى:

المم بدار الناصر الملك السدي

في كفسه للجسود سبعسة أبحسر

فالإذام ررت بملكة وفتروحه

فاسخر بايروى عن الاسكندر

وإذابصرت بجاشه وجيوشه

فاحسث التراب على ذؤابة سنجرر

وللشهاب فتيان الشاغوري من قصيدة: كسرتعلى كسرى لعـــدلـــك دولـــة

قصرت مهابتها تطاول قيصر أهدى صلاح الدين للاسلام اذ

أردى قبيل الكفرر مالم يكفر

خلعت عليه خلعة الملك التي

زيدلدت بهاءابالطراز الاخضر

راياته صفر يردن وتنثني

ملك السواحل في تسلا ثمة أشهر

واستنقذالبيت المقددس عندوة

من كان ذي نجسس بكل مطهر

وأريتهم لماالتقمى الجمعان بالمسم

ــــبيت المقدس هول يوم المحشر

ورددت دين الله بعد قطروبه

بالمسجدالأقصى بوجسه مسفسر

واعدت ماأبداه قبلك فاتحا

عمـــرفـــأنـــتشريكــــه في المتجـــر

حتى جمعت لعشر الاسلام بي

مسن الصخرة العظمي وبين المشعر

فلصخرة البيت المقدس كفؤها الس

\_\_حجر المفض\_ل عندأفض\_ل معشر

فك\_\_\_أن\_هانس\_انعينص\_ورة

يلقاكاسوده بمعنى أنسور

## في حصار صور وفتح هونين وغير ذلك

قال العماد: شم إن السلطان مازال مقيما بظاهر القدس يحقق الآمال، ويفرق الأموال، حتى وردت كتب سيف الدين على بن أحمد المشطوب، وكان نائب السلطان بصيدا وبيروت. وهما مجاورتان لصور، فكتب يحرض السلطان على حصار صور، فرحل السلطان عن القدس يوم الجمعة الخامس والعشرين من شعبان، وأخذ صوب عكا وسبقه إليها الأفضل وتقى الدين، وودع السلطان ولده العزيز ورده إلى مصر، فكان آخر عهدة به، واستصحب السلطان أخاه العادل، فوصلا إلى عكما مستهل رمضان فأصلح من شأنها، ثم رحل فنزل على صور يوم الجمعة تاسع رمضان وخيم بإزاء السور بعيداً منه على النهر، ومعظم البلد في البحر وهي مدينة حصينة متوسطة في البحر كأنها سفينة، وكان المركيس الذي في صور قلد حفر لها خندقاً من البحر إلى البحر، وبني بواشيره وأحكم في التعمير تدبيره، واستظهر بتكثير العدد والعدد، واغتنه اشتغال السلطان بفتح القدس، فأقام السلطان بتلك المنزلة على صور ثلاثة عشر يوماً حتى تلاحقت الأمداد، وكثرت العدد وآلات الجهاد، ورتبت المنجنيقات، ثم حول السلطان مضاربه إلى تل قريب من السور يشرف منه، ثم حاصرهم وقابل كلا من الملوك بجانب يكفيه منهم الافضل والعادل وتقي الدين فحاصروهم وضايقوهم، ووصل في تلك الأيام من حلب الملك الظاهر غازي ولد السلطان بعسكره الحلبي، فاستظهر السلطان به واستدعى الاسطول المصري، وكان بعكا فجاء منه عشرة شواني، وكان للفرنج في البحر مراكب وحراريق، وفيها رماة الجروخ والزنبوركات يرمون من دنا من البحر، فلم جاء اسطول السلطان استطال عليها وأبعدها، فأحاط بهم المسلمون وقاتلوهم براً وبحراً، فبينها هم في أحلى ظفر واهنأ ورد وصدر، إذ ملك الفرنج خسة من شواني

المسلمين وأسروا مقدميها ورئيسها عبد السلام المغربي ومتوليه بدران الفاسي، وألقى جماعة أنفسهم في البحر من ناج وهالك، وذلك أنهم سهرواً تلك الليلة بازاء مينا صور إلى السحر، ثم غلبهم النوم فما انتبهوا إلا والفرنج قد ركبتهم ونكبتهم، فأصبح المسلمون وقد انثلموا، وأتاهم من الأمر مالم يعلموا، ونفذ السلطان إلى المراكب الباقية أن يسيروا إلى بيروت، وخاف عليها لقلتها أن يستولي عليها عبدة الطاغوت، فنجا منها شيني رئيس جبيل والباقون نظروا إلى الفرنج وراءهم، فألقوا أنفسهم في الماء وخرجوا إلى البر على وجوههم، ثم إن الفرنج بعد هذا طمعت فخرجت يوماً وقت العصر مستعدة للقتال، فالتقاهم المسلمون فكانت الدائرة على الكافرين ، وأسر مقدم كبير لهم، وظن أنه المركيس فسلمه السلطان إلى ولده الظاهر ليحفظه فضرب عنقه، وكان الليل قد دخل فلما أصبحوا تبين لهم أن المركيس بعد في الحياة، فطال حصاره حتى ضجر كثير من أمراء المسلمين لأنهم رأوا مالم يألفوه من تعسر الفتح عليهم، فاشاروا على السطان بالرحيل لئلا تفنى الرجال، وتقل الأموال، وكان البرد قد اشتد عليهم، وكان رأي السلطان والاتقياء من الأمراء كالفقيه عيسى، وحسام الدين طهان، وعز الدين جرديك النوري الثابت الجنان الثبات إلى الفتح لئلا يضيع ماتقدم من الأعمال وإنفاق الأموال، وقال السلطان قد هدمنا السور، وقاربنا الأمور فاصبروا تفلحوا، وصابروا تفتحوا، ولاتعجلوا فاظهروا الموافقة وفي أنفسهم مافيها، فلم يصدقوا القتال، وتعللوا بأن الرجال جرحى والعلوفات قد قلت، فلم يسع السلطان بعد ذلك إلا الرحيل. فأمر بنقل الأثقال فحمل بعضها إلى صيدا وبيروت وأحرق الباقى لئلا يناله العدو، ورحل في آخر شوّال وهو أوّل يوم من كانون الأول. وسار تقي الدين إلى دمشق على طريق هونين. واستصحب معه عساكر الشرق وديار بكر والموصل والجزيرة وسنجار وماردين، ورحل السلطان إلى عكا فوصلها في ثلاث مراحل لأنه سلك طريق الناقورة وهي طريق ضيقة مطلة على البحر بها يضرب

المشل، لا يعبر بها إلا جمل جمل، فعبرت بها الاثقال والاجمال في اسبوع، وكان عين يوم رحيله من صور أمراء يقيمون عليها إلى أن يعرفوا عبور الثقل، وخيم السلطان عند التل، وسار العادل إلى مصر، والظاهر إلى حلب وبدر الدين دلدرم الياروقي إلى بلاده.

قال: وفي مدّة رحيل السلطان عن صور جاءه خبر سيف الدين محمود أخى عز الدين جاولي أنه استشهد في عفر بلا تحت حصن كوكب، كبسه الفرنج فيها ليلاً، وذلك أنه كان قد بقى على السلطان بعدما فتح من بلاد العدو من جملة أعمال طبرية والغور حصنا صفد وكوكب، وكان في صفد جمهرة الداوية، وفي كوكب جمهرة الاسبتارية، فاحتاج السلطان في فتحها إلى المطاولة، فوكل بصفد جماعة يعرفون بالناصرية مقدمهم مسعود الصلتى، ووكل بكوكب هذا الامير سيف الدين محموداً، فأقام في حصن عفربلا، وهو قريب من حصن كوكب، ونغص على المقيمن فيها المطعم والمشرب، وضيق عليهم المذهب، إلى أن ردخل الشتاء فاختلت الحراسة، واعتلت السياسة، فلم كانت ليلة آخر شوال، وكانت ليلة باردة ماطرة حرس أصحاب سيف الدين حتى ضجروا، فغلبهم النعاس فيا استيقظوا إلا وفرنج كوكب عليهم باركة، فدافعوا عن أنفسهم حتى استشهدوا، وأخذ الفرنج غنيمة المسلمين، ودخلوا بها كوكب، وكمان هذا الأمير محمود ذا دين متين ومكان من النسك مكين، وهـو يسهر أكثر ليله متهجـداً، وقد جعل منزلـه مسجداً، فجمع بين التهجد والجهاد، وكان كثير الاجتهاد، فاغتم السلطان بمصابه، وزاد تألماً إلى مابه.

وتقدّم إلى صارم الدين قايماز النجمي أن يرابط كـوكب في خسمائة فارس، ففعل ولم يزل بها إلى أن فتحت كما سيأتي.

قال: وفتحت هونين والسلطان محاصر صور، وكان لما فتح تبنين قد

امتنعت عليه هونين، فوكل بها من رابطها وضايقها حتى طلبوا الأمان، وجاء خبرها إلى السلطان وهو على صور، فنفذ الأمير بدر الدين دلدرم، ففتحتها وخرج الفرنج منها سالمين آمنين، وكان بقي أيضاً من عمل صيدا قلعة أبي الحسن وشقيف أرنون، وأقام السلطان بظاهر عكا ناظراً في أمور رعيته، ثم دخلها وسكن بالقلعة وسكن الأفضل برج الداوية، وولى عكا عز الدين جرديك، ووقف دار الاسبتار نصفين نصفاً على الفقهاء، ونصفاً على الصوفية، ووقف دار الاسقف بيارستانا، ووقف على كل من ذلك كفايته، وأظهر به عنايته، وسلم جميع ذلك إلى قاضيها جمال الدين ابن الشيخ أبي النجيب وهو في ذلك مصيب.

# في ورود رسل التهاني من الآفاق وقدوم الرسول العاتب من العراق

قال العهاد: ووردت رسل الآفاق من الروم وخراسان والعراق وكلهم يهنىء السلطان بها أفرده الله به من الفضيلة، وأقدره عليه من تجح الموسيلة، وهو فتح القدس الذي درجت على حسرته القرون الأولى، وتقاصرت عنه أيديهم المتطاولة وتمكنت منه يده الطولى، فها منهم إلا من يعترف بيمنه ويغترف من يمه، ويقر بحكم التنزيل له وينزل على حكمه، ويغطب بعدا اقته، ويتقرب بالوفاء والوفاق، ويتباعد عن الشقاء والشقاق، فمن جملتهم رسول صاحب الري، ورسول المستولى على على عمالك همذان، وأذربيجان، وارّان، فها من يوم يمضي وشهر ينقضي بلا ويصل منهم رسول، ويتصل به رسول.

وذكر العاد في البرق أنه وصل إلى السلطان وهو بعكا رسول أتابك مظفر الدين قزل أرسلان وهو عثمان بن أتابك ايلدكز المستولي على بلاد العجم بعد أخيه البهلوان، ثم ذكر من خرقه في كرمه شيئاً كثيراً، ثم قال: وهذا كله لايكون في بحر سلطاننا جدولاً ، وكان السلطان مذهب المذهب، ظاهر المحفل والموكب، قد خصه الله بالصدر الأرحب والنصر الأغلب، عزمه إلى الجهاد مصروف، وخلقه بالمعروف معروف، وهمه بالساح مشغوف، ما يفتح بالسيف في البلاد يهبه لمن يضرب معه بالسيف في الجهاد، والمخالق تقواه، وللمخلوقين جدواه، وإنها يريد بالسيف في الجهاد، والمخالق تقواه، عقباه.

قال: ولم يكن في الملوك السالفة أمضى منه عزماً، وأجدى فضلاً، وأعم جدوى، وأكمل جهدا في الجهاد، وإملك جلدا على الجلاد، فإنه

باشر بنفسه الحرب، ومارس الصعب، وقدف بالحق حين حققه على الباطل فأزهقه، ولاحد ولاعد لما في سبيل الله من نفائس والأموال أنفقه، ومن أول هذا العام إلى منتهاه لم يجف لورده لبد، ولم ينضب من ورده عد رلم يقر له جنب بل لقي في فصلي القيظ والقر مض الحر وعض البرد، بحر وجهه الكريم، وقضى حق الدين موفيا بصدق غرامه حق الغريم، وكل ماتم من النصر يوم حطين وفتح القدس وتسلم بلاد الساحل، إنها تسنى بشهر سيفه في فصل الصيف وشهوره واستظهاره بظهور الإسلام وشد ظهوره، وأنشد العهاد للقاضي الفاضل في وصف أسيافه:

ماضيات على الدوام دوامدي
هدي في النصر نجددة الاسدلام
في يمين السلطان ان جدردتها
أشبهها صواعد في غمام
تشر الهام كالحروف فه أشد السيدوف بالاقلام
سبه هذي السيدوف بالاقلام
في محاريب حربه البيض صلت

وذكر من كلامه في التوسط بين الأصدقاء: «ماادخل بينكم إلا كدخول المرود في الاجفان، يرد إليها ماذهب منها من النور والغمض، أو كالنسيم بين الأغصان يعطف بعضها على بعض».

قال العهاد: ووصل أخي تاج الدين أبو بكر حامد من دار الخلافة برسالة في العتب على أحداث ثقلت، وأحاديث نقلت، ووشايات أثرت، وسعايات في السلطان شعثت، وذلك في شوّال ونحن على حصار صور، وسبب ذلك أنه لما تم الفتح الأكبر، وخص وعم النجح الأظهر، وقطع دابر المشركين، وحط اقبال المسلمين أوزار إدبار الكفر بحطين أمرني السلطان بإفشاء كتب البشائر إلى الآفاق، وتقديم البشرى به إلى العراق، فقلت هذا فتح كريم، ومنح من الله عظيم، فلا ينبغي أن يكون العراق، فقلت هذا فتح كريم، ومنح من الله عظيم، فلا ينبغي أن يكون

مبشر دار الخلافة بها أنزل الله علينا من الرحمة والرأفة إلا من هو عندنا أجل وأجلى، وأعلم وأعلى، وأجمع لفنون الفضائل، وأعرف بأداء الرسائل فلا يرفع العظيم الا بالعظيم الرفيع، فإن الشريف يتضع شرفه بمقارنة الوضيع، فقال هذه نصرة مبتكرة، وموهبة مبشرة، بدرت وندرت فنحن نعجل بها بشيراً، ونؤخر للاجلال كما ذكر ت سفيراً وكان في الخدمة شاب بغدادي من الأجناد، وقد هاجر للاسترفاد، وتوجه بعد وصوله، وتنبه بعد خوله، فسأل في البشارة إلى بغداذ، وزعم أنه يداوم إليها الاغذاذ، وشفع له جماعة من الأكابر، حتى حظى بأشرف البشائر، فقلت: هذا لا يحصل له وقع، ولا يصل إليه نفع، والواجب أن يسير في مثل هذا الخطير خطير، ويسفر في هذه النصرة الكبرى كبير، ثم سار المندوب وشغلت عن ارسال سواه الفتوح والحروب، ولما فتح البيت المقدس أرسل ببشارته نجاب ونفذ بها كتاب، ووصل البشير الجندي فحقروه وماوقروه، فإنه كان عندهم منظوراً بعين الاحتقار، فنظروه بتلك العين ، وحبوه بها يليق به من الرقة والعين، ونقم على السلطان إرسال مثله، وتسمج المندوب بكلام أخمذ عليه، وبدرت منه أحماديث نسبت إليه، وقال في سكره وحالمة نكره مانعرض عن ذكره، فخيل وموّه، وتنكر وتكره وظن أن لكلامه أصلاً وللفظه منا وصل، وإنهيت إلى العرض الأشرف مقالاته، وعلمت جهالاته، وتجنى على السلطان بإرساله، وطرق إلى هداه ماانكروه من مقال المذكور وضلاله، ووجد الاعداء حينئذ إلى السعاية طريقاً ، وطلبوا الشمل استسعادة بالخدمة تفريقاً، واختلقوا أضاليل، ولفقوا أباطيل، وقالوا هذا يزعم أنه يقلب الدولة، ويغلب الصولة، وأنه ينعت بالملك الناصر، نعت الإمام الناصر، ويدل باله من القوة والعساكر، فاشفق الديوان العزيز على السلطان من هذه، وبرز الامر المطاع بارسال أخى وانفاذه، وقالوا: هـذا تاج الدين أخو العماد تكفل لنا في كشف سر الأمر بالمراد، فإن أخاه هناك مطلع على الاسرار، وهو منتظم في سلك الاولياء الأبرار، وعول عليه المديوان في السفارة ، ورد

معه جواب البشارة، وكتب له يذكره بموجبات مقاصد العتب، ومكدرات موارد القرب، والمخاطبة فيها وإن كانت حسنة خشنة، والمعاتبة مع شدتها للعواطف الامامية لينة، فسار الأخ إلى دمشق، وكان قد عاد المندوب نادباً عادياً، جاحداً للنعمة شاكياً ، وقال: أخو العماد قد وصل بكل عتب وغضب، ولفظ فظ ومعه الملامات المؤلمات، فقلت له: اسكت واصمت، وقلت للسلطان: سمعاً وطاعة لأمر الديوان، فإن اظهار سر العتب لـك من غاية الإحسان، فقال: نعم ماقلت، ولما قرب أخبى أصبحت لقدومه انتخى فأمر السلطان الامراء على مراتبهم باستقباله، وتقدم لجلالة قدومه بإجلاله، وتلقاه الملوك الحاضرون: العادل.والمظفر. والافضل.والظاهر،ثم ركب وتلقاه بنفسه، وخصه من تقريبه بأنسه، ولم يزل حتى أراه مواضع الحصار، ومصارع الكفار، ثم نزل وأنزله بالقرب، ثم أحضره وقد أخلى مجلسه لى وله وحده، فأدى الأمانة في مشافهته، ووجمه مقاصده في مواجهته، وأحضر التذكرة، وقد جمعت المعرفة والنكرة، فقرأتها عليه وكانت في الكتب غلظة عدت من الكاتب غلطة، وخيلت سقطه، وجلبت سخطه، وقال: إن الإمام أجل من أن يأمر بهذه الالفاظ الفظاظ والاسجاع الغلاظ، فقد أمكن إيداع هذه المعانى في أرق منها لفظاً وأرفق، وأوفى منها فضلاً وأوفى، معاذ الله أن يحبط عملي، ويهبط أملي، وامتعض وارتمض، ثـم أعنوض عما عـرض، ورجع إلى الاستعطاف وانتجع بارق الاستسعاف، و قال : أماما تمحله الأعداء، وعدا به المتمحلون، فما عرف منى إلا الاعتراف بالعارفة، وذكر السلطان أياديه السالفة في الفتوحات، وإقامة الدعوة العباسبية بمصر واليمن، وإزالة الادعية وإبادة الأعداء، وفتح البيت المقدس، قال: وأما النعت الذي أفكر ونبه على موضع الخطأ فيه وذكر، فهذا من عهد الإمام المستضيع، والآن كل مايشرونني به أمير المؤمنين من السمة فإنه اسمى لي من الذي هـ و اسمي وأشرف، وأرفع وأعـرف، ومـاعزمي إلا استكمال الفتوح لأمير المؤمنين، وقطع دابر المنافقين والمشركين، ثم ندب مع أخي

من سار في خدمته لزيارة القدس، ثم ودعه وأودعه من شفاهه كل مافي النفس، وظهرت بعد ذلك بالقبول آثار الرضى، ومضى مامضى، وكان جماعة من الملوك والأمراء كالعادل ومظفر الدين قد وبخوه لما قيل في حقه وأرادوا أن يغضبوه فها غضب بل غاض غيظه ونضب، وتلقى ذلك بصدر رحيب، ولفظ مصيب.

قلت: ووقفت على كتاب كتبه الصاحب قوام الدين بن زيادة من الديوان العزيز ببغداد إلى السلطان صلاح الدين، وكان قوام الدين من يومئذ استاذ الدار العزيزة، يقول فيه: «لولا مكان صلاح الدين من الخدمة والشيح به، والمنافسة فيه، لما جوهر بالعتاب، ولارفع دونه الحجاب، بل كان يترك معه الأمر على اختلاله، ويدمل الجرح على اعتلاله، وقد ذكرت الأسباب التي أخذها الديوان العزيز عليه واستغرب وقوعها من كاله ليرعيها سمعه الكريم، ويستوري فيها رأيه الأصيل، وينصف في استهاعها، والاجابة عنها غير عارج على الجدل ولامؤتم بالمراء المذمومين عقلا وشرعا بل يحمل قولي هذا على سبيل الماحضة والانتصاح وصدق النية في رأب التنائي والاصلاح، فان إيجار الدواء المقر لايتهم فيه الطبيب المجتلب للعافية»

ثم ذكر من تلك الأمور: «أن من انتفى من العراق بسبب من الأسباب، لجأ إلى صلاح الدين فوجد عنده الاقبال عليه، وكان الأدب يوجب إبعاد من أبعد عنه، وتقريب من قرّبه إليه» ثم قال: «وإن نما أضحك بثغر الاستعبار ماانتهى عن العوام وأشباه الانعام وطغام الشام، من الخوض في المذاهب، والانتهاء في التشنيع إلى اختلاف كل كاذب.

ومنها: ماجرى من سيف الاسلام بالحجاز من ازعاج الحجاج، وارهاج تلك الفجاج، والاقدام على مناسك الله وشعائره، وإيقاد سعير الفتنة فيها ونوائره، واحتذاء السيرة القاسطة، واحياء بدع القرامطة،

ومانفر منه كل طبع ، ومجه كل سمع، فكيف جاز لصلاح الدين أن يرخي عنان أخيه فيها يقرّض سوابقه وأواخيه.

ومنها: ماقضى الناس منه العجب وفورق فيه الحزم والأدب، وهو ماأوجب التلقب الذي استأثر به أمير المؤمنين»

ثم قال: «وقد ساوق زمان الدولة العباسية ثبتها الله خوارج دوخوا المسالك البلاد، وأسرفوا في العناد، وجاسوا خلال البديار، وأخافوا المسالك واستضاموا المهالك، واقتحموا من الشقاق أشق المهالك، فها انتهى أحدهم فيها احتقب وارتكب إلى المشاركة في اللقب، ومن الحكم الذائعة في وجيز الكلام، الذي يصلح للمولى على العبد حرام ومنها مكاتبة كل طرف يتاخم أعهال الديوان من مواطن التركهان والأكراد ومراسلتهم، ومهاداتهم، وقرع أسهاعهم بها يعود باستزلال أقدامهم، وفل عزائمهم، وهم لايعرفون إلا أنهم رعية للعراق، وخول للديوان يرثون الطاعة خالفاً عن سالف»

ثها قال في آخر الكتاب: "وهذا كله لاأقوله انكاراً لجلائل مقامات صلاح الدين، ومشاهير مواقف جهاده في سبيل المؤمنين، فإنه أدام الله علوه رجل وقته ونسيج وحده، والمربى على من سلف من صنائع الدولة، وعلى من يأتي من بعده، وهو الولي المخلص الذي عهد فوفى، واستكفي فكفى، وطب فشفى، فكيف يجوز له بسعادته أن يهجن مساعيه الغرّ المحجله، ويخرج من مكانته المكرمة المبجلة ويبطل حقوقه الثابتة المسجلة»

ثم قال: «فقد علم كل من نظر في التواريخ والآثار، ونصحته بصيرته في التبصر والاعتبار، أن هذا البيت العظيم مازال يرفع الأقدار الخاملة، فينزون عليه بطراً فيغار الله له منتصراً، ويعقبه عليهم اظفاراً، وظفرا،

كدأب آل طولون، وآل سامان، وآل بويه، وآل سجلوق، (وقروناً بين ذلك كثيراً) (٧٧) ، فمن الذي حصدوه فنبت، وأي نار أوقدوها فما خبت » .

ثم قال في آخره: «اللهم قد بلغت، وللرأي الصلاحي مايزيد علوه إن شاء الله تعالى».

وذكر ابن القادسي أن الجندي الذي أرسله صلاح الدين بالبشارة يعرف بالرشيد بن البوشنجي، قال: وكان صبياً كثير الادبار، مشمراً في دروب بغداد، ثم توجه إلى الشام هارباً من الفقر، فحين وصل إلى بغداد رسولاً قامت القيامة بمراسلته، وكتب إلى صلاح الدين بالانكار عليه، وقيل له: أما كان في أصحابك أميز من هذا ترسله إلى الديوان، فاعتذر صلاح الدين، ووصلت كتبه بالاعتذار، وقبل عذره، وأما ابن البوشنجي فإنه حين وصوله إلى الشام أكثر الكلام عند صلاح الدين، فأنكر عليه، فلما مضى الاسبوع جاءته نشابة فذبحته.

## في باقي حوادث سنة ثلاث وثمانين

فيها قتل الأمير شمس الدين بن المقدّم، وهو محمد بن عبد الملك يوم عرفة بها، قال العماد: وكان السلطان لما فرغ من فتح القدس ودنا موسم الحج قال الموفقون: نحرم من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام، ونفوز بالحج مع إدراك فضيلة فتح بيت المقدس في هذا العام، فالحج والجهاد ركناً الأسلام، فاجتمع جمع جمم من أهل ديار بكر والجزيرة والشام، وسار بهم الأمير شمس المدين بن المقدم شيخ أمراء الاسلام الكرام، فودعه السلطان على كره من مفارقته، واستمهله ليحج في السنة الأخرى على مرافقته، فقال مامعناه: إن العمر قد فرغ والأمر قد بلغ والشيب قد أنذر، والفرض قد أعلر فاغتنم فرصة الإمكان قبل أن يتعذر، فمضى والسعادة تقوده، والشهادة تروده، حتى وصل إلى عرفات، وماعرف الأفات، وشاع وصوله، وذاع قفوله، وضربت طبوله وسالت سيوله، وجالت خيوله، وضربت خيامه، وخفقت أعلامه، فلما أصبحوا نقرت كالعادة نقاراته، ونعرت بوقاته، فغاظ ذلك أمير الحاج العراقي، فركب إليه في أحزابه فأوقع به وبأصحابه وأبلاهم بجراحه ونهابه، وجرى حكم الله الذي كان الطبل أوكد اسبابه، وقتل جماعة من حاج الشام وجرحوا، وهتكت أستارهم وافتضحوا، ونقل أمير الحاج طاشتكين شمس الدين ابن المقدم إلى خيمته، وهو مجروح وفيه روح، وحمله معه إلى منى فقضى ودفن بالمعلى، وتم ذلك بقضاء الله وقدره في تقلب حوادث الدهر وغيره، وارتاع أمير الحاج بها اجترمه، وكيف لم يـراقب الله وأحـل حرمـه، وكيف عدا على الحاج العائذ بالله وسفك دمه، فكتب محضراً على مااقترحه بعذره فيها اجترحه، وألزم اعيان الحاج من سائر البلاد بوضع خط وطهم على ماعينه من المراد، فكتبوا مكـرهين غير مشتهين، وكان عذره أنه أنكر عليه ضرب الطبل فأبي، فلما انتهت الحالة إلى الخليفة أنكرها انكاراً شديداً، ونسبها إلى طيش طاشتكين، ولم يجد له رأياً سديداً فلا جرم اتضع عنده قدره، واتضح له وزره، ووهى أمره، وادخرهاله حتى نكبه بها بعد سنين، وحبسه بها وأطال سعجنه، شم عفا عنه بعد مدة مديدة، وشدة شديدة، وولاه حرب بلاد خوزستان وخراجها، وولى امارة الحاج غيره، ولما وصل إلى السلطان خبر استشهاد ابن المقدم وجماعته، لامه على ترك الحزم واضاعته، فاحتسبه عند الله غازياً شهيداً، ساعياً إلى الجنة بقدمه سعيداً، وأقام ابنه عز الدين ابراهيم في بلاده، مقامه، وأقر عليه انعامه.

وقال محمد بن القادسي في تماريخه، ونقلته من خطه: أراد أمير الحاج بالشام وهو ابن المقدم أن يرفع علماً على الجبل بالموقف فمنعه أمير الحاج طاشتكين، وجرت بينها مراجعات أفضت إلى الخصومة، بين حاج العراق وحاج الشام، ونهب البعض البعض، وجرت جراحات، فجرح ابن المقدم ولم يغير العادة في ذلك، ومات ابن المقدم بمنى في اليوم الثاني، ووصلت النجابة من مكة فأخبروا بها جرى من أصحاب ابن المقدم، وقد شهد الشهود بذلك من الحجاج، فقرىء ذلك بجامع القصر الشهو.

قال: وفي ثاني شوّال من هذه السنة توفي أبو الفتح محمد بن عبيد الله ابن عبد الله سبط ابن التعاويذي الشاعر، وكان كاتبا بديوان المقاطعات، وخدم بيت ابن رئيس الرؤساء وأضر في آخر عمره، ومولده عاشر رجب سنة تسع عشرة وخمسهائه.

قال: وفي :خامس رمضان توفي الفقيه الحنبلي أبو الفتح نصر بن فتيان ابن مطر المعروف بابن المني، وكان فقيها زاهداً صالحاً عالماً، مولده سنة احدى وخمسائة، وتفقه عليه جماعة من أثمة الحنابلة، كالحافظ عبد الغني بن عبد المواحد بن سرور وأخيه ابراهيم، والشيخ الموفق عبد الله

ابن أحمد بن قدامة، ومحمد بن خلف بن راجح، والناصح عبد الرحمن ابن نجم بن عبد الوهاب، وعبد الرزاق بن الشيخ عبد القادر الجيلي وغيرهم.

# ثم دخلت سنة أربع وثمانين

قال العهاد: خرج السلطان من عكا فنزل على كوكب في العشر الأوسط من المحرم، فحاصرها وصابرها أياماً فلم يتمكن منها لمنعتها وحصانتها، ورآها تحتاج إلى طول مصابرة ومرابطة، ولم يكن معه جميع أمرائه وأوليائه، وإنها كان في خواصه، فوكل بها قايهاز النجمي، ووكل بصفد طغرل الجاندار، كل واحد منها في خسهائة، وسير إلى الكرك والشوبك سعد الدين كمشبه الأسدي، وكانت هذه الحصون الأربعة ضيقة المسلك صعبة المدرك

قال: ثم إن السلطان اشتغل بلقاء الرسل الواصلين، من جملتهم رسول صاحب آمد قطب الدين سكمان بن نور الدين محمد بن قزل أرسلان، وكانوا خائفين على آمد أن يسترجعها منهم السلطان، لأنها كانت لهم من مواهبه كما سبق، فاستوثقوا بالوصلة باحدى بنات العادل، وكان العادل قد وكل أخاه السلطان في ذلك لما سار إلى مصر، وقدم رسولهم في ذلك، فتمت الوصلة بينهما.

قال: وأوّل من وصل والسلطان بكوكب اختيار الدين حسن بن غفراس مدبر دولة قليج أرسلان بالروم، وكان هذا الرسول مغرى بلبس الحلى والديباج والوشي، في يديه زنود، وخواتم مرصعة بزينة ثقيلة بجواهر ويواقيت ثمينة، وفي عقودها درة يتيمة، وفي يده عمود من العسجد، وكل عدّته تبرها مجوهر، وكان إذا شاهده السلطان تبسم وعامله بخلعه، وقال: هذا سافر بنضاره لينظر، وبديناره ليبصر.

وقال القاضي ابن شدّاد: لما دخلت سنة أربع وثمانين، رأى السلطان الاشتغال بأخذ هذه الحصون الباقية التي لهم مما يضعف قلوب من في صور ويهيىء أمرها ، فاشتغل بذلك، ونزل رحمه الله على كوكب في أوائل

المحرم، وكان سبب بداءته بكوكب أنه كان قد جعل حولها جماعة بحفظونها من أن يدخل إليهم قوة أو حماة، فخرج الفرنج ليلاً وأخذوا غرتهم وكبسوهم بعفربلا، وقتلوا مقدّمهم، وكان من الأمراء يعرف بسيف الدين أخي جاولي، وأخذوا أسلحتهم، فسار رحمه الله من عكا ونزل عليها بمن كان معه من خواصه بعكا، فإنه كان قد أعطى العساكر دستورا، ولقي في طريقه شدة من الثلج والبرد، فحملت السلطان مع ذلك الحمية على النزول عليها، وأقام يقاتلها مدة.

قال: وفي تلك المنزلة وصلت إلى خدمته، فإني كنت قد حججت سنة ثلاث وثهانين، وكانت وقعة ابن المقدم، وجرح يوم عرفة على عرفة لخلف جرى بينه وبين أمير الحاج طاشكتين على ضرب الطبول والدبدبة، فان أمير الحاج طاشكتين المقدّم، وكان من أكابر أمراء أمير الحاج نهاه عن ذلك فلم ينته ابن المقدّم، وكان من أكابر أمراء الشام، وكان كثير الغزاة فقدّر الله أنه جرح بعرفة يوم عرفة، ثم حمل إلى منى مجروحا فهات بمنى يوم الخميس يوم عيد الله الأكبر، وصلى عليه في مسجد الخيف في بقية ذلك اليوم، ودفن بالمعلى، وهذا من أتم مسجد الخيف في بقية ذلك السلطان قدّس الله روحه فشق عليه.

قال: ثم اتفق لي العود من الحج على الشام لقصد القدس وزيارته، والجمع بين زيارة النبي على وزيارة ابراهيم عليها الصلاة السلام، فوصلت إلى دمشق، ثم خرجت إلى القدس، فبلغه خبر وصولي فظن أني وصلت من جانب الموصل في حديث فاستحضرني عنده، وبالغ في الاكرام والاحترام، ولما ودعته ذاهبا إلى القدس خرج إلى بعض خواصه وأبلغني تقدّمه إلى بأن أعود أمثل في خدمته عند العود من القدس، فظننت أنه يوصيني بمهم إلى الموصل، وانصرفت إلى القدس الشريف يوم رحيله عن كوكب، ورحل رحمه الله لأنه علم أن هذا الحصن لا يؤخذ إلا بجمع العساكر عليه، وكان حصنا قوياً، وفيه رجال شداد من بقايا السيف، وميزة عظيمة، فرحل إلى دمشق، وكان دخوله إليها في سادس

ربيع الأوّل ، وفي ذلك اليوم اتفق دخولي إلى دمشق عائداً من القدس، فأقام رحمه الله في دمشق خمسة أيام، وكان له غائباً عنها أربعة عشر شهرا.

قال: وفي ذلك اليوم الخامس بلغه خبر الفرنج أنهم قصدوا جبيل، واغتال وها فخرج منزعجا ساعة بلوغ الخبر، وكان قد سير إلى العساكر ليستدعيها من سائر الجوانب، وسار يطلب جبيل، فلما عرف الفرنج بخروجه كفوا عن ذلك، وكان بلغه وصول عهاد الدين وعسكر الموصل ومظفر الدين إلى حلب قاصدين الخدمة للغزاة، فسار نحو حصن الأكراد في طلب الساحل الفوقاني ، ولما كان مستهل ربيع الآخر نزل على تل قبالة حصن الأكراد ، ثم سير إلى الملك الظاهر ولده والملك المظفر بأن يجتمعا وينزلا بتيزين قبالة انطاكية لحفظ ذلك الجانب، ففعلا وسارت عساكر الشرق حتى اجتمعت بخدمة السلطان في هذه المنزلة، ووصلت إليه رحمه الله في هذه المنزلة فإنه كان قد سير إلى إلى دمشق يقول تلحقنـا نحو حمصّ، فخرجـت على عزم المسير الى الموصـل متجهزاً لذلك، فوصلت إليه امتثالاً الأمره، فلما حضرت عنده فرح بي وأكرمني ، وكنت قد جمعت لـ كتاباً في الجهاد بدمشق مدّة مقامي فيها بجميع آدابه وأحكامه ، فقدّمته بين يديه فأعجبه وكان يلازم مطالعته، ومازلت أطلب دستوراً في كل وقت وهو يدافعني عن ذلك ويستدعيني للحضور في خدمته في كل وقت، ويبلغني على ألسنة الحاضرين ثناؤه على وذكره إياي بالجميل ، فأقام في منزلت ملك شهر ربيع الآخر أجمع، وصعد في أثنائه الى حصن الأكراد وحاصره يـوماً يجسـه به، فها رأى الوقـت يحتمل حصاره ، واجتمعت العساكر من الجوانب ، وأغار على بلد طرابلس في هـذا الشهـر دفعتين ، ودخـل البلاد مغيراً ومختبراً لمن بها مـن العسـاكـر، وتقوية للعساكر بالغنائم، ثم نادى في الناس في أواخر الشهر إنّا داخلون إلى الساحل ، وهو قليل الأزواد، وهو محيط بنا في بلاده من سائر الجوانب فاحملوا زاد شهر ، ثم سير إلي مع الفقيه عيسى، وكشف لي أنه

ليس في عزمه أن يمكنني من العود إلى بلادي، وكان الله تعالى قد أوقع في قلبي محبته منذ رأيته وحب الجهاد فأجبته إلى ذلك وخدمته من تاريخ مستهل جمادى الأولى، وهو يوم دخوله الساحل الأعلى، وجميع ماحكيته من قبل إنها هو روايتي عمن أثق به عمن شاهدوه، ومن هذا التاريخ ماأسطر إلا ماشاهدته، أوأخبرني به من أثق به خبراً يقارب العيان، وإلله الموفق.

قال العهاد: كان جماعة من أهل الحزم وأولي العزم قد أشاروا على السلطان لما فتح عكا بتخريبها وتعفيه أشارها، وأن يبقى المرابطون المحامون مكانها فلا نأمن عود الفرنج إليها، وتملكها وأن تبنى قلعة القيمون، فكاد يجيب فقيل له هذه مدينة كبيرة، وعهارة كثيرة، وأشير عليه بتبقيتها وأن تعمر وتحصن، فولى أمر عهارتها وتدبيرها الأمير بهاء الدين قراقوش، و هو الذي أدار السور على مصر والقاهرة، فاستدعاه من مصر وأمره أن يستنيب في تلك العهارة، فقدم عليه وهو بكوكب ففوض إليه عهارة عكا، فشرع في تجديد سورها وتعلية أبراجها، وكان قدم من مصر ومعه أساتيذ العمل وأنفاره ودوابه وأبقاره.

قال: ولما رتب السلطان على كوكب رحل مستهل ربيع الأول، ودخل دمشق في سادسه، وكان العسكر الغائب على مواعدة المعاودة في الربيع، وأنه يجتمع على حمص بالجميع، وكان طريق السلطان على بحيرة طبرية من شرقيها، وتجنب عقبه فيق لاستصعاب رقيها، ولما قارب السلطان دمشق تلقاه الناس أحسن لقاء، فقد كانوا متعطشين إلى رؤيته ومتشوقين إلى طلعته، لأنه غاب عنهم سنة وشهرين وخمسة أيام، فكسر فيها الكفر ونصر الإسلام وفتح فيها الأرض المقدسة وأشباهها من البلاد التي كانت بأوضار الكفر منجسه، فأصبحت بالإيهان مؤسسه، فلما استقر قر اره أمر بانشاء الكتب لاستدعاء الأجناد من الجهات للجهاد من سائر البلاد، وابتدأ بالجلوس في دار العدل، وبحضرته القصفاة والعلماء من أهل الفضل.

قال: وكان السلطان قد ولى دمشق بدر الدين مودود المعروف بالشحنة ، وهو أخو عز الدين فرخشاه لأمه، وفوض إليه في هذه الأيام ولاية الديوان، وكان مع الصفي بن القابض، فبقيت معه الخزانة - 159 -

وحدها، وكان الصفي قدبنى للسلطان داراً مطلة على الشرفين بالقلعة، وأنفق عليها أموالاً كثيرة، وبالغ في تجبيرها وتحسينها، وظن أنها تقع من السلطان بمكان، فما أعارها طرفاً ولا استحسنها، وكانت من جملة ذنوبه عند السلطان التي أوجبت عزله عن الديوان، وقال مايصنع بالدار من يتوقع الموت، وماخلقنا إلا للعبادة والسعي للسعادة، وماجئنا دمشق لنقيم، ومانروم أن لانريم.

قال: ثم هم بالغزاة فبدأ بزيارة القاضي الفاضل، وكان مقيهاً بجوسق ابن الفراش بالشرف الأعلى في بستانه، فاستضاء برأيه فيها يريد فعله، وكان لا يأتي أمراً إلا من بابه، فأقام عنده إلى الظهر، ثم ودعه ورحل.

قلت: وما أحسن ماقال ابن الـذروي في الآراء الفاضلية من قصيدة مدحه ما:

الرأيك هداالنصر للدين ينتمي

فلا ينتحله كل عضب ولهذم وإن كان فيه للأسنة والظبي

و إن حــان فيـــه تـــار ســـه والطبـــي

مساعدة فالفضل للمتقدم

تشير على الاسلام منك فراسة

لهاحـــزمطـــبواحترازمنجـــم

وتحميه ألفاظ لديك كأنها

وقلت لخيل الله ياخيل أقدمي

وقمت وقدنام الأنام مناجيا

بم ولاي نبخ المسلمين وسلم

# في دخول السلطان رحمه الله الساحل الآخر وفتح مايسره الله تعالى من بلاده

قال العماد: ثم رحل السلطان فسلك في جبل يبوس إلى عين الجر إلى الدلهمية على البقاع واتى بعلبك، وخيم بمرج عدّوسة، ثم رحل على سمت اللبوة ثم أتى الزراعة، ووصل الخبر بوصول عماد الدين صاحب سنجار في جموعه وجنوده ونزوله على قدس من عمل حمص على نهر العاصى، ولما تراآى موكبه لموكب السلطان تقابل القمران وتقارن النيران، واجتمع السعدان وسعد الجمعان، فخيم السلطان عند خيمه، وسأل أن يزوره السلطان بموكبه، فأجاب دعوته، ثم رتب السلطان يوماً لحضوره عنده وتهاديا وتصافيا، وكان أيام المشمش، وقد وصل من دمشق فأفرح قدومه، وطلعت في ابراج الاطباق نجومه، كأنها من التبر مصوغه، وبالورس مصبوغه، صفركانها ثمر الرايات الناصرية، حلا منظرا وذوقاً، ولو نظم جوهـره لكان طوقاً كأنها هو خرط من الصنـدل، وخلط بالمندل، وجمد من الثلج والعسل، وتصاحب هو والسلطان في الركوب والجلوس والتناجى بها في النفوس، وتكرررت المشاورة في الموضع الـذي يبتـدأ بقصده، واتفقوا على عرقا وعقرها والنزول بعقرها، وأنها إذا ملكت ملكت طرابلس فأقاموا بقدس إلى آخر الشهر حتى اجتمعت الجموع، ووصلت قبائل العربان، ثم سار السلطان أوّل ربيع الآخر، وخيم بقرب حصن الأكراد على البقيعة، ثم شن الاغارة على نواحي الحصن وصافيتا والعريمة وتلك الحصون، فاستخرج مافيها من المخزون، وفتح حصن يحمور وسامه الدمور، ولم تزل الاغارات والغنائم وهم في تلك المنزلة إلى آخر الشهر، فوصل قاضي جبلة منصور بن نبيل وجماعة معه فأشار على السلطان بقصدها، وتكفل بفتحها، وفتح اللاذقية، وتلك الحصون والمعاقل الشمالية، وكانت تلك البلاد قد سلمها إليه ابرنس أنطاكية وعوّل عليه فيها، وقال: إن الاشتغال بطرابلس مع احتراسها يذهب الزمان، ويفوّت الامكان، والمسلمون بجبلة مجبولون على التسليم، مؤملون أن يتبدل شقاؤهم منك بالنعيم، فأصغى السلطان إلى قوله، وأصفى له ورد طوله، وكان قد وصل إليه مقدمو جبل بهراء، فوفر لهم رواتبه وأجرى، فندبوا إلى أتباعهم وكتبوا إلى أشياعهم.

## في فتح انطرطوس

قال العياد: وأجمع السلطان على دخول الساحل بتلك العساكر والجحافل، فرحل يوم الجمعة رابع جادى الأولى، فسرنا في أجام مؤتشبه، وآكام معشبه، وحزون وسهول وشعاب وتلول، حتى خرجنا إلى ساحة الساحل، ونزلنا بها وسرنا الساحل الساحل في ثلاث مراحل، حتى وصلنا إلى انطرطوس سادس الشهر فأحدقنا بها من البحر إلى البحر، فأخلى الفرنج البلد وما خرجوا إلى الحصر، واجتمعوا في برجين عظيمين فأخلى الفرنج البلد وما خرجوا إلى الحصر، واجتمعوا في برجين عظيمين فحصر مظفر الدين كوكبري أحد البرجين حتى أنزلهم بالأمان، ثم نقبه من أساسه، وألقاه على أم راسه وعجل دماره، ورمى في البحر أحجاره، وملك جميع مافيه، وامتنع البرج الآخر وفيه الداوية وشوكتهم ومقدمهم الله واخفائه البرج وقواه بآلات الحصر، فامتنع فتحه فاشتغل المسلمون بتعفية البلد واخفائه.

وقال القاضي ابن شدّاد: دخل السلطان الساحل على تعبية لقاء العدق، ورتب الأطلاب، وسارت الميمنة أوّلاً ومقدّمها عهاد الدين زنكي والقلب في الوسط، والميسرة في الآخر، ومقدّمها مظفر الدين بن زين الدين، وسار على الثقل في وسط العسكر حتى أتى المنزل فبتنا تلك الليلة في بلد العدق، ثم رحل في صبيحة السبت. ونزل على العريمة، فلم يقابلها ولم يعرض لها، ولكن أقام عليها بقية يومه، ورحل يوم الأحد ووصل إلى انطرطوس فوقف قبالتها ينظر إليها، وكان في عزمه الاجتياز إلى جبلة، فاستهان بأمرها، فسير من رد الميمنة وأمرها بالنزول على جانب البحر، وأمر الميسرة بالنزول على البحر من الجانب الآخر، فها استتم

نصب الخيم حتى صعد الناس السور، وغنم العسكر جميع من بها ومابها، وخرج الناس والأسرى بأيديهم وأموالهم، وترك الغلمآن نصب الخيم، واشتغلوا بالكسب والنهب، ووفى بقول مرحمه الله فإنه كان قل عرض عليه الغداء فقال: نتغدى بأنطرطوس إن شاء الله تعالى. وعاد إلى خيمته فرحاً مسروراً وحضرنا عنده للهنا بها جرى ومد الطعام وحضر الناس وأكلوا على عادتهم ورتب على البرجين الباقيين الحصار فسلم أحدهما إلى مظفر الدين فما زال يحاصره حتى أحربه، وأحذ من كان فيه، وأمر السلطان باخِراب سور البلد، وقسمه على الامراء وكان البرج الآخر حصيناً منيعاً مبنياً بالحجر النحيت، وقد اجتمع من كان فيها من الخيالة والمقاتلة فيه، وخندقه فيه الماء، وفيه جروخ كثيرة تجرح الناس عن بعد، فرأى السلطان تأخير حصره والاشتغال بها هو أهم منه، فاشتد في خراب السور حتى أتى عليه، وخرّب البيعة وهي بيعة عظيمة عندهم محجوج إليها من أقطار بلادهم وأمر بوضع النار في البلد فانحرق جميعه، والأصوات مرتفعة بالتهليل والتكبير، وأقام عليها يخربها إلى رابع عشر الشهر، وسار يريد جبلة، وعرض له ولده الظاهر في اثناء طريق جبلة ومعه العساكر التي كانت بتيزين.

#### فصيل

# في فتح جبلة وغيره.

قال القاضي ابن شدّاد: وكان وصول السلطان إلى جبلة يوم الجمعة ثامن عشر الشهر، ومااستتم نزول العسكر حتى أخذ البلد وكان فيه مسلمون مقيمون فيه وقاض يحكم بينهم، وكان قد عمل على البلد فلم يمتنع، وبقيت القلعة ممتنعة ونزل العسكر محدقاً بالبلد وقد دخله المسلمون واشتغل بقتال القلعة، فقوتلت قتالاً يقيم عذراً لمن كان فيها، وسلمت بالأمان يوم السبت تاسع عشر الشهر، وأقام عليها إلى الثالث والعشرين وسار عنها يطلب اللاذقية.

وعامة المسلمين في سلوك ذلك المضيق حتى خفت الأثقال، وعبرت الأحمال، وخلص المسلمون من ذلك الشق بغير مشقة، وجازوا على مدينة يقال لها بانياس، وقد انجلي عنها الناس، فخيم المسلمون فيها، ثم أصبحوا على السرحيل فـاعترضهم نهر عريـض عميق مافيـه طريـق، وهو مطرد من الجبل إلى البحر وفيه قنطرة واحدة فتنكبها السلطان بالجحفل، ومضى يميناً إلى الجبل وأبعد حتى عبر فوق رأس العين، واختلطت العساكر بالنهر من الجانبين، وتراحمت الاثقال على القنطرة فما خلصوا تلك الليلة إلى آخرها، ونزل السلطان قبل وصول الأثقال على بلدة وهي بلدة كاسمها بلدة وهي بليدة من غربي النهر على شاطىء البحر، وجانباها الآخران بخندق فيه البحران، وقد أخلاها أيضاً أهلها، وتفرق شملها، وأصبح السلطان يوم الجمعة ثامن عشر جمادى الأولى على جبلة فتسلمها المسلمون في الوقت وذلك أن قاضيها كان قد سبق ودخلها، وقرن بالنجم للمسلمين أملها، فلما وصلوها أعلى الأعلام الناصرية على سورها، وخلَّص المسلمون بها من مساكنة الكفرة، وتحصن الفرنج بحصنيها، واحتموا بقلعتها، في زال قاضي حلة يخوفهم ويرعبهم حتى استنزلهم بشرط أن يسترهنهم إلى أن يردوا من انطاكية رهائن جبلة س المسلمين، فضبط عنده جماعة من رؤوس الفرنج والمقدمين، حتى أعاد صاحب انطاكية الرهائن التي عنده ففك بها رهائنه، وتولى قاضي جبلة الأمر فاستخرج ذخائر الكفر ودفائنه، واستنظفهم من كل سلاح وعدة وخيل وقوّة، وجاء مقدم و الجبل سامعين مطيعين، وفي الجبل على سمت طريق حاة حصن يعرف ببكسرائيل، وكان أهل الجبل استعادوه من الفرنج منذ سنين، فتسلمه السلطان أيضاً منهم، ثم سلم جبلة إلى سابق الدين عثمان صاحب شيزر، وبجل قاضى جبلة وشرف، وحبس عليه ملكاً نفيساً ووقفه، وصرفه في املاك آباته وحكمه في ولاية حكمه وقضائه.

# في فتح اللاذقية

قال القاضي ابن شدّاد :وهي بلد مليح خفيف على القلب غير مسوّر، وله ميناً مشهور، وله قلعتان متصلتان على تل يشرف على البلد، فنـزل السلطـان رحمه اللـه يوم الخميـس رابـع عشر جمادي الأولى محدقـاً بالبلد، وأخذ العسكر منازلهم مستديرين على القلعتين من جميع نواحيهما إلا من ناحية البلد، واشتد القتال وعظم الزحف والنزال وارتفعت الأصوات وقوي الضجيج إلى آخر النهار، وأخذ البلد دون القلعتين، وغنم الناس منه غنيمة عظيمة فإنه كان بلد التجار، وفرق بين الناس الليل وهجومه، وأصبح يـوم الجمعة مقاتـ لا مجتهداً في أخذ النقـوب من شمالي القلاع، وتمكن منها النقب حتى بلغ طوله على ماحكي لي من ذرعه عشرين ذراعاً عرضه أربعة أذرع، فاشتد الزحف عليه حتى صعد الناس الجبل وقاربوا السور، وتواصل القتال حتى صاروا بتحاذفون بحجارة اليد، فاما رأى عدق الله ماحل به من الصغار والبوار استغاثوا بطلب الأمان، وطلبوا قاضي جبلة يدخل إليهم ليقرّر لهم قاعدة الأمان، فأجيبوا إلى ذلك وكان السلطان رحمه الله متى طلب منه الأمان لايبخل به، فعاد الناس عنهم إلى خيامهم وقد أخذ منهم التعب، فباتوا إلى صبيحة السبت، ودخل قاضي جبلة إليهم واستقر الحال معهم على أنهم يطلقون بـأنفسهم وذراريهم ونسـائهم وأمـوالهم، خلا الغـلال والذخـائر وآلات السلاح والدواب، وأطلق لهم دواب يركبونها إلى مأمنهم، ورقى عليهم العلم الإسلامي المنصور في بقية يـوم السبت، وأقمنا عليهـا يوم الأحد سابع عشر جمادي الأولى.

وقال العهاد: رحل السلطان إلى اللاذقية يوم الأربعاء الثالث والعشرين من جمادى الأولى، فبات بالقرب منها، وصبحناها يوم الخميس وقد لاذ

أهلها بقلاعها، وهي ثلاث قلاع متلاصقات، على طول التل متناسقات، كأنهن على رأس جبل راسخ وذروة أشم شامخ، فسهل لنا فرعها، وشرعنا نستأصل أصلها وفرعها، فطلبوا السنجق الناصري ونصبوه على السور عشية يوم الجمعة، فلما أصبحوا صعد إليهم قاضي جبلة وأنزلهم بالامان، وتسلمت تلك القلاع بها فيها من عدة وذخيره وأسلحة وميره، وخيل ودواب كثيرة، وامنوا على أنفسهم وأموالهم، وانصرفوا بنسائهم ورجالهم وذريتهم وأطفالهم، وخفوا من أثقالهم، ودخل جماعة منهم في عقد الذمة، وتمسكوا بحبل العصمة، وانتقل الباقون إلى أنطاكية، ثم ولى السلطان بها مملوكه سنقر الخلاطي، وركب السلطان إلى البلد وطافه، وهز إلى إحسانه أعطافه وأمنه بعد ماأخافه.

قال: ورأيته بلدة واسعة الأفنية، جامعة الأبنية متناسقة المغاني ومتناسبة المعاني في كل دار بستان، وفي كل قطر بنيان، أمكنتها خرّمة، وأروقتها مرخة، وعقودها محكمة، ومساكنها مهندسة مهندمة وصفوفها عالية وقطوفها دانية، وأسواقها قصية، وآفاقها مضية، وارجاؤها فسيحة، وأهواؤها صحيحة، لكن العسكر شعث عارتها، واذهب نضارتها، ووقع من عدّة من الأمراء الزحام على الرخام، ونقلوا منه أحمالاً إلى منازلهم بالشام، فشوهوا وجوه الأماكن، ومحوا سنا المحاسن.

قال: وبظاهر اللاذقية كنيسة عظيمة نفيسة قديمة، باجزاء الأجزاع مرصعة، وبألوان الرخام مجزعه، وأجناس تصاويرها متنوعة، وأصول تماثيلها متفرعة، وهي متوازية الزوايا متوازنة البنايا، قد تخيرت بها أشباح الأشباه، وصوّرت فيها أمواج الأمواه، وزينت لأخوان الشيطان، وعينت لعبدة الأوثان والصلبان، ولما دخلها الناس أخرجوا رخامها، وشوّهوا أعلامها، وجروا لشامها وكسروا أجرامها، وأهدوا الأسبى لهد أساسها، وأفاضوا عليها لباس إبلاسها، وحكموا بعد الغنى بإفلاسها، فافتقرت وأقفرت، وخربت وتربت، ثم لما طابت النفوس، وتجلى عن البلد بفتحه وأقفرت، وخربت وتربت، ثم لما طابت النفوس، وتجلى عن البلد بفتحه

البؤس، عاد إلى هذه الكنيسة بالأمان القسوس،، وهي متشوهة متشعثه متمسكة بأركانها وبقواعدها متشبثة.

قال: ولقد كثر أسفي على تلك العهارات كيف زالت، وعلى تلك الحالات الحاليات كيف حالت، ولكنها زاد سروري بأنها عادت للاسلام مرابع، ولشموسه مطالع، فلو بقيت بحليتها وحالتها بعدما تبدلت رشدها من ضلالتها لشاقت وراقت، وكها أفاقت فاقت، ورغب في أعطاء الجزية سكان البلد من النصارى والأرمن حباً للوطن، ولما أراد السلطان الرحيل دخل المدينة ورد إلى سكانها السكينة، ودار خلال ديارها، وخرق أسواقها في سائر أقطارها، ووقف على البحر للنظر إلى موانيها وشوانيها، وأقاصيها وأدانيها، وشكر الله على تمكينه من ملكها وتخصيصه بملكها.

وفي كتاب عمادي إلى سيف الاسلام باليمن عن السلطان قال: "وهذه اللاذقية مدينة واسعة، وخطة جامعة، معاقلها لاترام، واعلاقها لاتستام، وهي أحسن بلاد الساحل وأحصنها، وأزيدها أعمالاً وضياعاً وأزينها، ومافي البحر مثل ميناها، ولا للمراكب الواردة مثل مرساها، وهي جنة كان يسكنها أهل الجحيم، وطالما مكثت بالكفر دار بؤس، فعادت بالاسلام دار نعيم»

قال: وكانت شواني صقلية قد قابلت في البحر اللاذقية، طمعاً في المتناعها، فلما خابت خبت نارها، وقصدت لجهلها أخذ مركب من يخرج من أهلها حنقاً عليهم كيف سلموا البلدة وسمحوا ببذلها، فكان ذلك مقتضياً لبقاء ساكنيها بالجزية تؤديها، ولما وقف السلطان على شاطىء البحر بعساكره، طلب مقدم تلك الشواني أمانه ليصعد ويشاهد سلطانه، فأمنه فصعد وعفر وكفر، وتروى ساعة وتفكر، وقال مامعناه :أنت سلطان عظيم، وملك رحيم، وقد شاع عدلك وذاع فضلك، وقهر سلطان عظيم، وملك رحيم، وقد شاع عدلك وذاع فضلك، وقهر

سلطانك، وظهر احسانك، فلو مننت على هذه الطائفة الساحلية الخائفة، لملكت قيادها إذا أعدت إليها بلادها، وصاروا لك عبيداً وأطاعوك قريباً وبعيداً، وإلا جاءك من وراء البحار في عدد الأمواج أفواج بعد أفواج، وسار إليك ملوك ذوي الاقاليم من سائر الاقانيم، وهؤلاء أهون منهم فاتركهم واصفح عنهم، فقال له السلطان: قد أمرنا الله بتمهيد الأرض، ونحن قائمون في طاعته بالفرض، وعلينا الاجتهاد في الجهاد، وهو الذي يقدرنا على فتح البلاد، ولو اجتمع علينا أهل الأرض ذات الطول والعرض، لتوكلنا على الله في اللقاء، ولم نبال باعداد الأعداء، فصلب على وجهه وركب بكربه، ولم يغن خطابه عن خطبه.

## في فتح صهيون وغيرها

قال القاضي ابن شداد: رحل السلطان عن اللاذقية ظهيرة الأحد السابع والعشرين من جمادى الأولى طالباً صهيون، فنزل عليها يوم الثلاثاء التاسع، فاستدار العسكر بها من جميع نواحيها بكرة الأربعاء، ونصب عليها ستة مجانيق، وهي قلعة حصينة منيعة في طرف جبل خنادقها أودية هائلة واسعة عميقة، وليس لها خندق محفور إلا من جانب واحد، مقدار طوله ستون ذراعاً ولايبلغ. وهو نقر في حجر ولها ثلاثة أسوار سوران دون ربضها وسور دون القلعة، وسور القلعة وكان على قلعتها علم طويل منصوب، فحين أقبل العسكر الإسلامي شاهدته وقد وقع فاستبشر بذلك المسلمون، وعلموا أنه النصر والفتح المبين، واشتد القتال عليها من سائر الجوانب، فضر بها منجنيق ولده الملك واشتد القتال عليها من سائر الجوانب، فضر بها منجنيق ولده الملك مائب الحجر، فلم يزل يضربها حتى هدم من السور قطعة جيدة عظيمة عمكن الصاعد في السور من الترقي إليه منها.

ولما كان يوم الجمعة ثاني جمادى الآخرة، عزم السلطان على الزحف، وركب وتقدّم وتواترت المنجنيقات بالضرب، وارتفعت الاصوات وعظم الضجيج بالتكبير والتهليل، وماكان إلا ساعة حتى رقى المسلمون على أسوار الربض، واشتد الزحف وعظم الأمر وهجم المسلمون الربض، ولقد كنت أشاهد الناس وهم يأخذون القدر وقد استوى فيها الطعام فيأكلونها، وهم يقاتلون القلعة، وانضم من كان في الربض إلى القلعة بها أمكنهم أن يجملوه من أموالهم، ونهب الباقي، واستدار المقاتلة حول أسوار القلعة، فلها عاينوا الهلاك استغاثوا بطلب الأمان، فأمنهم حول أسوار القلعة، فلها عاينوا الهلاك استغاثوا بطلب الأمان، فأمنهم

السلطان على أن يسلموا بأنفسهم وأموالهم، ويأخذ عن الرجل منهم عشرة دنانير، وعن المرأة خمسة دنانير، وعن الصغير ديناران، فسلمت القلعة و أقام السلطان حتى تسلم عدة قلاع كالعيد وبلاطنس وغيرهما من القلاع والحصون، تسلمها النواب فإنها كانت تتعلق بصهيون.

وقال العماد: كان الطريق إلى صهيون في أوديمة وشعاب، ومنافذ صعاب، وأوعاث وأوعار، وإنجاد وأغوار، فقطعنا تلك الطريق في يومين ووصلنا ليلة الثلاثاء بليلة الاثنين، وخيمنا على صهيون يوم الثلاثاء وهي قلعة على ذروة جبل بين واديين عميقين يلتقيان عليها، ويدوران حواليها، والجانب الجبلي مقطوع منه بخندق عظيم عميق وسور وثيق ماإليه لسوى القضاء والقدر من طريق، والقلعة ذات أسوار خمسة، كأنها خمس هضاب ممتلئة بذئاب سغاب وأسد غضاب، وأحاط العسكر بها يوم الأربعاء من نواحيها الأربع وهي ممتنعة علينا بالركن الأمنع، والسمّو الأمتع، ونقل السلطان خيمته إلى جانب الجبل وأقام الظاهر غازي صاحب حلب منجنيقين، ونهيج بها من جانب الوادي إلى ردّ الاعادي طريقين، وكان له بفتح هذه القلعة الجد العالي، والجد المتوالي فإنه اتصلُّ بنا قبل الموصول إلى جبلة من طريق حماة، وقد استصحب الكماة الحماة، ومعمه الرجال الحلبية، والمنجنيقية والجرخيه والجانداريه والخراسانية، واستصحب الحجارين والحدّادين والنجارين، فأظهر على صهيون اليد البيضاء، وأنار في الفضائل واضاء، وكان نازلاً على جانب الوادي مقابل الحصن، وشرع الجدار في الانقضاض، وأصبحنا يدوم الخميس و للجلاميد وقوع، وللسور سجود وركوع، ومازالت المجانيق من جانبه وجانبنا تـرمي والحنايا سهام المنايـا تصمي حتى قتل وجرح أكثـر مقاتلة الحصن، وهان بهادب فيه من الوهن، وأصبحنا يوم الجمعة ثاني جمادى الآخرة، وبحر الحرب في أصواجه الزاخرة، وتطرق أصحابنا من قرنة خفيت عليهم من الخندق لم تحكم عمارتها، كأن الله أعماهم عنها حتى

يسلك الحتف إليهم منها، فتعلقوا في الصخور، وتسلقوا السور، وملكوا عليهم ثلاثة أسوار، واحتووا على كل مافيها من ذخائر وغلال، ودواب وأبقار، وازدحم الفرنج في القلة، وتفادوا من الخوف لا من القلة، وصاحوا الأمان، وبذلوا الإذعان، ونادوا: مكنونا من السلامة، وتسلموا المكان، فها امنوا على المال والنفس، حتى قرّرنا عليهم مثل قطيعة القدس، وأغلقت دونهم الأبواب، وسيرت إليهم النوّاب، وما استقر خروجهم حتى استخرج القرار وجبي الدرهم والدينار، وعم الصغار الكبار والصغار، وتولى ذلك شجاع الدين طغرل الجاندرا، ثم سلم حصن صهيون بجميع أعهاله وسائر ماحواه من ذخائره وأمواله إلى الأمير ناصر الدين منكورس بن خمارتكين صاحب بوقبيس، فأحكمه وحصنه، وحفظه وحسنه وتسلم يوم السبت قلعة العيد، ويوم الأحد وحصنه، وحفظه وحسنه وتسلم يوم السبت قلعة العيد، ويوم الأحد من تسلمه وسلكه في سلك الفتوح ونظمه.

قال: وبفتح صهيون حصل الأمن على اللاذقية، وقوى الأمل في فتح انطاكية، فإنه قفل محكم على بابها، وسبب قوي من أسبابها، ففتح المنهاج.

## في فتيح بكاس والشغر والسرمانية

قال القاضي ابن شدّاد: ثم رحل السلطان وسرنا حتى أتينا بكاس، وهي قلعة حصينة على جانب العاصي، ولها نهر يخرج من تحتها، وكان النزول بذلك المنزل على شاطىء العاصى يوم الثلاثاء سادس جمادى الآخرة، وصعد السلطان جريدة إلى القلّعة وهي على جبل مطل على العاصى فأحدق بها من كل جانب، وقاتلها قتالاً شديداً بالمنجنيقات والزحفُّ المضايق إلى يوم الجمعة أيضاً تاسع جمادى الآخرة، ويسر الله فتحها عنوة، وأسر من فيها بعد قتل من قتل منهم وغنم جميع ماكان فيها، وكان لها قليعة تسمى الشغر قريبة منها يعبر إليها منها بجسر، وهي في غاية المنعة ليس إليها طريق، فسلطت عليها المنجنيقات من سائر الجوانب، ورأوا أنهم لاناصر لهم، فطلبوا الأمان، وذلك في يوم الشلاثاء ثالث عشره، وسألوا أن يؤخروا ثلاثة أيام لاستثذان من بأنطاكية، يسر الله فتحها، فأذن في ذلك ، وكان تمام فتحها، وصعود العلم السلطاني على قلعتها يوم الجمعة سادس عشرة، ثم عاد السلطان إلى الثقل، وسير ولده الظاهر إلى قلعة تسمى سرمانية يوم السبت سابع عشرة فقاتلها قتالاً شديداً وضايقها مضايقة عظيمة وتسلمها أيضاً يوم الجمعة ثالث عشرة الشهر المذكور.

قال: فاتفق فتوحات الساحل من جبلة إلى سرمانية في أيام الجمع، وهو علامة قبول دعاء خطباء المسلمين، وسعادة السلطان، حيث يسر الله له الفتوح في اليوم الذي يضاعف فيه ثواب الحسنات. قال: وهذا من نوادر الفتوحات في الجمع المتوالية لم يتفق مثلها في تاريخ.

وقال العماد: سار السلطان ثاني يوم فتح صهيون على سمت القرشية

وبزل على العاصي في طاعة الله على تـل كشفهان، فتسلم حصن بكاس يوم الجمعة تاسع الشهر، وحوّل خيمة خفيفة إلى الجبل لحصار قلعة الشغر، وهي تلة شامخة من أعلى التلل مطلة على واد عميق، وكان الكفار قد أخلوا بكاس من الرعب واجتمعوا بقلعة الشغر، وهي عالية حصينة منيعة لاتصل المجانيق إليها، فاستصعب السلطان أخذها وخاف من طول أمرها، فبينا هو مفكر في ذلك والفرنج قد داخلهم الرعب، فارسلوا في طلب الأمان واستمهلوا ثلاثة أيام، فكبر المسلمون وفرحوا وأصبحوا يوم الجمعة والشغر شاغر، والكفر صاغر ، فتسلمها المسلمون وتصرفوا فيها وفيا تحويه من ذخائر وعدد ودواب وانعام، وأنعم السلطان وتصرفوا فيها وفيا تحويه من ذخائر وعدد ودواب وانعام، وأنعم السلطان قليج قد تسلم كفر دبين، وهو معقل حصين يسكنه الأرمن في ذلك الصقع، وبذل في استخلاصه غاية الوسع، فولاه السلطان تلك الحصون، وحاط بإيالته أمرها المصون، وعاد إلى خيمه يوم السبت، وهو حسن السمت، كريم النعت.

قال: وكان الملك الظاهر عند اشتغالنا بفتح قلعة الشغر، قد نزل على سرمانية مضايقا لها بالحصر فتسلمها يوم الجمعة ثالث عشري الشهر، وذلك بعد قطيعة قررها وقبضها، ولما أخرجهم منها دخلها فأبطل عمارتها وعطلها وهدم بنيانها، وهد أركانها، ومابرح حتى سواها بالأرض، وخلط طولها بالعرض.

قال: وهذه ست مدن وقلاع فتحت في ست جمع تباع: جبلة واللاذقية وصهيون وبكاس والشغر وسرمانية. وأطلق بها الأنفس والنفائس العانية، فقد كان في هذه المعاقل من أسارى المسلمين عدّة، لولا فتحها لما زالت عنهم تلك الشدّة، وهذا اقليم جبلة واللاذقية، هو عين انطاكية التي فقئت، ونحرها الذي عنه حلئت، ولم يبق لأنطاكية

من الحصون سوى ثلاثة: القصير، وبغراس، ودربساك، وقد أصبحت معدومة الأطراف،قد قطعت أيديها وأرجلها من خلاف.

## في فتح حصن برزيه

قال القاضي ابن شدّاد: ثم سار السلطان جريدة إلى قلعة برزيه، وهي · قلعة حصينة في غاية القوّة والمنعـة على سن جبل شاهق يضرب بها المثلُّ في جميع بلاد الفرنج والمسلمين، يحيط بها أودية من سائر جوانبها، وذرع علو قلتها، فكان خسائة ذراع ونيفاً وسبعين ذراعاً ثم حرر عزمه على حصارها بعد رؤيتها، واستدعى الثقل فنزل تحت جبلها، وفي بكرة الأحد الخامس والعشرين من جمادي الآخرة، صعد السلطان جريدة مع المقاتلة والمنجنيقات وآلات الحصار إلى الجبل فأحدق بالقلعة من سائر نواحيها، وركب القتال عليها، من كل جانب وضرب أسوارها بالمنجنيقات المتواترة الضرب ليلاً ونهاراً وقاتلها حتى كان يوم الثلاثاء السابع والعشرين فقسم العسكر ثلاثة أقسام، رتب كل قسم يقاتل شطراً من النهار، ثم يستريح ويتسلم القتال الشطر الآخر، بحيث لايفتر القتال عنها أصلاً وكان صاحب النوبة الأولى عماد الدين صاحب سنجار، فقاتلها قتالاً شديداً حتى استوفى نوبته وضرس الناس من القتال وتراجعوا عنه، وتسلم النوبة الثانية السلطان بنفسه، وركب وتحرك عدّة خطوات وصاح في الناس فحملوا حملة الرجل الواحد، وصاحوا صيحة الرجل الواحد، وقصدوا السور من كل جانب فلم يكن إلا بعض ساعة حتى رقى الناس على الأسوار، وهجموا القلعة وأخذت عنوة، واستغاثوا الأمان وقد ملئت الأيدي منهم (فلم يك ينفعهم إيانهم لما رأوا بأسنا)(٧٨) ونهب جميع ماكان فيها، وأسر جميع من كان بها، وكان قد أوى إليها خلق عظيم، وكانت من قلاعهم المذكورة، وحصونهم المشهورة، وكان يوماً عظيماً ، وعاد الناس إلى خيامهم غانمين، وعاد السلطان إلى الثقل وأحضر بين يديه صاحب القلعة، وكان رجلاً كبيراً

منهم فكان هو ومن أخذ من أهله سبعة عشر نفساً، فمن عليهم السلطان ورق لهم، وأنفذهم إلى صاحب انطاكية استهالة له، فإنهم كانوا يتعلقون به ومن أهله.

وقال العماد: وصف للسلطان قلعة برزيه، وأنها لحصن أفامية متاخمة، وله مناصفة مقاسمه، وأن المسلمين من جوارها في جور وفي حور بعد كور ، ووصفوا علوها، فركب السلطان إليها وأشرف عليها فألفاها كما وصفوها، وبالغوا فيها وماانصفوها، فنصب عليها المجانيق فوقعت أحجارها دونها، ولم يتحرك سكونها، وكيف تهدّد الخنساء بصخر، والعنقاء بصقر، وحجر الجبل بحجر ، ومدار الفلك بمدر. فلما رأى السلطان ذلك قوي رأيه على أن يفرق العسكر ثلاث فرق، ويتناوبون على قتالهم زحفاً ليتعبـوهم ويضجروهـم فإنهم عـدد محصور عما قليل تفنـي عدّتهم، وتفل عدّتهم، ففعل ذلك وكانت النوبة الأولى لصاحب سنجار، والثانية للسلطان وخواصه، ثم امتزجت الثالثة بالثانية، وعادت رجال النوبة الأولى وتناصرت أنصار الله على النزال لاستنزال النصر، واحمدوا عاقبة الصبر في الحصر، فطلب العدو الأمان، وأرسلوا إلى السلطان، وكان أصحابنا خالطوهم وباسطوهم وأحاطوا بهم، وهناك جماعة من دهاة العسكر أشاعوا للناس أن السلطان يؤمنهم، فرجع العالم عنهم ولم ينالوا منهم، فلما ردّ السلطان رسولهم ولم يؤمنهم ساقوا أولئك السباياً قدامهم كما يسوقون أغنامهم، وخانوا اخوانهم، وراموا حرمانهم، وتفرقوا بالسبى أيدي سبأ، وسافروا بها من العسكر إلى البلاد وباعوها في سوق الكساد، وتسلم السلطان حصن برزيه ظهر يوم الثلاثاء السابع والعشرين من جمادي الآخرة، وولاه الأمير عن الدين ابراهيم بن الامير شمس الدين محمد بن المقدّم، وهو صاحب حصن أفامية مناظر برزيه، وهو على الثغر وما بين الاثنين بحيرة تحجز الجانبين، وصيادوها المسلمون بأفامية، فخلص للاسلام الثغر وسكن الدهر. قال: وكانت صاحبة حصن برزيه زوجة الابرنس صاحب أنطاكبة، وقد سبيت وخبيت، فها زال يطلبها حتى أظهروها وأحضروها، وزوجها وابئة لها، وجماعة من أصحابها، وصهرها، وكانت امرأة ابرنس انطاكية، تعرف بدام سبيل في موالاة السلطان عيناله على العدق، تهاديه وتناصحه وتطلعه على أسرارهم والسلطان يكرمها لذلك ويهدي إليها أنفس الهدايا، فلها فتح حصن برزيه وحصل في أسره هذه الجهاعة، وافترقت بهم أيدي المسلمين تتبعهم السلطان وخلصهم من الأسر، وأنعم عليهم وجهزهم وسيرهم إلى انطاكية لأجل امرأة الابرنس، فشكرته على ذلك ودامت مودتها ونفعها للمسلمين.

وفي بعض كتب البشائر العمادية: «آخر مافتحناه حصن برزيه الذي تضرب بحصانته الأمثال، ولاترقى إلى ذروة تمنيه الأمال، وقد آخذناه بالسيف عنوة، وفتحناه ضحوه، فيالها من ضحوة ليوم الثلاثاء أظلمت على أهل التثليث، والهى الله المؤمنين عن ذكر الفتوح القديمة بحديث هذا الفتح الحديث، ولو وكلنا الله إلى اجتهادنا في الفتح لتعذر، ولكنه سبحانه سهل ويسر»

ومن كتاب فاضلي إلى السلطان: "وصلت كتب البشارة بفتح حصن برزيه وهو الذي تضرب به الأمثال، وتضرب عنه الأمال، ويكاد يجزن إذا قادت أيدي السلاسل أزمة الجبال، ويكاد يذم ساكنيه من خطرات الأوجال، بل من خطوات الآجال، وكان للكفر درعاً حصينة طالما كانت تهزأ بالنصال فعظمت المنة السلطانية عند أهل الإسلام، ودعوا بأن يفلج الله حجة سيفه الد الخصام، وقد كان الناس يعدون مواهبه عالاتحصى، فقد تحققت بها فتوحاته فهي أيضاً لاتحصر، فمرحباً بفتوح يقول غائبها: الحمد لله، وحاضرها: الله أكبر، ومابقي المملوك يستبطىء خبر أنطاكية، فقد ألقت الأرض افلاذها، وقد ولدت لكرمه ذهبها، ولنصره فولاذها، ولم نر في نعم الله مثلها نعمة كريمة وجيهه، ولانعرف

بعدها للزمن سيئة ولاكسريهة، إلا أنا نرجع في معرفة قدرها واخلاص شكرها إلى مارضيه الله شكراً ممن نجاه من أهوال يوم القيامة، وأدخله دار المقامة، بأنهم قالوا: (الحمد لله الذي أذهب عنا ألحزن)(٧٦) (الحمد لله الذي صدقنا وعده)(٨٠) (الحمد لله الذي هدانا لهذا)(٨١) ( وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين (٨٢) فرضى بالحمد منهم، ورضى عنهم، وأثنى عليهم بأنهم اختتموا به، وافتتحوا، وقدّسوا به وسحبواً، وثقلت به موازين أعمالهم، فرجحوا ونجحوا، ونحن نقول: الحمد لله على بهجة الدنيا بمولانا ونضرتها، وعلى عزة الملة به ونصرتها، وعلى بهجة القلوب به ومسرتها، وعلى غنى الأيدي به وميرتها، وعلى روعة قلوب الأعداء بـ وحسرتها (و إن تُعدوا نعمة الله لاتحصوها)(٨٣) وفتوح مولانا من تلك النعم، وإن قصرنا في شكرها فها نقصر في ذكرها، وإنّ عجزنا عن حصرها، في نعجز عن المعرفة بفضل قدرها، وتلك النعم بحمد الله منتظمة العقود، مطردة السعود، متوافية الرسل، عامرة السبل خارقة العوائد قارنة المساعي بالمساعد، كادت العيون قبل وقوعها تلحظها، وكادت المنابر لما يدرس عليها من كتبها تحفظها، فما يشرح صدر من خبرها، فيسمعه ذو صدر إلا إنشرح، ومايساًل الناس هل فتح الملك الناصر، وإنها يقال مااسم البلد الذي فتح؟ فمن عند مولانا الجنان، ومن عندنا اللسان، وعليه الجهد، وعلينا الحمد، فهي فتوح كثمرات الجنة، لامقطوعة ولا ممنوعة، وأعمالها المبرورة إلى الله مرفوعة.

ومن قصيدة للشهاب فتيان الشاغوري وقد تقدم بعضها: لماملك عصد ونانط اكية

يئس الصليب وحزب من مظهر

أردي تكريك مثلث متكبر

بم وحد متواضع ومكبر

برزت إلى برزيه عرزمتك التي

متت يداعن مطلب لم يقصر

فتناولته بأيدهامن باذخ في الافستى ذي مشل يروع مسير فانهض لصور فهي أحسن صورة في هيكال الدنيابدت لمصور في هيكال الدنيابدت لمصور ماسور صورعاصم منه وهل سور المعاصم عاصم لمسور

### في فتح حصن دربساك

قال القاضي ابن شدّاد: ثم سار السلطان حتى أتى جسر الحديد وأقام عليه أياماً وسار حتى نزل على دربساك يوم الجمعة ثامن شهر رجب، وهي قلعة منيعة قريبة من أنطاكية، يسر الله فتحها، فنزل عليها وقاتلها قتالاً شديداً بالمنجنيقات، وضايقها مضايقة عظيمة وأخذ النقب تحت برج منها، وتمكن النقب منه حتى وقع وحموه بالرجال والمقاتلة، ووقف في الثغرة رجال مجمونها عمن يصعد فيها. قال: ولقد شاهدتهم وكلها قتل منهم رجل قام غيره مقامه، وهم قيام عوض الجدار مكشوفين، واشتد الأمر حتى طلبوا الأمان واشترطوا مراجعة أنطاكية، وكانت القاعدة أن ينزلوا بأنفسهم وثياب أبدانهم لاغير، ورقي عليهم العلم الإسلامي يوم الجمعة أيضاً ثاني عشر رجب، وأعطاها علم الدين سليان بن جندر، وسار عنها من الغد بكرة السبت.

وقال العاد: ثم عبر نهر العاصي إلى شرقيه عند شقيف دركوش، وهو ثغر على الغزاة للإسلام منيع، فجزناه وخيمنا على جسر الحديد أياما، حتى استكمل العسكر راحاته وتكامل ونحن بقرب انطاكية، وقد صوبنا إليها عزائمنا الناكية، ثم قلنا قدامها حصون وحماها بحايتها مصون، فإذا ذهبت معاقلها، جاءتها غوائلها، فنزلنا على دربساك، وهو حصن للداوية وقد اعتصموا بعصمته، وامتنعوا بمنعته، فنصبنا عليه المنجنيقات، فها زالوا يجالدون ويتجلدون إلى أن ضاق بهم الخناق، وتسلق النقابون إلى الباشورة وهدوا بالنقب برجاً، ووسعوا للزحف نهجاً فطلبوا الأمان وفدوا أنفسهم بألوف فأومنوا على أنهم يخرجون بهوانهم، وثياب أبدانهم، ويدعون كل مافي الحصن من خيل وعدة وذخيرة وغله وثياب أبدانهم، ويدعون كل مافي الحصن من خيل وعدة وذخيرة وغله

واثاث وقهاش وذهب وفضة، وأمهلوا ثلاثة أيام، ثم أخرجوا من ديارهم، وتسلم الحصن يوم الجمعة الثاني والعشرين من رجب.

في بعض الكتب العهادية: «هذه المكاتبة مبشرة بالفتح الأهنى والنصر الأسنى، وهو فتح دربساك الذي لم يكن لأنطاكية إلا به الامتساك، وقد قص الآن جناحها، وقل سلاحها، وحيق قرحها وبطل اقتراحها، وخرجت باخراج حصونها من ولايتها أرواحها، وقد بقيت غرضاً للعسكر، وعرضا بلا جوهر، وشبحاً بغير روح، وصدراً غير مشروح، والكفر مفجوع بالنفس والبلد، والأمل والولد، ونحن لاراحة لنا إلا في هذا التعب، ولاأرب لنا في غير هذا الأرب، ولااجتهاد لنا إلا في الجهاد، ولامغزى لنا غير الغزاة، ومانرجو من الله إلا انجاز العدات في جميع العداة، أصبحنا يوم الثلاثاء وقد ساء صباح المثلثين، وبان صباح الموحدين وأبينا أمانهم يوم الثلاثاء وقد ساء صباح المثلثين، وبان صباح الموحدين وأبينا أمانهم ويلمسوا بوسهم، ويخلعوا بأسهم ويلمسوا بوسهم، وينجوا بثياب أبدانهم، وقد أدّوا خمسة آلاف دينار من أثيانهم.

### في فتح بغراس

قال القاضي ابن شدّاد: وهي أيضاً قلعة منيعة أقرب إلى انطاكية من دربساك، وكانت كثيرة العدة والرجال، فنزل العسكر في مرج لها، وأحدق العسكر بها جريدة، مع أنا احتجنا في تلك المنزلة إلى يزك يحفظ من جانب أنطاكية، لئلا يخرج منها من يهجم على العسكر، فضرب يزك الإسلام على باب أنطاكية، بحيث لايشذ عنه من يخرج منها.

قال: وأنا محن كان في اليزك في بعض الأيام، لرؤية البلد وزيارة حبيب النجار المدفون فيه عليه السلام. ولم نزل نقاتل بغراس مقاتلة شديدة حتى طلبوا الأمان. على استئذان أنطاكية، ورقي العلم السلطاني عليها في ثاني شعبان.

وقال العهاد: ولما فتحست دربساك لم يبق لنا همة إلا بغراس، وقد شارف رجاء أكثر الناس في فتحه الياس، وهو حصن حصين، ومكان مكين، هو للداوية وجار ضباعها، وغاب سباعها، وهو بقرب أنطاكية حصارها وحصاره سواء، ومالدواء داويته دواء فنزل العسكر بين أنطاكية وبينه، يتقاضون منها للدين دينه، ويشنون الغارات، ويسنون النكايات، ولا يبرحون بازاء أنطاكية صفا يرمون، لأهلها فتحا وحتفاً يتناوبون على سبيل اليزك، ويدعون العدا إلى المعترك، وليس بينها إلا النهر، فصعد السلطان جريدة إلى الجبل، وأمر بنصب المجانيق حولها على تلك التلل، ونقل إليها أحواض الماء ورواياه، وبث في النواحي سراياه، وفرق على الجميع عطاياه، وأقمنا عليه اسبوعاً نجري إليه من كل منجنيق من الجميع عطاياه، وأقمنا عليه اسبوعاً نجري إليه من كل منجنيق من فيض الحجارة ينبوعاً، ونحن نفكر فيها يكون، ومتى تتم الحركة وفيم السكون، وهذا بيكار يطول، وتعب لايزول، إذ رأينا باب الحصن وقد السكون، وهذا بيكار يطول، وتعب لايزول، إذ رأينا باب الحصن وقد

فتح وخرج من الحصن من أخذ الامان لأهله، وسلم الحصن بها فيه من الأموال، وقدّر مافيه من الغلة تخمينا باثني عشر ألف غرارة، وسلمها السلطان مع دربساك إلى صاحب عزاز علم الدين سليها ن بن جندر، وكتبت عليه جميع مافي القلعتين من الموجود من المكيل والموزون والمعدود، وكاثبت الغلة بانطاكية غالية السعر، فقلت: كأني بمن تولى القلعة وقد بباع الغلة وشفى من فقره بها الغلة، ثم أشار بتخريبها وهدمها، ولم يلترم بحكمها، وقال: ابقاؤها غرر، وحفظها على المسلمين ضرر وخطر، فجاء الأمر على ماحسبته بعد سنين، وعاد اخلاها بمضرة المؤمنين، فإنه أظهر ذلك الوقت أنه أخلاها، وأنه للتخريب خلاها، فجاء إليها مقدّم الأرمن ابن لاون فدخلها، وأتم غاراته وكملها، وذلك فجاء إليها مقدّم الأرمن ابن لاون فدخلها، وأتم غاراته وكملها، وذلك لأنطاكية جناحين، ولطاغية الكفر سلاحين، فتم للسلطان فتح هذه الحصون المذكورة مع أبراج ومغارات وشقفان كثيرة، حتى خلص ذلك الإقليم، وقم الفتح العظيم، وعادت الكنائس مساجد والبيع معابد، والصوامع جوامع، والمذابح لعبدة الشيطان مصارع.

# في عهد الهدنة مع صاحب أنطاكية وعود السلطان

قال العهاد: كان السلطان قد عزم على قصد أنطاكية، فرأى همم الأجناد، لاسيها الغرباء قد ضعفت، ونياتهم في الجهاد قد فترت. وتشوقوا إلى البلاد والراحة من جهادهم، وكان صاحب أنطاكية قد أشرف على الهلاك، وعلم أنه إن قصد غلب، فنفذ أخا زوجته رسولاً إلى السلطان متذليلاً يطلب الهدنة على أنه يطلق من عنده من أسارى المسلمين، وهم جمع كبير، فعقدها معهم مدة يسيرة ثهانية أشهر من تشريس الأول إلى انقضاء أيار، فيكون انقضاء الهدنة قبل إدراك الغلة وأوان حصادها، فيستريح فيها الأجناد، ويعودون بعدها إلى فرض الجهاد، فتم كتاب الهدنة وتوجه شمس الدولة ابن منقذ لتخليص الاسرى وانقاذهم منه.

وقال القاضي ابن شدّاد: وفي بقية ذلك اليوم يعني يـ وم فتح بغراس، وهو ثاني شعبان عاد السلطان إلى المخيم الأكبر، وراسله أهل انطاكية في طلب الصلح، فصالحهم لشدة ضجر العسكر، وقوة قلق عهاد المدين صاحب سنجار في طلب الدستور وعقد الصلح بيننا وبين أهل أنطاكية لاغير، على أن يطلقوا جميع أسارى المسلمين الذين عندهم، وكان إلى سبعة أشهر، فإن جاءهم من ينصرهم، وإلا سلموا البلد إلى السلطان، ثم رحل عنه يطلب دمشق، وسأله ولده الظاهر صاحب حلب أن يجتاز به، فأجابه فدخلها حادي عشر شعبان، فأقام بقلعتها ثلاثة أيام، ثم سار إلى دمشق فاعترضه ابن أخيه تقي الدين وأصعده إلى قلعة حماة، وبات بها ليلة واحدة فأعطاه جبلة واللاذقية، وسار إلى بعلبك وأقام ببرجها يوماً ودخل حمامها، ثم أتى دمشق فأقام بها حتى دخل شهر رمضان، وما كان يرى تبطيل وقته عن الجهاد مهما أمكنه، وكان قد بقي له من

القلاع القريبة من حوران التي يخاف عليها من جانبها صفد، وكوكب، فرأى أن يشغل الزمان بفتح المكانين في الصوم.

وقال العهاد: وودع السلطان عهاد الدين صاحب سنجار والعساكر الغريبة، وأتحفهم بالتحف العجيبة، وارتاح إلى العبور على أرتاح. ووصل إلى جانب حلب وقد خرج كل من بها للتلقى مستبشرين بالاقبال المتضاعف المترقى، وشاهدنا من النظارة عيوناً للمحاسن ناظرة، ووجوها ناضرة، وقلوبا حَاضرة، وألسنا شاكرة، وأيديا في بسطها إلى الله للابتهال بالدعاء متظاهرة، فأقام بقلعتها أياماً يسيرة، وألفى ولده الظاهر قد سار فيها أحسن سيرة. ثم سار منها على طريق المعرة وقصد زيارة الشيخ الزاهد أبي زكريا المغربي عند مشهد عمر بن عبد العزيز رحمه الله، فترك بزيارة الميت والحي، ثم وصل إلى حماة فنـزل بقلعتها، ومعـه أمير المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، وهو عز الدين أبو فليتة القاسم بن المهنا، وكان للسلطان في جميع الغزوات مصاحبا، وعلى معاضدتُه مواظبا، وماحضر معنا على بلد أوحصن إلا فتحناه، وكان السلطان يستوحش لغيبته، ويأنس بشيبته، وكان بجنب السلطان جالساً، ولنظره عليه حابساً ، وكانت قلعة حماه ذات تيل منبطح، فلما تولاها تقي المدين رفع تلها وعمق خندقها وحصنها، فطلع السلطان تلك الليلة إلى القلعة، وسربها رأى من الحصانة والرفعة، ووقف الملك المظفر لعمه وجرى في الخدمة على رسمه، وأصبح السلطان راحلاً، ولم يقم بحمص وجاء إلى بعلبك على طريق الزراعة واللبوة ووصل إلى دمشق قبل رمضان، وأشير على السلطان بأن يريح عسكره، فقد أحمد في عامـه مورده ومصدره، وأربح في سبيل الله متجره، فقـال: إن القدر غير مأمون، والعمر غير مضمون، وللفرض أوقات وللدهر آفات، وبقيت مع الكفر هذه الحصون، وإن لم نبادرها اختل أمرنا المصون، لاسيها صفد وكوكب فإنهما للداوية والاسبتارية في وسط البلاد، والثغور الإسلامية بهما

#### - X20Y\_

واهية السداد، فنخرج ونشتو عندهما، ونقصد قصدهما، فإذا فتحناهما خلصت هذه البلاد، وصفت الأوراد.

قال: فها لبث السلطان ولامكث، ولانقض عهد عزمه على الغزاة ولانكث، وقال: لانبطل الغزوه ولانعطل هذه الشتوه.

### في فتح الكرك وحصونه

قال العاد: ووردت البشرى بنحج الدرك، في تسليم حصن الكرك، وذلك أنها في مدّة غيبتنا في بلاد انطاكية، لم تعدم من محاصرتها المضايقة الناكية، وكان الملك العادل أخو السلطان مقيها بتبنين في العساكر، محترزا على البلاد من غائلة العدو الكافر، أقامه السلطان هنالك عند توجهه إلى البلاد الشهالية، لقصد جبلة واللاذقية، فأقام بتبنين مقوياً للأمراء المرتبين على الحصون، حافظاً على الدهماء بحركته في الأمور عادة السكون، وكان صهره سعد الدين كمشبه بالكرك موكلاً، وبأهله منكلاً، قد غلق رهنه وبقي حصاره معضلاً، وأمره مشكلاً، حتى فنيت أزوادهم، ونفدت موادهم، ويشوا من نجدة تأتيهم، وأعملت عليهم مصايفهم ومشاتيهم، فتوسلوا بالملك العادل، وأبدوا له ضراعة السائل، فها زالت الرسالات تتردد، والاقتراحات تتجدد، والقوم يلينون والعادل يتشدد، حتى دخلوا في الحكم، وخرجوا على السلم، وسلموا الحصن وتحصنوا بالسلامة، وخلصوا بإقامة عذرهم عند قومهم من الملامة، وتسلم سعد بالسلامة، وخلصوا بإقامة عذرهم عند قومهم من الملامة، وتسلم سعد الدين بعدها الحصون التي بقربها كالشوبك، وهرمز، والوعر، وسلع.

وقال القاضي ابن شدّاد: وفي أثناء شهر رمضان سلمت الكرك من جانب نواب صاحبها، وخلصوه بها من الأسر، وكان أسر في وقعة حطين المباركة.

وكتب العماد في بعض البشائر: «سلم حصن الكرك وهو الحصن الذي كان طاغيته يحدث نفسه بقصد الحجاز، وقد نصب اشراك شركه منه على طرف الاجتياز، فأذقناه عام أوّل كأس الحمام، وتملكنا حصنه اللذي كان يعتصم به في هذا العام، واضطر الكفر في إسلامه إلى الاسلام، وتم بحل هذا البيت أمن البيت الحرام».

وكتب القاضي الفاضل إلى السلطان شفاعة: «أدام الله سلطان مولانا الملك الناصر وثبته، وتقبل عمله بقبول حسن وأنبته، وأخذ عدة قائلاً أو بيته، وأرغم أنفه بسيفه وكبته، خدمة المملوك هذه واردة على يد فلان، خطيب عيذاب، ولما نبابه المنزل منها، وقبل عليه المرفق فيها، وسمع بهذه الفتوحات التي طبق الأرض ذكرها، ووجب على أهلها شكرها، وحصل لمن جرت على يده أجرها، هاجر من هجير عيذاب وملحها، ساريا في ليلة أمل كلها صباح فلا يسأل عن صبحها، وقد رغب في خطابة الكرك، وهو خطيب، وتوسل بالمملوك في هذا الملتمس وهو قريب، ونزع من مصر إلى الشام، ومن عيذاب إلى الكرك وهو عجيب، والفقر سائق عنيف، والمذكور عائل ضعيف ولطف الله تعالى بالخلق وجود مولانا لطيف، ورأيه أعلى إن شاء الله تعالى»

### في فتح صفد

قال القاضي ابن شدّاد: ثم سار في أوائل رمضان من دمشق يريد صفد، ولم يلتفتُّ إلى مفارقة الأهل والوطن والولد، في هذا الشهر الذي يسافر الإنسان أين كان ليجتمع فيه بأهله، فأتاها وهي قلعة منيعة قد تقاطعت حولها أودية من سائر جوانبها، فأحدق العسكر بها، ونصبت عليها المجانيق، وكانت الأمطار شديدة، والوحول عظيمة، ولم يمنعه ذلك عن جدّه، ولقد كنت ليلة في خدمته وقد عين مواضع خمسة مجانيق حتى تنصب، فقال في تلك الليلة: ماننام حتى ننصب الخمسة، وسلم كل منجنيق إلى قوم ورسله تتواتر إليهم يخبرونه ويعرفونهم كيف يصنعون حتى أطلنا الصباح وقد فرغت المنجنيقات، ولم يبق إلا تركيب خنازيرها فيها، فرويت له الحديث المشهور في الصحاح، وبشرته بمقتضاه وهو قوله صلى الله عليه وسلم: «عينان لاتمسهما النار عين باتت تحرس في سبيل الله، وعين بكت من خشية الله»

قال المؤلف: أخرج الترمذي هذا الحديث، وقال: وهو حديث حسن غريب.

قال: ولم يزل القتال متواصلاً بالنوب مع الصوم حتى سلمت بالأمان في رابع عشر شوّال.

وقال العهاد: لما خرج السلطان من دمشق صحبه الفاضل، وجعل طريقه على مرج برغوث، وعبر مخاضة الأحزان، وجاء إلى صفد، وقد لان من فيها من الفرنج وزادهم نفد، فنزل عليه في العشر الأوسط من رمضان، فضايقها ونصب المجانيق عليها إلى أن سلمها مقدمها في ثامن شوّال بالأمان وراح إلى صور وقد كانوا عدموا القوت، ووجدوا الموت الموقوت، وعلموا أنهم إن لم تخرج صفد من أيديهم دخلت أرجلهم في الأصفاد، فتبرؤوا من الجذاذ والجلاد، وإنها كانت في عين الاسلام قذى، لايتوقع منها على الأيام إلا مضرة وأذى، فسهل الله صعبها، وأوطأ فضبها، وكشف عن البلاد كربها، وقذف في قلوب أهلها رعبها، فخرجوا مذعنين، واستسلموا مسلمين، وتبرؤوا من حصنهم، ونزلوا بهوانهم ووهنهم، وأحضروا رهائنهم للإستمهال في نقل متاعهم، وندموا على ما كان من امتناعهم.

قال: واجتمع الفرنج بصور ونحن نضايق حصن صفد، وقالوا: متى فتحت صفد فإن كوكب لاتمتنع، وأملنا عن حفظها ينقطع، والرأي أن نجرد لها نجدة لعلها تثبت إلى أن توافينا من البحر ملوكنا، فسيروا مائتي رجل فتفرقوا في تلك الأودية يكمنون في الشعاب والهضاب، واتفـق أن أميراً من أصحـابنـا خـرج متقنصاً فـوقـع أحـدهم في قنصـه، وحصل طائر منهم في قفصه، فاستغرب وجوده في ذلك المكان فهدده وتوعده وأقامه للعذاب وأقعده حتى دل على مكمن ذئابه، فما أحسوا إلا بصارم الدين قايماز النجمي وأجناده إلا وقد نزلوا عليهم في آكام ذلك الشعب ووهاده، فتلقطوهم من كل غار ووجار، ولم يهتد أحد من أولئك الضلال إلى نهج فرار، فها شعرنا ونحن على صفد للحصار، حتى وصل صاحب قايهاز بالأساري مقرنين في الاصفاد، مقودين في الاقياد، وكان فيهما مقدمان من الاسبتار، وقد أشفيا على البتار، فإن السلطان رحمه الله ماكان يبقى على أحد من الاسبتارية والداوية، فأحضرا عند السلطان للمنية، فأنطقها الله بها فيه حياتها، وناجيا بها به نجاتها، وقالا عند دخولها: مانظن أننا بعدما شافهناك يلحقنا سوء فعرفت أن بقاءهما مرجو، فيال إلى مقالمها، وأمر باعتقالهما فإن تلك الكلمة حركت منه الكرم، وحقنت منها الدم، وفتح الله علينا صفد ثامن شوال. حين فرغنا من صوم ست منه بعد صوم رمضان، وجمعنا بين فضيلتي الصوم

#### - ۸٦٦٢\_

والجهاد، وسلمت قلعة صفد إلى شجاع المدين طغرل الجاندار، واستبشرنا بانعكاس ما أحكمه الكفار.

### في فتح حصن كوكب

قال القاضي ابن شدّاد: ثم سار رحمة الله عليه يريد كوكب، فنزل على سطح الجبل، وجرد العسكر، وأحدق بالقلعة وضايقها بالكلية بحيث اتخذ له موضعاً يتجاوزه نشاب العدق، وبنى له حائطاً من حجر وطين يستتر وراءه، والنشاب يتجاوزه، ولايقدر أن يقف أحد على باب خيمته إلا أن يكون ملبساً، وكانت الأمطار متواترة، والوحول بحيث تمنع الماشي والراكب إلا بمشقة عظيمة، وعانى شدائد وأهوالاً من شدة الرياح وتراكم الأمطار، وكون العدو متسلطاً عليهم بعلق مكانه، وجرح وقتل وتراكم الأمطار، وكون العدو متسلطاً عليهم بعلق مكانه، وجرح وقتل ولما أحس العدق المخذول بالنقب، وقد تمكن من السور علم أنه مخذول ولما أحس العدق المخذول بالنقب، وقد تمكن من السور علم أنه مخذول مأخوذ، فطلب الأمان فأمنهم وتسلمها في منتصف ذي العقدة، ونزل الى الغور إلى الثقل، وكان قد أنزل الثقل من شدة الوحل والريح في سطح الجبل.

وقال العهاد: وجئنا إلى كوكب، فوجدناها في مناط الكوكب، كأنها وكر العنقاء، ومنزل العوّاء، قد نزلتها كلاب عاوية ونزغت بها ذئاب غاوية، وقالوا: لو بقي منا واحد لحفظ بيت الاسبتار، وخلصه إلى الأبد من العار، ولابد من عود الفرنج إلى هذه الديار فنتشدد للانتظار.

ثم وصف القتال بالرمي والمنجنية، والنقب والتعليق والحفر والتعمية، والحصر والتضييق، ثم قال: وكان الوقت صعباً والغيث سكباً وتكاثرت السيول، وتكاثفت الوحول، ودامت الديم لدموعها مريقة، وبقيت الخيم في الطين غريقة، وكنا في شغل شاغل من تقلع الأوتاد وتوتد الاقدام، ووهي الاطناب ووقوع الخيام وقد عادت الخيام

مناخل الانداء، والانوار معدومة لوجود الأنواء، وماء الشرب مفقود مع سيول الماء، والرواحل في الطين باركة وهي للعلف تاركة، والطريق زلقة، وهي مع سعتها ضيقة، فنقل السلطان خيمته إلى قرب المكان لتقريب وجوه الامكان، وبني له من الحجارة ماصار له كالستاره، ونزلت الاثقال والخيم إلى أسفل التل بالغور، وأقام السلطان على محاصرة الحصن ومصابرته، ونحن نركب إليه من الخيام بكرة وعشية للسلام، وتنفيذ المهام، حتى بلغ الرجال أماكن النقوب، وتمكن لهم المطلوب، فشرع الكفرة في التذلل، وسلموا الحصن بالأمان، وعرضه على جماعة فلم يقبل القعدة، ونزل السلطان إلى المخيم بالغور.

ومن كتاب فاضلي إلى سيف الاسلام باليمن عن السلطان: «مما تجدد بحضرتنا فتح كوكب، وهي كرسي الاسبتارية ودار كفرهم، ومستقر صاحب أمرهم، وموضع سلاحهم وذخرهم، وكان بمجمع الطرق قاعـداً، ولملتقى السبل راصداً ، فتغلقت بفتحه بلاد الفتح واستوطنت، وسلكت طرقها وأمنت، وعمرت بالادها وسكنت، ولم يبق في هذا الجانب إلاصور، ولولا أن البحر ينجدها والمراكب تردها لكان قيادها قد أمكن وجماحها قد أذعن، وماهم بحمد الله في حصن يحميهم، بل في سجين يحويهم، بل هم أسارى، وإن كانوا طلقاء، وأمواتاً وإن كانوا أحياء، قال الله تعالى: (فلا تعجل عليهم إنها نعد لهم عدا)(١٨٤) ،وكان نزولنا على كوكب بعد أن فتحنا صفد بلد الداوية المصونة، وفتحنا الكرك وحصونه، والمجلس السامي أعلم بها كان على الإسلام من مؤنته المثقلة وقضيته المشكلة، وعلته المعضلة، والله تعالى المشكور على ماطوى من كلمة الكفر، ونشر من كلمة الإسلام، فإن بلاد الشام اليوم (لايسمع فيها لغو ولاتأثيراً إلا قيلا سلاماً سلاماً)(٥٥) ف(ادخلوها بسلام)(٨٦) وكان نزولنا على كوكب والشتاء في كوكبه، وقد طلع من الأنواء في موكبه والثلوج تنشر على الجبال طبى ملائها، والأودية قد عجت بمائها وفاضت عند امتلائها، فشمخت أنوفها سيولاً، وخرقت الأرض وبلغت الجبال طولاً والأوحال اعتقلت الطرقات، ومشى المطلق فيها مشية الأسير في الحلقات فتجشمنا العناء نحن ورجال العساكر، وكابرنا العدو والزمان وقد تحرّز الحظ المكابر، وعلم الله النية فأنجدها بفعلها، وضمير الأمانة فأعان على حملها، ونزلنا من رؤوس الجبال منازل كان الاستقرار عليها أصعب من ثقلها» ثم قال: «والآن فالمجلس السامي يعلم أن الفرنج لايسلون عما فتحنا، ولايصبرون على ماجرحنا، وأنهم لعنهم الله أمم لاتحصى، وجيوش لاتستقصى، ويد الله فوق أيديهم، و(سيجعل الله بعد عسر يسرا)(٨٧) وماهم إلا كلاب قد تعاوت، وشياطين قد تعاوت وإن لم يقذفوا من كل جانب استأسدوا واستكلبوا، وكانوا لباطلهم الداحض أنصر منا لحقنا الناهض، وقد كتب المستخدمون بالاسكندرية، وصاحب قسطنطينية، والثغور المغربية ينذرون بأن العدق قد أجمع أمراً، وحاول نكراً، وغضبوا زادهم الله غضباً، وأوقدوا ناراً للحرب جعلها الله عليهم حطباً، وسلوا سيوفاً للبغي لايبعد أن يكونوا أغهادها، وتواعدت جوع ضلالتهم أخلف الله ميعادها، وأما نحن فبالله ندفع مانطيق، ومالانطيق، وإليه نرغب في أن يثبت قلوبنا إذا كادت تزيغ قلوب فريق، ونحن الآن نستنجد أخانا وندعوه إلى ماله دعينا، ونومل من الله أن ينصرنا دنيا ودينا، ونرجو أن يمدنا بنفسه سريعاً وبعسكره جميعا، وبذخره الذي كان لمثله مجموعاً، وأن يلبيها دعوة إما أن يطيع بها ربه لأنها دعوته، وإما أن ينصر بها نبيه صلى الله عليه وسلم فإنها شريعته، وإما أن يعين بها أخاه فإنها شدّة الاسلام لاشدّته، هذا وإن كان المجلس قد قعد عنا ولم يعدنا في مرض الاجسام، فلا يقعد عنا في مرض الإسلام، فالبدار البدار، فإن لم يكن الشام له بدار فها اليمن له بدار، والجنة الجنة فإنها لاتنال إلا بإيقاد الحرب على أهل النار، والهمة الهمة، فإن البحار لاتلقى إلا بالبحار، والملوك الكبار لايقف في وجوهها إلا الملوك الكبار، وفي هذه السنة ننزل على أنطاكية، وينزل ولدنا المظفر تقي الـدين على اطرابلس، ويستقر الركاب الملكي العادلي بمصر لأنها مذكورة عند العدر أنها تطرق، وأن الطلب على مصر والشام منه يفرق، ولاغنى عن أن يكون المجلس السيفي بحرا في بلاد الساحل يزخر سلاحاً، ويجرد سيفاً يكون على مافتحنا قفلاً، ولما لم يفتح بعد مفتاحا، ومايدعى للعظيم سيفاً يكون على مافتحنا قفلاً، ولما لم يفتح بعد مفتاحا، ومايدعى للعظيم جارية، ومشيئة الله ماضية، فإن يشأ ينصرنا على العدد المضعف، بالعدد الأضعف، فإنا لانرتاب بأن الله تعالى مافتح علينا هذه الفتوح ليغلقها، ولاجمع علينا هذه الأمة ليفرقها، وإنها يؤثر أن يتساهم آل أيوب في ميراثهم منه مواقف الصبر، ومطالع النصر، ولايسرنا أن ينقضي عمره في قتال غير الكافر، ونزال غير الكفر المناظر، فإنها هي سفرة قاصدة. وزجرة واحدة ، فإذا هو قد بيض الصحيفة والوجه والذكر، فليحضر وليشاهد أولاد أخيه يستشعرون لفراقه غهاً، قد عاشوا ماعاشوا ولايعرفون إن ظم مع عمهم عها».

وله إليه من كتاب آخر وكأنه بعد اعتذاره عن الحضور: «المولى على حسب اختياره إن سار فمثله من سار وسر، وقاد الجيش وجر، ونفع الولي وضر العدو الذي أضر، وإن أقام فالعذر الذي أقعده، واشفاق السلطان عن نصره الذي ردّه عن وجهه، والرأي الذي ردّده، فلا يكن في صدره من الأمرين حرج، ولايخف استقصار عزمه إن ركد أو خرج، فمكانه مكانه من القلب، وودّه ودّه، وله من اللسان حمده، وهو سيف الاسلام إن ضرب فبحده، أو صين ففي غمده لازال المولى منوها باسمه، ومرفها في جسمه، ومجرداً سيف عزمه، وسعيداً بحكم التوفيق، فلا خرج التوفيق عن حكمه».

ومن كتاب عهادي إلى الديوان بفتح الكرك والشوبك وصفد وكوكب يقول فهه: « والآن فقد خلص لنا جميع مملكة القدس وحدها في سمت مصر من العريش، وعلى صوب الحجاز من الكرك والشوبك، وتشتمل

على البلاد الساحلية إلى منتهى أعال بيروت، ولم يبق من هذه المملكة إلا صور. وفتح أيضاً جميع اقليم انطاكية ومعاقلها التي للفرنج والأرمن، وحده من أقصى بلاد جبلة والبلاذقية إلى بلاد ابن لاون، وبقيت أنطاكية بمفردها والقصير من حصوبها، ولم يبق من البلاد التي لم تفتح أعالها، ولم تخل عها كانت عليه حالها سوى طرابلس، فإنها لم يفتح منها إلا مدينة جبيل، وقد سحبت عليها المهلة الذيل، ومعاقلها باقية، وليس لها من عذاب الله الواقع واقية، والخادم الآن على التوجه إليها وعزم النزول عليها ،و أنه قدرتب الجانب القبلي، والبلد القدسي، وشحن الثغور من حد جبيل إلى عسقلان بالرجال والأموال ، وآلات وحفظ ولايتها، وقلد ولده العزيز عثمان ولاية مصر ومملكة أقاليمها لتهذيب أحوالها وتقويمها.

## في باقي حوادث هذه السنة

قال العهاد: ولما فرغ السلطان من شغل القلاع ونزل إلى الوهاد من التلاع، تجدد للأجل الفاضل عزم مصر، فركب السلطان معه للوداع، ثم تحول إلى صحراء بيسان وأقام بها إلى مستهل ذي الحجة، ثم رحل يوم الجمعة مستهل الشهر ومعه أخوه العادل، وسلكا طريق الغور إلى القدس ووصله يوم الجمعة ثامن الشهر، وهويوم التروية، وصلى الجمعة في قبة الصخرة، وعيد بها يوم الأحد عيد الأضحى، وسار يوم الاثنين إلى عسقلان للنظر في مهامها، ونظم أسباب أحكامها، ثم أذن للعادل في العود إلى مصر لمساعدة ولده العزيز، وودّعه وأعطاه الكرك، وأخذ منه عسقلان.

قال ابن شداد: ورحل على سمت عكا بعسكره موفقا في مورده ومصدره، فها عبر ببلد إلا قوى عدده وكثر عدده، وانفصل العهاد عن خدمته إلى دمشق عند رحيله من بيسان لعارض مرض سلبه الامكان، ومازال منفصلاً عنه إلى أن وصل السلطان دمشق بعد شهرين مستهل صفر من السنة الجديدة.

وفي هذه السنة في الثالث والعشرين من رمضان توفي الأمير مجد الدين مؤيد الدولة أسامة بن مرشد بن علي بن منقد، وكان مولده بشيزر سنة ثهان وثلاثين وأربعهائة فبلغ عمره ستاوتسعين سنة.

وفيها في الثامن والعشرين من جمادى الأول توفي الحافظ أبو بكر محمد بن موسى بن عثمان بن حازم الحازمي الهمذاني ببغداد، صاحب المصنفات على صغر سنه، منها: العجالة، والناسخ وغيرهما، ومولده سنة ثمان أو تسع وأربعين وخمسهائة رحمه الله تعالى.

قال العماد: ووصل كتاب من مصر ونحن على حصار صفد أن إثني عشر رجلاً أعلنـوا بشعار أهـل القصر ودخلوا مـن باب زويلـة إلى قرب الصياقلة مجذوبي السيوف لادالة الدولة الزاهقة، ونصرة الدعوة الباطلة، وهم ينادون يال على، وفي زعمهم أنهم يقبلون بالصولة، ويقلبون بالباس لباس الدولة، ويخالون أنهم إذا ثاروا أثاروا، وإذا داروا أداروا، فيا اكترث بهم مكترث، ولاانبعث إليهم منبعث، فلما تحققوا أنهم لامجيب لهم ولاداع تفرّقوا في الدروب واضمحلوا، وكانوا عقدوا على الوفاء فانحلوا، ثم أخذوا ووقدوا، واعتقلوا ولم يستنقدوا، ولما علم السلطان بهذا الأمر عراه الهم، وتضجر بمن على بابه من وفود مصر وقال: إلى متى نتحمل منهم هذا الوهم، فطردهم وردعهم وردهم، وكان قد وفد إلى باب السلطان جماعة من أولاد الوزراء المصريين، والأمراء بها المقدمين، ومن أهل المعروف بالمعروفين، ووافق ذلك دخول الفاضل إليه فأخبره بالخبر، فقال له: يجب أن تشكر الله على هذه النعمة، فقد عرفت بهذا طاعة رعيتك، وموافقة نياتهم لنيتك، أليس لم يلب دعوتهم أحد، ولم يكن من ورائهم مدد، فطب نفساً ، وزد عند الله أنساً، فقال السلطان: كان الملوك قبلي تخافهم وتهرب منهم الرعية، وتتوقع منهم البلية، والآن فقد تكاثروا علينا، وتوافدوا إلينا حتى اضجرونا وأملونا ونفرونا، فاذا ركبنا أو نزلنا تعاورونا بالقصص، وساورونا بالغصص، فقال له: أنت أولى بشكر الله على هذه العارفة: كنان بمصر من صاحب القصر وأشياعه، وخدمه وأتباعه، وأمرائه وخواصه، وذوي استخلاصه وجهاته والزامه، كل من كان يرتع الخلق في رياض انعامه، وكان بالشام في كل بلد وال وصاحب له على أهله نعم ومواهب، وملوك يلوذ بهم الاقارب والأجانب، واليوم أنت سلطان الجميع، وقد ردّ الله الآمال في تلك الصنائع كلها إلى مألك من حسن الصنيع، وقد اجتمع أولئك المتفرقون على بابُّك، ووفدوا إلى جنابك، فلا يجدون بعد الله إلَّا جودك، فأكرم وفودك، فأغرورقت بالدموع عيناه، وبالسماح يداه، وأقسم أنه ما عاش

لايرد قاصداً ولايصد وإفدا ، وتقدم في الحال بقضاء حقوق الوافدين، وانجاح آمال القاصدين.

قلت: وكتب إلى السلطان في هذا المعنى أبو الفتح سبط التعاويذي من بغداد:

ف لا يضج رنك ازدحام الوفود
عليك وكثرة ما تبذل
فانك في زمن ليسس في معلى في المفضل في المنافق في أهل المنافق في المنافق في

وقرأت رقعة بخط الفاضل: «المملوك ينهي وصول فخر الكتاب الجويني، وقد كاديهلك من لهب الحر والمشقة في السير، وكيف يكون حال ابن السبعين مع المرض اللازم والقولنج الدائم، ونحافة الأعضاء وضعف القوة واستشعار انقطاع الرزق الذي هو نظير انقطاع العمر، وما أظن أن الله أجرى على يد المولى ولافرح عدوًا له بأن ينقطع رزق مثل هذا البقية الحسنة والضيف الراحل، والأديب الفاضل في أيام مولانا التي هي تاريخ الكرم، ومواسم النعم». وفي آخرها: «ونما يجب أن يعلم المولى أن أرزاق أرباب العمائم في دولته اقطاعاً وراتباً يتجاوز مائتي الف دينار بشهادة الله، وربها كانت ثلاثهائة ألف دينار» وفوق الرقعة بالخط الصلاحي: «وقفت على رقعة القاضي الفاضل، ومايقطع لأحد رزق إن شاء الله تعالى، بل هي علالات نحن مثل الغريم المنكسر نرضى لذا بهال ذا، و على الجملة ماتقدمت بقطع رزق أحد والورقة قد علمت أكتب فيها الذي لهما ولغيرهما إن شاء الله تعالى». وكان في آخر علمت أكتب فيها الذي لهما ولغيرهما إن شاء الله تعالى». وكان في آخر

#### - 1771 -

الرقعة ذكر الجمال الخيفي، وكأنه كان له مثل حاجة الجويني، رحم الله الكل أجمعين.

### ثم دخلت سنة خمس وثمانين

قال العياد: والسلطان في عكا نافذ الأمر، نابه القدر، فأحكم أمرها، وكشف ضرها واستحضر جماعة من مصر يحمي بهم الثغر، فيا انفصل حتى وصلوا واتبعوا أمره وامتثلوا، وتقدم إلى بهاء الدين قراقوش باتمام العيارات وولى حسام الدين بشارة، وعوّل عليه في الولاية، والحفظ والحياية.

وقال القاضي ابن شداد: أقام بعكا معظم المحرم يصلح أحوالها، ورتب فيها بهاء الدين قراقوش والياً، وأمره بعمارة السور والاطناب فيه، ومعه حسام الدين بشارة وسار يريد دمشق فدخلها مستهل صفر.

قال العياد: وولى مملوكه فارس الدين كشتغدي شهرزور وأعهالها، وكان قد تزوج بأخت عز الدين حسن بن يعقوب بن قفجاق، فولاه ذلك لقرب الولاية القفجاقية من الشهر زوريه، وقصد حصول المناصرة بحكم المصاهرة.

قال: وحكم السلطان بدر الدين مودوداً في ولاية دمشق، وجدد له منشوراً بانشائي وفيه: «وقد قلدناه أمر دمشق وجهاتها، وأعمالها، والعشري والزكوات وكل مايجري في الديوان ومايبتاع للخزانة، وولاية المرج والغوطة ومايضاف إليها من الاعمال، وولاية الجبل ووادي بردا ويبوس وتولي الشحنكيات وحفظ الطرقات».

ثم رحل السلطان إلى طبرية فألحقها بمعدلته العمرية، ثم وصل وأقام بدمشق شهر صفر، ووجه الدين به قد سفر، وعز من آمن وذل من كفر، وبدأ بحضور دار العدل، وحكم بالشرع المطهر.

ووصل في ثاني عشر صفر رسول الديوان ضياء الدين عبد الوهاب - 203 -

ابن سكينة، والوزير يومئذ معز الدين بن حديدة، يأمر بالخطبة لولي العهد عدة الدين أبي الفضل نصر محمد بن الامام الناصر، فاستقبله السلطان وأولاده وأمراؤه وأجناده، وخطب له بذلك يوم الجمعة ثالث عشر صفر خطيب دمشق ضياء الدين أبو القاسم عبد الملك بن زيد الدولعي، فلم انقضت الخطبة وعاد الرسول سير السلطان معه رسوله ضياء الدين القاسم بن يحيى الشهرزوري، وسيرت معه الهدايا والتحف السنايا، وأسارى الفرنج الفوارس، وعددها النفائس، وتاج ملكهم السليب والملبوس والطيب والصليب. وهو الذي كان فوق القبة بالصخرة المقدسة، ليدل على تطهير ما كان هناك من الأسباب المدنسة، وسار الضياء ان رسولهم ورسول السلطان، ودخلا بغداد وأسارى الفرنج على هيئتها يوم فراغها راكبة حصنها في طوارقها وبيارقها وأدراعها، قد نكست بنودها، واتعست أنوفها، وهيئت على هيئة فتوحنا حتوفها.

قلت: وقال ابن القادسي: قدم ابن الشهرزوي ومعه صليب الصلبوت اللذي تعظمه النصارى فدفن تحت عتبة باب النوبي الشريف يتبين منه شيء قليل، وكان من نحاس وقد طلى بالذهب، فجعل يداس بالأرجل ويبصق الناس عليه، وذلك في سادس عشر ريبع الآخر، كذا قال صليب الصلبوت، وقد نص العهاد في البرق على أنه الصليب الذي كان فوق الصخرة وهذا غير ذلك، والله أعلم.

ثم إن الخليفة الناصر اعتقل ابنه هذا بعد مدّة في سنة احدى وستائة، وأراده على خلع نفسه من ولاية العهد ففعل وأشهد على نفسه بذلك، ثم قضى الله سبحانه أن عادت إليه ولاية العهد في أواخر عمره، فخطب له بذلك، ونقش اسمه على الدينار والدرهم، إلى أن توفي الناصر سنة اثنتين وعشرين، وتولى بعده فأقام نحو تسعة أشهر، وتلقب بالظاهر، ثم توفي وولي ابنه المستنصر المنسوب إليه المدرسة ببغداد، ثم توفي سنة أربعين، وولي ابنه المستعصم بالله وهوالخليفة الآن، والله المستعان،

## في فتح شقيف ارنون

قال القاضي ابن شداد: وهو موضع حصين، قريب من بانياس، خرج السلطان من دمشق بعد صلاة الجمعة في الثالث من ربيع الأول، فسار حتى نزل في مرج فلوس، ونزل من الغد يوم السبت في مرج برغوث، فاقام به والعساكر تتابع إلى حادي عشر، ورحل إلى بانياس ومنها إلى مرج عيون، فخيم به وهو قريب من شقيف أرنون بحيث يركب كل يوم يشارفه، ويعود والعساكر تجتمع وتطلبه من كل صوب، فأقمنا أياما نشرف كل يوم على الشقيف، والعساكر الاسلامية في كل يوم تصبح منزايدة العدد والعدد، وصاحب الشقيف يرى مايتيقن معه عدم السلامة، فرأى أن اصلاح حاله معه قد تعين طريقاً إلى سلامته، فنزل بنفسه وماأحسسنا به إلا وهو قائم على باب خيمة السلطان فأذن له فدخل فاحترمه وأكرمه، وكان من كبار الفرنجية وعقلائها وكان يعرف بالعربية، وعنده اطلاع على شيء من التواريخ والأحاديث.

قال: وبلغني أنه كان عنده مسلم يقرأ له ويفهمه، وكان عنده أناة، فحضر بين يدي السلطان وأكل معه الطعام، ثم خلا به وذكر أنه مملوكه وتحت طاعته، وأنه يسلم إليه من غير تعب واشترط أن يعطى موضعاً يسكنه بدمشق فإنه لايقدر بعد ذلك على مساكنة الفرنج، واقطاعاً بدمشق يقوم به وبأهله، وأنه يمكن من الاقامة بموضعه، وهو يتردد إلى الخدمة ثلاثة أشهر من تاريخ اليوم الذي كان فيه حتى يتمكن من تخليص أهله وجماعته من صور، ويأخذ مغل هذه السنة، فأجيب إلى ذلك كله، وأقام يتردد إلى خدمة السلطان في كل وقت ويناظرنا في صحة دينه ونناظره في بطلانه، وكان حسن المحاورة متأدباً في كلامه، ثم استفاض بين الناس أن صاحب الشقيف فعل مافعله من المهلة غيلة استفاض بين الناس أن صاحب الشقيف فعل مافعله من المهلة غيلة

لاأنه صادق في ذلك وإنها قصد به تدفيع الزمان، وظهرت لذلك مخايل كثيرة من الخوض في تحصيل الميره، وإتقان الأبواب، فرأى السلطان أن يصعد إلى سطح الجبل ليقرب من المكنان ويمنع من دخول نجدة وميرة إليه، وأظهر أن سبب ذلك شدة حمو الزمان، والفرار من وخم المرج، فنزل صاحبه وسأل أن يمهل تمام سنة فهاطله السلطان، وماآنسه وقال: نفكر في ذلك ونجمع الجهاعة، ونأخذ رأيهم، ثم وكل به من حيث لايشعر إلى أن كان من أمره ماسيذكر.

قال: وفي أثناء ربيع الأول وصل الخبر بتسليم الشوبك، وكان قد أقام السلطان عليه جمعاً عظيماً يحاصرونه مدّة سنة حتى فرغت أزوادهم وسلموه بالأمان.

وقال العهاد: كان الشقيف في يد صاحب صيدا أرناط، وقد أكمل في حفظه الاحتياط، فنزل إلى خدمة السلطان وسأل أن يمهل ثلاثة أشهر يتمكن فيها من نقل من بصور من أهله وأظهر أنه محترز من علم المركيس لعنه الله بحاله ، فلا يسلم من جهله وحينئذ يسلم الموضع بها فيه ويدخل في طاعة السلطان ومراضيه، ويخدمه على اقطاع يغنيه، وعن فيه ويدخل في طاعة السلطان ومراضيه، وقضى أربه، وأجابه إلى ما سأله، وقبل منه عزيزاً مابذله بذله، واقتنع بقوله ولم يأخذ رهينة ووجد إليه سكوناً وسكينة، فشرع أرناط في إزالة وهنه ، وترميم مستهدمة وتوفير فكلاله، وتدبير أحواله ونحن في غرة من تحفظه، وفي سنة من تيقظه، وكان يبتاع من عسكرنا الميرة، ويكثر فيه الذخيرة، وقد أضمر الغدر، وظن أن له النصر، والسلطان حسن الظن به، يحمل صدق الواشي به على كذبه، وكان انتهاء المدة يوم الأحد ثامن عشر جمادى الآخرة، وأقام السلطان بالمرج ينتظر انسلاخ الهدنة وتسليم الحصن، وخاف إن فارقه أن تجيء امداد الفرنج اليه، وكان مشفقا أيضا من جانب أنطاكية لانتهاء أشهر هدنتها، فكتب إلى تقي الدين بالمقام في تلك الخطة، وسير بذلك

الفقيه عيسى الهكاري، ولم يستدع إلا صاحب آمد قطب الدين سكمان ابن قرا أرسلان، فجاء في أمداده وأعداده، ولازم السلطان فلما قرب انتهاء مدّة صاحب الشقيف أحضره السلطان فتضرّع، وقال: إن قومي إلى الآن لم يخلصوا من صور، وقد أنعمت فأتمم وسأل أن تكون المهلة سنة، فعرف السلطان من فحوى حاله أمارات الارتياب، فكلمه بإيناس وما رده بياس، فأرخى طوله، وأرجى أمله، وأمر السلطان بتحويل الخيم إلى ظهر الجبل ليقرب من الحصن وقد بقى من الهدنة يومان، فتضور صاحب الحصن فقيل له تقيم عندنا في كنف الأمان، فبكى وتألم من ضبطه وانكشفت سريرته الغادرة، فأمربحماه إلى الشقيف حتى يسلمه ووكل به وحفظ من حيث لايعلم، وقيل لعلمه يحسن ولايحوج إلى المقابحة ويسلم، وقيل لـ قد بقي يومان من المدة تقيم حتى تنتهي وتسلم، فأبدى ضرورة وضراعة وقال: سمعاً وطاعة، وكان له ملقى وملق، وفي لسانه ذلق، وماعنده من كل ماتفرق فرق، وقال: أنا أنفذ إلى نوابي في التسليم، وهو قد تقدّم إليهم بالوصية والتعليم، فأظهروا عصيانه، وقالوا يبقى مكانه، فقيد وحمل إلى قلعة بانياس، وبطل الرجاء فيه وبان الياس، ثم استحضر في سادس رجب وهدده وتوعده، فلما لم يفد خطابه، ولم يجد عـذابه، سيره إلى دمشـق وسجنـه ورتـب عدة مـن الأمراء بملازمة حصر الحصن في الصيف والشتاء إلى أن تسلمه بعد سنة بحكم السلم، وأطلق صاحبه وأجرى عليه حكم الحلم.

وفي مدة مقام السلطان على مرج عيون لمحاصرة شقيف أرنون ، اجتمعت الفرنج وجرت لهم مع المسلمين وقائع.

قال القاضى ابن شداد: كان السلطان قد اشترط على نفسه حين تسلم عسقلان أنه إن أمر الملك من بها بتسليمها أطلقه، فأمرهم بتسليمها وسلموها، فطالبه الملك باطلاقه فأطلقه وفاء بالشرط ونحن على حصن الاكراد، أطلقه من انطرسوس واشترط عليه أن لايشهر في وجهه سيفاً أبداً، وأن يكون مملوكه وطليقه، فنكث لعنه الله وجمع الجموع وأتى صور يطلب الدخول إليها فخيم على بابها يراجع المركيس الذي كان بها في ذلك الوقت، وكان المركيس اللعين رجلاً عظيماً ذا رأي وبأس شديد وصرامة عظيمة، فقال له: إنني نائب الملوك الذين وراء البحر وماأذنوا لى في تسليمها إليك، وطالت المراجعة واستقرت القاعدة بينهما على أن يتفقوا جميعاً على المسلمين وتجتمع العساكر التي بصور وغيرها من الفرنجية على المسلمين، وعسكروا على باب صور، ولما كان يـوم الاثنين سابع عشر جمادى الأولى بلغ السلطان من جانب اليزك أن الفرنج قد قطعوا الجسر الفاصل بين أرض صور وأرض صيدا وهي الأرض التي نحن عليها، فركب السلطان نحو اليزك فوصل وقد انفصلت الوقعة، وذلك أن الفرنج عبر منهم جماعة الجسر فنهض إليهم يزك الاسلام وكانوا في عدة وقوة فقاتلوهم فقتلوا منهم خلقاً كثيراً، وجرحوا أضعاف ماقتلوا ، ورموا في النهر جماعة فغرقوا، ولم يقتل من المسلمين إلا مملوك للسلطان يعرف بأيبك الاخرش، وكان شجاعاً باسلاً مجر بأ للحرب ممارساً فتقطر به فرسه، فلجأ إلى صخرة فقاتل بالنشاب حتى فني، ثم بالسيف حتى قتل جماعة، ثم تكاثروا عليه فقتلوه، وفي يوم الأربعاء تاسع عشر جمادى الأولى ركب السلطان يشرف على القوم على عادته ،

فتبع العسكر خلق عظيم من الرجالة والغزاة والسوقة، وحرص رحمه الله في ردهم فلم يفعلوا، وخاف عليهم فإن المكان كان حرجاً ليس للراجل فيه ملجاً، شم هجم الرجالة إلى الجسر ، وناوشوا العدق، وعبر منهم جماعة إليهم وجرى بينهم قتال شديد، واجتمع لهم من الفرنج خلق عظيم وهم الايشعرون، وكشفوهم بحيث علم وآأن ليس وراءهم كمين، فحملوا عليهم حملة واحدة على غرة من السلطان، فإنه كان بعيداً منهم ولم يكن معه عسكز فإنه لم يخرج للقتال، وإنها ركب مستشرقاً عليهم على العادة في كل يسوم، ولما بان له الوقعة، وظهر له غبارها، بعث إليهم من كان معه ليردوهم، فوجدوا الأمر قد فرط، والفرنج قد تكاثروا، حتى خافت منهم السرية التي بعثها السلطان وظفروا بالرجالة ظفراً عظيهاً، وأسروا جماعة وعد من قتل من الرجالة في ذلك اليوم فكان عدد الشهداء مائة وثمانين نفراً، وقتل من الفرنج أيضاً عدة عظيمة وغرق أيضاً منهم عدة، وكان ممن قتل منهم مقدّم الألمانية، وكان عندهم عظيهاً محترماً، واستشهد في ذلك اليـوم من المعـروفين من المسلمين الأميرُ غازي سعد الدين مسعود بن البصار، وكان شاباً حسناً شجاعاً، واحتسبه والده في سبيل الله، ولم تقطر من عينه عليه دمعة، على ماذكره جماعة لازموه.

قال: وهذه الوقعة لم يتفق للفرنج مثلها في هذه الوقائع التي حضرتها وشاهدتها، ولم ينالوا من المسلمين مشل هذه الوقعة في هذه المدة، ولما رأى السلطان ماحل بالمسلمين من هذه الوقعة النادرة جمع أصحابه وشاورهم وقرّر معهم أنه يهجم على الفرنج، ويعبر على الجسر، ويقاتلهم ويستأصل شأفتهم، وكان الفرنج قد رحلوا عن صور ونزلوا قريب الجسر، وبين الجسر وصور مقدار فرسخ وزائد على فرسخ، فلما صمم العزم على ذلك، رحل الفرنج عائدين إلى صور ملتجئين إلى سورها، فرأى رحمه الله أن يسير إلى عكما ليلحظ مابني من سورها ويحث على فرات على تبنين ولم يرجع على مرج عيون، فمضى إلى عكا فرتب الباقي، فراح على تبنين ولم يرجع على مرج عيون، فمضى إلى عكا فرتب - 209 -

أحوالها، وعاد إلى العسكر بمرج عيون منتظراً مهلة صاحب الشقيف، ولما كان يوم السبت سادس جمادى الآخرة بلغه أن جماعة من رجالة العدق يتبسطون، ويصلون إلى جبل تبنين يحتطبون، وفي قلبه من رجالة المسلمين وماجرى عليهم أمر عظيم ، فرأى أن يقرر قاعدة كمين يرتبه لهم وبلغه أنهم يخرج وراءهم أيضا خيل تحفظهم، فعمل كميناً يصلح للقاء الجميع، ثم أَنفذ إلى عسكر تبنين أن يخرجوا في نفر يسير عابرين على تلك الرجالة، وأن خيل العدو إذا تبعتهم ينهزمون إلى جهة عينها لهم، وأن يكون ذلك صبيحة الاثنين ثامن جمادى الآخرة، وأرسل إلى عسكر عكا أن يسير حتى يكون وراء عسكر العدو حتى إن تحركوا في نصرة أصحابهم قصدوا خيمهم، وركب هو وجحفله إلى الجهة التي عينها لهزيمة عسكر تبنين حتى قطع تبنين، ورتب العسكر ثمانية أطلاب، واستخرج من كل طلب عشرين فارساً وأمرهم أن يتراءوا للعدو حتى يظهروا إليهم ويناوشوهم، وينهزموا بين أيديهم حتى يصلوا إلى الكمين، ففعلوا ذلك وظهر لهم من الفرنج معظم عسكرهم يقدّمهم الملك لعنه الله، وجرى بينهم وبين هذه السرية اليسيرة قتال شديد، والتزمت السرية القتال وأنفوا من الانهزام بين أيديهم، وحملتهم الحمية على مخالفة السلطان، واتصل الخبر بالسلطان في أواحر الأمر، وقد هجم الليل فبعث بعوثاً كثيرة فعاد الفرنج ناكصين على أعقابهم، وقتل من الفرنج عشرة أنفس، ومن المسلمين ستة: اثنان من الترك، وأربعة من العرب منهم الأمير زامل، وكان شاباً حسن الشباب يتقدم عشيرته، وكان سبب قتله أنه تقنطرت به فرسه ففداه ابن عمه بفرسه فتقنطرت به أيضاً وأسر هو وثلاثة من أهله، فلما بصر الفرنج بمدد العسكر قتلوهم خشية الاستنقاذ. وجرح خلق كثير من الطائفتين وخيل كثيرة.

قال: ومن نوادر هذه الوقعة أن مملوكاً من مماليك السلطان يقال له أيبك أثخن بالجراح حتى وقع بين القتلى وجراحاته تشخب دماً، وبات ليله أجمع على تلك الحال إلى صبيحة يوم الثلاثاء فتفقده أصحابه فلم

يجدوه فعرّفوا السلطان فقده، وأنفذ من يكشف عن حاله فوجدوه بين القتلى فحملوه إلى المخيم، وعافاه الله، وعاد السلطان إلى المخيم يوم الأربعاء عاشر الشهر فرحاً مسروراً.

وقال العهاد: اجتمع من كان سلم من الفرنج ونجا على ملكهم الذي خلص من الأسر، وقالوا: نحن في جمع جمم خارج عن الحصر، وقد تواصلت إلينا أمداد البحر فثربنا للشار، وأعرنا من هذا العار، وجاء من كان بطرابلس وخيموا على صور، واتفقوا أنهم يقصدون بلداً إسلامياً من الساحل، ويقيمون عليه والمركيس يمدهم من صور بالمدد والعدد، ثم جاء الخبر أنهم على قصد صيدا للحصر، وقد جسروا على عبور الجسر، ووقعت عليهم اليزكية فردوهم، ووقع في الأسر من سباعهم سبعة، فحملوا إلى سبجن دمشق، ثم ذكر قتلهم للغزاة المطوعة على الجسر، وقال: لم يصب الكفار من المسلمين مذ أصيبوا غير هذه الكره، وأذاقونا بعد أن حلالنا جنا الفتوحات مرارة هذه المرة، فأيقظنا الله من رقدة المغره، وأخمل الناس حذرهم، وقالوا: بهذا وعد الله حيث قال: (فيقتلون ويقتلون (٨٩) وعباده هم الذين يتبعون أمره ويمتثلون، ثم ذكر وقعة الكمين. قال: وكان مع المسلمين أربعة من أمراء العرب، فحملوا كما وصاهم السلطان على عزم الطراد ليقصدوا الكمين، وسلكوا أسفل الوادي، وإنها الطريق أعلاه، ولاخبرة لهم بتلك الأرض، فعرف الفرنج أنهم ضائعون فطاردوهم وردّوهم إلى المضيق، وأنفت العرب من الهزيمة فاستشهدوا، قال: وكان معهم مملوك للسلطان يقال له أيبك الساقى فاعتزل إلى صخرة واحتمى بها، ونكب كنانته ورماهم بنشابها، وهم لايقدرون على الاقتحام إليه بالخيل، فرموه بالمزنبورك، حتى كثرت فيه الجراحات، وظنوا أنه قد مات، ووصل الخبر إلى المسلمين فأدركوهم، ووقفوا على الشهداء وقبروهم، وجاؤوا إلى أيبك فوجدوا فيه الروح فنقلوه إلى الخيام، وهم يظنون إنه لاخلاص له من الحمام، وكان في أجله باقية. فمن الله عليه بالعافية.

# فصل في نزول الفرنج خذلهم الله على عكا

قال القاضي ابن شداد: ثم بلغنا بعد ذلك أن الفرنج بصور ومن كان مع الملك قد ساروا نحو النواقير يريدون جهة عكا، وأن بعضهم نزل باسكندرونِـه، وِجرى بينهم وبين رجالة المسلمين مناوشـة وقتل منهم المسلمون نفراً يسيراً وأقاموا هناك، ولما بلغ السلطان حركتهم إلى تلك الجهة عظم عليه، ولم ير المسارعة خوفاً من أن يكون قصدهم ترحيلهم عن الشقيف الاقصد المكان، فأقام مستكشفاً للحال إلى يوم الأحد ثاني عشر رجب فوصل قاصد أخبر أن الفرنج في بقية ذلك اليوم رحلوا ونزلوا عين بصه، ووصل أوائلهم إلى الزيب، فعظم عنده ذلك، وكتب إلى سائر أرباب الأطراف بالمسير إليه، وتقدم إلى الثقل أن سار بالليل، وأصبح هو يوم الاثنين ثالث عشر رجب سائراً إلى عكا على طريق طبرية إذ لم يكن ثم طريق يسع العسكر إلا هو، وسير جماعة على طريق تبنين يستشرفون العدة ويواصلون بأخباره، وسرنا حتى أتينا الحولة منتصف النهار، فنزل بها ساعة ثم رحل وسار طول الليل حتى أتى موضعاً يقال له مينة صبيحة الثلاثاء وفيه بلعنا نزول الفرنج على عكا، وسير صاحب الشقيف إلى دمشق بعد الإهانة الشديدة على سوء صنيعه، واشتد حنقه عليه بسبب تضييع ثلاثة أشهر عليه وعلى عسكره لم يعملوا فيها شيئاً، وسار السلطان جريدة من المينة حتى اجتمع ببقية العسكر الذي كان أنفذه على طريق تبنين بمرج صفورية فإنه كان واعدهم إليه، وتقدم إلى الثقل أن يلحقه إلى مرج صفورية، ولم يزل حتى شارف العدو من الخروبة، وبعث بعض العسكر ودخل عكا على غرة من العدو تقوية لمن فيها، ولم يزل يبعث إليها بعثاً بعد بعث حتى حصل فيها خلق كثير، وسار من الخروبة إلى تـل كيسـان في أوائل مرج عكـا،

فنزل عليه وأمر الناس أن ينزلوا على التعبية، فكان آخر الميسرة على طرف النهر الحلو، وآخر الميمنة مقارب تل العياضية، واحتاط العسكر الاسلامي بالعدو، وأخذوا عليهم الطرق من سائر الجوانب، وتلاحقت العساكر الاسلامية، واجتمعت ورتب اليزك الدائم وحصر العدو في خيامه بحيث لايخرج منها أحد إلا يجرح أو يقتل، وكان عسكر العدو على شطر من عكا وخيمة ملكهم على تل المصلبين قريباً من باب البلد، وكان عدد راكبهم ألفي فارس، وعدد راجلهم ثلاثين ألفاً، قال: ومارأيت من نقصهم عن ذلك، ورأيت من حزرهم بزيادة على ذلك، ومددهم من البحر لاينقطع. وجرى بينهم وبين اليزك مقاتلات عظيمة متواترة، والمسلمون يتهافتون على قتالهم، والسلطان يمنعهم من ذلك إلى وقته، والبعوث من عساكر المسلمين تتواصل والملوك والأمراء من الأقطار تتابع، ووصل تقي الدين من حاه ومظفر الدين بن زين الدين، وفي اثناء هذه الحال توفي الحسام سنقر الخلاطي وفاة بأسها شديد، وكان شجاعاً ديناً، فأسف المسلمون عليه.

ولما استفحل أمر الفرنج استداروا بعكا، بحيث منعوا من الدخول والخروج منها، وذلك سلخ رجب، فعظم على السلطان وضاق صدره وثارت همته العالية في فتح الطريق إلى عكا لتستمر السابلة إليها بالميرة والنجدة، فباكرهم مستهل شعبان وضايقهم مضايقة شديدة، فكانت الحملة بعد صلاة الجمعة، وانتشر عسكر العدو إلى أن ملكوا التلول، وكانت ميسرة عسكرهم إلى البحر الحلو آخذة إلى البحر الملح وميمننهم قبالة القلعة الوسطى التي لعكا، واتصلت الحرب إلى أن حال بين الفئتين هجوم الليل، وبات الناس على حالهم من الجانبين شاكين في السلاح تحرس كل طائفة نفسها من الأخرى، وأصبحوا ثاني شعبان يوم السبت على القتال، وأنفذ السلطان طائفة من شجعان المسلمين إلى البحر فحمل شجعان المسلمين على عسكر الفرنج الواقف شمالي عكا، فانكسروا بين أيديهم كسرة عظيمة وقتلوا منهم جمعاً كبيراً، والتفت على التعليم كسرة عظيمة وقتلوا منهم جمعاً كبيراً، والتفت

السالمون منهم إلى خيامهم و هجم المسلمون خلفهم إلى أوائل خيامهم، ووقف اليزك الاسلامي مانعاً من أن يخرج من عسكرهم خارج أو يدخل إليه داخل وانفتح الطريق إلى عكما من باب القلعة المسهاة بقلعة الملك إلى باب قراقوش الذي جدّده، وصار الطريق مهيعا يمر فيه السوقي ومعه الحوائج ويمر به الرجل الواحد والمرأة، واليزك بين الطريق وبين العدو، ودخل السلطان في ذلك اليوم إلى عكا، ورقى على السور، ونظر إلى عسكر العدو وتراجع الناس عن القتال بعد صلاة الظهر لسقى الدواب وأخذ الراحة، ولم يعودوا إلى القتال، وأصبحوا يوم الاحد فرأى بعض الأمراء تأخير القتال إلى أن يدخل الراجل كله إلى عكا ويخرجوا مع العسكر المقيم بها من أبواب البلد على العدو من وراثه، وتركب العساكر من خارج من سائر الجوانب، ويحملوا حملة الرجل الواحد والسلطان رحمه الله تعالى يعاني هذه الأمور كلها بنفسه، ويصافحها بذاته لايتخلف عن مقام من هذه المقامات، وهو من شدّة حرصه، ووفور همته كالوالدة الثكلي، ولقد أخبرني بعض أطبائه أنه بقى من يوم الجمعة إلى يــوم الاحد لم يتنــاول من الغــداء إلّاشيئاً يسيراً لفـرطُ اهتمامه، وفعلــوا ماكان عزموا عليه واشتدت منعة العدو وحمى نفسه في خيامه، ولم تزل سوق الحرب قائمة تباع فيها النفوس بالنفائس، وتمطر سهاء حربها الرؤوس من كل رئيس ومترائس، حتى كان يوم الجمعة ثامن شعبان، عزم العدو على الخروج بجموعهم، فخرج راجلهم وفارسهم، وامتدوا على التلول وساروا الهوينا غير مفرطين في نفوسهم ولاخارجين من راجلهم، والرجالة حولهم كالسور المبني يتلو بعضهم بعضاً حتى قاربوا خيام اليزك، فصاح السلطان بالعساكر الاسلامية فركبوا بأجمعهم وحملوا حملة الرجل الواحد، فعاد العدو ناكصاً على عقبيه والسيف يعمل فيهم فالسالم منهم جريح، والعاطب طريح، يشتدون هزيمة يعثر جريحهم بقتيلهم، ولايلوي الجماعة منهم على قبيلهم، حتى لحق بخيامهم من سلم منهم وانكفوا عن القتال أياماً، وكان قصاراهم أن يحفظوا

نفوسهم، ويحرسوا رؤوسهم ، واستمر فتح طريق عكا والمسلمون يترددون إليها.

قال: وكنت ممن دخل ورقى على السور، ودام القتال بين الفئتين متصلاً الليل مع النهار حتى كان الحادي عشر من شعبان، ورأى السلطان رحمه الله توسيع الدائرة عليهم لعلهم يخرجون إلى مصارعهم، فنقل الثقل إلى تل العياضية وهو تل قبالة تل المصلبين مشرف على عكا وخيام العدو، وفي هذه المنزلة توفي حسام الدين طمان، وكان من شجعان المسلمين ودفن في سطح هذا التل وصليت عليه مع جماعة من الفقهاء ليلة نصف شعبان، وبلغ السلطان أن جمعاً من العدو يخرجون للاحتشاش من طرف النهر بما ينبت عليه فكمن لهم جماعة من العرب وقصـد العرب لخفتهـم على خيلهم، فهجمـوا عليهم وقتلـوا منهم خلقــأ عظيهاً وأسروا جماعة وأحضروا رؤوساً عدة بين يديه، وذلك يوم السبت تاسع عشر شعبان، وفي عشية ذلك اليوم وقع بين العدو وبين أهل البلد حرب عظيمة قتل فيها جمع عظيم من الطائفيتن، وطال الأمر بين الفئتين وما يخلو يوم عن قتل وجرح وسبي ونهب، وأنس البعض بالبعض بحيث أن الطائفتين كانتا تتحدثان وتتركان القتال وربها غني البعض ورقص البعض لطول المعاشرة، ثم يرجعون إلى القتال بعد ساعة، وستموا يوماً فقالوا: إلى كم يتقاتل الكبار وليس للصغار حظ، نريد أن يصطرع صبيان: صبى منا، وصبى منكم، فأخرج صبيان من البلد إلى صبيين من الفرنج، فوثب أحد الصبيين المسلمين على أحد الصبيين الكافرين فاحتضنه وضرب به الأرض، وأخذه أسيراً فاشتراه منه بعض الفرنج بدينارين، وقالوا: هو أسيرك حقاً فأخذ الدينارين وأطلقه.

قال: ووصل مركب فيه خيل فهرب منها فرس ووقع في البحر، ومازال يسبح وهم حوله يردّونه حتى دخل ميناء عكا وأخذه المسلمون.

قلت: وذكر العماد كل هذه الوقائع والنوادر في كتابه بألفاظه المسجوعة، وقال: كان من رأي السلطان أن يسايرهم في الطريق ويواقعهم عند المضيق، ويقطعهم عن الوصول، ويدفعهم عن النزول، فإنهم إذا نزلواصعب نزالهم، وأتعب قتالهم، وقالوا: - يعنى أمراءه - بل نمضي على أسهل الطرق، فسار الثقل من الليل على طريق الملاحة، وسرنا على جب يوسف إلى المينه، وجئنا عصر يوم الشلاثاء والسلطان نازل بأرض كفر كنا، ونزل يوم الأربعاء على جبل الخروبة، ونزل الفرنج على عكا من البحر إلى البحر محيطين بها للحصر، وضرب الملك العتيق خيمه على تل المصلبة، وربطب مراكبهم بشاطىء البحر فكانت كالآجام المؤتشبه، ثم عبر السلطان بجيشه ونزل بمرج عكا على تل كيسان، وصرنا محاصرين المحاصرين، قد أحطنا بالعدو وهو بالبلد محيط، واستشطنا منه وهو مستشيط، واحدقنا بأولئك الكفرة إحاطة النار بأهلها، ومنعنا الطرق من ورائهم في وعرها وسهلها، ورتبنا بالزيب والنواقير رجالاً يصدونهم عن سبلها ،ودمنا نصد هم ونصدمهم، ونوجدهم في البحر ونعدمهم، واستدارت الفرنج بعكا كالدائرة بالمركز، وزادوا من جانبنا في التحرّز وذلك في آخر رجب لانسلاحه، و الاسلام ينادينا باستصراحه، وأصبح السلطان يوم الجمعة مستهل شعبان وقد اتفقت الآراء على أن يكون اللقاء وقت الصلاة عند ارتفاع الدعوات على المنابر الإسلامية، فأحاط العسكر الاسلامي بجوانبهم فكدر عليهم صفو مشاربهم وقلل مضاء مضاربهم وهم في مواضعهم واقفون، وعلى مصارعهم عاكفون وفي مواطنهم ثابتون، كالبنيان المرصوص مافيه خلل، وكالحلقة المفرغة ماإليها مدخل، وكالسور المحيط ماعليه متسلق وكالجبل الأشم مافيه متعلق، فزحفنا إليهم فلم يبرحوا وقربنا منهم فلم ينزحوا، وحملنا عليهم فأخذوا الضربة ولم يعطوها، وكلما قتل واحد وقف آخر مقامه حتى دخل الليل وحجز، وحملوا من الغد من جانب البحر شهالي عكا فانهزم الفرنج إلى تل المصلبين نحو القبة، وثبتوا عند الوثبة،

وانفتح لنا طريق عكا فدخلها الرجال، وحملت إليها الغلال، والفرنج قد رهبوا ولو قدروا لهربوا، وأصحابنا رأوا أن انفتاح باب البلـد غنيمة، فتوقفوا عن تمام العزيمة، ولو أنهم استمروا لباد العدو بصرعه، فإن للصدمة الأولى في الروع روعه، فبلم العدو ريقه، ووجد إلى الجلد طريقه، ووقفوا كالسور من وراء الجنويات والتراس والقنطاريات، وضربوا الجروخ وفوقوها وجمعوا العدد وعلى الرجال فرقوها وكانوا في عدد الرمل ومذد النمل، وهم في كل يوم في ازدياد، والبحر يمدهم بالامداد، وشرعوا في حفر الخنادق، وسد المضائق ونصب الطوارق والسلطان ساهر للمسلمين في ليلهم قائم بأمرهم في نهارهم، ومن كتاب فاضلى في بعض الوقعات: «فاستدارت بهم رجال الجاليشية تقذف شياطينهم بشهابها، وتهوي إلى أوكار أفتدتهم طيور نشابها، وتجنيهم من القنا والنشاب ثمر الردّا متشابها، وقد ارتفع الاسلام إلى درجات سيذكر أمرها، وانخفض الكفر إلى دركات سيمر ذكرها، فالنصر خافق علمه، وكتاب البشارة قد استمد قلمه، وقد وثقنا بلطف الله تعالى فيما يأتي، فتأهبت الخواطر لمعاني المسار، واعدت ألفاظه البشرى المهداة إلى كافة البشر من الاستبشار، فإن الفرنج محصورون، والنازل المحصور كالمركب المكسور، والنصر قد أعرب لعسكر الاسلام والكفر جار ومجرور .

### فصل

### في المصاف الاعظم على عكا وهي الوقعة الكبرى التي بدأت بالسوء وختمت بالحسنى

قال القاضى ابن شداد: لما كان يوم الأربعاء الحادي والعشرين من شعبان تحركت عساكر الفرنج حركة لم يكن لهم مثلها عادة، فارسهم وراجلهم وكبيرهم وصغيرهم، واصطفوا خارج خيمهم قلباً وميمنة وميسرة، وفي القلب الملك وبين يديه الانجيل محمول مستور بشوب أطلس مغطى يمسك أربعة أنفس أربعة أطرافه وهم يسيرون بين يدي الملك، وامتدت الميمنة في مقابل ميسرة المسلمين من أولها إلى آخرها، وامتدت ميسرة العدو في مقابلة ميمنتنا إلى آخرها، وملكوا رؤوس التلال، فكان طرف ميمنتهم إلى النهر، وطرف ميسرتهم إلى البحر، وأمر السلطان الجاووش أن ينادى في الناس: ياللاسلام وعساكر الموحدين، فركب الناس وقد باعوا أنفسهم بالجنة، وامتدت الميمنة إلى البحر كِل قوم يركبون ويقفون بين يدي حيامهم والميسرة إلى النهر كذلك أيضاً، وكان السلطان قد أنزل الناس في الخيم ميمنة وميسرة وقلبا على تعبية الحرب، حتى إذا وقعت صيحة لايحتاجون إلى تجديد ترتيب ، وكان هو في القلب، وفي ميمنة القلب ولده الأفضل ثم ولده الظافر ثم عسكر المواصلة يقدمهم ظهير الدين بن البكنكري، ثم عسكر ديار بكر في خدمة قطب الدين صاحب الحصن، ثم حسام الدين عمر بن لاجين صاحب نابلس، ثم قاياز النجمي ،و جموع عظيمة متصلين بطرف الميمنة، وكان في طرفها الملك المظفر تقي الدين بجحفله وعسكره وهو مطل على البحر، وأما أوائل الميسرة فكأن سيف الدين علي بن أحمد المشطوب من كبار ملوك الأكراد ومقدّميهم ، والامير عجلي وجماعة المهرانية والهكارية، ومجاهد الدين يرنقش مقدّم عسكر سنجار وجماعة من الماليك، ثم مظفر الدين بن زين الدين بجحفله وعسكره، وأواخر الميسرة كبار الماليك الأسدية كسيف الدين يازكوج ورسلان بغا، وجماعة الأسدية الذي يضرب بهم المثل وفي مقدمة القلب الفقيه عيسى وجمعه، هذا والسلطان رحمه الله تعالى يطوف على الأطلاب بنفسه يحثهم على القتال، ويدعوهم إلى النزال، ويرغبهم في نصرة دين الله، ولم ينزل القوم يتقدمون والمسلمون يقدمون حتى علا النهار، ومضى فيه أربع ساعات، وعند ذلك تحركت ميسرة العدو على ميمنة المسلمين وأخرج لهم تقي الدين الجاليش وجرى بينهم قلبات كثيرة، وتكاثروا على تقي الدين، وكان في طرف الميمنة على البحر فتراجع عنهم شيئاً إطهاعاً لهم لعلهم يتعدون عن أصحابهم فينال منهم غرضاً، فلما رآه السلطان قد تأخر ظن به ضعفاً فأمده بأطلاب عدة من القلب حتى قوي جانبه، وتراجعت ميسرة العدو، واجتمعت على تل مشرف على البحر ولما رأى الذين في مقابلة القلب ضعف القلب، ومن خرج منه من الأطلاب داخلهم الطمع وتحركوا نحو ميمنة القلب، وحملوا حملة الرجل الواحد راجلهم وفارسهم، قال: ولقد رأيت الرجالة تسير سير الخيالة ولايسبقونها وهم يسيرون حبباً وجاءت الحملة على الديار بكرية كما شاء الله تعالى، وكان بهم غرة عن الحرب، فتحركوا بين يدي العدو وانكسروا كسرة عظيمة، وسرى الأمر حتى انكسر معظم الميمنة واتبع العدو المنهزمين إلى العياضية، فإنهم استداروا حول التل وصعدت طآئفة من العدو إلى خيم السلطان فقتلوا طشت دار كان هناك، وفي ذلك اليوم استشهد اسماعيل المكبس، وابن رواحة رحمهما الله تعالى، وأما الميسرة فإنها ثبتت فإن الحملة لم تصادفها وأما السلطان رحمه الله فإنه أخل يطوف على الأطلاب ينهضهم ويعدهم الوعود الجميلة ويحثهم على الجهاد، وينادي فيهم: ياللاسلام، ولم يبق معه إلا خمسة أنفس وهو يطوف، ويتخرق الصفوف، وآوى إلى تُحت التل اللذي كان عليه الخيام، وأما المنهزمون من العسكر فإنهم بلغت هزيمتهم إلى الأقحوانة قاطع جسر

طبرية، وتم منهم قوم إلى دمشق، وأما المتبعون لهم فإنهم أتبعوهم إلى العياضية فلم رأوهم قد صعدوا الجبل رجعوا عنهم وجاؤوا عائدين إلى عسكرهم، فلقيهم جماعة من الغلمان والخربندية والساسة منهزمين على فعال الخمل فقتلوا منهم جماعة، ثم جاؤوا على رأس السوق فقتلوا جماعة، وقتل منهم جماعة، فإن السوق كان فيه خلق عظيم، ولهم سلاح وأما الـذين صعدوا الخيم السلطانية فإنهم لم يلتمسوا شيئاً أصلاً سوى أنهم قتلوا من ذكرناه وهم ثلاثة نفر، ثم رأوا مسرة الإسلام ثابتة فعلموا أن الكسرة لم تتم، فعادوا منحدرين من التل يطلبون عسكرهم، وأما السلطان فإنه كان واقفاً تحت التل ومعه نفر يسير وهو يجمع الناس ليعودوا إلى الحملة على العدو ، فلما رأى الفرنج نازلين على التل أرادوا لقاءهم فأمرهم بالصبر إلى أن ولوا ظهورهم وآستدوا يطلبون أصحابهم، فصاح في الناس وحملوا عليهم وطرحوا منهم جماعة واشتد الطمع فيهم وتكاتر الناس وراءهم حتى لحقوا أصحابهم والطرد وراءهم، فلما رآهم منهزمين والمسلمين وراءهم في عدد كثير ظنوا أن من حمل منهم قد قتل، وأنه إنها نجا منهم هذا النفر فقط، وأن الهزيمة قد عادت عليهم فاشتدوا في الهرب والهزيمة، وتحركت الميسرة عليهم وعاد الملك المظفر بجمعه من الميمنة، وتحايا الرجال وتداعت، وتراجع الناس من كل جانب وكذب الله الشيطان ونصر الايمان، وظل الناس في قتل وطرح وضرب وجرح إلى أن اتصل المنه زمون السالمون إلى عسكر العدو، فهجم المسلمون عليهم في الخيام ، فخرج منهم أطلاب كانوا أعدوها خشيةً من هذا الأمر مستريحة، فردوا المسلمين، وكان التعب قد أخذ من الناس والخوف والعرق قد ألجمهم، فتراجع الناس عنهم بعد صلاة العصر يخوضون في القتلى ودمائهم فرحين مسرورين، وعاد السلطان وجلسوا في خدمته يتذاكرون من فقد منهم، فكان مقدار من فقد منهم من الغلمان والمجهولين مائة وخمسين نفراً، ومن المعروفين استشهد في ذلك اليوم ظهير الدين أخو الفقيه عيسى رحمه الله، ولقــد رأيته وهو جالس يضحك

والناس يعزونه وهو ينكر عليهم ويقول: هذا يوم الهناء لايوم العزاء، وكان قد وقع هو من فرسه رحمه الله وأركبه، وقتل عليه جماعة من أقاربه، وقتل في ذلك اليوم الأمير مجلي يعني ابن مراون، وزاد العاد: والحاجب خليل الهكاري.

ثم قال القاضي: هذا الذي قتل من المسلمين وأما العدو المخذول فحزر قتلاهم بسبعة آلاف نفر، ورأيتهم وقد حملوا إلى شاطىء النهر ليلقوا فيه فحرزتهم بدون سبعة آلاف، ولما تم على المسلمين من الهزيمة ماتم رأى الغلمان خلوا الخيام عمن يعترض عليهم فإن العسكر انقسم إلى منهزمين، ومقاتلين فلم يبق في الخيم أحد، ورأوا الكسرة قد وقعت فظنوا أنها تتم وأن العدو ينهب جميع مافي الخيم، فوضعوا أيديهم في الخيم ونهبوا جميع ماكان فيها وذهب من الناس أموال عظيمة، وكان ذلك أعظم من الكسرة وقعا، فلما عاد السلطان إلى الخيم ورأى ماقد تم على الناس من نهب الاموال والهزيمة سارع في الكتب والرسل في رد المنهزمين، وتتبع من شـذ من العسكـر والرسـل تتتابع في هذا المعنـي حتى بلغت عقبه فيق فردوهم وأخبروهم بالكرة للمسلمين، فعادوا وأمر بجمع الأقمشة من أكف الغلمان، وجمع الأقمشة في خيمته حتى جلالات الخيل والمخالي، وهو جالس ونحن حوله وهو يتقدم إلى أن كل من عرف شيئاً وحلف عليه يسلم إليه، وهو يتلقى هذه الأحوال بقلب صلب، وصدر رحب، ووجه منبسط ورأي مستقيم، واحتساب لله تعالى، وقوة عزم في نصر دينه.

وأما العدو المخذول فإنه عاد إلى خيمه وقد قتلت شجعانهم، وقعدت ملوكهم، وطرحت مقدموهم، وأمر السلطان أن خرج من عكا عجل يسحبون القتلى إلى طرف النهر ليلقوا فيه.

قال: ولقد حكى لي بعض من ولي أمر العجل أنه أخـذ خيطاً، وكان - 221 -

كل ماأخذ قتيل عقد عقدة فبلغ عدد قتلي الميسرة أربعة آلاف ومائة وكسراً، وبقي قتلى الميمنة وقتلى القلُّب لم يعدِّهم فإنهم ولي أمرهم غيره، وبقى من العدو بعد ذلك من حمى نفسه، وأقاموا في خيمهم لم يكترثوا بجحافل المسلمين وعساكرهم، وتشذب من عساكر المسلمين حلق كثير بسبب الهزيمة، فإنه مارجع منها إلا رجل معروف خاف على نفسه والباقون ذهبوا في حال سبيلهم، وأخذ السلطان في جمع الأموال المنهوبة وإعادتها إلى أصحابها، وأقام المنادية في العساكر وقرن النداء بالوعيد والتهديد، وهو يتولى تفرقتها بنفسه بين يديه، واجتمع من الأقمشة عدد كثير في خيمته حتى أن الجالس في أحد الطرفين لايرى الجالس في الطرف الآخر، وأقام من ينادي على من ضاع منه شيء فحضر الخلق وصار من عرف شيئا وأعطى علامته حلف عليه وأخده من الحبل والمخلاة إلى الهميان والجوهرة، ولقى من ذلك مشقة عظيمة، ولايرى ذلك إلا نعمة من الله تعالى يشكر عليها ويسابق بيد القبول إليها، ولقد حضرت يوم تفرقه الأقمشة على أربابها فرأيت سوقاً للعدل قائمة لم ير في الدنيا أعظم منها، وكان ذلك في يـوم الجمعة الثالث والعشريـن من شعبان.

قال: وعند انقضاء هذه الوقعة وسكون نائرتها، أمر السلطان بالثقل حتى تراجع إلى موضع يقال له الخروبة خشية على العسكر من أراييح القتلي وآثار الوقعة من الوخم، وهو موضع قريب من مكان الوقعة إلا أنه أبعد عنها من المكان الذي كان نازلاً فيه بقليل، وضربت له خيمة عند الثقل، وأمر اليزك أن يكون مقيهاً في المكان الذي كان نازلاً فيه، واستحضر الأمراء وأرباب المشورة في سلخ الشهر، ثم أمرهم بالاصغاء إلى كلامه، وكنت من جملة الحاضرين، ثم قال: بسم الله والحمد لله والصلاة على رسول الله، اعلموا أن هذا عدو الله وعدونا، وقد وطيء أرض الاسلام، وقد لاحت لواقع النصرة عليه إن شاء الله تعالى، وقد بقي في هذا الجمع اليسير، ولابد من الاهتهام بقلعه، والله قد أوجب.علينا وحدود.

ذلك، وأنتم تعلمون أن هذه عساكرنا ليس وراءنا نجدة ننتظرها سوى الملك العادل وهو واصل، وهذا العدو إن بقي وطال أمره إلى أن ينفتح البحر جاءه مدد عظيم ،و الرأي كل الرأي عندي مناجزته ، فليخبرنا كل منكم بها عنده في ذلك، وكان ذلك في ثالث عشر تشرين، كل منكم بها عنده في ذلك، وكان ذلك في ثالث عشر تشرين، المصلحة تأخر العسكر إلى الخروبة وأن يبقى العسكر أياماً حتى يستجم من حمل السلاح وترجع نفوسهم إليهم، فقد أخذ منهم التعب، واستولى على نفوسهم الضجر، وتكليفهم أمراً على خلاف ماتحمله القوى لاتؤمن غائلته، والناس لهم خسون يوماً تحت السلاح وفوق الخيل، والخيل قد ضجرت من عرك اللجم، وعند أخذ حظ من الراحة ترجع نفوسها إليها ويصل الملك العادل ويشاركنا في الرأي والعمل ونستعيد من شذ من ويصل الملك العادل ويشاركنا في الرأي والعمل ونستعيد من شذ من العساكر ونجمع الرجالة ليقفوا في مقابلة الرجالة، وكان بالسلطان رحمه العساكر ونجمع والفكر في تلك الأيام، فوقع له ماقالوه ورآه مصلحة فأقام يصلح مزاجه، ويجمع العساكر إلى عاشر رمضان.

قال: وكان لما بلغه خبر العدو وقصده عكا جمع الأمراء وأصحاب الرأي بمرج عيون، وشاورهم فيها يصنع، وكان رأيه رحمه الله أن قال: المصلحة مناجزة القوم ومنعهم من النزول على البلد، وإلا إن نزلوا جعلوا الرجالة سوراً لهم وحفروا الخنادق وصعب علينا الوصول إليهم وخيف على البلد منهم، وكانت إشارة الجهاعة أنهم إذا نزلوا واجتمعت العساكر قلعناهم في يوم واحد، وكان الأمر كها قال والله لقد سمعت منه هذا القول، وشاهدت الفعل كها قال.

وقال العهاد: عبأ السلطان ميمنته وميسرته، وطلب من الله نصرته، وهو يمر بالصفوف، ويأمر بالوقوف، ويحض على حظ الأبد، ويحث على الجلاد والجلد، قال: وكنت في جماعة من أهل الفضل، قد ركبنا في ذلك

اليوم ووقفنا على التل نشاهد الوقعة، ونحن على بغال بغير أهبة قتال، فرأينًا العسكر مولياً، والمنهزم عما تركه من خيامه ورحله متخلياً فوصلنا إلى طبرية فيمن وصل، ووجدنا ساكنها قد أجفل، فسقنا إلى جسر الصنبرة ونزلنا على شرقيه، وكل منا ذاهل عن شبعه وريه، ومن المنهزمين من بلغ عقبة فيق، وهو غير مفيق، ومنهم من وصل إلى دمشق وهو غير معرج على طريق، ووصل جماعة من الفرنج إلى خيمة السلطان وجالوا جولة، ثم رأوا انقطاع أشياعهم عنهم فانحدروا عن التل واستقبلهم أصحابنا، فركبوا أكتافهم، وحكموا في رقابهم أسيافهم، وكان ميسرتنا عسكر سنجار والأسدية فيا زالوا ولازالوا بل وصلوا وصالوا، وحملت عليهم ميمنة الفرنج فكأنها مرت الرياح بالجبال، وعاد من كان من الميمنة مثل تقي الدين وقايهاز النجمي والحسام بن لاجين، ومن ثبت من أبطال المجاهدين، فلم يفلت من الأعداء إلا أعداد، ولم ينج من آلافها إلا آحاد، وفرس منهم زهاء خمسة آلاف فارس منهم مقدم الداويـة الذي كنـا أطلقناه، وذكر أنهم في مـائة ألف وعشريـن ألفاً حينُ سألناه، ثم ضربنا عنقه -وقال في الفتح: وعشرة آلاف \_ قال العهاد: وآتاهم الله قوة من بعد ضعف، وكان الواحد يقول: قتلت من المثلثين ثلاثين وأربعين، وتركتهم مصروعين، وكان السلطان من الشابتين في تلك الجولة، والكابتين لأهل الصوله، وقد بقى وحده عند تولي المسلمين، ولاشك أن الله أنزل ملائكته المسوّمين.

حكى بعضهم قال: كنت منهزماً من فارس مدجج قد لز بقربي حصانه، وهز لصلبي سنانه فأيست من البقاء، ثم أبطأت علي طعنته فالتفت فإذا هو وحصانه كلاهما ملقى ومابالقرب أحد، فعرفت أنه نصر إلهي وصنع رباني.

قال: وعاد السلطان إلى مضاربه. وأمر بمواراة الشهداء ومن جملتهم - 224 - الرسومة الشامية ١٩٥٨ الفقيه أبو علي بن رواحه، وكان ،غزير الفضل قد أكمل الشجاعة والرجاحة، وهو شاعر مفلق وفقيه محقق، من ولد عبد الله بن رواحه الصحابي الأنصاري، في الشهادة والشعر معرق، فطرفه الأعلى يوم مؤته مع جعفر الطيار، وطرفة الأقرب يوم عكا في لقاء الكفار.

قال في البرق: وكان السلطان قد أنعم عليه في حلب بمزرعة، وكتبت توقيعه، وأراد الله تعويقه إذ قرب إلى الانعرة طريقه، وحملت توقيعه إلى السلطان تلك الليلة ليعلم فيه فها علم وراجعته في معناه فسكت وماتكلم، وكان ساعة الوقعة راكباً معنا ثم قال: وقوفنا يطول فمضى إلى خيمته يتودع فلها علم باندفاعنا ساق وراءنا فقطع عمره قبل أن يقطع الوادي، وكان قال لنا لما أصبح: رأيت رجلاً يحلق رأسي في المنام، فقلنا له: هذا من أضغاث الاحلام، فنقله الله بعد ساعة إلى دار السلام.

قلت: وليس هـو من أولاد ابن رواحة الصحـابي، ذاك لم يعقب، وإنها في أجداده من اسمه رواحة، وقد بيناه في التاريخ، والله أعـلم.

قال: ومنهم اسهاعيل الصوفي الأرموي المكبس، وشيخ من الحاشية في بيت الطشت، وغلام في الخزانة أمين على البيت، وآخرون صودفوا عند التل فجاءتهم السعادة، وفجأتهم الشهادة وهؤلاء سوى من وقع في الوقعة، وذهب قبل الرجعة، وأجمع السلطان وذووا الآراء على أنه يصبح القوم، فتفقدوا العسكر فإذا هو قد غاب لما بان من الأمر وراب، وذلك أن غلمان العسكرية والأوباش ظنوا أن تلك الفورة هزيمة، فنهبوا الاثقال وعدوها غنيمة، فمن عاد إلى رحله وجده منهوباً مسلوباً، وكان في ظنه أنه فرغ من لقاء خطب فلقي خطوباً، وأصبحنا وإذا العسكر مفترق والثابت قلق والآمن فرق، والغني معدم، والجريء متندم، فهذا خلف ماذهب من ماله ذاهب، وهذا لمن طلب الطريق بأثقاله طالب، فتفتر ذلك العزم، وتأخر ذلك الحكم، وانتعش الفرنج في تلك المدة

وانتشلوا من تلك الشدة، وجاءتهم في البحر مراكب أخلفت من عدم، وبنت ماهدم، وشكونا نتن رائحة تلك الجيف فحملت على العجل إلى النهر ليشرب من صديدها أهل الكفر، فحمل أكثر من خمسة آلاف جثه حملت إلى النار قبل يوم البعثة، وأشير على السلطان بالانتقال إلى الخروبة عند خيم الأثقال المضروبة، فسار إليها رابع رمضان، وأمر أهل عكا باغلاق أبوابها، وإحكام أسبابها، فوجد الفرنج بذلك الفرج، وشرعوا في حفر خندق على معسكرهم حوالي عكا من البحر إلى البحر، وأخرجوا ماكان في مراكبهم من آلات الحصر، وفي كل يـوم يأتينا اليـزكية بخبرهم، وبها ظهر من أثرهم، والجد في تعميق الخندق وتتميم عنفرهم، فكان من قضاء الله أنا أغفلناهم، وأمهلنا هم بل أهملناهم حتى عمقوا الحفور، ووثقوا من ترابها السور، فكانوا يخندقون ويعمقون ويعملون من تراب الحفر حولهم سوراً ، فعاد مخيمهم بلداً مستوراً معموراً، فملؤوه بالستائر، ومنعوه من الطير الطائر، وبنوه وأسسوه وستروه وتسرسوه، ورتبوا عليه رجالاً، ولم يتركسوا إليه لواغل مجالاً، وتركسوا فيه أبواباً وفسروجاً ليظهروا منها إذا أرادوا خروجا، ولما فرغوا من هذا الأمر اشتغلوا بالحصر، وانقطعت الطريق على المسلمين إلى عكا، وبان ضعف رأي الانتقال فإنه بعدما أضحك أبكي.

وجاء كتاب من الفاضل إلى العماد جواباً عن كتابه المخبر فيه بوقعة مرج عكا يقول فيه: «وعرفت ماجرى على قضيته، فسبحت الله تعالى فإن من عجائب قدرته سلامة سيدنا على ضعف حركته، والأمر كان عظيماً، والمدفوع أعظم، والسلامة كبانت غريبة إلا أن نقول ولكن الله سلم، والسلطان أعزه الله إذا سلم فكل الناس قد سلموا، وإذا وجد وقد عدم الناس كلهم فقد وجدوا وماعدموا، وكل جوهر بالإضافة إليه عرض، وهو جوهر بالحقيقة ماعنه من كل جوهر عوض» ومن كتاب له إلى السلطان أوله: (ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين) (٩٠)

الآية (ومارميت اذ رميت ولكن الله رمى) (٩١) ورد الكتاب بخط مسلم مسلم ولانسسولانسسا مسلم أوزارها، وهرع معترك حربه وجلاده وتوفيق جهاده، قبل أن تضع الحرب أوزارها، وهرع الناس إلى المجلس العادلي والعزيزي يسقعون الأخبار، ويستوضحون من وجوهها الأنوار، ويسألون كيف كانت عاقبة أهل الجنة وعاقبة أهل الدر، ويشكرون الله على سلامة أديانهم، وقلوبهم وأبدانهم، وسلامة سلطانهم، ومأدراك ماسلامة سلطانهم، ونصرة كلمة ايمانهم، ودلائل الخير لاتخفى، وقد يفرأ الكتاب ومايلمح قارئه منه حرفا، وتصور الناس الأمر الذي وقاهم الله شره وكفاهم أمره.

### فصل

## في باقي حوادث السنة بمرج عكا وغيره

قال العهاد: وفي يوم الاثنين ثالث رمضان أخذ أصحابنا بعكا مركبا للفرنج إلى صورمقلعا محتويا على ثلاثين رجلاً وامرأة واحدة ورزمة من الحرير، وجاءت حظوة حلوة، وغنيمة صفوة، وقد كان انكسر نشاطهم، وانقبض انبساطهم، فلما عثروا بالمركب انتعشوا وصاروا يخرجون ويقتلون ويجرحون، ويمسون على القتال ويصبحون، وندم الفرنج على تلك الحركة، فإنها أفضت بهم إلى الهلكة، فانهم ماداموا رابضين، وعلى يد الصبر قابضين، يتعذر الوصول إليهم، والدخول عليهم.

وفي بعض الكتب إلى بعض الأطراف: «والمرجو من الله سبحانه وتعالى تحريك هم المؤمنين في تسكين ثارهم، وتخريب عامرهم، ومادام البحر يمدهم والبر لايصدهم، فبلاء البلاد بهم دائم، ومرض القلوب بأدوائهم ملازم، فأين حمية المسلمين، ونخوة أهل الدين، وغيرة أهل اليقين، وماينقضي عجبنا من تظافر المشركين، وقعود المسلمين، فلا ملبي منهم لمناد، ولا مثقف لمناد، فانظروا إلى الفرنج أي مورد وردوا، وأي حشد حشدوا، وأي ضالة نشدوا، وأية نجدة أنجدوا، وأية أموال غرموها وأنفقوها، وجدات جمعوها وتوزعوها فيا بينهم وفرقوها، ولم يبق ملك في بلادهم وجزائرهم، ولا عظيم ولا كبير من عظائهم وأكابرهم إلا جارى جاره في مضهار الانجاد، وبارى نظيره في الجدّ والاجتهاد، واستقلوا في حسون ملتهم بذل المهج والأرواح، وأمدّوا أجناسهم الأنجاس بأنواع حسون ملتهم بذل المهج والأرواح، وأمدّوا أجناسهم الأنجاس بأنواع المناح مع أكفاء الكفاح، ومافعلوا مافعلوا ولا بذلوا مابذلوا إلا لمجرد الحمية لمتعبدهم، والنخوة لمعتقدهم، وليس أحد من الفرنجية يستشعر أن الساحل إذا سلك ورفع فيه حجاب عزهم وهتك، يخرج بلد عن يده، وتمتدّ يد إلى بلده ، والمسلمون بخلاف ذلك قد وهنواوفشلوا وغفلوا وقتدً بله عن يده،

وكسلوا ولزموا الحيرة، وعدموا الغيرة، ولو انثنى والعياذ بالله للاسلام عنان، أو خبا سنا ونبا سنان لما وجد في شرق البلاد وغربها، وبعد الآفاق وقربها، من لدين الله يغار، ومن لنصرة الحق على الباطل يختار، وهذا أوان رفض التواني، واستدناء أولي الحمية من الأقاصي والأداني، على أنا بحمد الله لنصره راجون، وله باخلاص السر وسر الخلاص مناجون، والمشركون بإذن الله هالكون، والمؤمنون آمنون ناجون».

قال العهاد: وكان السلطان قد كتب إلى مصر يستدعي بأخيه العادل في رجال، فقدم علمه منتصف شوّال، وكتب أيضا في طلب الاسطول المصري، فقدمت خمسون قطعه مع حسام الدين لولو منتصف ذي القعدة، فجاءت فجأة على مراكب الفرنج وبغتتها وسحقتها وبددتها وكسبتهاو سلبتها، وظفر ببطستين كبيرتين بها فيهها من أموالهم ورجالهم وغلالهم، قال: وهذا لؤلؤ قد اشتهرت بالكفر فتكاته، وشكرت في العدق نكاياته، وقد تفرد بغزواته لم يشاركه فيها أحد، وهو الذي ردّ الفرنج عن بحر الحجاز، ووقف لهم على طرق المجاز، ولم يترك منهم عينا تطرف، ولم يبق لهم دليلا يعرف، وغزواته مشهوره وفتكاته مذكوره، وأمواله مبذولة وأكياسه لعقد الانفاق في سبيل الله محلولة.

قال: ونقل السلطان الى البلد في المراكب جماعة من الأمراء بأجنادهم، وعددهم وأزوادهم، واستظهر البلد أيضا برجال الأسطول، وكانوا زهاء عشرة آلاف، هذا ورجاله المسلمين يتطرقون إليهم ليلا، ويذيقونهم من القتل والأسر والسرقة والإسار.

قال: ولما عرف صاحب الموصل ماشرع فيه السلطان من تكثير العدّة، وتقوية النجدة بكل مايمكنه من أسباب الباس والشدة، سير من أحمال النفط الأبيض—مع عزة وجوده— ماوجده ، ومن التراس والرماح من كل جنس أحكمه وأقومه وأجوده، وكتبنا في شكره: «وصل السلاح وتم

للاسلام من قروح الكفر الاقتراح ، فان الحروب المتطاولة المدد أتت على جميع العدد، ومن العجب أن تفنى العدة وما يفنى العداة، وتنمو على الحصاد كأنها النبات، فالبحر يمدهم والكفر إلى الردى يردهم»

ومن كتاب إلى الديوان: « قد مضت ثلاثة أشهر شهر بها التثليث على التوحيد سلاحه، وبسط الكفر جناحيه وقتل من الفرنج وعدم في الوقعات التي روعت الروعات التي وقعت أكثر من عشرين ألف مقاتل من فارس وراجل وراميح ونابل، فما أثر ذلك في نقصهم، ولا أرث إلاّ نا، حرصهم، وليس هذا العدو بواحد فينجع فيه التدبير ويأتي عليه التدمير، وإنها همو كل من وراء البحر، وجميع من في ديار الكفر، فإنه لم يبق لهم مدينة ولا بلد ولا جزيرة ولا خطمة صغيرة ولا كبيرة ، إلا جهزت مراكبها، وأنهضت كتائبها، وتحرز ساكنها وبـرز كامنها، وثار ثائرها، وسار سائرها، وطار طائرها، ونقضت خزائنها، وانفضت معادنها، وحملت ذخائرها، وبذلت أخائرها، ونثلت كنائن كنائسها، واستخرجت دفائن نفائسها، وخرج بصلبانها أساقفها وبطاركها، وغصت بالأفواج فجاجها ومسالكها، وتصلبت للصليب السليب، وتعصبت للمصاب المصيب، ونادوا في نواديهم بأن البلاد هي بلادهم، وأن اخوانهم بالقدس أبارهم الاسلام وأبادهم، وإنه من خرج من بيته مهاجراً لحرب الاسلام وهبت له ذنوبه، وذهبت عنه عيسوبه، ومن عجز عن السفر سفر بعدّته وثروته من قدر، فجاؤوا لابسين الحديد بعد أن كانوا لابسين الحداد، وتواصلت منهم الامداد»

قال: « ووصلت في مركب ثلاثيائة امرأة فرنجية مستحسنة اجتمعن من الجزائر، وانتدبن للجرائر، واغتربن لاسعاف الغرباء، وقصدن مخروجهن تسبيل أنفسهن للاشقياء، وانهن لايمتنعن من العزبان، ورأين أنهن لايتقربن بأفضل من هذا القربان، وزعمن أن هذه قربة مافوقها قربة، لاسيا فيمن اجتمعت فيه غربة وعزبة».

قال: «وأبق من عسكرنا من الماليك الأغبياء، والمدابير الجهلاء جماعة جذبهم الهوى، واتبعوا من غوى، فمنهم من رضي للذة بالذلة، ومنهم من ندم على الزلة، فتحيل في النقلة، فإن يد من لايرتدلاتمتد، وأمر الهارب إليهم لاتهامه يشتد، وباب الهوى عليه يستد، وماعند الفرنج على الغرباء إذا أمكنت منها العزب حرج، وما أزكاها عند القسوس إذا كان للعزبان المضيفين من فرجها فرج». قال: ووصلت أيضاً في البحر امرأة كبيرة القدر، وافرة الوفر، وفي جماعتها خسهاتة فارس بخيولهم وأتباعهم، وغلمانهم وأشياعهم، وهي كافلة لكل مايحتاجون إليه من المؤنة، زائدة بها تنفقه فيهم على المعونة، وهم يركبون بركباتها، ويحملون بحملاتها، ويتبون لوثباتها، وفي الفرنج نساء فوارس، لهن دروع وقوانس، وهن في ويتبون لوثباتها، وفي الفرنج نساء فوارس، لهن دروع وقوانس، وهن في ريات الحجال يبرزون في حومة القتال ويعملن على أرباب الحجى، وهن ريات الحجال، وكل هذا يعتقدن أنه عبادة، ويخلن أنهن يعقدن به سعادة ويجعنله لهن عادة، فسبحان الذي أضلهن، وعن نهج الهدى أزلهن».

وفي يوم الوقعة طلعت منهن نسوة لهن بالفرسان أسوة، وفيهن مع لينهن قسوة، وليس لهن سوى السوابخ كسوة، فما عرفن حتى سلبن وعرين، ومنهن عدة سبين واشترين، وأما العجائز فقد امتلأت بهن المراكز وهن يشددن تارة وتارة يرخين، ويحرضن وينخين، ويقلن إن الصليب لايرضي إلا بالإباء، وإنه لابقاء إلا بالفناء، وإن قبر معبودهم تحت استيلاء الأعداء، فانظر الى الاتفاق في الضلال بين الرجال والنساء».

قال: وفي آخرهذه السنة ندب السلطان الرسل إلى الاقطار والأمصار للاستنفار والاستنصار، وبث الكتب وكتب بالبث، وحث الرسل وراسل بالحث، وسرّح عدنان النجاب إلى سيف الاسلام باليمن، وشرح في الكتاب إليه ماجرى من حوادث الزمن، ووصف له جلية الحال، وطلب منه الإعانة بالمال، وكوتب مظفر الدين قزل أرسلان بهمذان

ببعث مادنا منه عزمه ودان، وحكم على كل ملك بحجة الايهان، وهدى الى محجة الاحسان، ووصل الى السلطان رسول ابن أخيه لأمه ركن الدين طغرل بن طغرل بن ملكشاه، وهو آخر السلاطين السلجوقية يتظلم من عمه قزل أرسلان، ويطلب من السلطان إعانته، فاعتذر السلطان بها هو عليه من شغل الجهاد مع الكفار، وأرسل رسولاً في السفارة بينه وبين عمه جمال الدين أبا الفتح اسهاعيل بن محمد ابن عبد، لكونه نسيب العهاد، وكتب إلى صاحب إربل و إلى حسن بن قفجاق ونائبه بشهرزور بالتوفر على خدمته، والارتياد لمصلحته، واشياعه ومعونته.

قال: وفي هذه السنة توفي الأمير حسام الدين سنقر الخلاطي أخص مماليك السلطان وأخلصهم، وقد قـدّمه على مماليكـه، وكانت وفاتـه ليلة الاثنين والعشرين من رجب.

قال: وفي ثالث عشر شعبان توفي الأمير حسام الدين طمان صاحب الرقة، وهو من المجاهدين المجتهدين، والأتقياء المتجهدين، ولما حضرته الوفاة تأسف من موته على فراشه، وطلب حصانه ليركبه وينتقل سعيدا شهيداً إلى معاده من معاشه.

قال: وفي تاسع عشر شعبان توفي الأمير عز الدين موسك بن جكر، وهو ابن خال السلطان، وهومن أكابر أقاربه، ومقدّمي كتائبه، وكان للقرآن حافظا، وعلى الإحسان محافظا، ولقضاء حقوق الناس ملاحظا، ولم يزل للسلطان في هذه الغزوات ملازما، وعلى قمع جمع الكفر عازما، ولما اشتدّمرضه استأذن في الدخول إلى دمشق ودفن بجبل قاسيون.

قال: وفي حادي عشر رمضان توفي بدمشق القاضي شرف الدين بن أبي عصرون، ومولده في أوائل سنة اثنتين وتسعين وأربعائة، فبلغ عمره

ثلاثا وتسعين سنة ونصفا، وأضر قبل وفاته مدة عشر سنين، ودفن بالمدرسة التي أنشأها بدمشق قبالة داره بينها عرض الطريق، وكان شيخ المذهب، وقد ختمت به الفتيا، وأوحشت غيبته الدين والدنيا.

قال: وفي تاسع ذي الحجة توفي الأمير الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري في العسكر بمنزلة الخروبة، وكان صاحب أسد الدين شيركوه، ومضى معه إلى مصر حين ملكها، ثم اختص بالسلطان بعده، وتولى حله وعقده، ودرّت بوساطته وشفاعته للناس أرزاق، ونقل إلى القدس فدفن بظاهره، ولقد كان من الأعيان، ومن أهل الجدّ في نصرة الايهان، فنقله الله الجنان.

قال: وفي هـذه السنة أقطع السلطان مملوكه مجاهـد الدين إيـاز ولاية شهرزور وأعمالها، وولى جمال الدين بن المحسن نقابة الاشراف بدمشق.

قال: وفي عاشر جمادى الأولى منها، كان مولد ناصر الدين محمد بن الملك العزيز بمصر، الذي اجتمع عليه أصحابه بعد وفاة أبيه في محرم سنة خمس وتسعين، وورد بذلك إلى السلطان جدّه كتاب كريم فاضلي من مصر نسخته: «المملوك يقبل الأرض بين يدي مولانا الملك الناصر، دام رشاده وارشاده، وزاد سعده واسعاده، وكثرت أولياؤه وعبيده واعداده، واشتدّ باعضاده فيهم اعتضاده، وأنمى الله عدده، حتى يقال هذا آدم الملوك وهذه أولاده، وينهي ان الله وله الحمد رزق الملك العزيز عز نصره ولداً مباركا عليا، ذكراً سوياً، برا ذكيا، تقيا نقيا، من ذرية كريمة (بعضها من بعض) (٢٠)، ومن نبت شريف كادت ولاته تكون ولاة في السماء، ومماليكه تكون ملوكاً في الأرض، وكان مقدمه الميمون في ليلة الأحد أولى العدد، وبه وباله يعز الله أهل الجمعة ويذل أهل الأحد "ثم ذكر باقى الكتاب

#### فصل

### في ورود خبر ملك الألمان

قال القاضي ابن شداد: ولما دخل شهر رمضان من سنة خمس وثهانين وصل من حلب كتب من ولده الظاهر، يخبر فيها أنه قد صح إن ملك الألمان خرج إلى القسطنطينية في عدة عظيمة قيل مائتا الف، وقيل مائتان وصتون ألفا، يريد البلاد الاسلامية، فاشتد ذلك على السلطان وعظم عليه، ورأى استنفار الناس للجهاد واعلام خليفة الوقت بهذه الحادثة، فاستندبني لذلك، وأمرني بالمسير إلى صاحب سنجار، وصاحب الموصل، فاستندبني لذلك، وأمرني بالمسير إلى الجهاد بأنفسهم وعساكرهم، وأمرني بالمسير إلى بغداد، فسرت حادي رمضان، ويسر الله تعالى الوصول في بالمسير إلى بغداد، فسرت حادي رمضان، ويسر الله تعالى الوصول في الجهاعة، وابلاغ الرسالة إليهم فأجابوا إلى ذلك بنفوسهم، وسير صاحب الموصل علاء الدين ابنه بمعظم عسكره، ووعد الديوان بكل جميل، الموصل علاء الدين ابنه بمعظم عسكره، ووعد الديوان بكل جميل، وعدت إليه خامس ربيع الآول سنة ست وثهانين، وسبقت العساكر وأخبرته بإجابتهم وتأهبهم للمسير، فسر بذلك.

وقال العاد في كتاب الفتح: ونمى الخبر بوصول ملك الألمان إلى قسطنطينية في ثلاثهائة ألف مقاتل على قصد العبور إلى بلاد الإسلام، وقطع بلد الروم والأرمن إلى الشام، وفيهم ستون ألف فارس مدّرع، ومعهم ملوك وكنود، وكل شيطان لربه كنود، وكتب صاحب قلعة الروم مقدّم الأرمن وهو في قلعته على الفرات، وبين أهل الذمة في المأمن يبدي تنصحا واشفاقا وتخوفا على البلاد واحتراقا، ويقطع أن الواصلين في كثرة، وأن الناهضين إلى طريقهم في عشرة، وأبرق في كتابه وأرعد، وأبدع في خطابه وأبعد، ولاشك أنه إلى جنسه النجس مائل، وبملاءة أهل ملته قائل، ولما وصل هذا النبأ، قيل إنه عظيم، وورد هذا الخبر، وخيل إنه أليم، كاد الناس يضطربون على أنهم يصدّقون ويكذبون ، ومن طرف أليم، كاد الناس يضطربون على أنهم يصدّقون ويكذبون ، ومن طرف

كل حبل من الرأي يجذبون، وقلنا: إن وضح هذا الخطر، وصح هذا الخبر، فالمسلمون يقومون لنا ولايقعدون ، ويغضبون لله ولا يرضون أنهم لا يعضدون، على أن الله ناصرنا، ومؤازرنا ومظاهرنا، وحققنا باظهار القوة لمن استوحش التأنيس ، وبثثنا بالارسال إلى بلاد الروم عيونا وجواسيس، وندبنا رسل الاستنصار، وبعثنا كتب الاستنفار الى جميع الأمصار والأقطار، وقلنا ماهذه المرة الى مرّه، لايسيغها إلا كل مرّ أبيّ، وماهذه الكرة مثل كل كرة، ولا يحضرنا إلا كل كميش كمي.

قال: وعوّل السلطان على ارسال القاضي بهاء الدين بن شداد يوسف ابن رافع بن تميم، ليكون كتابه إلى الديوان العزيز مع رسول كريم، وقال له: ماأحتاج أوصي، وأنت توفي القول وتستقصي، وجعل له إلى كل طرف في طريقه رسالة، وأودعه إليه مقالة، فسار ووصل إلى حلب والقاضي ضياءالدين بن الشهرزوري رسول السلطان ببغداد قد عاد، وذكر أنه قد بلغ المراد، فها هذا الرسول الرائح، ووصل وهو مغتاظ وتغير عليّ، ونسب انفاذ القاضي بهاء الدين إليّ، ثم اجتمع بالسلطان وندّمه على ماقدّمه، وأعلمه بها عمله وعلمه، وقال له: الشغل قد فرغ، والقصد قد بلغ، وقرّر مع السلطان أمراً، وعاد على النجب إلى بغداد، وصادف بها القاضي بهاء الدين بن شداد، فلم يسفر أمر سفارته عن سداد، وقيل: جواب ماأتيت فيه مع ضياء الدين نسيره، ونندبه فيها نتخيره.

وقال في كتاب البرق: وصل الخبر بخروج ملك الألمان من بلاده في مائتي ألف دارع، وفي راجل في دبيب رجل الدبا، في عدد رمل اللوا، وأقام بمحشرهم القيامة، واستثارهم لثار كنيستهم بالقدس قيامة، وساروا في شهور حتى وصلوا قسطنطينية، وكان ملك الروم يكتب إلينا بأخبارهم ونبأ خروجهم من ديارهم، ويقول: أنا لا أمكنهم من العبور، فلم جاؤوا لم يقدر على منعهم، فصدّعنهم الأزواد، وحرمهم الإسعاد، وعبروا الخليج وقد كثرت أمدادهم، وقلت أزوادهم، ولما وصلوا إلى

حدود بلاد الاسلام، وسلكوا في الأودية والآجام والوهود والآكام، تسلمهم تركهان الأوج، وتراكم الثلوج وشتا الكلاب في كلب الشتا، واحتاجوا إلى أكل الدواب، واحراق عددهم لإعواز الأحطاب، وعدموا العلف، وماوجدوا الخلف، ومناهل الزلال جامدة، وهم بالبلاد جاهلون، ومن البلاء ناهلون، لايقطعون في يومين فرسخا، وقد أذهب الله عنهم البركة، وصعب عليهم الحركة، وخرج الامر عن حسابهم، وهم كل يوم في نقص أنفسهم ودوابهم، وكانوا يدفنون من اعلاقهم النفيسة، وعددهم الكريمة الرئيسة، ما يعجزون عن نقله، ولا يخفون بثقله، فاتخذوا لأسرارها من اضلاع تلك الشعاب، وصدور تلك الوهاد والهضاب ضائر لاتبوح بها أبداً، ولاتطلع على مكنونها ومدفونها أحدا، هذا وبحرهم عباب الموج، وهباب الفوج، فلها خلصوا بعد أشهر كأنهم زخروا بموج سبعة أبحر، هذا وقدنقص شطرهم، وانقطع ظهرهم، لكنهم عرضوا في الستين أبطال باطلهم، وسيأتي باقي أخبارهم.

وكم ترحل منهم فيلق بفلا إلى الخوامع ألقاه ترحله استصرخواالأهل والعدوى تمزقهم واستكثرواالمال والهيجاتنفله واستكثرواالمال والهيجاتنفله هم الفراش لهيب الحرب تصرعه كلمالج صدماجل مقتله سيفامام فلسطين يرى الميا خلف البحار لقدامهاه صيقله كماعدوا وكم قدف ل جمعهم حسن غير ضرب ولا طعن يريايله وإنما اسم صلاح الدين يذكر في جيش العدو فيسبيهم تخيله

## ثم دخلت سنة ست وثهانين

قال العهاد رحمه الله: والسلطان مقيم بعسكره بمنزلة الخروبة في خيامه المضروبة على الحالة المحبوبه، وعنده العادل والأفضل والمظفر، وعكا محصورة، وانقبضت هذه السنة، وهو على مرابطة المحاصرين لعكا، واتفق في أوائل هذه السنة وقبلها انصراف العساكر الغريبة إلى بـلادها البعيدة والقريبة لهجوم الشتاء وتوالي الأنداء والأنواء، وحالت الوحول عن الركوب والنزول، وكانت نوب اليزك مترتبة، والأحوال متهذبة، وربيا ركب السلطان يوماً للقنص بالبزاة، ثم يعود لانتهاز فرصة الغزاة، ثم وقعت وقعة الرمل، وذلك أنه ركب يـوما في صفر فتصيد، وطاب له قرب القنص فأبعد، واليزكية على الرمل وساحل البحر، فخرج الفرنج في وقت العصر في عدد لايدخل في الحصر، وتسامع أصحابنا بهم، فزحفوا اليهم، وحكم وا عليهم، وطردوا عليهم إلى خيامهم، وأخذوا من خلفهم وأمامهم ، ولهم في كل دفعة من العدّو قلائع ، وللفرنج في كل كرة على الرمل مصارع، حتى فني النشاب وبقى الانتشاب، وشاع نداء الاصحاب باستدعاء النشاب، والفرنج لايعجزهم إلا الرما ولايهتكهم إلا الاصما، فلما أنسوا بخلوا الجعاب، تجاسروا على الدنسو من تلك الشعاب، وحملوا حملة واحدة ردوا بها أصحابنا إلى النهر، وكادت تعبث بهم يد القهر، فتبث من العادلية في وجوه القوم صف مرصوص البنيان، واستشهد جماعة من الشجعان، وذلك أنهم لما ردّوا والفرنج قلعوا فرسانا، وصرعوا أقرانا، فنزلوا بعد فرسهم بسلب لبسهم، فمرّت بهم الحملة في الأوبه، وأعجلتهم عن الركبة والوثبة، وأظلم الليل وافترق الجمعان، وكثر التأسف على من فقد، ومنهم الحاجب أيد عمش المجدي.

قال: ومن عجائب هذه الوقعة أن مملوكا للسلطان يقال له سرا سنقر عشر به جواده، فقبض من أسره على شعره ليجذبه وسل آخر سيفه

ليضربه، فضرب يـد قابـض شعره فسيبه، واشتـد سرا سنقر يعـدو ، وهم خلفه فلم يدركوه، وعاد السلطان من الصيد وقد انفصل الأمر.

قال: وفي يوم الأحد خامس عشر ربيع الاوّل تسلم شقيف أرنون بالأمان، وكان الحصار قد استمر عليه حتى فني زاده، وصاحبه أرناط في الأسر، فسلمه بخلاصه وصار إلى صور.

قال: واغتنم السلطان هيجان البحر، وحضور مراكب الاسطول من مصر، فها زال يقوي عكا بتسيير الغلات والقوات إليها في المراكب وملأها بالذخائر والأسلحة والكهاة، فلها سكن البحر عادت مراكب الفرنج إلى مراسيها، ودبت عقاربها وأفاعيها، وشدّت مراكبنا في موانيها، وانقطع خبر البلد، وامتنع عليه دخول المدد، فانتدبت العوّام بالسباحة، وحملهم على ذلك من السلطان السهاحة، حتى صاروا يحملون نفقات الأجناد على أوساطهم، ويخاطرون بأنفسهم مع احتياطهم، ويحملون كتبا وطيورا ويعودون بكتب وطيور، ونكتب إليهم، ويكتبون إلينا على أجنحة الحهام بالترجمة المصطلح عليها، وكان في العسكر من اتخذ حماما يطوف على خيمته، وينزل في منزلته، وعمل لها برجا من خشب، وهوادي من قصب، ويدرّجها على الطيران من البعد، وكنا نقول: مالهذا الولع، بها قصب، ويدرّجها على الطيران من البعد، وكنا نقول: مالهذا الولع، بها بالكتب سارحة شارحة، وكنا نطلبها منه مع الليل والنهار، حتى قل بالكتب سارحة شارحة، وكنا نطلبها منه مع الليل والنهار، حتى قل وجودها لكثرة الارسال، ولقد عطب عوّامون، فها ارتدع الباقون، ومنهم من سلم مراراً من القوم فاجتراً وأنس بالعوم.

#### فصل

## في قدوم الملوك وحريق الأبراج

قال العهاد: ولما انقضى الشتاء، وانفتح البحر، وحان زمان القتال، جاءت العساكر الاسلامية من البلاد، فكان أوَّل من وصل الملك المجاهد أسد الدين شيركوه صاحب حمص والرحبة، وسابق الدين عثمان صاحب شيزر، وعز الدين ابراهيم بن المقدّم، ووفد معهم جموع من الأجناد والأعيان، وحشود من العرب والتركمان، فرحل السلطان وتقدّم وعزم على طلب العدّو وصمم، ونزل على تل كيسان يوم الأربعاء ثامن عشر ربيع الأوّل، ورتب عسكره فكان تقي الدين في آخر الميمنة، والعادل في آخر الميسرة، والأفضل في أوّل ميمنّة القلب، وأخوه الظافر في أوّل الميسرة على الجنب، ثم وصل الظاهر في عساكرحلب، وعماد الدين محمود بن بهرام الأرتقي صاحب دارا وغيرهم من الملوك والمقاتلين، ووصل رسول الخليفة يوم الاثنين سادس عشر ربيع الاوّل، وهو الشريف فخر الدين نقيب مشهد باب التبن ببغداد، ووصل معه حملان من النفط الطيار ، وحملان من القنا الخطار وتوقيع بعشرين ألف دينار، يقترض على المديوان العزيز من التجار، وخمسة من الزراقين النفاطين المتقنين صناعة الاحراق بالنار، فاعتد السلطان بكل ماأحضره ، وأخلص الدعاء للديوان العزيز وشكره، غير أنه أبدى ردّ التوقيع وقال كل مامعي من نعمة أمير المؤمنين، ولولا صرف أموال هذه البلاد إلى الجهاد لكانت عمولة إلى الديوان ، وأركب الرسول معه مراراً وأراه مبارك النزال، ومعارك القتال، حتى يشهد بها يشاهد، ويبين له المجتهد المجاهد، وأقام طويلا ثم استأذن في العود فرجع.

وقال القاضي ابن شداد: قبل السلطان جميع ماوصل مع الرسول، واستعفى من الرقعة والتثقيل بها. قال: وفي ذلك اليوم بلغ السلطان أن

الفرنج قد زحفوا على البلد وضايقوه ، فركب إليهم ليشغلهم بالقتال عن البلد، فقاتلهم قتالا شديدا إلى الليل، وخاف أن يهجم العدو البلد، فانتقل إلى تـل الحجـل في خامس عشر ربيع الاوّل للقرب، قـال: وفي صبيحة هذا اليوم وصل من البلد عوّام معه كتب تتضمن أنه قد طم العدّوبعض الخندق، وقد قوي عزم العدّو على منازلة البلد ومضايقته، فجدّد السلطان الكتب إلى العساكر بالحث على الوصول، وفي سحر ليلة سابع عشري ربيع الاوّل وصل ولده الظاهر، وفي آخر ذلك اليوم وصل مظفر الدين، وكان السلطان رحمه الله مايقدم عليه عسكر إلا ويعرضهم ويسير بهم إلى العـدّو، وينـزل بهم في خيمتـه ويمـدّ لهم الطعـام وينعـم عليهم بها تطيب به قلوبهم إذا كانوا أجانب، ثم تضرب خيامهم حيث يأمر، وينزلون بها مكرمين، قال: وكان العدّو قد اصطنع ثلاثة أبراج من خشب وحديد، وألبسها الجلود المسقاة بالخل على ماذكر بحيث لاتنفذ فيها النيران، وكانت هذه الأبراج كأنها الجبال نشاهدها من مواضعنا عالية على الأسوار، وهي مركبة على عجل يسع الواحد منها من المقاتلة مايزيد على خمسمائة نفر على ماقيل ويتسم سطحه لأن، ينصب عليه منجنيــق، وكان ذلـك قد عمــل في قلــوب المسلمين وأودعها مــن الخوف على البلد مالايمكن شرحه، وأيس الناس من البلد بالكلية، وتقطعت قلوب المقاتلة فيه، وكان قد فرغ عملها، ولم يبق إلا جرّها قريب السور، وكان السلطان رحمه الله قد أعمل فكره في إحراقها واهلاكها، وجمع الصناع من الزراقين والنفاطين، وباحثهم في الاجتهاد في احراقها، ووعدهم عليه بالاموال الطائلة، والعطايا الجزيلة، وضاقت حيلهم عن ذلك، وكان من جملة من حضر شاب نحاس دمشقى فلذكر أن له صناعة في احراقها، وأنه إن أمكن من الدخول إلى عكما وحصل له الأدوية التي يعرفها أحرقها فحصل له جميع ماطلبه ودخل الى عكا وطبخ تلك الأدوية مع النفط في قدور من النحاس حتى صار الجميع كأنه جمرة نار، ثم ضرب البرج الواحد يوم وصول الملك الظاهر بقدر فاشتعل

من ساعته ووقته، وصار كالجبل العظيم من النار طالعة ذؤابته نحو السماء، فاستغاث المسلمون بالتهليل والتكبير، وغلبهم الفرح حتى كادت عقولهم تـذهب، فبينها الناس ينظرون ويتعجبون إذ رمى البرج الثاني بالقدر الثاني، والثالث بالثالث فاحترقا كالأوّل، وركب السلطان والعساكر وسار إليهم وانتظر ان يخرجوا فيناجزهم عملا بقوله على: " من فتح له باب خير فلينتهزه»، فلم يظهر العدو من خيامهم ، وحال بين الطَّائفتين الليل، واستمر ركوب السلطان إليهم في كل يوم وطلب نزالهم وقتالهم وهم لايخرجون من خيامهم لعلمهم بتباشير النصر والظفر بهم، والعساكر الاسلامية تتواتر وتتواصل، فوصل في الثاني والعشرين من ربيع الآخر عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي صاحب سنجار، وهو ابن أخبى نبور المدين رحمه الله وصهره وزوج ابنته، فلقيه السلطان بالإحترام والتعظيم، ورتب له العسكر في لقائه، وسار به حتى أوقفه على العدُّو، وعاد معه إلى خيمته وأنزله عنده، وكان صنع لـ هطعاما لائقا بدلك اليوم، فحضر هو وحميع أصحابه، وقدم له من التحل، واللطائف مالاً يقدر عليه غيره، وكأن قد أكرمه بحيث طرح له طراحة مستقلة إلى جانبه، وبسط له ثوبا أطلس عند دخوله، وضربت خيمته على طرف الميسرة على جانب النهر، وفي سابع جمادى الأولى وصل ابن أخيه صاحب الجزيرة معز الدين سنجر شاه بن سيف الدين غازي بن مودود بن زنكى، فلقيه السلطان وأنزله إلى جانب عمه عهاد الدين. وفي تاسع جمادي الأولى وصل ابن صاحب الموصل، وهو علاء الدين خرم شاه بن عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي، نائبا عن أبيه، ففرح السلطان بـه فرحـا شديـدا وتلقاه مـن بعيد هـو وأهله، واستحسـن أدبه وأنزله عنده في الخيمة، وكارمه مكارمة عظيمة، وقدْم له تحفا حسنة، وأمر بضرب خيمته بين ولمديه الأفضل والظاهر، وفي أواخر الشهر وصل صاحب إربل زين الدين يوسف بن زين الدين على، فأكرمه السلطان وأنزله عند أخيه مظفر الدين يعني في الميسرة.

وذكر العهاد قدوم هـؤلاء الملوك بمعنى ماتقـدم قال: وكان الفرنـج مذ نزلوا على عكا صمموا على الاقامة والحصر، فشرعوا في بناء الأبراج العظام العالية، ونقلوا في البحر آلاتها وأخشابها الجانية، واقطاع الحديد، وبنوا ثلاثة أبراج عالية في ثلاثة مواضع من أقطار البلد، وكل برج لابد له في أركانه من أربع اسطوانات عاليات غلاظ جافيات، طول كل واحدة خمسون ذراعا ليشرف على ارتفاع سور البلد، وبسطوها على دوائر العجل، ثم كسوها بعد الحديد والوثوق الشديد بجلود البقر والسلوخ، وكل يوم يُقربونها، ولو ذراعا على حسب التيسير في تسييرها، وسقوها بالخل والخمر، وكشفوا من جوانبها الثلاثة سور البلد وشرعوا في طم الخندق، وجماء عوّام من عكما فأخبر السلطان فركب بالعسكر ولازمهم من الجمعة إلى الجمعة يقاتلهم صباح مساء ليشغلهم، فافترقوا قسمين فريق للقتال وفريق أخر مع الأبراج، فأشفى البلد وبقي له رمق ضعيف، ورميت الأبراج بكل قارورة نفط فها أثرت، ولم نشعر يوم السبت الثامن والعشرين من ربيع الأوّل بالأبراج إلاّ وقد اشتعلت، والتهبت ووقعت، وكانت آية من قدرة الله ظهرت، وذلك أنه كان بعكا شاب من أهل دمشق يعرف بعلي ابن عريف النحاسن، وكان أبدا يجمع آلات الزراقين مـولعا، ولتحصيـلُ عقاقيرها متتبعـا، وكل من عـرفه عــذلَّه وانكر عمله، وكان قد ألف منها مقادير وقدورا، وملا بالغيظ من أهل تلك الصناعة صدورا، ولم يكن النفط من صناعته، ولكن الله وفقه لسعادته، فلم كان يوم حريقها جاء إلى الأمير قراقوش وهو مغتاظ واخلاقه فظاظ غلاظ، وقال: أتأذن لي في تصويب المنجنيق الأحرق البرج والله ولى التوفيق، فسزجره وزبره ونهاه ونهره، وقال صناع: هذا الشغل قد خاروا وحاروا، وبعد ما انجدوا أغاروا، فقال الناس: دعه وشأنه، ومايدريك أن الله وفقه وأعانه، فرمى ابن العريف إلى البرج الأوِّل قدور نفط خالية من نار حتى عرف انه سقاه وروّاه، ثم رماه بقدر محرقه، وأردفها بأخرى مزهقة، فتسلطت النارعلي طبقاتها، فأضرم على أهل السعير سعيرا (وكان يوما على الكافرين عسيرا) (٩٣) ثم أحرق الثاني والثالث، فاجتمع عليه الأصحاب يفدّونه ومن الأولياء يعدّونه، وحملوه بعد ذلك إلى السلطان فلم يقبل عطاء، وقال: عملته لله فها أريد به من سواه جزاء، وقيل احترق في البرج الأوّل سبعون فارسا بعدّتها فحبطت أعهالهم وخابت أمالهم، وخرج رجالنا من البلد فنظفوا الخندق، وسدوا الثغر وأظهروا القدر بظهور القدر وجاؤوا إلى مواضع الأبراج وأماكنها واستخرجوا الحديد من مكامنها، ونبشوا الرماد عن الزرديات التي انسبكت، وكشفوا عن الستائر التي تهتكت، فأخذوا ماوجدوا، وحصلوا مانشدوا.

قال: وكان السلطان قد كتب بالاستظهار من شوانى الاسطول والاسراع به في الوصول، فوصل الخبر بوصوله يوم الخميس ثامن الشهر، فاستظهر به الأسطول الأوّل الذي بالثغر، فركب السلطان بجميع كتائبه، وأحاط بالكفر من جميع جوانبه واشتغل الفرنج عنا بهادهمهم في البحر، فجدّوا في الامر، وجهزوا اسطولا بعدد الرجال وعدد القتال، وخرجوا لتلقي الأسطول الواصل، وقابلوا الحق بالباطل، وجاءت شواني المسلمين فنطحت وطحنت، وأخذت مركبا للعدّو برجاله، وأخذوا لنا قطعة، ومازالت الحرب قرعة وقرعة، وصرعة وصرعه، حتى دخل الليل فتحاجز الفريقان، وتفرّق الاسطولان، وكانت المقتلة في الكفر شديدة والسطوة مبيدة.

وقال القاضي ابن شداد: لما كان ظهيرة يوم وصول علاء الدين ابن صاحب الموصل ظهرت في البحر قلوع كثيرة، وكان رحمه الله في نظرة الاسطول من مصر فإنه كان قد أمر بتعميره ووصوله، فعلم أنه هو ، فركب والناس في خدمته وتعبأ تعبية القتال ، وقصده مضايقة العدّو ليشغله عن قصد الأسطول، ولما علم العدّوبالاسطول استعدّ له وعمر اسطوله لقتاله ومنعه من دخول عكا، ولما خرج اسطول العدّو واشتدّ

السلطان في قتالهم من خارج، وسار الناس على جانب البحر تقوية للأسطول وايناسا له ولرجاله التقى الاسطولان في البحر، والعسكران في البر واضطرمت نار الحرب واستعرت، وباع كل فريق روحه براحته الأخروية، وجرى قتال شديد أقشع عن نصرة الاسطول الاسلامي، وأخذ منه شيني وقتل من به،ونهب جميع مافيه، وظفر من العدّو بمركب أيضا، كان واصلا من قسطنطينية، ودخل الاسطول المنصور إلى عكا، وكان قد صحبه مراكب من الساحل فيها مير وذخائر، وطابت قلوب أهل البلد بللك، وانشرحت صدورهم، فان الضائقة كانت قد أخذت منهم، واتصل القتال بين العسكرين من خارج البلد إلى أن فصل بينها الليل، وعاد كل فريق إلى خيمه، وقد قتل من عدّو الله وجرح في ذلك اليوم خلق عظيم، فإنهم قاتلوا في ثلاثة مواضع، فإن أهل البلد اشتدّوا في قتالهم ليشغلوهم عن الأسطول أيضا، والاسطولان مقابلان، في قتالهم ليشغلوهم عن الأسطول أيضا، والاسطولان مقابلان،

قال العهاد: وقتلنا منهم مدّة مقامنا على عكا سنتين أكثر من ستين ألف، ورزأناهم بكل حتف، وكلها أبادوا في البر، زادوا من البحر، وكم جسروا وخسروا، وقتلوا وأسروا، وهزموا وكسروا، وخلفهم خلف، ويقوم مقام مائتهم ألف، وقد أفنينا أنفسهم وأموالهم، وقطعنا أرزاقهم ووصلنا آجالهم.

#### فصل

# فيها كان من أمر ملك الألمان

قال القاضي ابن شداد: تواصلت الأخبار بـوصول ملك الألمان إلى بلاد قليج أرسلان، وأنه انتهض للقائه جمع عظيم من التركمان، وقصدوا منعه من عبور النهر، وأنه أعجزهم لكثرة خلقه، وعدم مقدم لهم يجمع كلمتهم، وكان قليج أرسلان يظهر اشفاقه، وهو في الباطن قد أضمر وفاقه، ثم لما عبر إلى البلاد أظهر من الفساد ماكان أضمره ووافقه وأعطاه رهائن معه على أنه ينفذ معه من يوصله إلى بلاد ابن لاون، وأنفذمعه أدلة يدلون به وعراهم في الطريق جوع عظيم وأعوزهم الزاد وقل بهم الظهر حتى أنهم ألقوا بعض أقمشتهم، ولقد بلغنا والله أعلم أنهم جمعوا عدداً كثيرة من زرديات وخوذ وآلات وسلاح عجزوا عن حملها، وجعلوها بيدرا واحدا وأضرموا فيها النار لتتلف ولاينتفع بها أحد، وأنها بقيت بعد ذلك رابية من حديد، وساروا على هذه الحال حتى وصلوا إلى طرسوس، فأقاموا على نهر ليعبروه وأن ملكهم الملعون عن له أن يسبح فيه، وكان ماء شديد البرد، وكان ذلك عقيب ماناله من التعب، وأنه عرض له بسبب ذلك مرض عظيم اشتد به إلى أن قتله، ولما رأى ماحل به أوصى إلى ابنه الذي كان في صحبته، ولما مات أجمعوا رأيهم على أنهم سلقوه في خل، وجمعوا عظامه في كيس حتى يحملوه إلى القداس الشريف ويدفنوه فيه، وترتب ابنه مكانه على خلف من أصحابه، فإن ولده الأكبر كان خلفه في بلاده، وكان جماعة من أصحابه يميلون إليه، واستقر قدم ولده الحاضر في تقدّمه في العسكر، ولما أحس لافون بها جرى عليهم من الخلل وماحل بهم من الجوع والموت والضعف بسبب موت ملكهم، مارأى أن يلقي نفسه بينهم فإنه لايعلم كيف يكون الأمر، وهم فرنج وهو أرمني، فاعتصم عنهم في بعض قلاعه المنيعة، ولقد وصل إلى السلطان كتاب من الكاغيكوس، وهو مقدّم الأرمن، وهـو صاحب قلعة الـروم التي على طـرف الفرات، ومعنى هذا الاسم الخليفة، ونسخة الكتاب: «كتاب الداعي المخلص الكاغيوس مما أطالع به علوم مولانا ومالكنا السلطان الملك الناصر، جامع كلمة الايمان، رافع علم العدل والاحسان، صلاح الدنيا والدين، سلطان الاسلام والمسلمين، من أمر ملك الألمان ومآجري له عند ظهوره، وذلك أنه أوّل ما خرج من دياره دخل بلاد الهنكر غصبا، ثم دخل أرض مقدّم الروم وفتح البلاد ونهبها، وأحوج ملك الروم إلى أن أطاعه وأخذ رهائنه ولده وأخاه وأربعين نفراً من خلصائه، وأخذ منه خمسين قنطارا ذهباً وخمسين قنطارا فضة، وثياب أطلس مبلغا عظيها، واغتصب المراكب، وعدى بها إلى هذا الجانب، وصحبته الرهائن إلى أن دخل حدود بلاد الملك قليج أرسلان، وردّ الرهائن وبقي ثلاثة أيام سائراً وتركمان الأوج يلقونه بالأغنام والابقار الخيل والبضائع، فتداخلهم الطمع وجمعوا من جميع البلاد، ووقع القتال بين التركهان وبينهم، وضايقوه ثلاثة وثلاثين يوماً وهو سائر، ولما قرب من قونية جمع قطب الدين ولد قليج أرسلان العساكر، وقصده وضرب معه مصافاً عظيماً فظفر به ملك الألمان وكسره كسرة عظيمة، وسار حتى أشرف على قونية، فخرج إليه جموع عظيمة من المسلمين فردّهم مكسورين، وهجم قونية بالسيف وقتل منها عالماً عظيما من المسلمين والفرس، وأقام بها خمسة أيام، فطلب قليج أرسلان منه الأمان، فأمنه الملك واستقر بينهم قاعدة أكيدة، وأخـذ منه الملك رهائن عشرين من أكابر دولته، وأشار على الملك أن يجعل طريقه على طرسوس والمصيصة ففعل، وقبل وصوله إلى هذه البلاد أنفذ كتابه ورسوله يشرح حاله وأين قصــده ومالقيه في طريقه، وأنه لابدّ يجتــاز بهذه الديار اختياراً أوكرها، فاقتضى الحال إنفاذ المملوك خاتمه وصحبته ماسأل، ومعمه من الخواص جماعة للقاء الملك في جواب كتابه، وكانت الوصية معهم أن يحرّفوه على بلاد قليج أرسلان إن أمكن، فلما اجتمعوا بالملك الكبير وأعادوا عليه الجواب وعرّفوه الاحوال أبى الانحراف، ثم كثر عليه

العساكر والجموع ونزل على شط بعض الأنهر وأكل خبزاً ونام ساعة وانتبه فتاقب نفسه إلى الاستحام في الماء البارد، ففعل ذلك، وخرج وكان أمر الله أنه تحرّك عليه مرض عظيم من الماء البارد، فمكث أياما قلائل ومات، وأما لافون فكان سائراً يتلقى الملك، فلماجرى هذا المجرى هرب الرسل من العسكر وتقدّموا اليه وأخبروه بالحال، فدخل في بعض حصونه واحتمى هناك، وأما ابن الملك فكان أبوه منذ توجه لقصد هذه الديار نصب ولده الذي معه عوضه، وتأكدت قواعده، وبلغه هرب رسل لافون فـأنفذ واستعطفهم وأحضرهم وقـال: إن أبي كان شيخا كبيراً وانها قصد هذه الديار لأ جل حج بيت المقدس، وأنا الذي دبرت الملك وعاينت المشاق في هذه الطريق مع من أطاعني، والا كنت بدأت بقصد دياره واستعطف لافون، واقتضى الحال الاجتباع بـ ضرورة، وفي الجملة هم في عدد كثير، ولقدعرض عسكره فكان في اثنين وأربعين ألف مجفجفاً وأما الرجالة فلا يحصى عددهم، هم أجناس متفاوتة، وخلق غريبة، وهم على قصد عظيم، وجد في أمرهم وسياسة هائلة حتى أن من جنى منهم جناية ليس له جزاء إلا أن يذبح مثل الشاة، ولقد بلغنا عن بعض أكابرهم أنه جنى على غلام له وجاوز الحد في ضربه، فاجتمعت القسوس للحكم عليه، فاقتضى الحال والحكم العام ذبحه وشفع الى الملك منهم خلق عظيم، فلم يلتفت إلى ذلك وذبحه، وقد حرّموا الملاذ على أنفسهم حتى أن من بلغهم عنه بلوغ لذة هجروه وعزروه، وكل ذلك كان حزنا على بيت المقدس، ولقد صح عن جمع منهم أنهم هجروا الثياب مدة طويلة وحرموها على أنفسهم ولم يلبسوا إلا الحديد حتى أنكر عليهم الاكابر ذلك، وهم على الذل والشقاء، والتعب على حال عظیم».

وقال العهاد: لما قباربوا بلاد عز البدين قليج أرسلان نهض إليهم ابنه قطب البدين ملك شباه، فوقع بينهم الحرب، ثم انبدفع عنهم إلى مبدينة قبونية، فساقوا وراءه ودخلوها وحرقوا أسواقها ونزلوها، فنفذوا إلى

السلطان قليج أرسلان: إنا لم نصل لأخذ بلادك، وإنها ثرنا لشأر بيت المقدس، ونفذوا اليه هدايا وطلبوا الهدنة فهادنهم، فتقوّوا من تلك البلاد بها أرادوا من العدد والأزواد، وأنفذ قليج الدين أرسلان وابنه يعتذران الى السلطان من تمكينهم ثمم العبور، وانهم غلبوا على ذلك، ثم ان الالمانية طلبوا من قليج أرسلان إنفاذ جماعة من الأمراء معهم يمنعونهم من لصوص التركمان حتى يصلوا إلى بـلاد الأرمن، فنفـذ معهم خمسة وعشرين، ووافق ذلك غرض قطب الدين، فإنه كان كارها لجاعة من المقدّمين فتقدّم إليهم بأن يكونوا في صحبة ملك الألمان فحملهم على الخطر وأوقعهم في الغرر، وورّطهم في الضرر، فإنهم ماقدروا في الطريق على دفع كل سارق، وقد تبعهم اللصوص حتى وصلوا إلى بلاد الأرمن ومقدّمهم لافون بن أصطفان بن لاون، فأخذوا أولئك الرهائن وقيدوهم وجعلوهم في الاسر وجرّدوهم، فمنهم من خلص بعـد حين بهال جزيل، ومنهم من بقي مأسورا حتى أتاه اليقين، ووصل مقدم الأرمن إلى خدمته، ودخل في طاعته، وهداهم لمقصده، وقام لهم بالضيافات والعلوفات، وذلك في طرسوس، فتمكنوا بها ليريحوا النفوس، فعن لملك الالمان أن يسبح في النهر لإماطة مابه من الوضر، فعرض له مرض سلك به في سقر، وقيل: لما عبرت جموعه النهر ازد حموا والتطم الموج بهم واقتحموا، وطلب هو موضعا يعبر فيه وحده، ويتبعه من بعده، فنزل على مخاضة ذات مخافة، لايخلو من هجمها من آفة، فجري إليها، واجترأ عليها، فجذبته سورة الماء إلى شجرة شجت رأسه وعجت أنفاسه، وأخرجوه ونفسه على الخروج، وعمره على الدروج، فتسلم مالك ملك الألمان بآله وأحماله إلى جهنم، وجلس ابنه مكانه، واتبع شانه، واستتبع رجاله وفرسانه، وقيل عرض عسكره في نيف وأربعين ألف كمي، وانقطع عنه ابن لاون واختلف عليه أصحاب أبيـه ميلا منهم إلى أخيـه، وساروا على سمت انطاكية في فرق ثلاث كأنهم من المرض قد نبشوا من أجداث، وأكثرهم حملة عصى وركاب حمير، وكل بالأرض التي يسلكها غير خبير، فتبرم بهم صاحب أنطاكية، وثقلت وطأتهم المفاجئة، وحسن لهم طريق بلاد حلب فلم يروا ذلك الصوب من أرب، وطلب منه الملك قلعة انطاكية لينقل إليها ماله وخزائنه وأثقاله، فأخلاها له وسلمها اليه طمعا في ماله، وأموال رجاله، وكان على ماحدسه فإنه لم يعد إليها، واستولى الابرنس بأنطاكية عليها، وجاءت فرقة منهم ليلا إلى حصن بغراس، وظنوا أنه في أيدي أجناسهم الأنجاس، ففتح وإلى القلعة الباب، وأخرج الاصحاب، وتسلم تلك الأموال بأحالها والصناديق بأقفالها، وأسر منهم وقتل كثير، وخرج بعد ذلك أهل حلب وجندها إلى طرقهم، وفرقوا بين فرقهم والتقطوهم من الخمر والغياض، وكان الواحد يستأسر منهم ثلاثة، ولايرى من رفقائهم إغاثة، فهانت الألمانية بعد تلك المهابة في الأنفس، وباعوهم في الاسواق بالثمن الأبخس، ولما تكامل وصول السالمين إلى أنطاكية، سلكوا إلى طريق طرابلس جبلة واللاذقية، فخرج عليهم رجالها فقتلوا منهم وأسروا، فما وصلوا إلى طرابلس إلا في خف ولم يسف بمن جاء مع الملك غير ألف، وجاؤوا إلى النازلين على عكا فغرقوافي لجهم، وخمدوا في وهجهم، ثم هلك على عكا بعد انقضاء مدّة، واقتضاء شدّة، بتاريخ ثاني عشر ذي الحجة سنة ست وثبانين.

وقال في الفتح: وجبن الملك عن السير على الطريق لما لقيت جموعه في طرقاتهم من التفريق، فركب البحر في عدد يسير لايزيد على الألف، برعب قلب وقصور يد ورغم، أنف، واختلط مع الفرنج على عكا فسقط وسخط حكمه، وهلك بعد قليل، ولم يحظ بنقع غليل،

وقال القاضي ابن شدّاد: مرض ولد ملك الألمان الذي قام مقامه مرضاً عظيماً، وأقام بموضع يسمى التينات من بلاد لافون، وأقام معه خسة وعشرون فارساً وأربعون داوياً، وجهز عسكره نحو أنطاكية حتى يقطعوا الطريق ورتبهم ثلاث فرق لكثرتهم، ثم إن الفرقة الأولى اجتازت تحت قلعة بغراس ومقدّمها كند عظيم عندهم، وإن عسكر بغراس مع

قلته أخذ منهم مائتي رجل نهبا وقهراً، وكتبوا يخبرون عنهم بالضعف العظيم والمرض الشديد، وقلة الخيل والظهر ، والعدد والالآت، ولما اتصل هذا الخبر بالنوّاب في البلاد الاسلامية أنفذوا إليهم عسكرا يكشفون أخبارهم، فوقع العسكر على جمع عظيم قد خرجوا لطلب العلوفة، فأغاروا عليهم، وقتلوا وأسروا زهاء خمسائة نفس، ولقد حضرت من يخبر السلطان عنهم ويقول: هم عدد كثير لكنهم ضعفاء قليلو الخيل والعدة وأكثر ثقلهم على حمير وخيل ضعيفة، قال: ولقد وقفت على جسر يعبرون عليه لاعتبرهم فعبر منهم جمع عظيم ماوجدت مع واحد منهم طارقة ولا ربحا إلا النادر، فسألتهم عن ذلك، فقالوا: أقمنا بمرج وخم أياما وقلت أزوادنا وأحطابنا، فأوقدنا معظم عددنا ومات منا وصل إلى أنطاكية، وطمع لافون فيهم حتى عزم على أخد مال الملك طرضه وضعفه وقلة جمعه الذي تأخر معه، ولم تنزل أخبارهم تتواتر بالضعف والمرض.

قال، ولما تحقق السلطان وصول ملك الألمان إلى بلاد لافون وقربه من البلاد الاسلامية، جمع عسكر العدو الواصل، وأن يقيم هو رحمه الله على منازلة العدّو المقابل بباقي العسكر المنصور، فكان أوّل من سار صاحب منبج ناصر الدين بن تقي الدين، ثم عز الدين ابن المقدم صاحب كفر طاب وبارين وغيرهما، ثم مجد الدين صاحب شيزر، ثم الياروقية من جملة عسكر حلب، وسار إلى دمشق ولده الأفضل لمرض عرض له، وكذا بدر الدين شحنة دمشق، ثم سار الملك الظاهر إلى حلب لايالة الطريق، وكشف الأخبار، وحفظ مايليه من البلاد، وسار بعده الملك المظفر لحفظ مايليه من البلاد وتدبير أمر العدّو المجتاز، ولما سارت هذه العساكر خفت الميمنة فان معظم من سار منها، فأمر رحمة الله عليه الملك العادل فانتقل إلى منزلة تقي الدين في طرف الميمنة، وكان عهاد الدين زنكي في طرف الميسرة، ووقع في العسكر مرض عظيم، فمرض مظفر الدين بن

زين الدين صاحب حران وشفي ومرض بعده الملك الظافر ولد السلطان وشفي، ومرض خلق كثير من الأكابر وغيرهم إلا أن المرض كان سليا بحمد الله تعالى، وكان المرض عند العدّو أكثر وأعظم، وكان مقترنا بموتان عظيم، وأقام السلطان مصابرا على ذلك مرابطاً للعدو.

قال العهاد: وتقدّم السلطان بهدم سور طبرية وهدم يافا وأرسوف وقيسارية، وهدم سور صيدا وجبيل، ونقل أهلها إلى بيروت وفي بعض الكتب السلطانية: قد عرفنا خبر العدّوالمشؤوم الواصل من جانب الروم، وهذا أوان تحرّك ذوي الحميه، ونهوض أهل الهمم الأبية العلية، وانهم في كثرة مسنتون في طريق العثرة، والسيل اذا وصل إلى الجبل الراسي وقف، والليل إذا بلغ إلى الصبح المسفر انكشف، فأين المؤدون فرض الجهاد المتعين، وأين المهتدون في نهج الرشاد المتبين، وأين المدين، وأين المقدّمون في الدين، ومعاذ الله أن لا يكونوا للاسلام مسلمين، وأين المقدّمون في الدين، العدّو الرابض لأطلقت أعنة النهضة إلى العدّو الناهض، ولابد من لقائه قبل تلفق الجمعين واراءة الملاعين وجوه حتفهم ملء العين».

ومن كتاب فاضلي إلى بغداد: « ومن خبر الفرنج أنهم الآن على عكا يمد هم البحر بمراكب أكثر عدة من أمواجه، ويخرج منه للمسلمين ماهو أمر من أجاجه، وقد تعاضدت ملوك الكفر على أن ينهضوا اليهم من كل فرقة طائفة، ويرسلوا إليهم من كل سلاح شوكه، فاذا قتل المسلمون واحداً في البر بعثوا ألفا عوضه في البحر، فالزرع أكثر من الحصاد، والثمرة أنمى من الجذاذ، وهذا العدو المقابل قاتله الله قد زر عليه من الجنادق دروعا متينة، وأستجن من الجنانات بجصون حصينة، فصار محصوراً ومتمنعا حاسرا ومتدرعا، مواصلا ومنقطعا، وعددهم الجم قد كاثر القتل، ورقابهم الغلب قد قطعت النصل، لشدة ماقطعها النصل، وأصحابنا قد أثرت فيهم المدة الطويلة والكلف الثقيلة في النصل، وأصحابنا قد أثرت فيهم المدة الطويلة والكلف الثقيلة في

استطاعتهم لا في طاعتهم، وفي أحوالهم لافي شجاعتهم، وكل من يعرفهم يناشد الله فيهم المناشدة النبوية في الصحبة البدرية، «اللهم إن تهلك هذه العصابة " ويخلص الدعاء ويرجو على يـد سيدنا أمير المؤمنين الإجابة، وقد حرّم باباهم لعنة الله عليه وعليهم كل مباح، واستخرج منهم كل مذخور، وأغلق دونهم الكنائس، ولبس وألبسهم الحداد وحكم عليهم أن لايزالوا كذلك أو يستخلصوا المقبرة، فياعصبة محمد عليه السلام أخلفه في أمته بها تطمئن به مضاجعه، ووفه الحق فينا فإنا والمسلمون عندك ودائعه، ومامثل الخادم نفسه في هذا القول إلا بحالة عبد لو أمكنه لو وقف بالعتبات ضارعا، وقبل ترابها خاشعا، وناجاها بالقول صادعا، ولو رفعت عنه العوائق لهاجر وشافه طبيب الاسلام بل مسيحه بالداء الـذي خامر، ولو أمن من عدّو الاسـلام أن يقول قولا آخر لسافر، ولولا أن في التصريح ما يعود على العدالة بالتجريح لقال ما يبكى العيون، وينكي القلوب، ولكنه صابر محتسب، منتظر لنصر الله مرتقب، قائم من نفسه بها يجب: ربّ إني لاأملك إلا نفسى، وهاهي في سبيلك مبذولة، وأخي وقد هاجر إليك هنجرة يـرجوها مقبوَّلة، وولديُّ وقد بذلت لعدوك صفحات وجوههم، وهان على محبوبك بمكروهي فيهم ومكروههم، ونقف عند هذا الحد والله الأمر من قبل ومن بعد».

## فصل

# في الوقعة العادلية على عكا ظهر يوم الأربعاء العشرين من جمادى الآخرة

قال القاضي ابن شداد:علم عدو الله أن العساكر قد تفرقت في أطراف البلاد، وأن الميمنة قد خفت لأن معظم من سار كان منها بحكم قرب بالادهم من طريق العدو فأجمعوا رأيهم، واتفقت كلمتهم على أنهم يخرجون بغتة ويهجمون على طرف الميمنة فجأة، فخرجوا واستخفوا طرف الميمنة وفيها مخيم العادل، فلما بصر بهم صاح صائحهم، وخرجوا من خيامهم كالأسود من آجامها، وركب السلطان ونادى مناديه: ياللاسلام، وكان رحمه الله أول راكب، ولقد ركب من خيمته، وحوله نفر يسير ثم خواصه، والناس لم يستتم ركوبهم، وهو كالفاقدة لولدهاوالثاكلة لواحدها، ثمم ضرب الكوس فأجابته كاسات الأمراء من أماكنها، وركب الناس وسارع الفرنج في قصد الميمنة حتى وصلوا إلى المخيم العادلي قبل استتهام ركوب العساكر، ودخلوا في وجافه وامتدت أيديهم في السوق وأطراف الخيم بالنهب والغارة وقيل وصلوا إلى خيمة الخاص وأخذوا من شرا بخاناته شيئا، وركب العادل واستركب من يليه من الميمنة كالطواشى قايهاز النجمي، وعز الدين جرديك النوري ومن يجرى مجراه، ووقف وقوف مخادع حتى يوغل بهم طمعهم في المخيم ويشتغلوا بالنهب، وكان كما ظن فانه عاثت أيديهم في الخيام، والاقمشة والفواكه والطعام، فلما علم اشتغالهم بذلك صاح بالناس وحمل بنفسه يقدمه ولده الكبير شمس الدين مودود، وحمل بحملته من كان يليه من الميمنة، واتصل الأمر بجميع الميمنة حتى وصل الصائح إلى خيامهم هاربين، وعلى أعقابهم ناكصين، وسيف الله يقتل فيهم، وصاح صائح السلطان في الناس: يا أبطال الموحدين هذا عـدو الله قد أمكن الله منه، وقد داخله الطمع حتى غشي خيامكم بنفسه، فبادر إلى اجابة دعوته أهر, حلقته

وخاصته، ثم عسكر الموصل يقدمهم علاء الدين ولد عز الدين، ثم عسكر مصر يقدمهم سنقر الحلبي، وتتابعت العساكر وتجاوبت الأبطال، وقامت سوق الحرب فلم يكن إلا ساعة حتى رأينا( القوم صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية) (٩٤) وامتدوا مطروحين من خيام العادل إلى خيامهم، أولهم في الخيم الاسلامية وآخرهم في خيم العدو صرعى على التلول والوهاد، وكان مقدار ماامتد فيه القتلى بين المخيمين فرسخا، وربها زاد على ذلك، ولم ينج من القوم إلا النادر.

قال: ولقل خضت في تلك الدماء بدابتي، واجتهدت أن أعلهم، فما قدرت على ذلك لكثرتهم وتفرقهم، وشاهدت منهم امرأتين مقتولتين، وحكى لي من شاهد منهم أربع نسوة يقاتلن وأسر منهن اثنتان، وأسر من الرجال في ذلك اليوم نفر يسير فإن السلطان كان قد أمر الناس أن لايستبقوا أحداً ، هـذا كُلُّه في الميمنة وبعض القلب، وأما الميسرة فها اتصل الصائح بهم إلا وقد نجز الأمر، وقضى القضاء على العدو لبعد المسافتين ، وكمانت هذه الوقعة فيها بين الظهر والعصر، فإن العدو ظهر في قائم الظهيرة، وانفصلت الحرب بعد العصر، وانكسر القدوم حتى دخلت طائفة من المسلمين وراءهم الى مخيمهم على ماقيل، ثم إن السلطان أمر الناس بالتراجع، ولم يفقد من المسلمين أحد في ذلك اليوم سوى عشرة أنفس غير معروفين، ولما أحس جند الله بعكا بها جرى بين المسلمين وبين العدو من الوقعة فإنهم كانوا يشاهدون الموقعات من أعالي السور خرجوا إلى مخيم العدّو من البلد، وجرى بينهم مقتلة عظيمة، وكانت النصرة والحمد لله للمسلمين، بحيث هجموا حيام العدُّو ونهبوا منها جمعاً من النسوان والأقمشة حتى القدور فيها الطعام، ووصل كتاب من عكا يخبر بذلك واختلف الناس في عدد القتلي منهم، فذكر قوم أنهم ثمانية آلاف، وقال آخرون: سبعة آلاف ولم ينقصهم حازر عن خمسة آلاف، ولقد شاهدت منهم خمسة صفوف أوَّلها في خيم العادل وآخرها في خيم العدّو، ولقد لقيت انسانا عاقلا جنديا يسعى بين صفوف القتلى، ويعدهم فقلت له: كم عددت؟ فقال: إلى هنا أربعة ألاف ونيفا وستين قتيلا، وكان قد عد صفين، وهو في الصف الشالث لكن مامضى من الصفوف أكثر عدداً من الباقي.

قال: وجاء من الغد نجاب له عن حلب خمسة أيام بكتاب يتضمن أن جماعة عظيمة من العدو الشهالي خرجوا للنهب بأطراف البلاد الإسلامية، ونهض العسكر الحلبي إليهم وأخذ عليهم الطرق، فلم ينج منهم أحد إلا من شاء الله.

قال: وجماء في ليلة ذلك اليوم من اليزك من ذكر أن العدّو قد سأل من جانب السلطان من يصل إليهم ليسمع منهم حديثا في سؤال الصلح لضعف حل بهم، ولم ينزل العدّو من حينئذ مكسور الجناح منهاض الجانب حتى وصلهم كند يقال له كندهري، وسيأتي ذكره.

وقال العهاد: لما شاع عند الفرنج خبر وصول الألمانية قالوا: إذا وصل ملكهم، ونكى في المسلمين انكسر ناموسنا وتطأطأت عنده رؤوسنا، فذكر الوقعة بمعنى ماتقدم إلى أن قال: ووصل السلطان وشاهد من مساءة الفرنج ماسره، وعرف لطف الله وبره ونصره، وعاين هناك مصارع الأعداء، ومشارع البلاء، وكانوا مفروشين في مدى فرسخ على الأرض، وهم في تسعة صفوف من تبلال الرمل إلى البحر بالعرض، وكل صف يزيد على ألف قتيل، وشاع القتل في الفرنج في كل قبيل، وكانت هذه النوبة بلا نائبة، وتلك الغزوة بلا شائبة، وقتل منهم زهاء عشرة آلاف، ولم يبلغ من استشهد من اتباع العسكر عشرة نفر، واغتنمها تجارة رابحة وغنيمة ميسرة.

قال: ولماعرفت بالواقعة، والنصرة الجامعة، صدرت ثلاثين أو أربعين كتابا بالبشارات بأبلغ المعاني وأبرع العبارات، وقلت: إذا نزل السلطان

وجد الكتب حاضرة، ورأى البشارة شائرة، وركبت أنا والقاضي بهاء الدين ابن شداد لمشاهدة ماهناك من أشلاء صرعى وأجساد، فيا أعجل ماسلبوا وعرّوا، وفروا وفروا، وقد بقرت بطونهم وفقئت عيونهم، ورأينا امرأة مقتولة لكونها مقاتلة، وسمعناها وهي خامدة بالعبرة قائلة، ومازلنا نطوف عليهم ونعبر ونفكر فيهم ونعتبر حتى ارتدى العشاء بالظلام، فعدنا إلى الخيام، واطلنا الوقوف على تلك الطلول الدارسة، واستبشرت الوجوه بتلك الأوجه العابسه، وحزرناهم بعشرة آلاف قتيل، لاحزر تكثير بل حزر تقليل، وكان الذين حملوا وهزموا وقتلوا أقل من ألف، فقتلوا أضعافا مضاعفة وعدموا عن وراءهم مساعدة ومساعفة، وحكي من نوادر هذه الوقعة أن فرنجيا عقر فجثا للصرعة فعشر به راكب برذون فعرقب الفرنجي، وروى من دمه الهندي، وحل من وسطه ثمانين دينارا فعرقب الفرنجي، وروى من دمه الهندي، وحل من وسطه ثمانين دينارا فانقلب ربحاً ماعده خساراً، وامتلأت الأيدي بالأسلاب والأكساب، فانقلب من العدد مالم يكن في الحساب، وبيعت الزرديات ذوات الأثمان بالرخص.

قال: وشرع الفرنج في الخداع والمراسلة، وسألوا في الصلح وأذن لهم السلطان في الخروج للنظر إلى اولئك الصرعى بتلك المروج، وهي قد تورمت، وانتنت، وجافت وحميت الشمس على جيفها وحافت، وضافتها القشاعم والخوامع وعليها اطافت، فساءهم ماسرنا، ونفرهم ماأقرّنا.

#### فصل

قال العهاد: وكان الرأي بعد هذه النصرة أن نرد عليهم الكرة مرة بعد مرة إلى أن يهلكوا حسرة، ويبيدوا فلا يبقى لهم جمرة، فاشتغل السلطان بها جاء من المكاتبات بظفر التركبان وغيرهم بعسكر الألمان، فجاءت للفرنج نجدة من البحر، ومدد أضعاف مانقص منهم من العدد والعدد، فأضحوا كأن لم ينكبوا، وثبتوا مكانهم ولم يثبوا، ووصل اليهم المعروف بالكندهري، ففرّق الأموال واستخدم الرجال، وأنفق في عشرة آلاف رجل ، وأظهر أنه يخرج إلى لقاء عسكر الاسلام، فتحوّل السلطان الى منزلة الخروبة ليوسع عليهم الدائرة، ونصب الكند على عكا منجنيقات كثيرة، فأحرقها المسلمون، وقتل منهم من الفوارس سبعون، وأسر عدّة معروفون، ثم نصب منجنيقين فأحرقا أوّل شعبان، وكان الكند قد أنفق على أحدهما ألفا وخمسائة دينار، ومن جملة من وقع في الأسر فارس كبير فها أمهلوه حين أخذوه، حتى قتلوه ونبذوه، فطلبه منهم الفرنج بالأموال ولم يعرفوا بالحال فأخرجوه إليهم قتيلا فأكثر الفرنج عليه بعد العويل عويلا، وباتوا يندبونه نوحاً، ويذيعون سر تقدّمه فيهم بوحاً، وحين وقعت أعينهم عليه قتيلا ضربوا بنفوسهم الأرض، وحشوا على رؤوسهم التراب، ووقعت عليهم بسبب ذلك خمدة عظيمة، وكتموا أمره ولم يظهر أحداً على سره، واستصغر المسلمون بعد ذلك أمرهم، وهجم عليهم العرب من كل جانب يسرقون وينهبون ويقتلون ويأسرون، هذا والكتب متواصلة من عكا الينا ومنا إليها على أجنحة الطيور، وأيدي السباح والمراكب اللطاف تخرج ليلا وتدخل سارقة من العدو.

قال العهاد: ووصل من ملك قسطنطينية كتاب يتضمن استعطافا واستسعافا، ويلكر تمكينه من إقامة الجمعة في جامع المسلمين بقسطنطينية، والخطبة فيه، وأنه مستمر على المودّه، راغب في المحبة، ويعتذر عن عبور الملك الألماني، وأنه قد فجع في طريقه بالأماني، ونال

من الشدة، ونقص العدة ما أضعفه وأوهاه، وأنه لايصل إلى بلادكم فينتفع بنفسه أو ينفع، ويكون مصرعه هناك ولايرجع، ويموت بها به كاده، وأنه قد بلغ في أذاه اجتهاده، ويطلب رسولا يدرك به من السلطان سولا، فأجيب في ذلك إلى مراده، ووقع الاعتداد بها ذكره من اعتداده.

وقال القاضي ابن شدّاد: كان بين السلطان وبين ملك قسطنطينية مراسله ومكاتبه، وكان وصل منه رسول الى الباب الكريم السلطان بمرج عيون سنة خمس وثهانين في رجب في جواب رسول كان أنفذه السلطان بعد تقرير القواعد، واقامة قانون الخطبة في جامع قسطنطينية، فمضى الرسول وأقام الخطبة ولقي باحترام عظيم وإكرام زائد، وكان قد أنفذ معه في المركب الخطيب والمنبر وجمعاً من المؤذنين والقراء، وكان يوم دخولهم إلى قسطنطينية يوما عظيما من أيام الاسلام، وشاهده جمع كبير من التجار، ورقي الخطيب المنبر واجتمع إليه المسلمون المقيمون بها والتجار، وأقام الدعوة الاسلامية العباسية، ثم عاد فعاد معه هذا الرسول عبر بانتظام الحال في ذلك فأقام مدّة ولقد شاهدته يبلغ الرسالة ومعه ترجمان يترجم عنه وهو شيخ من أحسن مايفرض أن يكون من صور ترجمان يترجم عنه وهو شيخ من أحسن مايفرض أن يكون من صور خترم بلها، وعليه زيهم الذي يختص بهم، ومعه كتاب وتذكرة والكتاب مختوم بلهب، ولما مات وصل خبر وفاته إلى ملك قسطنطينية، فأنفذ هذا الرسول في تتمة ذلك، ثم وصف القاضي الكتاب، وعبر عنه بألفاظه.

وقد عبر العماد عن معانيه فأغنى عن ذلك، ثم قال: وكان من حديث ملك الالمان أنه بعد أن استقرت قدمه في أنطاكية أخذهامن صاحبها وتحكم فيه، وكان بين يديه فيها ينفذ أوامره، وكان له أموال برفقته، فأخذها منه غيلة وخديعة وأودعها في خزانته، وسار عنها خامس عشري رجب، نحو عكا في جيوشه، وجموعه على طريق اللاذقية حتى

أتى طرابلس، وكان قد سار إليه من معسكر الفرنج يلتقيه المركيس صاحب صور، وكان من أعظمهم حيلة وأشدهم بأسا وهو الأصل في تهييج الجموع، وذلك أنه صور القدس في ورقة عظيمة، وصور فيه صورة القهامة التي يحجون إليها، ويعظمون شأنها، وفيها قبر المسيح الذي دفن فيه بعد صلبه بزعمهم، وذلك القبر هو أصل حجهم، وهو الذي يعتقدون نزول النور عليه في كل سنة في عيد من أعيادهم، فصور القبر، وصوّر عليه فرساً عليه فارس مسلم راكب وقد وطىء قبر المسيح، وقد بال الفرس على القبر، وأبدى هذه الصورة وراء البحر في الأسواق والمجامع والقسوس يحملونها، ورؤوسهم مكشفة وعليهم المسوح، وينادون بالويل والثبور، وللصور عمل في قلوبهم فإنها أصل دينهم،فهاج بذلك خلائق لايحصي عددهم إلا الله تعالى، كان من جملتهم ملك الألمان؛ وجنوده فلقيهم المركيس لكونه أصلا في استدعائهم إلى هذه الواقعة، فلما اتصل به قوى قلبه وبصره بالطرق، وسلك به الساحل خوفا من أنه إذا أتى على بلاد حلب وحماه نازلهم المسلمون من كل جانب، ومع ذلك لم يسلموا من شن الغارات عليهم، واختلف حزر الناس لهم، ولقد وقفت على بعض كتب الخبيرين بالحرب قد حزر فارسهم وراجلهم بخمسة آلاف بعد أن كانوا قد خرجوا على ماذكر بهائتي ألف، فانظر إلى صنيع الله مع أعدائه، ولما ساروا من اللاذقية يريدون جبلة وجد في اعقابهم نيفاً وستين فرساً قد عطبت وانتزع لحمها ولم يبق فيها إلا العظام من شدة الجوع وضعف الخيل، ولم يزالوا سائرين وأيدي المسلمين تتخطفهم من حولهم نهباً وأسراً وقت لا حتى أتوا طرابلس، فأقام بها حتى استجم عسكره، وأرسل إلى النازلين على عكا يخبرهم بقدومه فوجموا من ذلك، لأن المركيس صاحب مشورته، وكان الملك كي وهو ملك الساحل بالمعسكر، هو الذي يرجع إليه في الأمور، فعلم أنه مع قدوم الملك الألماني لايبقى له حكم، وفي أواخر شعبان نيزل الملك الألماني في المراكب هـ و وعسكره فثارت عليهم ريح اهلكت منهم ثـ لاثة

مراكب، وسار الباقون إلى صور، ثم وصل إلى عكا في نفر يسير في سادس رمضان، وكان لقدومه وقع عظيم عندهم، ووصل خبر وصولهم إلى طرابلس ثامن شعبان، والسلطان ثابت الجأش راسخ القدم لايزعزعه ذلك عن حراسة عكا والحهاية لها، ومراصدة العسكر النازل بها، وشن الغارات والهجوم عليهم في كل وقت، مفوضا أمره إلى الله تعالى، معتمداً عليه منبسط الوجه لقضاء حوائج الناس، مواصلاً ببره من نفذ إليه من الفقراء والفقهاء والمشايخ والأدباء، ولقد كنت إذا بلغني هذا الخبر تأثرت حتى إذا دخلت عليه أجد عنده من قوة النفس وشدة البأس مايشرح صدري، وأتيقن معه نصر الاسلام وأهله.

## فصل

## في إدخال البطس إلى عكا

قال ابن شدّاد: كان رحمه الله قد أعدّ ببيروت بطسه، وعمرها وأودعها أربعها ثة غرارة من القمح، ووضع فيها من الجبن والبصل والغنم وغير ذلك من الميرة، وكان الفرنج قد أداروا مراكبهم حول عكا حراسة لها عن ان يدخلها مركب للمسلمين، وكان قد اشتدت حاجة من فيها إلى الطعام والميرة، فركب في بطسه بيروت جماعة من المسلمين، وتزيوا بزّي الفرنج، حتى حلقوا لحاهم ووضعوا الخنازير على سطح البطسة بحيث ترى من بعد، وعلقوا الصلبان وجاؤوا قاصدي البلد من البعد حتى خالطوا مراكب العدّو، فخرج وا إليهم واعترضوهم في الحراقات والشواني وقالوا لهم: نراكم قاصدين البلد، واعتقدوا أنهم منهم، فقالوا: أولم تكونوا أخذتم البلد؟ فقالوا: لم نأخذ البلد بعد، فقالوا: نحن نرد القلوع إلى العسكر ووراءنا بطسة أخرى في هوائها فأنذروهم حتى لايدخلوا البلد، وكان وراءهم بطسة فرنجية قد اتفقت معهم في البحر قاصدين العسكر، فنظروا فرأوها فقصدوها لينذروها، فاشتدّت البطسة الاسلامية في السير واستقامت لها الريح حتى دخلت مينا البلد وسلمت ولله الحمد، وكان فرجا عظيما فيإن الحاجة كانت قد أخذت من أهل البلد، وكان ذلك في العشر الأواخر من رجب.

قال: وفي العشر الأوسط من شعبان كتب بهاء الدين قراقوش، وهو والي البلدوالمقدّم على الأسطول، وهو الحاجب لـؤلؤ يذكران للسلطان أنه لم يبق بالبلـد إلا قدر يكفي البلـد إلى ليلة النصف من شعبان لاغير(فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها) (٥٠٠ لخاص ولاعام خشية الشيوع والبلوغ إلى العدّو فتضعف به قلوب المسلمين، وكان قد كتب إلى مصر بتجهيز ثلاث بطس مشحونة بالأقوات والأدام والمير وجميع

مايحتاج إليه في الحصار، بحيث يكفيهم ذلك طول الشتاء، فأقلعت البطس الثلاث من الديار المصرية، ولججت في البحر تتوخى النوتية بها الريح التي تحملها إلى عكا، فطابت لهم الريح حتى ساروا ووصلوا إلى عكا ليلة النصف من شعبان، وقد فنيت الأزواد، ولم يبق عندهم ما يطعمون الناس في ذلك اليوم، وخرج عليها أسطول العدّو يقاتلها والعساكر الاسلامية تشاهد ذلك من الساحل والناس في تهليل وتكبين وقد كشف المسلمون رؤوسهم يبتهلون إلى الله تعالى في القضاء بسلامتها إلى البلد، والسلطان على الساحل كالوالدة الثكلي يشاهد القتال، ويدعو للى ربه بنصره، وقد علم من شدّة القوم مالم يعلمه غيره، وفي قلبه مافي الله يثبته، ولم يزل القتال يعمل حول البطس من كل جانب، والله يدفع عنها والريح تشتد والأصوات قد ارتفعت من الطائفتين، والدعاء يخرق الحجب حتى وصلوا بحمد الله سالمين إلى مينا البلد، وتلقاهم أهل عكا تلقي الامطار عن جدب، وامتاروا بها فيها، وكانت ليلة بليال، وكان دخولها في وقت العصر رابع عشر شعبان.

وقال العهاد: كان السلطان قد أمر نوّاب الاسكندرية بتجهيز بطس كبار وتعميرها من كل ميرة وغلة وتسييرها إلى عكا، فأبطأت عن الميقات وأضر بالمقيمين بالبلد إعواز الأقوات، فافكر فيها يتعجل به الغرض، فكتب إلى متولي بيروت عز الدين سامة فجهز بطسة كبيرة، ملأها ميرة، وغلة كثيرة، وأركبها جماعة على زي الفرنج ممسوحي اللحي، ممسوخي الملحي، مسوخي الملحي، وأصحبهم صلبانا وخيل بهم رهبانا، وكانت هذه البطسة من الفرنج مأخوذة، وهي بساحل بيروت منبوذة، فأمر السلطان بترميمها وتتميمها، فملئت بالشحوم واللحوم، وأربعهائة غرارة غلة، وأحمال من النشاب والنفط، ورتب فيها رجال مسلمون ونصارى من أهل بيروت، وأرادوا أن تشتبه ببطس العدو في البحر، فشدوا زنانير واستصحبوا خنازير، وساروا بها في البحر بمراكب الفرنج مختلطين، والى محادثتهم

ومجاذبتهم منبسطين، ولما حاذوا بها عكا صوّبوا بها نحوها والريح تسوقها، والفرنج من مراكبها تقول: ماهذه طريقها، وهي كالسهم النافذ قد سدّد فوقها، فدخلت الثغر واجتزأ البلد بها نصف شهر، وظهرت رابع عشر رمضان من ثبج البحر ثلاث مراكب، كأنها ثلاث هواضب، فجاءت فجأة أعلامها كالأعلام، طائرة كالسهام، ولم تبال بمراكب العدّو فخرقتها، وقربت من سفينة فغرقتها، وعبرت وعين الكفر عبرى، وامتلأ الثغر بها وأثرى.

#### فصل

قال العهاد: ووصل ملك الألمان، ورام أن يظهر بمجيئة وقعا، ويبدي به نفعا، فدبوا في راجل كرجل الدبا، وخيل أغصت النوهاد والربى، وقربوا من تل العياضيه، وعليه خيم اليزكية، والنوبة فيها للحلقة المنصورة الناصرية، والعصبة الموصلية، فشارت إليهم، ودارت عليهم، وركب السلطان، وتقدم إلى تل كيسان، ولم يزل الحرب إلى أن جن الظلام، وكف الكفر، وسلم الاسلام، وكانت الدائرة على الكفرة.

قال القاضي: وقتل منهم وجرح خلق عظيم، والسيف يعمل في بقيتهم وهم هاربون حتى وصل المخيم غروب الشمس من ذلك اليوم وهو لا يعتقد سلامة نفسه من شدة خوفه، وقتل من المسلمين في ذلك اليوم اثنان، وجرح جماعة كثيرة.

ومن كتاب إلى بغداد: «قد بلي الاسلام منهم بقوم قد استطابوا الموت، واستجابوا الصوت، وفارقوا المحبوبين الأوطان والأوطار، وهجروا المألوفين الأهل والديار، وركبوا اللجج ووهبوا المهج كل ذلك طاعة لقسيسهم وامتثالاً لأمر مركيسهم وغيرة لمتعبدهم وحمية لمعتقدهم وتهالكا على مقبرتهم، وتحرقاً على قمامتهم، ولايطلبون مع شدة الاملاق مالا، ولايجدون مع كثرة المشاق ملالا، بل يتساقطون على نيران الظبى تساقط الفراش، ويقتحمون الردى متدرّعين الصبر متثبتي الجأش، حتى خرجت النساء من بلادهن متبرزات، وسرن إلى الشام في البحر والبر متجهزات، وكانت منهن ملكة استتبعت خمسائة مقاتل، والتزمت بمؤنتهم فصودف مركبهابقرب الاسكندرية فأخذت برجالها، وأراح الله شر احتفالها، ومنهن ملكة وصلت مع ملك الالمان، وذوات المقانع من الفرنج مقنعات مقارعات، يحملن إلى الطعان الطوارق والقنطاريات، وقد وجد في الوقعات التي جرت عدة منهن بين القتلى، وماعرفن حتى

سلبن، وإن البابا الذي برومية قد حرم عليهم مطاعمهم ومشاربهم، وقال: من لايتوجه إلى القدس مستخلصا فهو عندي محرم، لامنكح له ولامطعم، فلأجل هذا يتهافتون على الورود، ويتهالكون على يومهم الموعود، وقال لهم: إني واصل في الربيع، جامع على الاستنفار شمل الجميع، وإذا نهض هذا الملعون فلا يقعد عنه أحد، ويصل معه بأهله وولده كل من يقول إن لله أهلا وولد، فهذا شرح هؤلاء وتعصبهم في ضلالتهم ولجاجتهم في غوايتهم، بخلاف أهل الاسلام، فإنهم يتضجرون ولايصبرون، بل يتفللون ولايجتمعون، ويتسللون ولايسرجعون وإنها يقيمون ببذل نفقة، وإذا حضروا حضروا بقلوب غير متفقة، ليعلم أن الاسلام من عند الله منصور، وإن الكفر بارادة الله محسور ومدحور.

قال القاضي: ولما عرف ملك الألمان ماجرى على أصحابه من اليزك الذي هو شرذمة من العسكر، رأى أن ينرجع إلى قتال البلد، ويشتغل بمضايقته، فاتخذ من الآلات العجيبة، والصنايع الغريبة، ماهال الناظر إليه وخيف على البلدمنه، فما أحدثه آلة عظيمة تسمى دبابة يدخل تحتها من المقاتلة خلق عظيم، ملبسة بصفائح الحديد، ولها من تحتها عجل تحرك بها من داخل، وفيها المقاتلة حتى ينطح بها السور، ولها رأس عظيم برقبة شديدة من حديد، وهي تسمى كبشا ينطح بها السور بشدة عظيمة فتهدمه بتكرار نطحها، وآلة أخرى وهي قبو فيه رجال تسحب ذلك إلا أن رأسها محدّد على مثال السكة التي يحرث بها، ورأس الكبش ذلك إلا أن رأسها محدّد على مثال السكة التي يحرث بها، ورأس الكبش ومن الستائر والسلالم الكبار الهائلة، واعدّوا في البحر بطسة غائلة، وصنعوا فيها برجا بخرطوم إذا أرادوا قلبه على السور انقلب بالحركات، ويبقى طريقا إلى المكان الذي ينقلب عليه يمشى عليه المقاتلة، وعزموا على تقريبه إلى برج الذبان ليأخذوه به.

قال: ونصب العدّو على البلد منجنيقات هائلة، حاكمة على السور، - 266 -

وتواترت حجارتها حتى أثرت فيه أثرا بينا، وخيف من غائلته فأخذ سههان من الجرخ العظيم، وأحرق نصلاهما حتى بقيا كالشعلة من النار، شهر رميا في المنجنيق الواحد فعلقا فيه، واجتهد العدّو في اطفاء النار، فلم يقدر على ذلك، وهبت ريح شديدة فاشتعل اشتعالا عظيما، واتصلت لهبته بالآخر فأحرقته، واشتدت ناراهما بحيث لم يقدر أحد أن يقرب من مكانهما ليحتال في إطفائهما، وكان يوماً عظيماً اشتد فيه فرح المسلمين، وغم الكافرين».

قال: "ومن نوادر هذه الوقعة ومحاسنها، يعني نوادر ماجرى في القتال على عكا، أن عواما مسلم كان يقال له عيسى، كان يدخل البلد بالكتب والنفقات على وسطه ليلاً على غرة من العدّو، وكان يغوص ويخرج من الجانب الآخر من مراكب العدّو، وكان ذات ليلة شد على وسطه ثلاثة أكياس فيها ألف دينار، وكتبا للعسكر، وعام في البحر فجرى عليه أمر أهلكه، وأبطأ خبره عنا، وكانت عادته إذا دخل البلد طار طائر عرفنا بوصوله، فابطأ الطائر فاستشعر هلاكه، فلما كان بعد أيام بينا الناس على طرف البحر في البلد وإذا البحر قد قذف إليهم ميتا غريقا فافتقدوه فوجدوه عيسى العوام، ووجدوا على وسطه الذهب، ومشمع الكتب، فوجدوه عيسى العوام، ووجدوا على وسطه الذهب، ومشمع الكتب، وكان الذهب نفقة للمجاهدين، فهارؤي من أدّى الأمانة في حال حياته، وقدر الله له أداءها بعد وفاته إلا هذا الرجل، وكان ذلك في العشر وقدر من رجب أيضا».

وقال العماد: فقد —يعني عيسى — ولم يسمع له خبر ولم يظهر له أثر، فظنت به الظنون، وماتيقنت المنون، وكانت له لاشك عند الله منزلة، فلم يرد أن تبقى حاله وهي مجهلة محتملة، فوجد في عكا ميتا قد رماه البحر إلى ساحلها، وبرأه الله مماقالوا، فذهب اليقين من الظنون بباطلها.

#### - ۸۷۳۷ -فصل

# في احراق ماحوصر به برج الذبان وتحريق الكبش

قال القاضي: وفي الثاني والعشريـن من شعبـان، جهز العـدّو لعنه الله بطساً متعددة لمحاصرة برج الذبان، وهو برج وسط مبني على الصخرعلى باب مينا عكا، تحرس منه المينا، ومتى عبره المركب أمن من غائلة العدّو، فأراد العدّو أخذه ليبقى المينا بحكمه ويمنع من دخول شيء من البطس إليه، فتنقطع الميرة عن البلد، فجعلوا على صواري البطس برجاً وملؤوه حطباً ونفطأ على أنهم يسيرون البطس فإذا قاربت برج الذبان ولاصقته أحرقوا البرج اللي على الصاري، وألصقوه ببرج اللبان ليلقوه على سطحه ويقتل مـن عليه من المقاتلـة ويأخذوه، وجعلوا في البطسـة وقوداً على أنهم يدفعونها إلى أن تدخل بين البطس الاسلامية، ثم يلهبونها فتحرق البطس الاسلامية، ويهلك مافيها من المير، وجعلوا في بطسة ثالثة مقاتلة تحت قبو بحيث لايصل إليهم نشاب ولا شيء من آلات السلاح، حتى إذا أحرقوا ماأرادوا إحراقه دخلوا تحت القبو فأمنوا وأحرقوا ماأرادوا إحراقه، وقدموا البطسة نحو البرج المذكور، وكان طمعهم مشتدا حيث كان الهوا مسعدا لهم، فلما أحرقوا البطسة التي أرادوا يحرقون بها بطس المسلمين والبرج الذي أرادوا يحرقون به من على البرج فأوقدوا النار وضربوا فيها النفط فانعكس الهواء عليهم، كما شاء الله تعالى وأراد، واشتعلت البطسة التي كان فيها البرج بـأسرها واجتهدوا في اطفائها فها قدروا وهلك من كان بها من المقاتلة إلا من شاء الله تُعالى، ثم احترقت البطسة التي كانت معدّة لإحراق بطسنا، ووثب أصحابنا عليها فأخذوها إليهم وأما البطسة التي فيها القبو فإنهم انبزعجوا وخمافوا وهموا ببالرجبوع واختلفوا واضطربوا اضطرابا عظيهآ فانقلبت، وهلك جميع من بها لأنهم كانوا في قبو لم يستطيعوا الخروج منها، وكان ذلك من أعظم آيات الله تعالى، وأندر العجائب في نصرة دين الله ولله الحمد، وكان يوما مشهودا.

وقال العهاد: وعند مينا عكا في البحر برج يعرف ببرج الذبان، وهو في حراسة المينا عظيم الشان، وهو منفرد عن البلد محمي بالرجال و العدد، وقصد الأفرنج حصاره قبل مجيء ملك الألمان في الثاني والعشرين من شعبان ببطس كبار جهزوها، ومراكب عظام الآلات أبرزوها، ومكر مكروه، ودبردبروه، وأحد تلك المراكب قد ركب برج فوق صاريه، لايطاوله طود ولا يباريه وقد حشي حشاه بالنفط والحطب، وضيق عطنه بسعة العطب حتى إذا قرب من برج الذبان والتصق بشرافاته أعدى إليه بآفاته، ورميت فيه النار فاحترق واحترق من الأخشاب والستائر مابه التصق، واستولت النار على مواقف المقاتلة فتباعدوا عنها، ولم يقربوا منها، وأوقدت بطسة الحطب التي من ورائها، وعادت على الفرنج منها، وأوقدت بطيهم الحديد فاضطرموا واضطربوا، وانقلبت بهم السفينة فاحترقوا وغرقوا، والناجون منهم فارقوا وفرقوا ولم يغرقوا، واحتمى برج الذبان فلم يطر عليه من بعدها ذباب، ولم يفتح للعدّو في الكيد له باب.

ومن كتاب الى سيف الاسلام باليمن: « ومن حديث هذا البرج أنه يحيط به البحر من جوانبه، وهو قفل مينا الثغر على مراكبه، وقد رفعناه وأعليناه، وبالعدد والرجال قويناه فعمدوا إلى أكبر بطسة واتخذوا فيها مصقالا كأنه سلم، وهو في مقدمها مركب مقدم، وقد جعلوها بحيث إذا قرب إلى البرج ركب رأس السلم على شراريفه، وصعد الرجال إليه في تجاويفه، وتعبوا في ذلك أياما، وأشبعوه توثيقا واحكاما، حتى إذا التصق بالبرج التصقت به قوارير النفط، وتوالت امطار البلايا من الجروخ والمنجنيقات على أولئك الرهط، ثم عمل الفرنج برجاً عاليا في أكبر مركب وحشوه بالحطب، وعملوا على رأس صاريه مكاناً يقعد فيه الزراق، وقدموه إلى برج الذبان، وسلطوا على جوانبه النيران، فأهب الله الزراق، وقدموه إلى برج الذبان، وسلطوا على جوانبه النيران، فأهب الله

من مهب لطفه نكباء نكبت النار عن البرج المحروس، وكبت الفرنج على الوجوه والرؤوس.

قال القاضي: وفي ثالث رمضان زحف العدّو على البلد في خلق لايحصى فأهملهم أهل البلد حتى نشبت مخالب اطماعهم فيه، وسحبوا آلاتهم المذكورة حتى قاربوا ان يلصقوها بالسور، وتحصل منهم في الخند ف جماعة عظيمة، فأطلقوا عليهم الجروخ والمجانيق والسهام والنيران، وصاحوا صيحة الرجل الواحد، وفتحوا الأبواب وهجموا على العدّو من كل جانب، وكبسوهم في الخنادق فهربوا ووقع السيف فيمن بقي في الخندق منهم، ثم هجموا على كبشهم فألقوا فيه الناروالنفط، وتمكنوا من حريقه لهرب المقاتلة عنه فأحرق حريقاً شنيعاً، وظهرت له لهبة نحو السهاء، وارتفعت الأصوات بالتكبير والتهليل والشكر، وسرت نار الكبش بقوتها إلى السفود فاحترق، وعلق المسلمون في الكبش الكلاليب الحديد المصنوعة في الاسل (٩٦) فسحبوه وهو يشتعل حتى حصلوه عندهم في البلد، وكان مركبا من آلات هائلة عظيمة، وألقي الماء عليه حتى برد حديده بعد أيام، وبلغنا من البلد أنه وزن ماكان عليه من الحديد، فكان مائة قنطار بالشامي، والقنطار مائة رطل، ولقد أنفذ رأسه إلى السلطان ومثل بين يديه وشاهدته وقلبته وشكله على مثال السفود الذي يكون بحجر المدار، قيل إنه ينطح به السور فيهدم ما يلاقيه، وكان ذلك من أحسن أيام الاسلام، ووقع على العدّو خذلان عظيم، ورفعوا ماسلم وآلاتهم، وسكنت حركاتهم التي ضيقوا فيها نفقاتهم، وقال العماد: واستأنف الفرنج عمل دبابة هائلة، وآلة للغوائل غائلة، في رأسها شكل عظيم، يقال له الكبش، وله قرنان في طول رمحين كالعمودين الغليظين، وهذه الدبابة في هيئة الخربشت (٩٧) الكبير، وقد سقفوها مع كبشها بأعمدة الحديد، ولبسوا رأس الكبش بعد الحديد بالنحاس، فلم يبق للنار إليها سبيل، ولا للعطب عليها دليل، وملؤوها

بالكهاة والرماة وسحبوها وقربوها فجاءت صورة مزعجة، وبلي البلد منها بالبلاء الأفظع، وقالوا: مافي دفعها حيلة ولا مطمع ونصبوا على صوبها مجانيق، ورموا بالحجارة الثقيلة ذلك النيق، فأبعدت رجالها من حواليها ثم رموها بحزم الحطب حتى أحرقوا مابين القرنين، وقذفوها بالنار فباتوا يطفئونها بالخل والخمر وقد تمكنت النار من أضلاعها، ثم خسفها المنجنيق وخرج من بالثغر فقطعوا رأس الكبش، واستخرجوا ماتحت الرماد من العدد بالنبش، وقدر مانهب من الحديد بهائة قنطار، وعلم الفرنج أن أعهاهم حبطت، وآماهم هبطت، وكان ذلك في ثالث عشر رمضان، وفيه قدم الظاهر صاحب حلب والأمجد صاحب بعلبك، وسابق الدين عثمان صاحب شيزر، وعزالدين بن المقدم والامير حسام الدين حسين بن باريك، وجماعة من الأمراء والخواص والمهاليك.

#### فصل

# في حوادث أخر متفرقات

قال العهاد: ووصل الخبر في سادس عشر رمضان من حلب أن صاحب أنطاحية أغار على غرة بشر وشره، فرتب أصحابنا له كمينا، ثم خرجوا عليه شهالا ويمينا، فقتلوا أكثر رجاله وأفلت وباله في وباله.

قال القاضي: خرج عليه نواب الملك الظاهر، فقتل من عسكره خمسون نفراً وأسر منهم خلق عظيم واستعصم بنفسه في موضع يسمى شيح حتى اندفعوا وسار إلى بلده.

قال: وفي أثناء العشر الأوسط ألقت الريح بطستين، فيهما رجال وصبيان ونساء وميرة عظيمة وغنم كثيرة قاصدين نحو العدّو، فغنمها المسلمون، وكان العدّو قد ظفر لنا ببركوس فيه رجال أراد الدخول إلى البلد فأخذه، فوقع الظفر بهاتين البطستين ماحياً لذلك وجابراً له.

قال العياد: وفي هذا التاريخ ألقت الريح إلى ساحل زيب بطستين خرجتا من عكا بجاعة من الرجال والصبيان والنساء، وفيها امرأة محتشمة غنية محترمة، فأخذتا وأخذوا وأخذت، وجد الفرنج في استنقاذها في استنقذت.

قال: وفي تاسع عشر الشهر رحلنا إلى منزلة تعرف بشفرعم، وسببه أنه كثر المستأمنون من الفرنج وأخبروا أنهم في عزم الخروج الى المرج هائجين إلى الثأر، ثائرين إلى الهيجاء فاستشار السلطان أمراءه فقالوا: الصواب أن نفسح لهم عن هذه المروج، حتى يكون دخولهم إليها يوم الخروج، فنصبحهم في اليوم الآخر ولا يتعذر بهم احداق العساكر، فخيمنا هناك ورحبت المنازل وعذبت المناهل، وعادت معالم تلك المجاهل، وحللنا

التلال والآكام، وركنزنا بتلك الأعلام الأعلام، ونزلنا لمقام الشتا مستعدين، ولأسباب التوقى من الأمطار مستنجدين.

قال: ومرض زين الدين صاحب إربل في شهر رمضان، وتوفي في الثامن والعشرين منه.

قال القاضي: وكبان استأذن في الرواح فلم يؤذن له، فأستأذن في الانتقال إلى الناصرة فاذن له، فأقام بها أياما يمرض نفسه، ثم توفي وعنده أخوه مظفر الدين يشاهده، وحزن الناس عليه لمكان شبابه وغربته.

قال العماد: وكان كمريهاً أريحياً، جواداً سخيا، وبكرنا إلى مظفر الدين نعزيه في أخيه، وظننا به الحزن فقلنا نعظه ونسليه، فإذا هو في شغل شاغل عن العزاء، مهتم بالاحتياط على ماخلفه أخوه وتركه من الأشياع والأشياء، وهو جالس في مخيم أخيه المتوفى، وقد أشرف على حفظه وأوفى، وقد قبض على جماعة من أمرائه واعتقلهم، وعجل عليهم وما أغفلهم، منهم: صارم الدين بن بلداجي متولي خفيتان (٩٨)، كان ليتسلم منه المكان، وكذلك كل حاضر له حصن ليحصل له من طاعته أمن، وخاطب في اسباب ولاية إربل وأعمالها، وأن يستقل ببلادها وأموالها ، ورغب في شهرزور واستضافتها لاستنارة وجاهته بها واستفاضتها، وأنه ينزل على حران والرها وسميساط والموزر، ويجعل كل مافي يده من الأعمال في الموفر، ويخدم بخمسين ألف دينار، يحضرها نقدا، ويلتزم بها على الميثاق عقداً، فاجيبت رغبته، وأصيبت طلبته، وعقد لواؤه، ونجح رجاؤه، وأراد سرعة الرحيل، فاستمهل إلى حين وصول الملك المظفر تقي الدين لينزل في منزلته بجنده وصحبه الميامين، فوصل يوم الأحد ثالث شوال وأضيف إليه مااستعيد من مظفر الدين من الأعمال، وكتب منشور إربل، وكتاب إلى صاحب الموصل فيه: « لاشك في إحاطة العلم بانتقال زين الدين إلى جوار الله ومقر رحمته، مجاهداً في سبيله، شاكراً لنعمته، وهو من السعداء الذين أنزل الله تعالى فيهم: (ومن يخرج من بيته مهاجراإلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله) (٩٩) في أفجع القلوب بمصابه، وما أنكى في النفوس أفول شبابه، ولقد كانت الهمة متوفرة على تربيته واعلاء درجته، ولكن الله تعالى استأثر به قبل ظهور حسن الآثار في ايثاره، وبلي بدره التم بسراره، وأصبح في ضمير البلى من أسراره، وهذه إربل من انعام البيت الكريم الأتابكي على البيت الزيني مذ سبعين عاما، لم يحلوا لعقد انعامهم بها نظاماً، ولم يزيدوا أحكامه إلا احكاما وإبراما، ومارأى أن يخرج هذا الموضع منهم، وأن يصدف به عنهم، والأمير الأجل مظفر الدين كبير البيت وحاميه، والمقدم في الولاية بمقتضى وصية أبيه، وقد أنهض ليسد مسد أخيه».

قال: وكان الملك المظفر تقي الدين متوليا منذ سنين أعمال ميافارقين،

فطلب من عمه تفويض كل ماوراء الفرات إليه والاعتماد فيه عليه، فأنعم عليه بذلك فأقام عندنا بالمنزلة المظفرية إلى أن يؤذن له في المضي إلى تلك الولاية، وسير نوابه إليها لابقاء رعاياها على شيمة الرعاية.

قال: ولما أحس العسكر الشرقي بالشتاء أبدوا خلق السآمة، وضجروا من الاقامة، وأماعاد الدين صاحب سنجار فإنه عرف كراهية السلطان لفراقه، فلم يجر إلا على وفاقه، وأما صاحب الجزيرة سنجر شاه، فإنه استطال المقام وأباه، ودخل يوم عيد الفطر على السلطان فقبل يده وودعه من غير سابقة الاستئذان، فأغضبه انفصاله، وساءه ارتحاله، وكان تقي الدين واصلاً فلقي صاحب الجزيرة عنا فاصلا، فرده عن طريقه، وجد في تعويقه، ورجع به إلى الرضى، وعفا الله عما مضى.

قال القاضي: ترددت رسله ورقاعه إلى السلطان في طلب الدستور، والسلطان يعتذر بأن رسل العدّو متكررة في معنى الصلح ولا يجوز أن - 274 -

تنفض العساكر حتى يتبين على ماذا ينفصل الحال من سلم أو حرب، فلما كان يوم عيد الفطر دخل على السلطان وهو ملتاث الجسم وقبل يده وخرج وسار من ساعته، وتبعه أصحابه، فلما بلغ السلطان صنيعه كتب إليه: « إنك أنت قصدت الإنتاء إلى في الابتداء فبسطت يدك وراجعتني في ذلك مراراً، وأظهرت الخيفة على نفسك وبلدك من أهلك، فقبلتك وآويتك ونصرتك، فبسطت يدك في أموال الناس ودمائهم وأعراضهم، فنفذت إليك ونهيتك عن ذلك مراراً فلم تنته، فاتفق وقوع هذه الواقعة للإسلام، فدعوناك فأتيت بعسكر قد عرفته وعرفه الناس، وأقمت هذه المديدة وقلقت هذا القلق، وتحركت بهذه الحركة، وانصرفت عن غير طيب نفس وعن غير فصل حال مع العدّو، فانظر لنفسك وأبصر من تنتمي إليه غيري، واحفظ نفسك تمن يقصدك فما بقى لي إلى جانبك التفات»، وسلم الكتاب إلى نجاب فلحقه قريبا من طبرية فقرأ الكتاب، ولم يلتفت وسار، فلقيه تقي الدين عند عقبة فيق فأخبره بأمره وتعتب على السلطان كيف لم يخلع عليه، ولم يأذن له في الرواح، ففهم تقى الدين انفصاله عن غير دستور من السلطان فأمره بالرجوع وقال: أنتُ صبى ولاتعلم غائلة هذا الأمر، فقال: مايمكنني الرجوع، فقال: ترجع من كل بد من غير اختيارك، وكان تقي الدين شديد البأس مقداماً على الأمور ليس في عينه من أحد شيء، فلما علم أنه قابضه إن لم يرجع رجع معه، وسأل السلطان الصفح عنه ففعل، وطلب أن يقيم في جوار تقى الدين خشية على نفسه فأذن له فأقام في جواره إلى حين ذهابه.

وقال العماد في الفتح: وطال على الملك عماد الدين صاحب سنجار المقام، وجد في الاستئذان في الرحيل منه الاهتمام، وتقرر ملاله، وتكرر سؤاله، فكتب إليه السلطان:

مـــن ضــاع مثلی مــن یــدیــه فلیــت شعــري مــااستفـادا

## فلما قرأ هذا البيت ما راوح في الخطاب ولا غادى

وقال في البرق: وفي مستهل ذي القعدة أذن لعلاء الدين خرم شاه ابن صاحب الموصل، ونعت بالملك السعيد لما تفرس فيه من أمارات السعد، وأقام بعده عمه عهاد الدين وابن عمه معز الدين سنجرشاه وهما صاحبا سنجار والجزيرة، وحبوا بالحباء الوافر والعطايا الغزيرة، ومافارقا إلا في السنة الأخرى في ثالث صفر.

قال: وغلت الأسعار عند الفرنج حتى بلغت الغرارة أكثر من مائة دينار، والسعر من الزيادة لديهم في استعار، وبلوا بأمور صعبة، وهرب إلينا منهم عصبة بعد عصبة، فاستأمنوا إلينا لفرط جوعهم جميعهم، ولما شبعوا عندنا لم يرغبوا في رجوعهم، فمنهم من أسلم فحسن إسلامه، ومنهم من خدم فوافق استخدامه، ومنهم من حن إلى إلفه، فرجع القهقرى إلى خلفه.

#### فصل

كان القاضي الفاضل رحمه الله تعالى في هذه الأوقات بالديار المصرية يرتب للسلطان أموره من تجهيز العساكر، وتعمير الاسطول، وحمل المال، ونقل المير إلى عكا، والسلطان يكاتبه في مهاته، وترجع اجوبته بأحسن عباراته، مشيرا وناصحا ومسليا، وباحثا عن مصالح الاسلام متقصيا، فمن بعض كتبه: « المملوك ينهى أن الله تعالى لاينال ماعنده إلا بطاعته، ولاتفرج الشدائد إلا بالرجوع إليه والامتثال لأمر شريعته، والمعاصي في كل مكان باديه، والمظالم في كل موضع فاشيه، وقد طلع إلى الله تعالى منها مالا يتوقع بعدها إلا مايستعاذ منه، وقد أجرى الله تعالى على يد مولانا من فتح البيت المقدس ما يكون بمشيئة الله له حجة في رضاه، ونعوذ بالله أن يكون حجة عليه في غضبه، بلغ المملوك من كل وارد منه مكاتبه ومخاطبة بأنه على صفة تقشعر منها الاجساد، وتتصدع بذكرها الأكباد، والمملوك لايتعرض لتفصيل مابلغه من ظهور المنكرات في أتباعمه، وشيوع المظالم في ضياعه وخراب البلد وعدم القدرة على المرمة لقبة الصخرة والمسجد الأقصى، وبالغفلة عن مرمتهم وتفقدهما في أشتيه القدس العظيمة الجليلة المثلجة لايؤمن سقوطها، وافتضاح القدرة في العجز عن اعادتهما، والمرمة أقرب تناولاً من الانشاء والتجديد، ولا شبهه أن مولانا عز نصره في اشغال شاغلة وأمور متشددة، وقضايا غير واحدة ولا متعددة، ولكن قد ابتلي الناس فصبروا، وأضجرتهم الايام فها ضجروا، وأي عبادة أعظم من عبادته التي قام بها والناس عنها قعود، وصبر في طلب جنتها على ناري الحرب والوقت ذواتي الوقود، غير أن مولانا إذا ذكر نصيبه من الإقدام، فلا ينسى نصيبه من الحزم ولا يعجل في الامور الخطيرة، ولايقدم بالعدد القليل على العدة الكثيرة، فالمولى إذا أقبل كان واحدا، وإذا أدبر كان مقومًا بجميع الخلق، ولايطمع بأن يقوم به الألف، وليذكر المولى نوبة الرملة التي كآن وقوعها من الله سبحانه أدباً لاغضباً وتوفيقا لا اتفاقا، ولا يكره المولى أن تطول مدة الإبتلاء بهذا العدّو، فشوابه يطول وحسناته تزيد، وأثره في الاسلام يبقى، وفتوحاته بمشئية الله يعظم موقعها، ( والعاقبة للتقوى) (١٠٠) ( ولينصرن الله من ينصره) (١٠٠) والله تعالى يشكر لمولانا جهاده بيده، وبرأيه وبولده، وبخاصته، وبعامة جنده، وبالأعداء في أعدائه كجهاده بصاحب صيدا في الفرنج، فهو جهاد قد أربى فيه رأي المولى فرجح والحديد يفلح، وأكيد ماقوبل به العدّو سلاحه، وأسرع جناح طار لقنصه جناحه، ودولة مولانا كالبحر كرما وظهور عجائب، وكالسماء مطرا وأسنة كواكب».

ومن كتاب آخر: « المملوك يقبل الأرض بين يدي مولانا الملك الناصر، لطف الله بقلبه، وحمل عنه، وروّح سره، ووصل الراحة به، ونسأل أن يرحمه لنا الـذي رحمنا به، فقد بلغت منا الحناجر القلـوب، وقد وقفت في طرقنا الذنوب، وبينها نحن ننتظر من كتب المولى مايستـدل به على أن قلب المولى قد طاب، وقصد العدّو قد خاب، إذ ترد كتب يكون الوقوف عليها قاطعا لـ الكباد مفتتا للقلوب ولو أنها جماد»، ثم ذكر البطس الذي تقدم ذكرها الواصلة إلى عكا ليلة نصف شعبان فقال: « وبينا نحن نعتقد أن البطس في عكا، وصل الخبر بأنها في دمياط، ويـوم وصل الخبر بانها في دمياط نحن على انتظار خروجها منه، وكتب البطائق بالاستحثاث والاستعجال، وتحذيرهم من تمادي المقام وماتيقنا أخرجت أم هي بـاقية، كأن الـريح في بيت ماخـرجت منه مـن هاتين الجمعتين، ولها من تاريخ خروجها من الاسكندرية وإلى تاريخ تسطير هذه الخدمة خسة عشر يوما والعيون ممدودة، والأيدي مرفوعة بأن يفرج الله عنا وعنكم بـوصولها، فمن شبع في هـذه الأيام فها واسى المسلمين، ومـن نام ملء عينه، فما هـ و مـن أخـوة المؤمنين، والمملوك شفيـق على البطـس في وقت الدخول حذر أن يعترض العدّو طريقها، فيحول بينها وبين الوصول، فينكس المراد بها، ويحدث من المضرة بحرمانها أضعاف

مايحدث من النعمة بالفرج المسير فيها، وآكد هذه الحال في نفس المملوك وقوفه على كتب أصحابنا من عكا، وقد وقع لهم هذا الواقع الذي وقع للمملوك من خوفهم عليها، واستبعادهم دخولها ،فالمملوك وكل من يعرف الأمر إلا كأهل الصراط، رب سلم رب سلم، فنسأل الله سبحانه أن لايكلنا إلى أنفسنا فنعجز، ولا إلى الناس فنضيع، ومجهود أهل الأرض قد انتهى وبقي مايفعله الله، والخير منتظر منه، والفرج بالقوت قد سير في البحر من خمسة عشر يوما، والفرج بالنفقة قد سير في البر من عشرة أيام، والله يامولانا ما تنجز شيء من هذه الأمور إلا بأن تضرب الوجوه بالشوك، وتستحلب الحجارة وينبه النوام، وتبح الأصوات من التذكار، وتحفى الأقلام من الكتابة، ويخضع لمن يلزمه الشغل من التذكار، وتحفى الأقلام من الكتابة، ويخضع لمن يلزمه الشغل كالخضوع لمن لايلزمه، والله المستعان، فليخلص المولى نيته في الاستعانة، والأعوان قليل.

وقد د کسانوااذاعد واقلیلا فقد صاروا أقسل من القليل »

ومن كتاب آخر: « وماتجدد للعدّو من الشروع في آلات الحصار لعكا، وماأرجف به من النجدتين الفرنجيتين الواصلة والبعيدة وافتراق العساكرفي هذا الوقت للضرورة، والتهاس العسكر الشرقي الدستور للضجر، وحاجة المولى من الانفاق إلى مالايسعه التدبير، ويضيق عنه الامكان، ومطالبة الغني بالمزيادة مع الغنى والضعيف بأكثر مما يحتاج إليه وضياع فرصة، واختلاف رأي بين المتشاور من الجهاعة، وجود الألسنة بالآراء، وبخل الأيدي بالمعونة، وانفراد المولى بالتعب، واشتراك الناس في الراحة، وماابتلي به المسلمون من مرض أظهروه ليكون لهم عذراً في الععود، وكتمه على نفسه لئلا يجلب لأصحابنا ضعف النفوس، عذراً في الععود، وكتمه على نفسه لئلا يجلب لأصحابنا ضعف النفوس، فهذه الأمور وإن كانت شدائد، وزائدات على العوائد، فقد ألهم الله مولانا فيها سعة الصدر، وحسن الصبر، ليشعره أن صبره يعقبه النصر، وحسبته يعقبها الأجر، ولو لم يعرف المملوك غير الله ينصرها، وغير مولانا وحسبته يعقبها الأجر، ولو لم يعرف المملوك غير الله ينصرها، وغير مولانا

يباشر النصرة ويحضرها، فليس إلا التجرد للدعاء، والتجلد للقضاء، فلا بد من قدر مفعول، ودعاء مقبول، ومن الامثال المنظومة:

نحسن السذيسن إذا علسوالم يبطسروا يسوم الهيساج وإن علسوالم يضجسروا

ومعاذ الله أن يفتح علينا البلاد ثم يغلقها، وأن يسلم على يديناالقدس ثم ينصره، ثم معاذ الله أن نغلب على النصر، ثم معاذ الله أن نغلب على النصر، ثم معاذ الله أن نغلب على الصبر، وإذا كان ماتقدم الله اليه الماليك قبل المولى لابدمنه وهو لقاء الله سبحانه فلأن نلقاه والحجة لنا، خير من أن نلقاه والحجة علينا، فلا تعظم هذه الفتوق على مولانا فتبهر بصره، وتملأ صدره (فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الاعلون والله معكم) (١٠٢) وهذا على دين ماغلب بكثره، ولانصر بثروه، إنها اختار الله تعالى له أرباب نيات وذوي قلوب معه وحالات، فليكن المولى نعم الخلف لذلك السلف، (لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة) (١٠٣)، وإشتذي أزمة تنفرجي، والغمرات لكم في رسول الله اسعة على يسمع الأذن مايسر القلب، ويصرف عن الاسلام وأهله غاشية هذا الكرب، ونستغفر الله العظيم، فإنه ماابتلى إلا بذنب».

ومن كتاب آخر: "يامولانا اعلم أن الله تعالى قد فعل لك مافعله لنفسه، ودل على لطفه بك كها دل على قدرته، فإنه تعالى خلق من غير مادّة، وأقام السهاء بغير عمد وكذلك فعل الله بك خلقك بغير شبيه في الملوك: كرماً ، وديناً، وسهل لك من مصر مالاً من غير جهة، وهمى منها بلاداً بغير جند، وسكن رعية بغير ولاة فاشكر الله، ولاتحتقر خدمة من بييع الأنفاس، والنوم والراحة اجتهاداً فيها يريحك، ويخفف عنك شم يبيع الأنفاس، والنوم والراحة اجتهاداً فيها يريحك، ويخفف عنك شم والوجوه التي وقعت الاشارة إليهاخضنا فيها وفي غيرها فها وجدنا أكثر مما بلغنا إليه، يامولانا ليس لك في مصر إلا الثغور، وماعملت في هذه السنة بلغنا إليه، يامولانا ليس لك في مصر إلا الثغور، وماعملت في هذه السنة

إلا بقدر ثمن حمال ماسير اليك من الأساطيل إن الله آخذ بيد الكريم، والمعونة بحسب المؤونة فليهن المولى العافية من الحساب، فشتان: مابين حساب من كنز الذهب والفضة ولم ينفقها في سبيل الله، وحسااب من قال بيده هكذا وهكذا في سبيل الله» ومن كتاب آخر« وما في نفس الملوك شائبة إلا بقية هذا الضعف الذي بحسم مولانا، فإنه بقلوبنا، ونفديه بأسماعنا وأبصارنا.

بنامعشر الخدام منابك من أذى وحدي المناقسول فبي وحدي»

ومن كتاب آخر: «إنها أتينا من قبل أنفسنا، ولو صدقناه لعجل لنا عواقب صدقنا، ولوأطعناه لما عاقبنا بعدونا، ولو فعلنا مانقدر عليه من أمره، لفعل لنا مالانقدر عليه إلا به فلا يستخصم أحد إلاعمله ولا يلم إلانفسه، ولا يحرج إلاربه، ولا ينتظر العساكر أن تكثر، ولا الأصول أن تحصر، ولا فلان الذي يعتقد عليه أن يقاتل، ولا فلان الذي ينتظر أنه يسير، فكل هذه مشاغل عن الله ليس النصر بها، ولانأمن أن يكلنا الله إليها والنصربه، واللطف منه، والعادة الجميلة له، ونستغفر الله سبحانه من ذنوبنا فلولا أنها مسد طريق دعاننا لكان جواب دعائنا قد نزل، وفيض دموع الخاشعين قد غسل، ولكن في الطريق عائق، خار الله لمولانا في القضاء السابق واللاحق».

وفي كتاب آخر وصف فيه الملك العزيز عثمان بن السلطان ثم قال: «ولو شاهد مولانا اليوم شخصه الكريم، وصورته الجميلة، ونفسه الطاهرة، ونظرته المطرقة، وصفحته الحييه، وسكون حركاته الموزونة، لخلع عليه فؤاده، ووهبه عينه ورقاده، ولقد يرد المولى عرصات القيامة وثواب فراقه له لوجه الله أعظم من ثواب جهاده في سبيل الله، وإن إيهانا صبره عن ذلك الملك العظيم».

ومن كتاب آخـر: «وعسكرنا لايشكو والحمد لله منـه خوراً، وإنها يشكو منه ضجراً، والقوى البشرية لابد أن يكون لها حد، والاقدار الالهية لها قصد، وكل ذي قصد خادم قصدها، وواقف عند حدها، وإنها يذكر المملوك هذا ليرفع المولى من خاطره مقت المتقاعس من رجاله، كما يثبت فيه شكر المسارع من أبطاله قال الله تعالى: ( فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر) (١٠٤) يامولانا أليس الله تعالى اطلع على قلوب أهل الأرض فلم يـؤهـل، ولم يستصلح، ولم يختر ولم يسهـل، ولم يستعمـل ولم يستخدم في إقامة دينه وإعلاء كلمتة وتمهيد سلطانه، وحماية شعاره وحفظ قبلة موحديه إلا أنت، هذا وفي الأرض من هو للنبوة قرابه، ومن له المملكة وراثة، ومن له في المال كثرة، ومن له في العدد كثرة، فأقعدهم وأقامك، وكسلهم ونشطك، وقبضهم وبسطك، وحبب الدنيا إليهم، وبغضها إليك، وصعبها عليهم وهونها عليك، وأمسك أيديهم، وأطلق يدك، وأغمد سيوفهم وجرد سيفك، وأشقاهم وأنعم عليك، وتبطهم وسيرك، ولو أرادوا الخروج لأعدّوا له عدة ( ولكن كره الله انبعائهم فشبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين) (١٠٥) نعم و أخرى أهم من الأولى انه لما أجتمعت كلمة الكفر من أقطار الأرض، وأطراف الدنيا، ومغرب الشمس ومنزخر البحر ماتأخر منهم متأخر، ولا استبعد المسافة بينك وبينهم مستبعد، وخرجوا من ذات أنفسهم الخبيثة لاأموال تنفق فيهم، ولا ملوك تحكم عليهم، ولاعصا تسوقهم، ولاسيف يـزعجهم ( مهطعين إلى الداع) (١٠٦) ساعين في أثسر الساعي (وهسم من كل حدب ينسلون (١٠٧٦) ومن كل بر وبحر يقبلون، كنت يامولانا كها قال أبقاك الله: ولست بملك هسازم لنظيره

ولكنك الاسلام للشرك هازم

هذا: وليس لك من المسلمين كافة مساعدة، إلا بدعوة، ولا محاهد معك إلا بلسانه، ولا خارج بين يديك إلا بالاجرة، ولا قانع منك إلا بزيادة تشترى منهم الخطوات شبرا بذراع،

وذراعا بباع، تدعوهم إلى الله وكأنها تدعوهم إلى نفسك، وتسألهم الفريضة وكأنك تكلفهم النافلة، وتعرض عليهم الجنة، وكأنك تريد أن تستأثر بها دونهم، والآراء تختلف بحضرتك، والمشورات تتنوع بمجلسك، فقائل: لم لانتباعد عن المنزلة، وآخر لم لانميل إلى المصالحة، ومتندم على فائت ماكان فيه حظ، ومشير لمستقبل مايلوح فيه رشد، ومشير بالتخلي عن عكا حتى كأن تركها تغليق المعاملة، وماكأنها طليعة الجيش، ولا قفل الدار، ولاخرزة السلك، إن وهت تداعى السلك وأنبت في يد الملك، فألهمك الله قتل الكافر، وخلاف المخذل، والتجلد وتحت قدمك الجمر، وأفرشك الطمأنينة وتحت جنبك الوعر.

ولک ن مولان اصفیح قوجه و جهد کضو استا می المتنور کضو استا کند و المال التشک و المال التشک و المال التشک و المال کثیر الموی شتی النوی و المسال الله کثیر الموی شتی النوی و المسال الله کثیر الموی شتی النوی و المسال ک

ولا شبهة أن المملوك قد أطال، ولكن قد اتسع المجال، ومامراده إلا أن يشكر الله على ما اختاره له ويسر عليه، وحببه إليه فرب ممتحن بنعمة، ورب منعم عليه بمشقة، وكم مغبوط بنعمة هى داؤه، ومرحوم من بلوى هي دواؤه، ويريد المملوك بهذا أن لايتغير لمولانا أبقاه الله وجه عن بشاشه، ولاصدر عن سعة، ولالسان عن حسنه، ولا ترى منه ضجره، ولا تسمع منه نهره، فالشدة تذهب ويبقى ذكرها، والأزمة تنفرج ويبقى أجرها، وكما لم يحدث استمرار النعم لمولانا عز نصره بطرا، فلا حدث له ساعات الامتحان ضجرا، والمملوك يستحسن بيتي حاتم، ومولانا أبقاه الله وخلد سلطانه وملكه يحفظها:

شربنابكاس الفقريوماوبالغنى وماريدوماوبالغنى وماريدوماوبالغنى وماريدهالاسقانياب وماريدها السقانيا الفقر (١٠٨)

والمملوك يسمع بأن مولانا عز نصره على ما يعهده من سعة صدره، أسر منه بها يسمعه من بشائر نصره وياليتني كنت معهم، وماذا كانت تصنع الأيام إما شيبا من مشاهدة الحروب، فقد شبنا والله من سهاع الأخبار، أوغرما يمكن خلفه من الوفر، فقد غرمنا في بعد مولانا مالاخلف له من العمر، أومرض جسم فخيره ماكان الطبيب حاضره، ولقد مرضنا أشد المرض لفراقه، إلا إن التجلد ساتره».

ومن كتاب آخر: « المملوك يوصي المولى بالإسلام، والإسلام هو قلب المولى فيروّحه ولايحمله ويشغله بها يتْقله، ويوصى المولى بقلوب المسلمين، وقلوب المسلمين جسم مولانا أبقاه الله من علم أنه لاتوفيه رواتب الحياة اشتغل قلبه، واستطار لبه، وضعفت نفسه، فيحسب المولى من جهاده تفقد جسمه، وآلات مطعمه، وترويح خطراته، فقد بلغ من حمله على نفسه ما يخشى على مولانا الإثم فيه، وأنها نتجشم كل مشقة لتسلم منه، ونحن في ضرّ قد مسنا، ولا نرجو لكشف إلا من ابتلى به، وفي طوفان فتنه، (ولاعاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم ) (١٠٩) ولنا ذُنوب قد سدّت طريق دعائنا، فنحن أولى بأن نلوم أنفسنا، ولله قدر السلاح لنا في دفعه إلا أن نقول: لاحول ولا قوة إلا بالله، وقد أشرفنا على أهوال ( قل الله ينجيكم منها ومن كل كسرب) (١١٠٠) وقد جمع العدّو لنا، وقيل لنا اخشوه فقلنا ( حسبنا الله ونعم الوكيل) (١١١) متنجزين بذلك موعود الانقلاب بنعمة من الله وفضل فما نرجو إلا ذلك الفضل العظيم، وليس لنا إلا الاستعانة بالله في دلنا الله في الشدائد إلا على الدعاء له،وعلى طروق باب كرمه، وعلى التضرع إليه ( فلولا اذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم) (١١٢) ونعوذ بالله من القسوة، ومن القنوط من الرحمة، ومن اليأس من الفرج، فانه لاييأس منه إلا مسلوب الرشد، مطرود عن الله مقطوع الحظ منه، ولاحيلة إلا بترك الحيلة، بل قصد من تمضى أقداره بـ لا حيلة، سبحانه وتعالى إن علم الله من جند مولانا أنهم قد بذلوا المجهود، فقد عدرهم فيعدرهم المولى، وإن علم أنهم قد ذخروا قوة وقصروا في نصرة كلمة الله، فيكفيهم مقت الله، والمملوك يذكر المولى بصبره، وبرحب صدره، وبفضل خلقه وبتقواه لربه، وبمداراة مزاجه وببر القلوب الإسلامية وببر جسمه، (وإن كان كبر عليك اعراضهم) الآية إلى (ولو شاء الله لجمعهم على الهدى) (١١٣) والمولى أولى بهذا البيت

قيل للملهب: أيسرك ظفر ليس فيه تعب؟ فقال: أكره العجز، ولابد أن تنفذ مشيئة الله في خلقه، لاراد لحكمه، فلا يتسخط مولانا بشيء من قدره، فلأن يجري القضاء وهو راض مأجور خير من أن يجري وهو ساخط موزور، فيصطلي نار الشدة أعاده الله منها، ولايحجد راحة الثواب، وفر الله حظه منه، ومن شكا بثه وحزنه إلى الله شكا إلى مشتكى، واستغاث بقادر، ومن دعا ربه دعاء خفيا استجاب له استجابة ظاهرة، فلتكن شكوى مولانا إلى الله خفية عنا، ولايقطع الظهور التي لاتشتد إلا به، ولايضيق صدور الا تنفرج إلا منه، وماشرد الكرى، وأطال على الأفكار ليل السرى إلاضائقة القوت بعكا، ولم يبق إلا ضعف نعم المعين عليه ترويح النفس واعفاؤها من الفكرة، فقد علم مولانا المباشرة أنه لايدبر الدهر إلا رب الدهر، ولاينفذ الأمر إلا مساحب الأمر، وأنه لايقل الهم إن كثر الفكر.

قد فلت للرجل المقسم أمره فسوض اليسه تنسم قسريسر العين

وكل مقترح يجاب اليه إلا ثغراً يصير نصرانيا بعد أن أسلم، أوبلدا يخرس فيه المنبر بعد أن تكلم، يامولانا هذه الليالي التي رابطت فيها والناس كارهون، وسهرت فيها والعيون هاجعة، وهذه الأيام التي ينادى

فيها: ياخيل الله اركبي، وهذه الساعات التي تزرع الشيب في الرؤوس، وهذه الغمرات التي تنقبض فيها الصدور بمائها بل بنارها هي نعمة الله عليك، وغراسك في الجنة، ومحملات محضرك (يوم تجد كلُّ نفس ماعملت من خير محضراً) (١١٤) وهي مجوّزاتك على الصراط، وهي مثقلات الميزان، وهي درجات الرضوان، فاشكر الله عليها كما تشكره على الفتوحات الجليلة، واعلم أن مثوبة الصبر فوق مثوبة الشكر، ومن ربط جأش أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه قوله: لو كان الصبر والشكر بعيرين ماباليت أيها ركبت، وجذه العزائم سبقونا وتركونا لانطمع في اللحاق بالغبار، وامتدت خطاهم ونعوذ بالله من العثار، مااستعمل الله في القيام بالحق إلاّ خير الخلق، وقد عرف ماجري في سير الأوَّلين وفي أنباء النبيين، وإن الله تعالى حـرض نبيــه ﷺعلى أن يهتدي بهداهم، ويسلك سبيلهم، ويقتدي بأولي العزم منهم، وماتغلو الجنة بثمن، وما ابتلى الله سبحانه من عباده إلاّ من يعلم أنه يصبر، وأمور الدنيا ينسخ بعضها بعضا، وكان ماقد كان لم يكن ويذهب التعب ويبقى الأجر، وإنها يقظات العين كالحلم، وأهم الوصايا أن لايحمل المولى هما يضعف به جسمه، ويضر مزاجه، والأمة بنيان وهو أبقاه الله تعالى قاعدته، والله يثبت تلك القاعدة القائمة في نصرة الحق، ومما يستحسن من وصايا الفرس: إن نزل بك مافيه حيلة فلا تعجز، وإن نزل بك ماليس لك فيــه حيلة والعياذ بالله فلا تجزع، ورب واقع في أمــر لو اشتغل عن حمل الهم به بالتدبير فيه مع مقدور الله لأنصرف همه، وكفى خطبة (وماتشاؤون إلا أن يشاء الله) (١١٥) هذا سلطان هو بحول الله أوثق منه بسلطانه، قاتلت الملوك بطمعها، وقاتل هذا بإيهانه، وإذا نظر الله إلى قلب مولانا لم يجد فيه ثقة بغيره، ولا تعويلا على قوة إلا على قوته، فهنالك الفرج ميعاده، واللطف ميقاته، فلا يقنط من روح الله، ولايقل متى نصر الله، وليصبر فإنها خلق للصبر، بل ليشكر فالشكر في موضع الصبر أعلى درجات الشكر، وليقل لمن ابتلى: أنت المعافى، وليرض عن الله سبحانه فإن الراضي عن الله هو المسلم الراضي، فأما أخبار فننة بلاد العجم، فسبحان من ألحق قلوبهم بالسنتهم، (قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون) (١١٦).

وكتب السلطان الى القاضي الفاضل كتابا من بلاد الفرنج يخبره عها لاح له من امارات النصر ، ويقول « ما اخاف الامن ذنوبنا أن يأخذنا الله بها» فكتب اليه الفاضل: « فأما قول المولى إننا نخاف أن نؤخذ بذنوبنا فالذنوب كانت مثبتة قبل هذا المقام وفيه محيت، والآثام كانت مكتوبة ثم عفي عنها بهذه الساعات وعفيت، فيكفي مستغفر لسان السيف الاحر في الجهاد، ويكفي قارعا لابواب الجنة صوت مقارعة الأضداد، ولعين الله موقفك، وفي سبيل الله مقامك ومنصرفك، وطوبى لقدم سعت في منهاجك، وطوبى لوجه تلثم بمثار عجاجك، وطوبى لنفس بين يديك قتلت وقتلت، وإن الخواطر تشكر الله فيك وعن شكرها لك قد شغلت» الشهرة الله قلت قتلت وقتلت، وإن الخواطر تشكر الله فيك وعن شكرها لك قد شغلت» المناه الله قبل عنه المناه الله قبل قد شغلت الهناه قبل الله قد شغلت الهناه المناه الله قبل الله قبل وعن الكرها لك قد شغلت الهناه المناه المناه المناه المناه الله قبل الله قبل وعن المناه الله قبل قبل وعن المناه قبل قد شغلت المناه المناه المناه الله قبل وعن الله قبل قد شغلت المناه المناه المناه المناه المناه المناه الله قبل وحد الله وحد

### فصل

كان بلغني أن السلطان رحمه الله لما اشتدأمر الفرنج على عكا ، أرسل إلى ملك المغرب يستنجده عليهم ليقطع عنه مادتهم من جهة البحر، وكنت أتطلب حقيقة ذلك وأبحث عن شرح الحال فيه فإن العهاد والقاضي لم يتعرض له في كتبهها، غير ان العهاد ذكر كتابا كتبه القاضي الفاضل إلى رسولهم بالمغرب يستنجز منه ماكان أرسله لأجله، وسيأتي ، وغرضي كان الاطلاع على نفس كتاب الرسالة ومضمونها، ثم أراني بعض الشيوخ الصلحاء الثقاة بخطه، ماكنت أرومه فنقلته على وجهه.

قال: نسخة كتاب كتبه القاضي الفاضل، ونقلته من خطه لابن منقذ يأمره فيه بالسفر الى المغرب بأمر الملك الناصر صلاح الدين رحمه الله، يستنصر بملك المغرب يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن لما حصر الفرنج خدلهم الله عكا بعد كسرة حطين، وفتح بيت المقدس، والكتاب الذي سير الى المغرب، والهدية التى حملت يأتي ذكر ذلك إن شاء الله.

# بسم الله الرحمن الرحيم

الأمير الاجل الاسفهسلار الاصيل ، العالم المحترم شمس الدين ، عدة الاسلام ، جمال الانام ، تاج الدولة ، أمير الملة ، صفوة الملوك والسلاطين ، شرف الأمراء ، مقدم الخواص أدام الله توفيقه ، ويسر طريقه وانجح مقصده ، وأعذب مورده ، وحرس مغيبه ومشهده ، وأسعد يومه وغده ، يستخير الله سبحانه ، ويتوجه كيفها يسر الله إلى الجهة الاسلامية المغربية ، حرس الله جانبها ، ونصر كتائبها ومراكبها ، ويستقرىء في الطريق وفي البلاد من أخبار القوم في أحوالهم وآدابهم ، وأشغالهم وأفعالهم ، وما يجبونه من القول نزره أو جمه، ومن اللقاء منبسطه وأفعالهم ، وما يجبونه من القول نزره أو جمه، ومن اللقاء منبسطه

أومنقبضه، ومن القعود ، مجالسهم مخففة أومطولة ، ومن التحيات المتهاداة بينهم ماصيغته وماموقعه، وهل هي السنن الدينية ، أو العوائد الملوكية ، ولأيلقه الا بها يحبه، ولا يخاطبه الله بها يسره ، والكتاب قد نفذ اليه ولم يختم لتعلم ماخوطب به، والمقصود أن تقص القصص عليه من أول وصولنا إلى مصر ، وماأزلنا من البدع بها، وعطلنا من الإلحاد فيها، ووضعنا من المظالم عنها ، وإقامة الجمعة، وعقد الجماعة فيها، وغزواتنا التي تواصلت إلى بلاد الكفار من مصر، فكانت مقدمة لملك الشام الاسلامي باجتماع الكلمة علينا، ومقدّمة لملك الشام الفرنجي بانقياد المسلمين لنا، واتفَّاق الملوك المجاورين على طاعتنا، وتَفصيل مَاجري لنا مع الفرنج مع الغزوات المتقدمة التي جسنا فيها خلال ديارهم ، وجعلها الله تعالى مقدّمات لما سبق في علمه من أسباب دمارهم ، وما أعقبها من كسرتنا لهم الكسرة الكبرى وفتح البيت المقدس ، و تلك على الاسلام منة الله العظمى إلى غير ذلـك من أخـذ الثغور وافتتـاح البلاد واثخـانُ القتل فيهم والأسر لهم، واستنجاد بقيتهم لفرنج المغرب وخروج نجداتهم وكشرتها وقوتها، ومنعتها وغناها وثروتها، ومسارعتها ومبادرتها، وإنه لايمضي يـوم إلاّعـن قـوة تتجـدد ومبرة تصـل، وأمـوال واسعـة تخرج ، ومعونات كثيرة تحمل وإن ثغرنا حصره العدق، وحصرنا نحن العدُّو، فما تمكن من قتال الثغر ، ولاتمكن من قتالنا ، وخندق على نفسه عدة خنادق، فها تمكنا من قتاله ، وقدّم الى الثغر أبرجة أحرقها أهله، وخرج مرّتين الى عسكرنا فكسر العدو الكثير أقله، فانه اغتنم أوقاتا لم تكن العساكر فيها مجموعة، وارتاد ساعات لم تكن الأهب فيها مأخوذة ، وأقدم على غرّة استيقظت فيها نصرة الله لنا وخذلانه لهم، فقتل الله العدو القتل الذريع ، وأوقع به الفتك الشنيع ، وانجلت احدى الحركتين عن عشرين ألف قتيل من الكفار ، خرجت أنفسها إلى مصارعها، وهمدت أجسامها في مضاجعها ، والعدو وإن حصر الثغر فإنه محصور ، ولو ابرز صفحته لكان باذن الله هو المشهور المكسور، وتـذكر مـادخل الثغر من اساطيلنا ثلاث مرات ، واحراقها لمراكبهم ، وهي الاكثر، ودخولها بالميرة بحكم السيف الاطهر.

وإن أمر العدو مع ذلك قد تطاول، وخطبه قد تمادى ، ونجدته تتواصل، ومنها ملك الالمان في جموع جماهيرها مجمهرة ، وأموال قناطيرها مقنطرة ، وإن عساكرنا لو أدركته لما استبدرك ، ولولا سبقه لها بالبدخول إلى انطاكية لتلف وهلك ، وتـذكر أن الله قصم طاغية الالمان، وأخذه أخذة فرعونية بالاغراق في نهر الدنيا الذي هو طريقه إلى الاحراق في نار الآخرة ، وإن هذا العدّو لـو أرسل الله عليه أسطولا قويـا مستعدا يقطع بحره ويمنع ملكه ، لأخـذنا العدو إما بالجوع أو الحصر، أ و برز فـأخذنا بيد الله تعالى التي بها النصر، فإن كانت الاساطيل بالجانب المغربي ميسرة ، والعدة منها متوفرة ، والرجال في اللقاء فارهة ، وللمسير غير كارهة، فالبدار البدار ، وأنت أيها الامير فيها أوّل من استخار الله وسار، وإن كانت دون الاسطول موانع إما من قلة عده، أومن شغل هناك بمهمة أو بمباشرة عدو إما تحصن منه العوره، أو قد لاحت منه الفرصة، فالمعونة ما طريقها واحدة ، ولا سبيلها مسدودة، ولا انواعها محصورة ، تكون تارة بالرجال ، وتارة بالمال ، وما رأينا أهلا لخطابنا ، ولا كفؤ ا لانجادنا ، ومحقوقا بدعوتنا ، ولا ملبيا بنصرتنا إلا ذلك الجناب ، فلم ندعه إلا لواجب عليه ، وإلى ما هو مستقل به ومطيق له ، فقد كانت تتوقع منه همة تقد في الغرب نارها ، ويستطير في الشرق سناها ، وتغرس في العدوة القصوى شجرتها فينال من في العدوة الدنيا جناها، فلا ترضى همته أن يعين الكفر الكفر، ولا يعين الاسلام الاسلام، وما اختص بالاستعانة إلا لأن العدو جاره، والجار أقدر على الجار ، وأهل الجنة أولى بقتال أهل النار، ولانه بحر ، والنجدة بحرية، ولا غرو ان يجيش البحار البحار، وإن سئل عن المملوكين بوز بنا وقراقوش وذكر . مافعلا في اطراف المغرب بمن معها من نفايات الرجال الذين نفتهم مقامات القتال ، فيعلمهم ان المملوكين ومن معها ليسوا من وجوه

الماليك والأمراء ، ولا من المعدودين في الطواشية والأولياء وانها كسدت سوقهما وتبعتهما ألفاف أمثالهما ، والعادة جارية أن العساكر إذا طالت ذيولها ، وكثرت جموعها ، خرج منهاوانضاف اليها، فلا يظهر مزيدها ولا نقصها ، ولا كان هذان المملوكان ممن إذا غاب أحضر، ولا ممن إذ ا فقد افتقد، ولا يقدّر في مثلهماأنه ممن يستطيع نكاية ، ولا يأتي بما يوجب شكوى من جناية ، ومعاذ الله أن نأمر مفسدا بأن يفسد في الارض ، ان أريد الا الاصلاح ما استطعت ، وإن سئل عن النوبة المصرية وما فعل بجندها ، فليعلمهم الأمير أن القوم راسلوا الكفار وأطمعوهم في تسليم الديار ، فأشفى الاسلام على أمر شديد، وكاد يقرب على الكفار كل أمر بعيد، فلم يعاقب الجيش بل أعيان المفسدين ، فقوبلوا بهايجب، وكانوا دعاة كفر وضلال ومحاربين لله بها سعوا في الارض من فساد، فأما بقية الجيش وإن كان منهم من هو تبع للمذكورين في الرضا فإنهم اقتصر بهم على أن لايكونوا جندا، ومنهم من أجريت عليه أرزاق تبلغه وشملته آمنة تسكنه، وأما الهدية المسيرة على يد الامير فتفصيلها يرد في كتاب الامير الاجل الاسفهسلار العالم الكبير مجد الدين سيف الدولة، أدام الله علوه، مقرونا بالهدية المذكورة ، ومع قرب الشتاء فلم يبق الا الاستخارة والتسمية ، ومبادرة الوقت قبل أن يغلـق البحر انفتـاح الأشتية ، واللُّـه سبحانه يوفق الأمير ، ويسهل سبيله ، ويهدي دليله، ويكلأه بعينه ، ويمده بعونه ، ويحمل رحله ، ويبلغه أهله، ويشرح له صدره، وييسر له امره إن شاء الله تعالى .

وكتب ثامن وعشرين شعبان سنة ست وثمانين وخمسمائة

## فصل

# في نسخة الكتاب الى ملك المغرب والهدية

العنوان:

بلاغ الى محل التقوى الطاهر، ومستقرّ حزب الله الظاهر من المغرب أعلى به الله كلمة الايهان ، ورفع به منار البر والاحسان .

# بسم الله الرحمن الرحيم

من الفقير إلى رحمة ربه يوسف بن أيوب

أما بعد: فالحمد لله الماضي المشية، الممضي القضية ، البر بالبرية ، الحفى بالحنفية ، الذي استعمل عليها من استعمر به الارض ، وأغنى من أهلها من سأله القرض، وأجزل أجر من أجرى على يده النافلة والفرض، وزان سماء الملة بدراري الذراري التي بعضها من بعض، وصلى الله على سيدنا محمد الذي أنزل عليه كتابا فيه الشفاء والتبيان ، وبنى الاسلام بأمته التي شبهها صاحبها بالبنيان ، وعلى آله وصحبه الذين اصطفاهم وطهرهم ، فنصروه وظاهروا رسوله صلى الله عليه وسلم فنصرهم وأظهرهم ، ويسر بهم السبيل ، ثم السبيل يسرهم ، وان الله بهم (لذو فضل على الناس ولكن اكثرهم) (١١٧) (ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايهان ولاتجعل في قلوبنا غلا للذين امنوا ربنا الك رؤوف رحيم) (١١٧) وهذه التحية الطيبة الكريمة الصيبة، الواجبة الرد، الموجبة للقصد، العذبة الورد، المتنفسة عن العنبر والورد، وقاده على الرياسة، ونفس النفاسة ، وجمل الجلالة ، وأصل الاصالة ورأس الرياسة، ونفس النفاسة ، وحكم الحكم ، وعلم العلم ، وقائم الدين ومثبت المتقين على وقيمه، ومقدم الاسلام ومقدّمه، ومقدّمه ومقدّم الاسلام ومقدّمه، ومقدّمه ومقدّم الماسية المتفين على المناس المتفين على وقيم المتفين على المناس ومقدّم الاسلام ومقدّمه، ومقدّمه ومقدّم المتفين على المتفين على المناس ومقدّم الاسلام ومقدّمه، ومقدّمه ومقدّم المنه ومقدّم الله ومقدّمه، ومقدّم المناسة ومقدّمه ومقدّمه ومقدّم المناسة ومقدّم المناس المناسة ومقدّمه ومقدّمه ومقدّم ومقدّم المناسة ومقدّمه ومقدّمه ومقدّمه ومقدّم المناسة ومقدّمه ومقدّمه ومقدّم ومقدّم المناسة ومقدّم ومقدّم ومقدّم ومقدّم المناسة ومقدّمه ومقدّمه ومقدّم ومقدّم المناسة ومقدّمه ومقدّم ومقدّم المناس ومقدّم المناسة ومقدّمه ومقدّم ومقدّم المناس ومقدّم ومقدّم ومقدّم المناسة ومقدّم ومقدّم

اليقين ، ومعلى الموحدين على الملحدين ، أدام الله له النصرة، وجهز به تيسير العسرة ، وردّ له الكرة وبسط له باع القدرة ، وأوثق به حبل الالفة، ومهد لمه درجات الغرفة ، وعرفه في كل مايعتزمه صنعا جزيلا جميلا ولطفا حفيا جليلا ، ويسر عليه في سبيله كل ما هو (اشد وطنا وأقوم قيلا) (١١٩) ، تحية استنير منها الكتاب ، واستنيب عنها الجواب وقد حفز لها حافزان أحدهما شوق قديم كان مطل غريمه ممكنا إلى ان تتيسر الاسباب ، والآخر مرام عظيم ماكره اذا استفتحت به الابواب ، وكان وقت المواصلة ، وموسم المكاتبة هناءة بفتح البيت المقدس ، وسكون الاسلام منه الى المقيل والمعرّس ، ومافتح آلله للاسلام من الثغور ، وماشرح الأهله من الصدور ، وماأنزله عليهم من النور ، ولم يخل المسلمون فيمه من دعوات أسرار ذلك الصدر، ومالاحظات أنوار ذلك البدر، ومطالعات تلك الجهة التي هي وان كانت غربية فإن الغرب مستودع الأنوار ،وكنز دينار الشمس ، ومصب أنهار النهار، ومن جانبه يأتي سكون الليل ومستروح الأسرار ، وعنه يقلب الله الليل والنهار ( ان في ذلك لعبرة لاولي الأبصار)(١٢٠) ولم تتأخر المكاتبة الاليتم الله ما بدأ من فضله ، وليفتح بقية مالم ينقطع بتقطع يد الشرك من حبله ، والمفتتح بيد الله من الشام مدن وأمصار وبالاد كبار وصغار ، وتغور وقلاع كانت للشرك معاقل وللاسلام معاقر، ولبني الكفر مصانع، ولبني آلاسلام مصارع والباقي بيد الكفر منها ثغر طرابلس ، وصور ، ومدينة انطاكية يسر الله أمرها ، وفك من يـد الكفر أسرها ، وإذا أمن المؤمن على هذه الدعوة رجي ايجابها ، وما يتأخر من الله سبحانه جوابها ، فالدعاء أحد السلاحين ، ومع النية يطير إلى وكره من السهاء بجناحين ، بعد أن كسر العدّو الكسرة الّتي لم يجبر بعدها، وألجىء الى حصونه التي للحصر أعدها، وكان يومها كريها ، ولطف الله فيها عظيها ، قبضت كل حاجة في النفس ، وأغنت المسلمين ، فأما العدو بعد يومها ، فكأن لم يغن بالامس ، وكانت على أثر غزوات قبلها ، فما الظن بالمجهزة بعدالنكس ،

ولم يؤخر فتح البلاد بعدها إلا أن فرع الكفار بالشام استصرخ بأصل الكفار من الغرب، فأجابوا رجالا وفرسانا، وشيبا وشبانا ، وزرافات ووحدانا ، وبرا وبحرا ، ومركبا وظهرا ، وركبوا اليهم سهلا ووعرا ، وبذلوا ماعونا وذخرا ، وما احتاجوا ملوكا ترتادهم ولا أرسانا تقتادهم، بل خرج كل يلبي دعوة بطركه، ولا يحتاج الى عزمة ملكه ، وخرجت لهم عدة ملوك أقفلت العجمة على اسهائها ، واتت العزيمة بحمد الله على اشخاصها عند لقائها، ومنهم ملك الالمان خرج في جموع برية من الله تعالى برية، ملأت الفجاج وازدحمت فأنفذها العجاج ، ومنهم من ركب ثبج البحر فركب الاجاج العجاج ، وامتطى من البحر مشية الرجاج ، لينصر دينا مشبه الزجاج ، يقبل للكسر ولا يسرع اليه الجبر، وراكب ذلك المدين كراكب البحر بلا ساحل سلامة والى قاع كفر، وجلب الكفار الى المحصورين بالشام كل مجلوب ، وملؤوا عليهم ثغريهم من كل مطلوب مابين أقوات وأطعمة، وآلات وأسلحة وشكة وجنة، وحديد مضروب وزبرة ، ونقدي ذهب وفضة إلى أن شحنوا بـ الادهم رجالا مقاتلة وذخائر للعاجلة من حربهم والآجلة لاتشرق شارقة إلا طلعت على العدّو من البحر طالعة تعوض من الرجال من قتل ، وتخلف من الزاد ماأكل ، فهم كل يوم في حصول زيادة ووفور مادّة، وقد هان عليهم موقع الحصر ، وأعطاهم البحر مامنعهم البر، وبطروا لما كثروا، ونظروا فإنهم لايستطيعون أن يلقوا ويصحروا ويستطيعون أن يحصروا على ان ينحصروا ، ونزلوا على عكا بحيث يمدهم البحر بامداده ، ويصل إلى المقاتل ما يحتاجه من أسلحته وازواده ، وبمن يكثر به من مقاتلته واجناده، فانقطعت مادّة عكا من البحر ، وحصرنا منازلهم من العدو من جهة جانب البر، فخند قوا على نفوسهم ، وحثوا التراب على رؤوسهم، وعقدت عدتهم مائة ألف أويزيدون ، كلما أفناهم القتل أخلفتهم النجدة ، فكأنهم قبل المات يعودون، فاتممنا بعمارة بحرية لقينا عمارتهم بها، فنفذت عمارتنا إلى الثغر، وأوصلت إليه الأقوات التي حمل منها البحر

مالا يحمله الظهر، والأسلحة التي أمضاها الله عز وجل بيد الاسلام في صدور الكفر . ومالقينا عمارة العدو بأوفر منها عدة ، فعدد سراكبهم كبيرا ، ولكن لقيناهم بأصدق منها عزمه، والقليل مع العزم الصادق كثير، واستمر مقام العدو عاصراً للثغر محصوراً منا أشد الحصر ، لايستطيع قتال الثغر، لانأمن خلفه ولا يستطيع الخروج الينا خوفًا من حتفه ، ولا نستطيع نحن الـدخول اليه لأنه قد سوّر وخنـدق وحاجز من وراء الحجرات وأغلق ، ولما خرج ملك الالمان بحشده وسمعته التي هي منه أحشد، وعاد جيشه الملعون على رسم قديم إلى الشام ، فكان العود لأمة أحمد صلى الله عليه وسلم أحمد، قويت به نفوسهم وجمحت به رؤوسهم ، وظنوا انه يزعجنا من مخيمنا ،ويخرجنا من خيمنا ، فبعثنا إليه من يلقاه بعساكرنا الشهالية ، فسلك ذات الشهال ،متوعرا فيها محتجزًا عن لقائها مظهرا أنه صريع داء ومابه غير دائها ،وكان أبوه الطاغية ملك الالمان شيبة اللعن اللّعين ، قائد جيشه إلى سجن سجين ، قد هلك في طريقه غرقا، وخاض الماء فخاضه الماءشرقا ، وبقى له ولد هو الآن المُقدّم المؤخر وقائد الجمع المكسر، وربها وصل بهم إلى عكا في البحرتهيبا أن يسلك البر، ولوسبق أصحابنا إلى عساكر الألمان قبل دخولها إلى انطاكية لأخلفوه أخذا سريعا ، وسبق بحر سيوفهم إلى أن يكون الطاغية فيه لافي النهر صريعا ، ولكن لَّله المشيئة في البرية، والطاغية إنما يمشى إلى البلية، فإنه لولا احتجار مقيمهم بالخنادق، واحتياز واصلهم بالمضَّائق لكان لنا ولهم شأن ، وكـان ليومنا في النصرة الكبرى بحول اللَّهُ ثان لا يثنيه من العدو ثان ، ولما كانت حضرة سلطان الاسلام ، وقائد المجاهدين إلى دار السلام أولى من توجه اليه الاسلام بشكواه وبثه، واستعان به على حماية نسله وحرثه، وكانت مساعيه ومساعى سلفه في الجهاد الغرّ المحجلة له المؤمرة المؤملة الكاسفة لكل معضلة ، الكاشفة لكل مشكلة، والأخبار بذلك سائرة ، والآثار ظاهرة ، والصحف عنه باسمه ، والسير به معملة وعالمة ، وكل بجهاده قد سكن إلا السيوف في

اغهادها ، وقد أمن إلا كلمة الكفر في بلادها، لايزال في سبيل الله غاديا وراتحا ، ومواجها ومكافحا ، ومما سيا ومصابحا، يجوز لجة البحر بالمجاهدين ملوكا على الأسرة ، وغزاة تصافح وجوهها السيوف ، فلا يخمد نور الاسرة بذود الفرق الكافرة ، ولو ترك سبيلها لملا قراره كل واد، ( كلم اوقدوا نارا للحرب اطفأها الله) (١٢١) ولولاه لأخمد شرارة كل زناد. كان المتوقع من تلك الدولة العالية ، والعزمة الغادية مع القدرة الوافية، والهمة المهدية الهادية، أن يمد غرب الاسلام المسلمين بأكثر عما امد به غرب الكفار الكافرين ، فيملأها عليهم جواري كالاعلام ، ومدنا في اللجج سوائر كأنها الليالي مقلعة بالأيام تطلع علينا معشر الاسلام امالا، وتطلع على الكفار آجالًا ، وتردنا إما جُملة وإما أرسالًا ، مسوّمة تمدها ملائكَة مسوّمة ومعلمة، تقدم حيازيمها إقدام حيزوم تحت أصحابه، وإنها هي منه عزمه، كانت تعين أصحاب الميمنة على أصحاب المشأمة، وكلمة كانت تنفخ الروح في الكلمة ، ولما استبطئت ظن أنها توقفت على الاستدعاء فصر خنا به في هذه التحية ، فقد تحفل السحاب ، ولا تمطر إلى أن تحركها أيدي الرياح ، وقد ينزل النصرة فلا تظهر الى أن تضرع اليها ألسنة الصفاح، وسير لحضور مجلسه الأطهر ومحله الأنور ، الأمير الاجل المجاهد الأمين الأصيل، شمس الدين نور الاسلام والمسلمين، سفير الملوك والسلاطين ، أبو الحزم عبد السرحمن بن منقل ، كتب الله سلامته، وأحسن صحابته ، وما أختير للوفادة إلا من هو اهلها، ولا حمل الوديعة إلا من هـومحلها، ولا بعث لنهج الصلة إلا من هـو مفتاحها ، ولأداء الامانة إلا من هو أهلها ، ومهم الستوضح منه، وسئل عنه، فإنه على نفسه بصيرة ، ومن البيان ذو ذخيرة، وفي العربية ذو بيت وعشيرة، والمشاهدة له أوصف، على ان تلك الجلالة ربها ذعرت البيان فأخلف، وماأجدره بأن يصادف بسطة على بساطة، ونظرا يأذن له في القول على اختصاره، وتوسطه وافراطه، فكل هو به واف، وكل هو للفهم الكريم كاف، والله تعالى يجعل هذه العزمة منا في استنهاض العزمة منه بالغة

مبلغا يسر أهل دينه ، ويوزعهم بها اقتضاء ديونه ، من الذين اتخذوا إلها من دونه ، والسلام الصادر عن القلب السليم ، والودّ الصميم ، والعهد الكريم، على حضرة الكرم العلية ، وسدّة السيادة الجلية، سلام مودّة ماوفد الغرب قبلها مثلها ، ورسالة ماخطرت إلى أن انفذت وراءها المحبة رسلها، وليصل السلام رحمة الله وبركاته، ورضوانه وتحياته إن شاء الله تعالى.

وكتب في شعبان سنة ست وثمانين وخمسمائة ،والحمد لله وحده وصلاته على سيدنا محمد نبيه واله وسلامه .

الهدية ختمة كريمة في ربعة مخيشة ، مسك ثلاثهائة مثقال ، عنبر عشر قلائد عددها ستهائة حبة. عود في عشرة أمناء. دهان بلسان مائة درهم واحدة . قسي بأوتارها مائة وقوسان . سروج عشرون . نصول سيوف هندية عشرون. نشاب ناسج خاص مريش كبير ومتوسط ضمن صندوقي خشب مجلدة سبعهائة سهم.

وكان اقلاعه من الاسكندرية في شيني عارته مائة وعشرون. في ثالث عشر رمضان سنة ست وثهانين وخمسائة ،ووصل إلى طرابلس أوّل البلاد في الخامس والعشرين من شوال ،وأقام بها إلى ذي القعدة ،وتوجه الى البلاد وكان الاجتماع بالوزير أبي يحيى بن أبي بكر بن محمد بن الشيخ أبي حفص ، ودفع كتاب السلطان اليه يوم الخميس سابع ذي الحجة ، وكان الدخول على يعقوب والسلام عليه في العشرين من ذي الحجة ، وفي هذا النهار حملت هدية السلطان إلى خزانته،وكان انفصاله من مراكش عاشر المحرم سنة ثمان وثمانين وخمسائة، ووصل الى الاسكندرية في الثامن من جمادى الآخرة سنة ثمان وثمانين .

## فصل

لم يحصل من جهة سلطان الغرب ما التمس منه من النجدة ، وبلغني أنه عز عليهم كونه لم يخاطب بأمير المؤمنين على جاري عادتهم ، وقد كان سلطانا عادلا مظهرا للشريعة غازيا توفي في سنة خمس وتسعين، وفيه يقول شاعره:

أهدل لأن يسعدي إليده ويدرتجي
ويزار من أقصى البلاد على الدوجا
ملك غدا بالمكرمات مقلدا
ومدوشح اومختم اومتم وجدالموائيد كدره
وتعطرت منده الدريداح ترجا
وجدالوجود وقد دجي فأضاءه
وراءه في الكرب العظام ففرجا

وفيه يقول ابن عمه سليهان بن عبد الله بن عبد المؤمن أبو الربيع من قصيدة أولها:

هبت بنصر كم السرياح الأربع وجرت بسعد كم النجوم الطلع ان قيل مسن خير الخلائف كلها فإليك يما يعقوب تومى الاصبع ان كنست تتلو السابقين فانها أنست المقسد و الخلائف تبسع

وقدمدحه أيضا شمس الدين بن منقذ هذا المرسل اليه من جهة السلطان بقصيدة منها:

ساشكربحراً ذاعباب قطعته إلى بحرج ودمالنعماه ساحل إلى مع دن التقوي إلى كعبة الحدى الله من سمت بالدكر منه الأوائل المراسلمين ولم تصور لله الله بابك المأمول تزجى الرواحل قطعت اليك البروالبحرم وقنا وطعت اليك البروالبحرم وقنا بأي بذاك القطع بالنجح كافل فها راعني من وجبة البررائع ولا هالنبي من زاخر البحر هائل ومن كان غايات المعالي طلابه ومن كان غايات المعالي طلابه ورجوت بقصديك العلى فبلغتها وأدنى عطايات العلى والفضائل وأدنى عطايات العلى والفضائل في المناب العلى والمناب المناب العلى والمناب المناب ال

وابن منقل هذا من أهل بيت أدب وشعر، وله على ماوجدت بخط بعض الثقاة :

تصرّم عمري في التغرّب والنوى وأفندى ارتحالي طارفي وتسلادي وأخلق تالايام بردشبيبتي وأصلد من وقع الخطوب زنادي وأصلد من وقع الخطوب زنادي وأشغلني الحرص الموكل في الدورى عن العمل المنجي ليوم معادي فلا راحة الأخرى تيقنت نيلها ولاأنافي الدنيا بلغت مرادى

وله على لسان بعض غلمانه: وربقميص دعساني إلى احسسو سستمال السرئسائسة منسه العسدم

## أقط ـــب وجهـــي لـــه كلما تهلـــل لي ضـاحكــاً وابتســم

ومن كتاب فاضلي الى بعض اخوانه : « وأما الاخبار المغربية وإخلال جانبها ، وضعف مطلوبها وطالبها فإذا نجزت الظلماء الى المغرب فبحق، كما ان الانوار الناصرية قد تناصرت في الشرق ، فالله يسعد بلاد الدنيا بالانخراط في سلك ملكه ، ويمكن من مؤمنها حكم عدالته ومن كافرها سيف فتكته ، والله يجزيها الخير عن نيتها في الخير، ويكتب سلامة عزمها في طرق النفع أينها يممت السير».

ثم اني وقفت على كتاب فاضلي للسلطان يشعر بـأن الرسالة المغربية لم تكن برأي الفاضل ، ولاهو مختار لها صورته: «المملوك يقبل الارض بالمقام العالي المولوي الملكي الناصري ، جعل له الله في الدنيا والآخرة المقام العالى، وأبقى دولته التي هي الايام بالحقيقة والايام قبلها هي الليالي، وينهي ان الظاهر أن المملوك عند المولى ليس من أهل الاتهام، وإن له ولله الحمد اثارا في دولته تشهد بها الايام، وإثار السيوف طاحت وبقيت اثار الاقلام، والرسالة المغربية ليس المملوك مشيرا بتركها، ولا كارها لسفر رسولها، ولا مستبعداً مصلحة قريبة منها، لكن على وجهها ، وقد نجزت الهدية المغربية على ما أمر به، وكتب الكتاب على مامثل ، وفخم الخطاب والوصف فوق العادة ، وبها لايمكن مخاطبة مخلوق بأكثر منه، وعند وصول الامير نجم الدين من المخيم المنصور فاوضه المملوك في أنه لايمكن الا التعريض لا التصريح بها وقع له أنه لاتنجح الحاجة إلا به من لفظة أمير المؤمنين ، وأن اللَّذينَ أَفَاضُوا في هذا الحديث وأشاروا به ماقالوه نقلا ، ولا احاطوا به قياسا ، ولا عرفوا مكاتبة المصريين قديها، وآخر ماكتب في أيام الصالح بن رزيك فخوطب فيه أكبرأولاد عبد المؤمن وولي عهده بالأمير الأصيل النجار، الجسيم الفخار، وعادت الاجوبة إلى أبن رزيك وهو وزير سلطان مصر الذي اتباع مولانا اليوم مائة مثله، مترجمة بمعظم أمره ، وملتزم شكره ، هذا والصالح يتوقع أن يأخذ ابن عبد المؤمن البلاد من يديه، وماهو الا ان يهرب مملوكان طريدان منا فيستوليان على أطراف بلاده، ويصل المشار اليه بالامر من مراكش الى القيروان في ستة اشهر فيلقاهم فيكسرا مرة، ويتهاسكا أخرى، واعلم الامير نجم الدين بذلك فأمسك مقدار عشرة أيام، ثم أنفذ الامير المذكور اليه على يد ابن الجليس بأن الهدية أشير عليه بأن لايستصحبها ، وإن استصحبها تكون هدية برسم من حواليه، وإن الكتاب لايأخذه الا بتصريح أمير المؤمنين ، وإن السلطان عزنصره رسم له ذلك ، والملك العادل دامت قدرته بأن لايشير الا به ، وإنه اذا لقي القوم خاطبهم بهذه التحية عن السلطان ابقاه الله من لسانه فأجابه المملوك بأن الخطاب يكفي ، وطريق جحدنا له ممكن والكتابة حجة تقيد اللسان عن الانكار ، ومتى قرئت على منبر من منابر المغرب جعلنا خالعين في مكان الاجماع ، مبايعين من لاينصره الله ولا شوكة فيه، ولايحل اتباعه، مرخصين الغالي ، منحطين عن العالي ،شاقين عصا المسلمين ، مفرقين كلمة المؤمنين، مطيعين لمن لاتحل طاعته، متقلدين لمن لاتصبح ولايته، فتفسد عقود الاسلام وينفتح باب يعجز وارده عن اصدار ، بل تمضى وتستشف الامور وتكشف آلا - وأل، فان رأيت للقوم شوكة ولنا زبده، فعدهم بهذه المخاطبة ، واجعل كل مانأخذه ثمنا للوعد بها خاصة ، فامتنع وقال: أنا أقضي اشغالي وأتوجه إلى الاسكندرية وانتظر جواب السلطان عز نصره ، ومايفوت وقت وإلى أن أنجز أمر المركب، وارتباد الركاب فسير المملوك النسخة وان وافقت فينعم المولى على المملوك بترجمة يلصقها على ماكتبه، ويأمر نجم الدين بتسلم الكتاب، على ان ابن الجليس حدثه عنه انه ممتنع من السفر إلا بالمكاتبة بها، فأما الذي يترجم به المولى عز نصره فيكون مثل الذي يدعى به على المنبر لمولانا وهو: الفقير الى الله تعالى يوسف بن أيوب، أدام الله غنى مولانا بالفقر الى ربه، وإذا كتب الصالح ابن رزيك اليهم من السيد الأجل الملك الصالح قبح ان يكتب اليه مولانا أبقاه الله «الخادم» وهذا مبلغ رأي المملوك ، والمؤمن لايلل نفسه، وقاسم الارزاق يوصلها وان رغم من جرت على يله ، وإن كان مولانا أعز الله نصره يقول: أنت غافل وغائب، وماتعرف ما الاسلام فيه ، فلو حضرت وعرفت ماشققت الحديث ، فجواب ماتكتب: بعد سنتين فيا يتخلى الله عنا ولا تستمر هذه الشدة ولا نسىء الظن بالله ، وإذا كانت لنا إن شاء الله أخذت خالية ممن نطلب الآن مواساته، وإذا كان المملوك مستجهلا وغير مستنصح وللضرورة حكمها. والأحوال المملوك غائب عنها، فالمفهوم من الأمر أن يتولى من الكتابة ترتيب المقاصد ، وتحرير الالفاظ ، وتنضيد الخبر عما اجراه الله تعالى على يد مولانا عنز نصره ، والثاني المطلوب فقد فعل هذا كله في النسخة ، وبقيت اللفظة التي ليست كتابة المملوك لها شرطا فيها، والمملوك وعقبه مستجيرون بالله تعالى ثم بالسلطان عزنصره من تعريضهم لكدر الحياة وتوقع الخوف ومعاداة من لايخفى عنه خبر ولا تقال به عشرة، ويكفى ان المولى انعم بخطه في كتابــه الى المملوك ، وفيها ماهو بخط حضرة سيدنا الاجل عهاد الدين الكاتب الاصفهاني حرسه الله تعالى لماوصى بأن لايناظر في الخطاب ماصرح باللفظة، فهي اما تقية فالمملوك اولى بها، وإمااستهانة فنفس الملك لاتقاس بنفس المملوك ، فان كان ولابد فالنسخة بين يديه، والمقصود فيها من زيادة هذه اللفظة ما يحتاج الى تعليم ، والكتاب الذين يستقلون بكتابة النسخة معدومون، وقد ناب المملوك عنهم، والكتاب الذين يستقلون بالتبييض موجودون فينوبون عن المملوك في التبييض ، والافكيف يسير رسول بكتاب من مصر بلا خط سلطان ، وبغير حضرته كتب ولا بهديه سار، وبمحضر من البغاددة والمغاربة يعلمون أن الكتاب كتب بمصر ، ويشهدون بما لم يروه ومالم يقرؤوة من الخطاب ، ولو وصل من الولي أدام الله أيامه كتا . مختوم وسير ولم يعلم مافيه لانقطع فضول كثير وحمدت أراجيف شنيعة، ولا يعتقد المولى أن المملوك يعظهم القصص فها لللالسنة والاعين شغل إلاّالسلاطين وأفعالهم واقوالهم ، ولا للخلق خوض إلا في أوامرهم وأحوالهم، ولو علم المملوك أن هذا الذي استعفى منه يضره بحيث ينفع المولى أبقاه الله لهان عليه، ولكنه مضرّة بغير منفعة ، وتعرّض لماتذم عاقبته، أويبقى على الخوف منه ، وذلك مما لايقتضيه حسن عهد المولى، وفضل رأفته فمقصود المولى ابقاه الله تحصيل تبييضها بين يديه ، وربه حصل استنارة، وامنت المكاره فيه، وغمضت العيون عنه وشحت الأيام عليه، طالع المملوك بذلك».

## فصل

وللقاضي الفاضل رحمه الله من كتب أُخر مايشرح لنا بعض ماتقدم ، ومالم يذكره أحد من أرباب السير منها قوله: «كتاب بغداد كتاب بارد، غث جامد، مافيه مقصود لقاصد ، ولا صلة ولا عائد، ونحن نطلب الـذهب الحار فيضرب في حـديد بـارد" ومنها فيها خرّب من البلاد الفرنجية المغنومة : «خراب البلاد في هذا الوقت الضيق لاشبهة في تقويته لنفس العبدو واضعافه لأنفس المسلمين ، وكان من يسمعه يفجأه من بديهة اليأس مايقطع وجأه. المولى يعلم أن العدو أخذها من المصريين في تمام ستين سنة وخفضوها بالانحصار مرة وبالهدنة مرةأخرى وبالقتال مرات، وبولاة سوء لوكان فيهم خيرا لما عجزوا عنها ، ونحن قد حملنا عن العدو المؤنة بتخريب البلاد التي كان العدّو يريد أن يحاصرها وينازلها، وينصب المنجنيق والبرج عليها، ويخاف النجدة أن تصلها، وقوّة الاسلام أن تشوب اليها، ويتوقع أن يبدهه المصاف قبل النزول عليها ، فعرّفناه أنه قادم على من السلاح له إلا أن يلقي السلاح، والحفظ للبلاد إلا أن يخربها ، فقد نكلنا عن اللقاء ، وفررنا قبل المواجهة، وزدنا زيادة عجيبة وهو أن المنهزم ينهزم بالرجال ونحن ننهزم بالبلاد» ثم قال: «وثبوت مولانا على عكا هو حراستها وحفظها وقوّة نفس من بها، وأهون الاعداء ملك الألمان لايشك مولانا أن جمعه لايفي بعشر قراقر من ستين قرق ورة وصلت الى الفرنج نجدة من بلاد المجوس في السنة الماضية ، وانها الزائد سمعة ملك وقد هلك ، ورأس قد قطع، وقائد جيش وقد كبا كالجمال

ومنها عنه، ورود كتاب السلطان إليه يبشر بعـافيته من موض عرض له في شهر رمضان: لا أسفرت بشارته عن أن المولى اتاه الفرج وغذاؤه الفروج، واستقل بحمد الله، وصح وقالت العافية: للمرض تنح، وكان مافي كتابيه الأولين من تعريق النون من الحمد لله رب العالمين فيه أثر ضعف ينتقده صيارفة الخطوط ، فأما هذا الكتاب المبارك فقد صحت فيه التعريقة ، وقويت اليد وطلعت النون أهم الينا من مطلع الهلال الفطري الذي يشبهه الشعراء بالنون ومنهم من قال:

ولاح هـــلال مثــل نــون أجـادهـا يـذوب النضار الكاتــب ابـن هــلال

وهذا من أنواع الفراغ الذي ماأوجبه المملوك الالمسرته بعافية المولى أدامها الله، وأدام المسرة بها له وللخلسق فإيشبهها المملوك إلا بنور الشمس الذي له في كل مكان أثر، ولكل عين به نظر، فلا أخلى الله الدنيا من اثاره والعيون من أنواره، وبعد عافية المولى قد انتظر الاسلام عافيته به من المرض الذي هو العدو، فيجمع الله تعالى للمولى وللخلق بين العافيتين، ويستخدم شكرهم للنعمتين، فقد جلا الله بهذا المرض سيف الله الذي هو المولى وماصقله إلا لتصدأ به قلوب أعدائه، ومن فوائد هذا المرض أن المولى يستأنف العمر جديدا و العزم حديدا، ويستقبل التدبير بنشاط قد حضر، واعضاء قد فارقها ما كان سبب الضجر»

ومنها: «وأما تبرم مولانا بكثرة الطلبات منه فلا أخلى الله مولانا من القدرة عليها ، وهنيئا له أن الله سبحانه يطالبه بحفظ دينه، والنبي صلى الله عنية وسلم يطالبه بحسن الخلافة في أمته، والسلف الصالح من هذه الاسة يطالبونه بمباشرة ما لو حضروه لما زادوا على مايفعله المولى، وأهل الحرب يطالبونه بإزاحة علتهم من الذهب والفضة والحديد، وبقية الأمة تطالبه بالأمن في سربهم، والاستقامة في كسبهم والخفارة في سبلهم، ونفسه الكريمة تطالبه بالجنة بلغه الله اليها ، ولمعالي الأمور أعانه الله عليها، وإذا عدّد مايراد منه فلا بد أن يعدد مايسر عليه فهل عدم من الله تعالى قط نصره، وهل استمرت به قبط عسرة ، وهل تمت

لعدو قط عليه كره، وهل بات قط إلا راجيا ،وهل أصبح إلا راضيا ، ألا يعلم أن الله تعالى ذخر له من الصالحات مالم ير كفؤا له غيره،ألا يحصي من سبقه من الملوك إلى الدنيا فعجزوا عما سبق إليه المولى من الآخرة ، وهل تعرف راية قاتل تحتها في سبيل الله إلا رايته، وهل يعرف مال ينفق في سبيل الله إلا ماله ، وهل يسمع في مجلسه إلا كتاب الله يتلى، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم تقرأ ، أويرى به إلا الخيل تعرض، والسلاح يقلب، لأأقداح الشاربين ، ولا أصوات المغنين ، ولا وقائع الكذابين ، ولاسعايات النمامين ، ويحق إذا توافر حظ مولانا أبقاه الله على تشبيه الملوك ، فإذا كان مجلس ابن عبد المؤمن بالمسجد فإن الله على تشبيه الملوك ، فإذا كان مجلس ابن عبد المؤمن بالمسجد فإن المله على تشبيه الملوك ، فإذا كان محلس ابن عبد المؤمن بالمسجد فإن المله الملائح كما تعترف الضوال ، وان تتبع كما تتبع الطرائد، (ولينصرن الله من ينصره) (١٢٢)

لعل المولى عز نصره قد نفذ إلى جانب الشهال جماعة فإن صاحب أنطاكية خذلة الله عاث وشعث، وخلا الجبان بأرض فطلب الطعن وحده، لو قرن أهل عكا—وكذلك يفعلون— بمشيئة الله ما هم فيه من جهاد بنية احتساب لما سبقهم إلى الجنة سابق ولا لحقهم بعدهم لاحق، فليهن مولانا توفر ثوابه على كل حال، فله ثواب نفسه وثواب من جاهد بسببه، فلا أعدم الله الخلق واحدا به استقام جميعهم، ومالكا قام برعاياهم فأقعد مايروعهم، وشفيقا يقيهم بنفسه وبولده وبأخوته، ويتقدم إلى الأهوال امام مماليكه وأمرائه وعسكره وجملته كأنه منهم مكان بسم الله من الكتاب، ومكان الأمام من المحراب، ومكان النواصي من وجوه الصاهل، ومكان الأسنة من وجوه الذوابل، وخير ماكان اذا لم تظن نفس بنفس خيرا، وأغير ماكان على محارم الله إذا كانت أنفس الملوك غير غيرى، وقد اطمأنت القلوب إلى أن الله سبحانه قد كشف الغمة وفرجها، وأطفأ نار الحرب التي كان العدو قد أججها، فا يتوقع من كتب مولانا أبقاه الله إلا ان الاسلام قد رضي بها يسخط

الكفر، ولا يسمع من قصصه الذي هو أحسن القصص إلا أن يقول ما قاله سميه على نبينا وعلية السلام (قضي الأمر) (١٢٣٠) فأما ملك الألمان فقد سلبه الله ماأضيف اليه كها كان المملوك رأى في منامه على كوكب، واعلم به مولانا في ضمن رسالة فقال ابقاه الله قد قبلت البشرى، وصورة الرؤياأن رسولا جاء من السلطان عز نصره إلى المملوك فقال:أكتب كتابا ببشارة ملك الألمان ، فقلت حتى أفكر، فقال الرسول اكتب بأن الله قد سلب ملك الألمان ماأضيف اليه، والمشهور ان ملك الالمان خرج في مائتي ألف، وأنه الآن في دون خمسة الاف».

ومنها: «ورد كتاب من المهدية إلى الاسكندرية ثاني رجب بعد ستة عشر يوما من المهدية ، وذكر من فيه أخبارا ، وقد طولع بها ، ولما تكررت علمت صحتها، وهو أن عساكر الغرب الاسلامية نازلة على طليطلة ، وقد افتتحت عدّة حصون كافرة، وأن بوزبا شوهد بالمهدية موثقا بالحديد وقد نفذه قراقوش الى صاحب تونس ليسيره إلى بلاد الاندلس ، موضع نزول ابن عبد المؤمن بالعساكر ، وأن أهل صقلية من المسلمين إلى الآن في حرب قائمة بينهم وبين فرنجها ومعتصمون بالجبال في أعالها، وأن عسكر الفرنج قد خرج لانجاد أصحابهم بصقلية ، والمسلمون بها على توقع ورقبة وحذار وخيفة ، نصر الله كلمة التوحيد، وأهلك كل جبار عنيد، وإن مراكب فيها أزواد للجنويين دخلت المهدية بأمان من صاحبها، فباعت بها وتزودت منها ، وإنها قاصدة الشام خيب الله قصدها»

ومنها «وقد سير الحمل الآن من المجلس العزيزي بحضور فلان وفلان وكلهم مجتهد في الخدمة، ولما عرف المملوك انهم لايطرقون المعنى الذي يطرقه المملوك من تنبيه مولانا على أن يقتصد في الانفاق ، ويقدَّر الاخراج للعلم أن هذا الحجر قد رمينا بعدمه، وسمع بخبر المولى فإنهزم فرارا من سطوة كرمه، والبلاد ليست الآن كعهدها في انقطاع اسفارها ،

ووقوف معائشها، وكساد أسواقها ، وانكسار تجارتها، ولولم تكن الدراهم سلعة لاتخرج من مصركما يخرج الدينار، لما وجدت كما يوجد الدينار، وإن تصريف الدراهم بعد أن يصير مستخرجا بذهب شغل شاغل، واستخراج ثان غير الاول، وعسى الله ان يأتي بالفتح أو أمر من عنده يحدث للاسلام نصرا عزيزا، وللكفر خذلانا سريعاً وجيزا.

مولانا خلد الله ملكه من وراء ضرورة لاتخفى عن المملوك، والماليك من وراء ضرورة لاتخفى عن المولى وصدر المولى بحمد الله واسع وفرج الله منه قريب، وهذه الضائقة لما يريده الله تعالى من حسن موقع الفرج بعدها، فقد انفق المولى مال مصر في فتح الشام، وأنفق مال الشام في فتح الجزيرة، وأنفق مال الجميع في فتح الساحل، وينفق ان شاء الله تعالى مال القسنطنطينية في فتح رومية، والملوك كلهم وكلاؤه وأمناؤه على خزائنهم إلى أن يسلموها إليه فيشكره الله على ماأخرجه في سبيل الله منها، ويمقتهم على ماكنزوه من ذهبها وفضتها، فلا يكن في صدر المولى حرج ولا في خلقه، فإن الله سبحانه لايضيق رزقا على يده الكريمة، لاسيا وقد أجرى عليها ارزاق خلقه»

ومنها «ينهي المملوك وصول رسول ملك الروم بها في صحبته من هدية، وبها على لسانه من رسالة ،وبها على يده من كتاب، وحضر بين يدي الملك العادل وجرى من المفاوضة ما زبدته امتنان الملك بكونه لم يجب رسول ملك الالمان وصاحب صقلية، وغيرهم من جيوش الفرنج إلى الموافقة على حرب السلطان، وإطلاق طريقهم ، وامتنع وسد الدربندات ، وحفظ عليهم الطرق، ووصى أرباب الحصون بالتيقظ لهم والمنع دونهم، وجعل موافقته أن البلاد في هذه السنة غالية السعر، والمصلحة تقتضي أن لاتكون الحركة إلا بقوة وعلى تمكن من الميرة وتأخير والمصلحة المانة الاخرى» ثم قال: «وهذاملك الروم خائف من الفرنج على بلده، مدافع عن نفسه إن تم له الدفع ادعى انه بسببنا، وإن لم يتم

ادعى انه غائب عن مقصده ومقصدنا، وقد جعل مااورده من أن يقال ان البطاركة في قمامة من قبله، وان ينقل من ولاية الفرنج الى ان يوليها الطاغية من أهل عمله سببا يبسط به عذره بزعمه عند أهل جنسه، ويدفع به عن نفسه لاسيها مع إقامة الخطبة الاسلامية، ونقله المنبر وفسحته في الصلاة واعزاز الكلمة الاسلامية، أرغم الله بها أنفه، وعجل بسيفها حتفه، ومولانا ابقاه الله يتثبت في الاجوبة، ولا يحيب الى ماعلى الاسلام فيه غضاضة، ولا الى ما للكفر فيه قوة (ان ينصركم الله فلا غالب الحم) المناب المامية على المابية على على على على على المابية على المابية عنه الله فلا على على المابية المابية

ومن كتاب آخر: " وصل إلى المملوك كتاب يذكر وصول رسل الملك العتيق من قبرس اليه يخبره بعصيانه على ملك انكلتيز ومكاشفته بالعداوة والحرب وانه قدكاتب السلطان أعز الله نصره يبذل له من نفسه العبودية والطاعة والمظاهرة على ملك انكلتيز ، والاخبار متواترة بأن الملك العتيق أحرق مواني قبرس ووعرها وقطع الميرة عن الساحل ، ولا شبهة ان مولانايتقبل من المذكور ويقوي نفسه على هذه المباينة فان في تخاذهم نصرة الاسلام وشغل بعضهم ببعض وافتراق كلمتهم المجتمعة ، وقطعا للميرة عن الشام وامنا لجانب كثير من جوانب البحر ، وهذا الملك العتيق قد صار لمولانا صديق، وماسمي العتيق إلا لانه صار لمولانا عتيقا، ولا اعتبار بحديثنا مع صاحب القسطنطينية في انا ننجده على قبرس، فانا انها وعدنا بالنجدة عليها لما كانت بيد عدونا ، والله ما أفلح ملك الروم قط، ولا نفع ان يكون صديقا ، ولا ضر ان يكون عدوا ، وكذلك صاحب الغرب ، والله يعصمك من الناس.

وقف المملوك على كتاب بغداد والمقصود الذي ندب لأجله الرسول ما ألم بذكره في الكتاب وهي المعونة على الجهاد، وعرف استدعاء المساعدة على تكريت، ولو كان لنا فراغ لما كان النظر الصحيح يقتضيها لانها مهما بقيت في يد من هو الآن بها لكانت في يد المولى أبقاه الله

تعالى، ومها خرجت عنه خرجت عنها، وما نقول انه ليس لنا تطلع الى مثلها لاسيا وهي طريق الى غيرها، وقد فتح الله للمولى ببلاد هي مع سعتها ضيقة عن ربوتها، فللمولى أولاد كثر الله منهم، مامنهم الا من هو متطلع الى مملكة، من هو متطلع الى ملكة، وأمراء مامنهم الا من هو متوقع زيادة، ومماليك مامنهم الا من يريد ان يوفى الحق عليه في الخدمة، ومن سيرة المولى لهذا الأمر عدم من أصحابه منفعة فيها هو أهم مما سار فيه ،ومايليق ان يسير الا من يريهم مايعجزون عنه، ويكون عنوانا لما لعلهم في شك منه من قوة المولى على مايريد، وامساكه مع القدرة، ويرى المملوك ان مطلبهم نقد، ومطلبنا منهم وعد، وان كان ولابد من تسيير فلا يسير الا من يقضي الشغل ، ويستزيد الجعل.

ماتضمنه الكتاب البغدادي من عزم الخليفة على الحج في هذه السنة المملوك يستبعده ،بالاضافة الى الوقت وإلى عادة أهله آخرهم حجا الرشيدرهم الله، ويستقربه بالاضافة الى خلته، وإن سار صلح أن يهتم بها اشار اليه ابن الشهرزوري، ولاشك أنه قد أنسي الرسالة التي توجه فيها ، فإنا بعثاه يلتمس لنا نفقة فالتمسها منا».

وكتب الفاضل الى السلطان: « ينهي المملوك انه عرف تسحب رجل وصبي من القصر الغربي، وإن المؤيد، يعني ابن السلطان، وكان ينوب عن اخيه العزيز بمصر، حضر نائبه الطواشي بهاء الدين واستعلم أمرهما فذكر أن هربها صحيح وأن أحدهما وهوالصبي من جملة ثلاثة وثلاثين ولدا كانوا اطفالا وقت الحوطة عليهم بالقصر الغربي، وقد بلغ هذا وكبر وزاحم عشرين سنة، والآخر كان معتقلا في الايوان فحدثت له خنازير في حلقه ، وأشفى على الهلاك فأمر الطواشي بنقله الى القصر الغربي من الايوان وفك حديدة، وحمل ليتداوى في اوائل سنة ثلاث وثانين، واستمر مرضه واشتد ضعفه وبقي في القصر الغربي الى ان علم انه

تسحب فسأله المملوك عن المستحفظ للقصر الغربي، فذكر أستاذين كان الطواشي اقامها ورضي امانتها وإنها يذكران ان هذا القصر الغربي قدخرب ودثر، واكثرت التسليقات عليه ، ويجاوره اصطبلات فيها جماعة من الخربندية والمفسدين، والتطرق مستمر من هذه الاصطبلات الى من في القصر من النساء، وأنها كانا أنهيا مرة بعد اخرى أن المكان غير حريز، والاعتقال فيه غير وثيق ، قال: وجمعت اصحاب الارباع وجيرة القصر ، ورجوت بترك الشناعة الظفرة بها، والبحث واقع عنها».

وكتب الفاضل عن السلطان الى العادل وهو بمصر: « انتهى الينا بالمديار المصرية ، وبالحضرة العلية، أن جماعة من الفقهاء قد اعتضدوا بجماعة من أرباب السيوف ، وبسطوا ألسنتهم بالمنكر من القول غير المعروف وأنشأوا من العصبية ماأطاعوا فيه القوى الغضبية ، وأحيوا بها ما أماته الله من أهل حمية الجاهلية ، والله سبحانه يقول وكفى بقوله حجة على من كان سميعا مطيعا: (واعتصمو ا بحبل الله جميعا) (١٢٥) ولم يزل التعصب للمذاهب يملأ القلوب بالشحناء ويشحنها، وقد نهى الله عن المجادلة لأهل الخلاف فكيف بأهل الوفاق إلا أن يقال أحسنها ، وماعلمنا أن في ذلك نية تنجد، ولا مصلحة توجد، ولا هداية تعتقد، بدراسة تعقد ، ونار عداوة توقد، وقلها اثمرت المشاجرة الاخلاف، فالمجلس أعزه الله يوعز بكف الألسنة الخائضه، وعقل الأعنة الراكضة، فإن أقنع بلطفه المرضي والا كانت همته الرائضة ، ومن عاد بعد الزاجر أبعد عن مستقره ، وأزعج ، وليسع الخلف ماوسع السلف من الادب ، وليعلم العبد أنه يكتب كتابا الى ربه فليفكر فيها كتب والى من كتب».

## فصل

# في ذكر خروج الفرنج خذهم الله بعزم اللقاء ووصوهم الى رأس الماء

قال العهاد: وذلك يـوم الاثنين حادي عشر شـوال بعد ان رتبـوا على البلد من لازم القتال مع ملك الالمان وخرج معهم المركيس، والكندهري ، واخذوا معهم عليق أربعة أيام وزادها ، واستصحبوا أنجاب الكريهة وأنجادها، وكان مخيم اليزك على تبل العياضية فركبوا واشغلوا القوم بنيران النصال، وألهبوا فنزل العدو تلك الليلة على آبار كنا قد حفرناها عند نزولنا هناك، وباتوا ترميهم وتشويهم وتصميهم الاتراك، وأصبحوا يوم الشلاثاء سائرين الى اللقاء ورفع السلطان تلك الليلة الثقل إلى ناحية القيمون ، وقد امتدت ميمنته إلى الجبار صفا ، وميسرته الى البحر زحفا، وعنده في يمين قلبه أولاده: الافضل، والظاهر، وأخوه العادل في أول الميمنة ، ويليه حسام الدين بن لاجين، ثـم صارم الدين قايهاز النحمي ، ثم حسام الدين بشاره ومعه بدر الدين دلدرم الياروقي، فهولاء عظماء دولته وكبراء مملكته ، ومعهم امراء ومقدمون جريئون مقدمون وكان في الميمنة ايضا ابن صاحب الموصل وعز الدين جرديك النوري وعلى ميسرته صاحب سنجار ، وصاحب الجزيرة وتقى الدين، وابن المشطوب سيف الدين، وخشترين والامراء المكارية والحميدية والزرزارية والمهرانية، وأمراء القبائل من الاكراد، ورجال الحلقة الخاصة واقفون في القلب ، وضرب للسلطان خيمة لطيفة بقرب الخروبة على تـل مشرف، وفي مـرج عكا عين غـزيـرة الماء يجري منهـا نهر كبير الى البحر، فانحرفوا الى غربي النهر ، ونزلوا واعتزوا بالاحتراز واعتزلوا ، فأنهض السلطان اليهم الجاليشية وانتظر من الله في كسرهم المشيه فاستداروا بمركزهم واثخنوا فيهم اللتوت رضا، وبالدبابيس قضا، وبالنصال قرضا، وبالاسنة وخزا ووحضا، وقضوا فيهم من حق الجهاد سنة وفرضا، وكان المراد ان يحتموا فيثوروا حتى يلقاهم ويبوروا ، فهاراموا مكانهم واصبحوا يوم الاربعاء راكبين ، وعن سبيل اللقاء ناكبين ، ووقفوا على صهوات الخيل الى ضحوة النهار ، والراجل محدق بهم كالأسوار وأصحابنا قد قربوا منهم حتى كادوا يخالطونهم ، وارادوا يباسطونهم ، والسلطان يمد الرماة بالرماة ، والكهاة بالكهاة ، وهم ثابتون نابتون، ساكنون ساكتون، ونحن نقول لعلهم يحملون ويغضبون فيجهلون فنتمكن من تفصيل جملتهم بحملتهم ، وتفريق جماعتهم ، وأحس العدو بالضعف وانه متورط في الحتف ، فالجنوا لعجزهم عن الدفاع الى الاندفاع ، وساروا عائدين على هيئة الاجتماع ، والنهر عن يمينهم ، والبحر عن يسارهم ، وقد أيقنوا إن صح منهم الثبات بانكسارهم ، واصحابنا حواليهم ومن ورائهم ، يغرقونهم في دمائهم ، ويشلونهم ويقلونهم وينهلونهم من ماء الحديد ويعلونهم ، ههم يتحركون في سكون ويتظاهرون في كمون ، ويتذوبون في جمود ويتلهبون في خمود، وكلما صرع منهم قتيل حملوه وستروه، وطموا مدفنه وطمروه حتى يخفى أمرهم ولايصح للدينا كسرهم ، ونزلوا ليلة الخميس على جسر دعوق ، وقطعوا الجسر حتى يمنع عبورنا اليهم ويعوق، وأبلى المسلمون في ذلك اليوم في الجهاد بالاء حسنا، وأتوا كل ما كان فيه مستطاعا ممكنا ، وبال إياز الطويل هذا اليوم جهده، وفل في هذا اليوم حده ، وكذلك سيف الدين يازكوج عام في بحرهم وقام بامرهم ، واصبحوا يـوم الخميس الى نار الوطيس ، ووصلوا الى مربضهم ولم يحصلوا على غرضهم ، ونقص منهم خلق ، وعمدنا الى الخيام ظافرين ظفر الكرام ، فمرحين بذل الكفر وعز الاسلام ، وعرف الفرنج مساق خزيهم ، واخفاق سعيهم ، فاحترزوا من الهلكة وماعاد وا الى مثل هذه الحركة.

قال القاضي وكانوا قد جعلوا راجلهم سورا لهم يضرب الناس بالزنبورك والنشاب حتى لايترك احدا يصل اليهم الا بالنشاب ، فإنه كان يطير عليهم كالجراد ، وخيالتهم يسيرون في وسطهم بحيث لم يظهر

منهم أحد في ذلك اليوم أصلا، وعلم العدو مرتفع على عجلة وهو مغروس فيها وهي تسحب بالبغال، وهم يدنون من العلم وهو عال جدا كالمنارة، خرقته بياض ملمع بحمرة على شكل الصلبان ، ولم يزالوا سائرين على هذا الوجه حتى وصلوا وقت الظهيرة الى قبالة جسر دعوق، وقد ألجمهم العطش من شدة الحر ، وأخذ منهم وأثخنتهم الجراح، وكان الفعل معظمه للحلقة المنصورة في ذلك اليوم فإنهم أذاقوهم طعم الموت، و جرح منهم جماعة كاياز الطويل، فإنه قام في ذلك اليوم أعظم مقام يحكي عن الاوائل، وجبرح جراحات متعددة وهو مستمر على القتال ، وجرح سيف الدين يازكوج جراحات متعددة ، وهو من فرسان الاسلام وشجعانه ، وله مقامات متعددة، وجرح خلق كثير في ذلك اليوم ، وعنزم السلطان في تلك الليلة على كبس بقيتهم في الخيم وكتب الى البلد يعرِّفهم ذلك حتى يخرجوا هم من ذلك الجانب ونحن من هذا الجانب، فلم يصل من أهل البلد كتاب، فرجع عن ذلك العزم بسبب تأخر الكتاب، فلما أصبحوا كف السلطان الناس عن القتال خشية ان يغتالوا فإن العدو كان قد قرب من خيمه ووقف الأطلاب في الجانب الشرقي من النهر تسير قبالة العدو حتى وصل الى مخيمه، وكان لهم فيها اطلاب مستريحة فخرجت على اليزك الاسلامي وحملت عليهم، وانتشب القتال بينهم ، فقتل من العدو وجرح خلق كثير منهم شخص كبير فيهم مقدم عندهم ، وكان على حصان عظيم ملبس بالزرد الى حافره، وكان عليه لبس لم ير مثله، وطلبوه من السلطان بعد انفصال الحرب فدفع اليهم جثته وطلب رأسه فلم يوجد ، وعاد السلطان الى مخيمه، وأعيد الثقل إلى مكانه، وعاد كل قوم الى منزلتهم، وكان عهاد الدين زنكي غائبًا بنفسه مع الثقل لمرض كان به، وبقي عسكره فعاد وقد اقلعت حماه وبقى التيآث مزاج السلطان وهو كان سبب سلامة هذه الطائفة الخارجة، لكونه لم يقدر على مباشرة الأمر بنفسه، ولقد رأسه رحمه الله وهو يبكى في حال الحرب ، كيف لم يقدر على مباشرة القوم، ورأيته وهو يأمر أولاده واحدا بعد واحد بمصافحة الأمر، ومخالطة الحرب، ولقد سمعت منه، وقائلا يقول: إن الوخم قد عظم في مرج عكا بحيث أن الموت قد كثر في الطائفتين فأنشد تمثلا:

يريد بذلك انني قد رضيت بأن أتلف أنا إذا تلف أعداء الله، وحدث بذلك قوة عظيمة في نفوس العساكر الاسلامية ، وكان مرض السلطان هو أحد الاسباب الحاملة للفرنج على هذه الحركة ، منضها الى كثرتهم ، وشدة الغلاء والجدب عليهم .

## فصل

# في وقعة الكمين وغيرها ودخول البدل الى عكا

قال العماد: لما كان يوم الجمعة الثاني والعشرون من شوال انتخب السلطان من أجناده عدّه، وكثر لهم العدّة ، وأمرهم أن يكمنوا في سفح تل هو شمالي عكا بعيد من عسكر العدّو بقرب المنزلة العادلية القديمة عند الساحل ، فكمنوا تلك الليلة ، فلما اصبح الصباح ركب منهم عدة يسيرة وساروا نحوالفرنج وصالوا عليهم وأغاروا، فاستقبلهم الفرنج فخرج اليهم اربعاثة فارس ، هكذا قال العاد في البرق- وقال في الفتح ما ثتا قنطاري، وكذا قال ابن شداد ما ثتا فارس وطمعوا في المسلمين فتأخروا قدامهم قليلا حتى أوصلوهم إلى الكمين ، فخرج عليهم أسد العرين ، وقتلوا وأسروا واستولوا عليهم بأسرهم ، فلم ينج منهم ناج، ووقع في الاسر مقدمون أكابر منهم خازن الملك وجماعة من الافرنسيسية ، وركب السلطان فرحا بهذه البشارة ووقف على تل كيسان وقد توافت إليه الاسرى والأسلاب فترك الأسلاب والخيول لآخذيها، وكانت مقومة بأموال عظيمة ، فها أعارها طرفا ولا تردد أمره فيها، وجلس وأحضر الأسرى وباسطهم وأطعمهم وكساهم واذن لهم في أن يسيروا غلمانهم الحضار مايريدون احضاره ، ثم نقلهم الى دمشق للاعتقال، وحفظهم بالقيود الثقال.

قال القاضي ابن شداد: ولما هجم الشتاء وهاج البحر، وأمن العدو من أن يضرب مصاف وان يبالغ في طلب البلد وحصاره من شدة الأمطار وتواترها أذن السلطان للعساكر في العودة الى بلادها ليأخذوا نصيبا من الراحة، فسار عهاد الدين صاحب سنجار خامس عشري شوال وعقيبة ابن اخيه صاحب الجزيرة بعد ان افيض عليها سن التشريف والانعام والتحف ما لم ينعم به على غيرهما، وسار علاء الدين ابن صاحب الموصل في أول ذي القعدة مشرفا مكرما ، وسار الظاهر في المحرم سنة سبع ، وتقي الدين في صفر منها، ولم يبق عند السلطان إلا نفر يسير من الأمراء والحلقة الخاصة.

قال العهاد: واشتغل السلطان بادخال البدل الى عكا وحمل المير والذخائر ، وأخرج من كان بها من الأمراء لعظم شكايتهم من طول المقام بها ومعاناة التعب والسهر وملازمة القتال ليلا ونهارا ، وكان مقدم البدل الداخل من الأمراء سيف الدين المشطوب دخل في سادس عشر المحرم سنة سبع، وفي ذلك اليوم خرج المقدم الذي كان بها وهو الامير حسام الدين أبوالهيجاء وأصحابه، ومن كان بها من الأمراء، ودخل مع المشطوب خلق من الامراء وأعيان من الخلق ، وتقدم الى كل واحد أن يصحب معه ميرة سنة كاملة ، وانتقل العادل بعسكره الى حيفا على شاطىء النهر ، وهو الموضع الذي تحمل منه المراكب وتدخل الى البلد واذا خرجت تخرج إليه، فأقام ثم يحث الناس على الدخول ويحرس المير والذخائر لئلا يتطرق اليها من العدو من يتعرضها،وكان مما دخل اليها سبع بطس مملوءة ميرة وذخائر ونفقات كانت وصلت من مصر، وكان دخُولها يـوم الاثنين ثاني ذي الحجة ، فانكسر منهـا مركـب على الصخر الذي هو قريب المينا فانقلب كل من في البلد من المقاتلة الى جانب البحر لتلقى البطس وأخذ ما فيها، ولما علم العدو انقلاب المقاتلة الى جانب البحر اجتمعوا في خلق عظيم ، وزحفوا على البلد من جانب البر زحفة عظيمة ، وقاربوا الأسوار وصعدوا في سلم واحد فاندق بهم السلم ، كما شاء الله تعالى ، وأدركهم أهـل البلد فقتلُوا منهم خلقا عظيماً وعادوا خائبين خاسرين ، وأما البطس فإن البحر هاج هيجانا عظيها وضرب بعضها ببعض على الصخر فهلكت وهلك جميع ما كان فيها ، وهلك فيها خلق عظيم قيل كان عددهم ستين نفراً ، وكان فيها ميرة عظيمة لو سلمت لكفت البلد سنة كاملة ، ودخل على المسلمين من ذلك وهن عظيم ، وحرج السلطان لذلك حرجا شديدا ، وكان ذلك أول علائم أنفذ البلد.

وقال العماد: لما دخل الشتاء وعصفت الاهواء ووقع في سفن الفرنج الكسر انفذوها الى الجزائر للاحتياط ، وخافوا عليها من اختباط البحر.

وقال في الفتح: نقل الفرنج سفنهم خوفا عليها الى صور فربطوها بها، فخلا وجه البحر من مراكبهم ، وحصل الامن فيه من جانبهم ، وكان اصحابنا في البلد قد ملوا فشكوا ضررهم وضجرهم وكانوا زهاء عشرين ألف رجل من أمير ومقدم وجندي واسطولي وبحري ومتعيش وتاجر وبطال وغلمان ونواب وعمال ، وقد تعدر عليهم الخروج، فرأى السلطان ان يفسح لهم فيه رفقا بهم ورأفة ، وماأفكر أن في ذلك مخافة وآفة ، وأشير على السلطان بترتيب البدل وتكفل العادل بذلك وانتقل بمخيمه الى سفح جبل حيفا قاطع النهر ، وتقدم بجمع السفن للنقل واجتمع المنتقلون بالساحل على الرمل، فمن نجز أمره انتقل ، وكان الرأي ازاحةً علة المقيمين فإنهم قد جربوا وصبروا وخبروا وهم كنفس واحدة وكانوا في ثروة وكرم ونخوة ، وفيهم أبوالهيجاء السمين ، وله أتباع وأشياع ، وله في شرع السياحة اقتداء بالسلطان وأوضاع ، ولعله انفق من ماله في تلك السنة خسين ألف دينار ، فلما فسح لمم في الانتقال لأجل الاستبدال انتشر ذلك الضم ، وانتشر ذلك النظم ، ودخل الى عكما من لم يجرب حصارها ، ولم يخبر منافعها ومضارها، وماثبت ممن كان مقيها بها إلا الأمير بهاء الدين قراقوش ، ودخل عشرون مقدما وأميراً شبه المكرهين ، عوض ستين ، واستخدمت الرجال وانفقت الأموال ، وتفاوت الداخلون والخارجون ، فلا جرم وقع الوهن ، وقضي الامر، وتكفل بالداخلين المشطوب، وضاع الزمان وتعذر الامكان بعود مراكب العدو ، فلم يستتم البلد ماكان يحتاج اليه من الرجال والاموال ، فان كل من عين للدخول

#### \_ **۸۷**۸۸ \_

كرهه وصار يتوسل في ان يعفى ويبذل في نفسه الفداء ، ثم الحقت كلمة الدخول على من تعين له استمهلوا زمانا يتهيأون فيه للدحول ولإنفاذ قضاء الله تعالى أسباب لابد من وقوعها.

### فصل

# في باقي حوادث هذه السنة

قال العماد: وفي ليلة سابع ذي الحجة وقعت قطعة عظيمة من سور عكا، فانثلم الثغر، وبادر الفرنجة اليها فجاء أهل البلد وسدوها بصدورهم وقاتلوا عنها الى ان بنوها ، وعادت أقوى مما كانت.

وفي ثاني ذي الحجة هلك ابن ملك الالمان ، وكندكبير ، يقال له كند بنياط، ومرض الكندهري وصار يموت من الفرنج كل يوم المائة والمائتان،وحزن الفرنج على ابن ملك الألمان حزنا عظيما ، وأشعلوا نيرانا هائلة بحيث لم تبق خيمة الا اشتعل فيها الناران والثلاثة بحيث بقي عسكرهم كله نارا تقد، وحصل للمسلمين غنائم أخر كثيرة في سرايا سرية ، وأساطيل بحرية ، ومن جملة ذلك ملوطة ، مكللة باللؤلؤ منوطة، وبأزرار الجوهر مربوطة ، قيل إنها من ثياب ملك الالمان ، وكان قد استأمن من الفرنج خلق عظيم أخرجهم الجوع الينا وقالوا للسلطان: نحن نخوض البحر في براكس ونكسب من العدو ويكون الكسب بيننا وبين المسلمين، فأذن لهم في ذلك وأعطاهم بركوسا ، وهو المركب الصغير ، فركبوا فيه وظفروا بمراكب لتجار العدو وبضائعهم معظمها فضة مصوغة وغير مصوغة، فأسرهوهم وكبسوهم وأحضروهم بين يدي السلطان ، فأعطاهم السلطان جميع ماغنموه.

قال العهاد: فلما أكرموا بهذه المكرمة أثنوا على اليد المنعمة، وأسلم منهم شطرهم واحضروا مائدة فضة عظيمة ، عليها مكبة عالية، ومعها طبق يهاثلها في الوزن، ولو وزنت تلك الفضيات لقاربت قنطارا، فما أعارها السلطان طرفه احتقارا.

قال: واستشهد في عكا سبعة من الأمراء منهم الأمير سوار الدين، والتقى في هذه السنة شواني المسلمين بشواني الفرنج في البحر، فأحرقت للكفر شواني برجالها، وكان عند العود تأخر لنا شيني مقدمه الامير جمال الدين محمد بن ارككز، فأحاطت به مراكب العدو فتواقع ملاحوه الل الماء، وسلموه الى البلاء، فقاتل وصبر فعرضوا عليه الأمان فقال: ما أضع يدي إلافي يد مقدمكم الكبير، فلا يخاطر الخطير إلا مع الخطير، فجاء اليه المقدم الكبير، وظن أنه قد حصل له الأسير، فعاقره وعانقه فجاء اليه المقدم الكبير، وظن أنه قد حصل له الأسير، فعاقره وعانقه وقوي عليه ومافارقه ووقعا في البحر وغرقا، وترافقا في الجام واتفقا، وعلى طريقي الجنة والنار افترقا، واستشهد أيضا الأمير نصير الحميدي.

قال: وفي تاسع جمادى الأول قتل القاضي المرتضى بن قريش الكاتب في خيمته، قتله شريك له في دار بنابلس أراده على بيعها، وخرج من خيمته فوجد قاضي نابلس فقتله، وضربه وما أمهله، ومر لينجو فأدرك، وضرب بعمود خيمة فأهلك ، واستكتب السلطان اخا المستشهد مكانه، فلم يبلغ في الاحسان ميدانه.

قال : وفي هذه السنة ورد كتاب سيف الاسلام اخي السلطان من اليمن يذكر استيلاءه على صنعاء واستنابة ولده شمس الملوك فيها.

قال: ووصل القاضي الفاضل من مصر الى المعسكر المنصور في ذي الحجة ، وكان السلطان متشوقا لقدومه وطالت مدة البين لغيبته عنه سنتين ، على ان امور المالك بمصر كانت بحضوره مستتبة ، وقد جمع الملك العزيز بمقامه هيبة ومحبة، وكان السلطان شديد الوثوق بمكانه ، دائم الاعتباد والاستناد على احسانه ، وإلى اركانه فان استقدمه خاف على ماوراءه من المهام ، وإن تركه نال وحشة التفرد بالقضايا والاحكام ، وكان يكاتبه بشرح الاحوال يستشيره والنجابون مترددون بالمكاتبات والمخاطبات ، والاستشارة في المهات ، فوصل الى القدس واعتاق بتوالي

الامطار، ثم وصل في ذي الحجة ،ورجع الفضل، واجتمع الشمل، واستأنس الملك بصاحب تدبيره، وتأسس ركنه برأي مشيره.

قلت: وفي جمادى الاولى من هذه السنة توفي بالموصل قاضي القضاة محيي الدين ابو محمد بن قاضي القضاة كمال الدين بن الشهرزوري، وقد اثنى العماد الكاتب عليه في الخريدة ثناءً كثيرا وانشد له اشعارا حسنة منها في التوحيد:

قامت باثبات الصفات أدلة قصمت ظهور أثمة التعطيل وطللائع التنزيد للأأقبلت هزمت ذوي التشبيه والتمثيل فالحق ماصرن الإليه جميعنا بأدلة الاخبار والتنزيل من لم يكن بالشرع مقتديا فقد ألقاء فسرط الجهل في التضليل

وله في مدح الصحابة رضي الله عنهم:

لائم في ه وى الصحاب بي الله عنهم:

لابلغ بي المناب بي ولا بي الله بي ولا بي الله بي ولا بي بي ولا بي والبصر وه بي والبصر وم بي والبصر وم بي والبصر وم بي وم بي وم بي والبصر وم بي وم ب

## - YPYA -

ئــــم عثمان بعـــده وعليّ على الاثــــرافضي حســـبك أيها الـــرافضي حســبك فــالحق قــد ظها ــر(١٢٧)

## ثم دخلت في سنة سبع وثمانين

ففيها وصل إلى الفرنج ملك افرنسيس وملك انكلتيـز وغيرهما ، واخذت عكا يسر الله فتحها .

قال العهاد: والغيم في هطلانه ، والبحر في هيجانه ، والسلطان مقيم بمخيمه على شفر عم، ولطف الله به قد خص وعم ، والعادل نحيم قاطع نهر حيفًا على الرمل ، وسفن البدل الى عكا في البحر متصلة السبل، والفرنج مستمرون على الحصار ، متحرزون من الاصحار، ونوب اليزك راتبه، ووظائف الجهاد مواظبة ، وووصل من الديوان العزيز مثال ومعه مكاتبة للملك الافضل وفيها اكرام واجلال وفضل وافضال.

وفي ثالث صفر رحل تقي الدين لتسلم البلاد التي اضيفت اليه شرقي الفرات ، وكان له بالشام المعرة وهماه وسلمية ، وجبلة ، واللاذقية ، وبالجزيرة ديار بكر وحران والرها والموزر ، وسميساط وضياعها ، وميافارقين وحصونها واعمالها وقلاعها ، وسار على أنه يرجع عن قريب ، فأبطأ وتشوف الى افتتاح مايجاوره من البلاد ، وسار الى ميافارقين فكان السلطان ينسب ماجرى من استيلاء الكفارعلى عكا بعد قضاء الله تعالى الى غيبته ، فإنه تأخرت عساكر تلك البلاد الشرقية لخوف مضرته ، وجور مهاورته ، وسياتي ذكر وفاته في آخر السنة.

ووصل كتاب المجاهد أسد الدين شيركوه أنه اغار على جشير للفرنج بطرابلس فاستاقه ، ولم يطق الكفار لحاقه ، واقتطع لخاصته منه أربعائة رأس تلف في الطريق منها أربعون، وغنم أبقارًا وغنها ، وانفذ للعهاد منها بغلة، وذلك رابع صفر.

وفي ليلة هذا اليوم القت الريح مركبا للعدو على الزيب فكسرته، وكان فيه خلق عظيم منهم، فغرق بعضهم وأسر بعض، وفيهم امرأتان

سبيتا. وفي ليلة أول ربيع الاول خرج أصحابنا من البلد وهجموا على العدو وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، وأخذوا منهم من جيمهم جمعا عظيما منهم اثنتا عشرة أمرأة ، وفي ثالث ربيع الأول كان اليزك للحلقة السلطانية ، وخرج اليهم من العدو خلق ، وجرى بينهم وقعة شنيعة ، وقتل فيها من العدو جماعة منهم مقدم كبير، ولم يفقد من المسلمين الا خادم رومي صغير عشر به في الحملة فرسه يسمى قراقوش ، وكان شجاعًا له وقعات، وفي تاسع ربيع الاول بلغ السلطان ان العدو يخرج منه طائفة للاحتشاش، فأمر العادل ان يكمن بالعسكر خلف التل الذي كانت فيه الوقعة المعروفة به، وسار هو فكمن وراء تل العياضة ومعه من أولاده الصغار ، والقاضي الفاضل وانذر الفرنج ، ولم يخرج منهم أحد ، ووصل في أثناء ذلك آليوم خمسة وأربعون أسيرا من الفرنج احذوا في بيروت، فيهم شيخ كبير هرم لم يبق في فمه ضرس ، ولم يبق فيه قوة إلا مقدار مايتحرك، فسأله عن مجيئه فقال للحج إلى قامة ، وبيني وبين بلادي مسيرة اشهر، فرق له واطلقه وأعاده إلى العدو راكبا على فرس، وطلب أولاده الصغار أن يأذن لهم في قتل أسير فلم يأذن ، وسئل عن ذلك فقال النالا يعتادوا من الصغر سفك الدم ويهون عليهم وهم الآن لايفرقون بين المسلم والكافر. ثم لما أقبل الربيع توافت العساكر وفاء بموعدها، فوصلت في شهر ربيع الأول فأول من قدم الأمير علم الدين سليهان بن جندر صاحب قلعتي عزاز وبغراس ، وهو شيخ له رأي وتجربة ومنزلة كبيرة ومرتبة ، والملك الأمجد صاحب بعلبك وبدر الدين مودود والي دمشق في رجالهم وإبطالهم ، وفي كل يوم يقدم أمير بعد أمير ، والله يتولى التدبير، وكان قد شاع الخبر بأن ملوك الفرنج واصلون ،وهم حاشدون حافلون فوصل ملك افرنسيس فليب في عدة من عبدة الصليب ، ثناني عشر ربيع الأول في سنت بطس عظام ، مملوءة بفوارس ذوي اقدام ، فقلنا ما حمل الماء إلا أهل النار ، وما أجلب للدوابر الا الدبار ، وكان عظيها عندهم من كبار ملوكهم ينقادون له بحيث اذا حضرحكم على الجميع، ومازالوا يتواعدونا به حتى قدم وصحبه من بلاده باز عظيم عنده، هائل الخلق ابيض اللون نادر الجنس، وكان يعزه ويجبه حبا عظيما، فطار من يده حتى سقط على سور عكا، فاصطاده أصحابنا وانفذوه الى السلطان، وبذل الفرنج فيه ألف دينار فلم يجابوا.

قال القاضي ابن شداد: ولقد رأيته وهو يضرب إلى البياض مشرق اللون، مارأيت بازيا أحسن منه.

قال العماد: وكان مع هذا الملك باز أشهب ، كأنه عند إرساله نار تتلهب، ففارقه يوم وصوله بحيث عجز عن حصوله ، وكان في ظن الفرنج انه يقدم في جمع جم ، فلما رأوا جمعه قليلا سقط في أيديهم، فوعدهم بالمدد خلفه.

قال القاضي: وقدم بعده كند فرير وكان مقدما عظيها عندهم مذكور، كان حاصر هماه وحارم عام الرملة ، وفي ثاني عشر ربيع الآخر وصل كتاب من اللاذقية أن جماعة من المستأمنين نزلوا ناحية من جزيرة قبرس في عيد لهم، وقد اجتمع جمع كبير في بيعة قريبة من البحر ، وانهم صلوا معهم صلاة العيد، فلها فرغوا من الصلاة ضربوا على كل من كان في البيعة من الرجال والنساء عن آخرهم حتى القسيس وحملوهم الى مراكبهم وساروا بهم الى اللاذقية، وكان فيهم سبع وعشرون امرأة، وكانوا قد اغلقوا باب الكنيسة عليهم ليامنوا افلاتهم وأسروهم بأسرهم ، وكنسوا جميع مافي الكنيسة من الامتعة والاعلاق النفيسة ، واقتسموها فوصل الى كل واحد على ما قيل أربعة آلاف درهم من الفضة النقرة، كذافي كتاب القاضي.

وقال العاد في الفتح: وقيل حصل لكل واحد منهم على كشرتهم

أربعهائة درهم ، وهجم جماعة من العسكرية على غنم العدو فأخذوها وكان عددها مائة وعشرين رأسا، وركبوا في طلبها بأسرهم بخيلهم ورجلهم في اثرهم ، فلم يظفروا بطائل ، ولم يرجعوا بحاصل.

قال العياد: كان عز الدين سامة متولي بيروت ، ولم يكن لمراكب العدوبد من الجواز بها أو بقربها ، واذا عبرت أخذت ، وإن كانت مستعدة لحربها، فغنم هو ورجاله مغانم خلدت له ادخار الغنى ، وكثرت في البحر غزواته، ووصل ملك الاهلتيز إلى قبرس في السادس والعشرين من ربيع الآخر ، واشتغل بها عن الوصول الى عكاحتى أخذها عنوة من صاحبها ، وكانت مقدمات سفنه قد وصلت فاستولى سامة على خمس منها مملوءة رجالا ونساء وأموالا وخيلا، وكان في الزيب وهو شهالي عكا طائفة من المسلمين يجهزون السفن الداخلة الى عكا، ويقطعون الطريق على الفرنج.

قال القاضي: وكان للمسلمين لصوص يدخلون الى خيام العدو فيسرقون منهم حتى الرجال ويخرجون ، فأخذوا ذات ليلة طفلا رضيعا له ثلاثة أشهر ، فلما فقدته أمه باتت مستغيثة بالويل والثبور في طول تلك الليلة ، حتى وصل خبرها الى ملوكهم فقالوا لها: إن السلطان رحيم القلب، وقد أذنا لك في الخروج اليه، فاخرجي واطلبيه منه فإنه يرده عليك ، فخرجت تستغيث الى اليزك الاسلامي، وأخبرتهم بواقعتها فأطلقوها وأنفذوها الى السلطان فأتته وهو راكب على تل الخروبة ، وانا في خدمته، وفي خدمته خلق عظيم ، فبكت بكاء شديدا وأمرغت وجهها في التراب فسأل عن قصتها فأخبروه، فرق لها ودمعت عينه، وأمر باحضار الرضيع فمضوا ووجدوه قد بيع في السوق، فأمر بدفع ثمنه الى المشتري وأخذه منه ، ولم يزل واقفا رحمة الله عليه حتى أحضر الطفل وسلم اليها ، فأخذته وبكت بكاء شديداً، وضمته إلى صدرها والناس وسلم اليها ، فأخذته وبكت بكاء شديداً، وضمته إلى صدرها والناس

ينظرون اليها ويبكون وأنا واقف في جملتهم فأرضعته ساعة ، ثم أمر بها فحملت على فرس وألحقت بمعسكرهم مع طفلها.

قال: فانظر الى هذه الرحمة الشاملة لجنس الانس، اللهم إنك خلقته رحيا فارحمه رحمة واسعة آمين.

قال: وفي ذلك اليوم وصل ظهير الدين ابن البلنكري، وكان مقدما من أمراء الموصل، مفارقا لهم طالبا خدمة السلطان.

### فصل

# في مضايقة العدو خذله الله لعكا يسر الله فتحها واستيلائهم عليها

قال العاد: لما كان يوم الخميس رابع جمادى الأولى، زحف الفرنج الى عكا، ونصبوا عليها سبعة مجانيق، ووصلت كتب من عكا الى السلطان بالاستنفار العظيم والتهاس شنغل العدو عنهم ،فركب السلطان . بعسكره وكان هذا دأبه معهم كلما نابوا البلد نابهم ، فاذا زحف اليهم رجعوا عن الحصر ، وإذا رجع عنهم عاودوه ، وكان علامة بين السلطان وأهل البلد أنه متى زحف الفرنج عليهم دقوا كؤوسهم فتدق كؤوس السلطان إجابة لهم، واستبعد السلطان منزلته فتحول الى تل العياضية تاسع جمادي الاولى ، ووصل ملك الانكلتيز ثالث عشر جمادي الاولى من قبرس ومعه خمس وعشرون قطعة ، وهو في جمع شاك وجمر ذاك فبلي الثغر منه بغير البلاء الاول، هذا ومجانيق الكفر على الوغى مقيمة، وللرمي مديمة، وتمكن الفرنج بها من الخندق، فدنوا منه دنو المحنق، وشرعوا في هجمه واسرعوا الى طمه، وداموا يرمون فيه جشث الاموات ، وجيف الخنازير والدواب النافقات، حتى صاروا يلقون فيه قتلاهم ، ويحملون اليه موتاهم ،وأصحابنا في مقابلتهم ومقاتلتهم ، قد انقسموا فرقتين ، وانقسموا قسمين ، ففريق ينقي الخندق وما ألقى فيه ، وفريق يقارع العدو ويلاقيه.

قال القاضي: ولقد بلغ من مضايقتهم البلد ومبالغتهم في طم خندقه انهم كانوا يلقون فيه موتى دوابهم، وكانوا اذا جرح منهم واحد جراحة مثخنة موتسة ألقوه فيه، وانقسم أهل البلد أقساما قسم ينزلون الى الخندق ويقطعون الموتى والدواب التي يلقونها فيه قطعا ليسهل نقلها

وقسم ينقلون مايقطعه ذلك القسم ويلقونه في البحر ، وقسم يذبون عنهم ويدافعون حتى يتمكنوا من ذلك ، وقسم في المنجنيقات وحراسة الاسوار ، وأخذ منهم التعب والنصب ، وتواترت شكايتهم من ذلك.

قال: وهذا ابتلاء لم يبتل به احد ولا يصبر عليه جلد، والسلطان رحمه الله لايقطع الزحف عنهم والمضايقة لهم على خنادقهم بنفسه وخواصه وأولاده ليلاً ونهارا حتى يشغلهم عن البلد، وصوبوا منجنيقاتهم الى برج عين البقر، وتواترت عليه أحجار المنجنيقات ليلاً ونهاراً حتى أثرت فيه الاثر البين، وكلما ازدادوا في قتال البلد ازداد السلطان في قتالهم، وكبس خنادقهم والهجوم عليه، ودام ذلك حتى وصل ملك الانكلتيز.

قال: وفي سادس عشر جمادى وصلت بطسة من بيروت عظيمة هائلة مشحونة بالآلات والمير والرجال والابطال المقاتلة ، وكان السلطان قد امر بتعبيتها في بيروت وتسييرها ، ووضع فيها من المقاتلة خلقا عظيما حتى تدخل الى البلد مراغمة للعدو، وكان عدة رجالها المقاتلة ستهائة وخسين رجلا ، فاعترضها ملك الانكلتيز الملعون في عدة شواني قيل إنها كانت اربعين قطعة، فاحتاطوا بها من جميع جوانبها واشتدوا في قتالها ، وجرى القضاء بأن وقف الهواء فقاتلوها قتالا شديدا وقتل من العدو عليها خلق عظيم ، وأحرقوا على العدو شانيا كبيرا فيه خلق كثير فهلكوا عن آخرهم وتكاثروا على أهل البطسة، وكان مقدمهم رجلا جيدا شجاعا مجربا في الحرب اسمه يعقوب من أهل حلب، فلما رأى مهذه البطسة شيئا ، فوقعوا في البطسة من جوانبها بالمعاول يهدمونها حتى أمارات الغلبة عليهم، قال: والله لانقتل الا عن عز ولا نسلم اليهم من فتحوها من جانب أبوابا فامتلات ماء، وغرق جميع من فيها ومافيها من فتحوها من جانب أبوابا فامتلات ماء، وغرق جميع من فيها ومافيها من فتحوها من جانب أبوابا فامتلات ماء، وغرق جميع من الغرق ومثلوا به كان فيها وأخذوه إلى الشواني من البحر ، وخلصوه من الغرق ومثلوا بهكان فيها وأخذوه ولى الشواني من البحر ، وخلصوه من الغرق ومثلوا بهكان فيها وأخذوه ولى الشواني من البحر ، وخلصوه من الغرق ومثلوا بهكان فيها وأخذوه ولى الشواني من البحر ، وخلصوه من الغرق ومثلوا به

وأنفذوه إلى البلد ليخبرهم بالواقعة ، وحزن الناس لذلك حزناً شديداً والسلطان يتلقى ذلك بيد الاحتساب في سبيل الله تعالى والصبر على بلائه.

قال: وكان العدو المخدول قد صنع دبابة عظيمة هائلة اربع طبقات الاولى من الخشب، والثانية من الرصاص، والثالثة من الحديد، والرابعة من النحاس، وكانت تعلو على السور ويركب فيها المقاتلة، وخاف أهل البلد منها خوفا عظيها، وحدثتهم نفوسهم بطلب الأمان من العدو وكانوا قد قربوها من السور بحيث لم يبق بينها وبين السور الا مقدار خمسة اذرع على مانشاهد، وأخذ أهل البلد في تواتر ضربها بالنفط ليلا ونهارا حتى قدر الله تعالى حريقها، واشتعال النار فيها وظهر لها ذؤابة نار نحو السهاء واشتدت، الأصوات بالتكبير والتهليل، ورأى الناس ذلك جبرا لذلك الوهن، ومحواً لذلك الاثر، ونعمة وايناسا بعد يأس، وكان ذلك في يوم غرق البطسة

قال العهاد: فكان ذلك تشميتا لتلك العطسه ، ثم جرى بعد ذلك عدة وقعات في هذا الشهر ، وهو جمادى الأولى، وهجم المسلمون خيم العدو ونهبوها ، ووصل رجل كبير من أهل مازندان يريد الغزاة ، فوصل والحرب قائمة فحمل حملة استشهد فيها في تلك الساعة ، ولم تزل الأخبار تتواصل من أهل البلد باستفحال أمر العدو والشكوى من ملازمتهم قتالهم ليلا ونهاراً، وذكر ما ينالهم من التعب العظيم من تواتر الأعمال المختلفة عليهم من حين قدوم الانكلتيز الملعون ، ثم مرض مرضا شديدا اشفى فيه على الهلاك ، وجرح الافرنسيس، ولايزيدهم ذلك إلا إصرارا وعتوا ، وهرب الى السلطان خادمان ذكرا أنها لاخت ملك الانكلتيز وأنها كانا يكتمان إيمانها ، فقبلهما السلطان وأكرمهما ، فهرب أيضا المركيس منهم إلى صور، وكان قد استشعر منهم أن يخرجوا ملكها عن يده.

قال العماد في البرق: ولما اعوزت الفرنج الحيل ، وأعجزتهم تفاصيل تدابيرهم والجمل ، وذلك أن أبرجتهم الخشبية أحرقت ، وستائرهم ودباباتهم وكباشهم وزعت ومزعت ومزقت ، اقاموا قدام خيامهم صوب عكا تلا من التراب مستطيلاً ، ورفعوه كثيبا مهيلا ، ثم نقلوه وحولوه وكانوا يقفون وراءه، ويحولون الى قدامه ترابه، ويقربون الى قرب البلد رقابه، فهم من خلفه من النكايات محجوبون ، يشبون ويـذبون، ويدبرون الحرب الربون ، والتل المتحول الى البلد قد أعيا على أهل الجلد، لاتعمل فيه النار، ولايصل الى دفعه الاقتدار ، حتى صار من المدينة على نصف غلوة سهم، ورمي بكل جمرة ورجم، فما يـزيد في كـل يوم إلا قرباً ، وما يجر في كل وقت الا خطبا أو حربا، وكان الاصحاب يخرجون من البلد اليه ويقاتلون عليه، ويطيفون بحول الله حواليه ، ومن كتاب فاضلي إلى الديوان: « ماقطع الخادم الخدم الا لانه قد اضجر وإسأم من المطالعة بخبر هذا العدو اللذي قد استفحل أ مره واستشر شره ، فإن الناس ما سمعوا ولا رأوا عدوا حاصرا محصورا ،غامراً مغمورا قد تحصن بخنادق يمنع الجائز من الجواز ،ويعـوق الغرض عن الانتهاز ، ولا تقصر علمتهم عن خمسة آلاف فارس ومائة الف راجل ، وقد أفناهم القتل والأسر ، وأكلتهم الحرب ، ولقمهم النصر ، وقد أمدهم البحر بالبحار ، وأعان أهل النار، واجتمع في هذه الجموع من الجيوش الغربية والألسنة الاعجمية من لا يحصر معدوده ، ولا يصور في الدنيا وجوده، فما احقهم بقول أبي الطيب:

تجمسع فيه كرلسن وأمسة فما يفهم الحداث إلا التراجسم

حتى انه اذا اسر الاسير واستامن المستامن احتيج في فهم لغته الى عدة تراجم ينقل واحد عن آخر ، ويقول ثان مايقوله اول، وثالث مايقوله ثان، والاصحاب كلوا وملوا ، وصبروا الى ان ضجروا ، وتجلدوا الى ان تبلدوا ، والعساكر التي تصل من المكان البعيد لاتصل الا وقد

كل ظهرها وقل وفرها وضاق بالبيكار صدرها، ولا تستفتح الا بطلب الدستور، ويصير ضجرها مضرا بالسمعة عند العدو المخذول، ولهم قاتلهم الله تنوع في المكائد فإنهم قاتلوا مرة بالابرجة، وأخرى بالمنجنيقات ، ورادفة بالدبابات، وتابعة بالكباش وآونة باللوالب، ويوما بالنقب وليلا بالسرابات، وطورا بطم الخنادق وآنا بنصب السلالم، ودفعة بالزحوف في الليل والنهار، وحالة في البحر بالمراكب، ثم شرعوا فأقاموا في وسط خيامهم حائطا مستطيلا يشبه السور من التراب، وتلالا تشبه الأبرجة مدورة، ورفعوها بالاخشاب وعالوها بالحجارة، فلما كملت أخذوا التراب من ورائها ورموه قدامها وهم يتقدمون أول أول، وترتفع حالا بعد حال، حتى صارت منه كنصف غلوة سهم، وقد كان الحجر والنار تؤثران في أبرجة الخشب، وهذه أبراج وستائر للرجال والمنجنيقات من العطب، لاتؤثر فيها الحجارة الرامية، ولا تعمل فيها اللنجنيقات من العطب، لاتؤثر فيها الحجارة الرامية، ولا تعمل فيها النار الحامية».

قال ووصل في آخر جمادى الأولى من العساكر الاسلامية مجاهد الدين يرنقش ، ومعه عسكر سنجار ، وفي ثاني جمادى الآخرة ابن صاحب الموصل، وجماعة من أمراء مصر والقاهرة ،كعلم الدين كرجي وسيف الدين سنقر الدووي وغيرهمامن الأسدية والناصرية ، وأما عساكر ديار بكر فانهم تأخروا واعتذروا بالخوف من جوار تقي الدين ، وكان قد تعرض للسويدا وغيرها، وصعب ذلك على السلطان ، وقال : هذا من عمل الشيطان ، وفي مثل هذا الوقت نعرض لهذا المقت، وإني أخاف عليه في هذه السنة ، حيث أساء عند إمكان الحسنه ، واشتد مرض عليه في هذه السنة ، حيث أساء عند إمكان الحسنه ، واشتد مرض من الله عظيمة، فإن البلد كان قد ضعف من فيه ضعفا عظيما ، وهدمت المنجنيقات من السور مقدار قامة الرجل ، فكان في هذه الفترة للبلد بقاء رمق ، وزوال فرق ، وانتعاش عثرة، وانجبار كسرة.

قال القاضى: واللصوص يدخلون عليهم إلى خيامهم ،ويسرقون أقمشتهم ونفوستهم، ويأخذون الرجال في عافية بأن يجيئوا الى الواحد وهو نائم فيضعوا على حلقه السكين ،ويوقظونه ويقولون له بالاشارة : إن تكلُّمت ذبحناك ويحملونه ويخرجون به إلى عسكر المسلمين ، وجرى ذلك مراراً كثيرة، ثم تكررت الرسائل من الفرنج إلى السلطان شغلا للوقت بها لاطائل تحته، منها ان ملك الانكلتيز طلب الاجتماع به، ثم فتر بعد أياما، ثم جاء رسول يطلب الاستئذان في اهداء جوارح جاءت من البحر ويذكر انها قد ضعفت وتغيرت ،وطلب أن يحمل لها دجاج وطير تأكله لتقوى ثم تهدى ، ففهم انه يحتاج الى ذلك لنفسه لأنه حديث عهد بمرض ، ثم نفذ أسيرا مغربيا عنده فأطلقه السلطان ، ثم أرسل في طلب فاكهة وثلج فأرسل اليه ذلك، وكان غرضهم من ذلك تفتير العزمات وتضييع الأوقات على المسلمين، وهم مشتغلون بالحصر وموالاة الرمي والجد في الزحف حتى تبدلت قوة البليد بالضعف، وتخلخل السور وأنهك التعب والسهر أهل البلد لقلة عددهم وكثرة الاعمال عليهم حتى ان جماعة منهم بقوا ليالي عدة لاينامون أصلا ليلا ولا نهارا، والعدو عددكثير يتناوبون على قتالهم، واشتد ذلك عليهم سابع جمادى الآخرة ، فركب السلطان بالعسكر الاسلامي ورغبهم ونخاهم وزحف على خنادق القوم حتى دخل فيها العسكر، وجرى قتال عظيم ،وهو كالوالدة الثكلي يحرك فرسه من طلب الى طلب، ويحث الناس على الجهاد وينادى بنفسه: ياللاسلام وعيناه قد فارت بالدمع، وكلما نظر الى عكا وماحل بها من البلاء وما يجري على من بها من المصاب العظيم اشتد في الزحف والحث على القتال ، ولم يطعم في ذلك اليوم طعاماً البتة، وأنها شرب شيئا أشار به الطبيب، ولماهجم الليل عاد ألى الخيم وقد أخذ منه التعب والكآبة والحزن، ثم ركب سحرا وصبحوا على ما أمسوا عليه، وفي ذلك اليوم وصلت مطالعة من البلد يقولون فيها: إنا قد بلغ بنا العجز إلى غاية ما بعدها إلا التسليم ، ونحن في الغد ان لم

تعملوا معنا شيئا نطلب الامان، ونسلم ونشتري مجرد رقابنا ،وكان هذا أعظم خبر ورد على المسلمين وأنكاه في قلوبهم، فإن عكا كانت قد احتوت على جميع سلاح الساحل والقدس ودمشق وحلب ومصر أيضا ، فرأى السلطان مهاجمة العدو فلم يساعده العسكر، فإن الرجالة من الفرنج وقفوا كالسور المحكم البناء بالسلاح والزنبورك والنشاب من وراء أسوارهم ،وهجم عليهم بعض الناس من بعض الأطراف فثبتوا وذبواغاية الذب، وحكى بعض من دخل عليهم اسوارهم انه كان هناك واحد من الفرنج صعد سور خندقهم وجماعة يناولونه الحجارة وهويرميها على المسلمين، ووقع فيه زهاء خمسين سهما وحجرا وهويتلقاها ولم يمنعه ذلك عما هو بصدده من الذب حتى ضربه زراق بنفط فأحرقه ، ورؤيت امراة عليها ملوطة خضراء فما زالت ترمي بقوس من خشب حتى جرحت جماعة ، ثم قتلت وحملت الى السلطان فعجب من ذلك ، ولم يزل الحرب الى آخر الليل ،وضعفت نفوس أهل البلند ،وتمكن العندو من الخنادق فملؤوها ونقبوا سور البلد وحشوه وأحرقوه ، فوقعت بدنه من الباشورة ودخل العدو اليها وقتل منهم فيها زهاء مائة وخمسين نفسا وكان منهم ستة أنفس من كبارهم، فقال لهم واحمد منهم: لاتقتلوني حتى أرحمل الفرنج عنكم بالكلية ، فبادر رجل من الأكراد وقتله وقتل الخمسة الباقية ، وفي الغد ناداهم الفرنج احفظوا الستة فانا نطلقكم كلكم بهم، فقالوا: إنا قد قتلناهم فحزن الفرنج وبطلوا عن الزحف ثلاثة ايام، وخرج سيف الدين المشطوب بنفسه بأمان الى ملك الافرنسيس، وهو كان مقدم الجماعة في الرتبة، وقال له: إنا قد الخذنا منكم بلاداً عدة وكنا نهدم البلد وندخل فيه ومع هذا اذا سألونا الأمان أعطيناهم، وحملناهم الى مأمنهم وأكرمناهم، ونحن نسلم البلد وتعطينا الامان على أنفسنا، فقال:أرى فيكم رأيي، فأغلظ له المشطوب القول وانصرف عنه، ولما دخل المشطوب بهذا الخبر خاف جماعة ممن كان في البلد فأخذوا لهم بركوسا،وهو مركب صغير وركبـوا فيه ليلا خارجين الى العسكر الاسلامي

منهم عز الدين ارسك، وحسام الدين تمرتاش بن الجاولي، وسنقر الوشاقى ، وهو من الاسدية الاكابر، وذلك في ليلة الخميس تاسع جمادى الاخرة ، فـأما ارسك وسنقـر فتغيبا خوفـا من السلطان، وامــا ابن الجـاولي فظفر به ورمي في الزردخانات، وكان شابا اول ما توفي والده فأقطع السلطان اقطاعاتهم وقطعها وحبس عنهم الرضا بعد مدة مديدة بشاشة وجهها، ومنعها، وكان من جملة الهاربين عبد القاهر الحلبي نقيب الجاندارية الناصرية فشفع فيه على انه يضمن على نفسه العودة فعاد من ليلته ووقع بعد ذلك في الاسار واستفكه السلطان بعد سنة بثماني مائة دينار، ومنّ كتاب الى صـاحب إربـل مظفر الـدين: «لما عـاين أصحـابنا بالبلد ماهم عليه من الخطر، وانهم قد اشفوا على الغرر فر جماعة من الامراء ممن قبل بالله وثبوقه، وأعمى قلبه فجوره وفسوقه، ولقبد خانوا المسلمين في تغرهم، وباؤوا بوبال غدرهم ،وماقوى طمع العدو في البلد الا هربهم ، وماأرهب قلوب الباقين من مقاتلتهم الا رهبهم، والمقيمين من اصحابنا الكرام ، قد استحلوا مر الحمام، وأجمعوا أنهم لايسلمون حتى يقتلوا من الاعداء اضعاف اعدادهم، وانهم يبذلون في صون ثغرهم غاية اجتهادهم ، وكانوا تحدثوا مع الفرنج في التسليم فاشتطوا واشترطوا، فصبروا بعد ذلك وصابروا ومدوا أيديهم في القوم وبسطوا، فتارة يخرجونهم من الباشورة وتارة من النقوب، والله تعالى يسهل تنفيس ماهم فيه من الكروب».

قال القاضي: وفي سحرة تلك الليلة ركب السلطان مشعرًا أنه يريد كبس القوم ومعه المساحي وآلات طم الخنادق، فها ساعده العسكر على ذلك ، وتخاذلوا وقالوا: نخاطر بالاسلام كله، وفي ذلك اليوم خرج من عند ملك الانكلتيز رسل ثلاثة طلبوا فاكهة وثلجا وذكروا ان مقدم الاسبتارية يخرج في الغد، يعني يوم الجمعة، يتحدث ويتحدثون معه في معنى الصلح فأكرمهم السلطان ودخلوا سوق العسكر وتفرجوا فيه،

وعادوا تلك الليلة الى عسكرهم، وفي ذلك اليوم تقدم الى قايهاز النجمي حتى دخل هو وأصحابه إلى أسوارهم عليهم، وترجل جماعة من أمراء الأكراد كالجناح وأصحابه وهو أخوالمشطوب ولفيفهم، وزحفوا حتى بلغوا أسوار الفرنج، ونصب قايهاز علمه بنفسه على أسوارهم وقاتل عن العلم قطعة من النهار، وفي ذلك اليوم وصل عز الدين جرديك النوري وسوق الزحف قائمة فترجل هو وجماعته، وقاتل قتالا شديدا، واجتهد الناس في ذلك اليوم اجتهادا عظيها.

قال العهاد: وبات العسكر تلك الليلة على الخيل تحت الحديد، منتظرا لنجح الامل البعيد، ولما عرف السلطان أنه لاسلامه، وأن عكا عدمت الاستقامة، نفذ إلى جماعة عكا وقال لهم : خذوا من العدو حذرا، واتفقوا واخرجوا ليلا من البلد يدا واحدة ، وسيروا الى جانب البحر ، وصادموا العدو بالقهر، وخلوا البلد بها فيه واتركوه بها يحويه، فشرعوا في ذلك واشتغل كل منهم باستصحاب مايملكه، ولم يعلم ان التهاءه به يهلكه، فها تمكنوا من المراد حتى أسفر الصباح ، ولم يصح ذلك في الليلة الثانية لصير السر إلى العلانية . قال :ولو صح ذلك لنجح المقصد ولكن الفرنج اطلعوا على هذا السر، فحرسوا الجوانب والأبواب وكان سبب علمهم اثنين من غلمان الهاربين خرجا إلى الملاعين وأخبراهم بجلية الحال، وعزيمة الرجال.

قال: وخرج يوم الجمعة من الشهر جماعة من رسل الفرنج ونحن على الحرب ومحاولة الطعن والضرب، وفيهم صاحب صيدا فطلب نجيب الدين العدل، وكان السلطان يعذق به في رسالات الفرنج العقد والحل، وعول السلطان في سماع الرسائل على ولده الأفضل وأخيه العادل، وتردد العدل مرارا في الخطاب والجواب، فلم ينفصل الأمر على الصواب، وبذلنا لهم عكا على مافيها دون من فيها، وأنا نطلق لهم أسرى بعدد

العدة التي تحويها، فأبوا غير الاشتطاط، فزدناهم صليب الصلبوت فلم يحصل لهم به كمال الاغتباط، هكذا قال في البرق.

وقال في الفتح :ان ذلك كان يوم السبت، وقال اشترطوا إعادة جميع البلاد، وإطلاق اساراهم من الاقياد.

وضعف البلد وعجز من فيه ضعفا لايمكن تلافيه ووقف كرام أصحابنا وسدوا الثغر بصدورهم وشرعوا في بناء سور يقتطع جانبا حتى ينتقلوا إليه إذا شاهدوا العدو غالبا، وكذا قال ابن شداد أن ذلك اليوم كان يوم السبت الحادي عشر، وقال لبست الفرنج بأسرها لباس الحرب وتحركوا حركة عظيمة بحيث اعتقد ان ربها كان مصاف ، واصطفوا وخرج من الباب الذي تحت القبة زهاء أربعين نفسا واستدعوا جماعة من الماليك وطلبوا منهم العدل الزيداني وذكر وا أنه عني الخارج صاحب صيدا الطليق السلطان ،فذكر نحو ماتقدم، وقال: وتصرم نهار السبت ولم ينفصل أمر .

قال: ولما كان يوم الاحد ثاني عشر الشهر وصل من البلد كتب يقولون فيها: إنا قد تبايعنا على الموت فإياكم ان تخضعوا لهذا العدو وتلينوا له، أمانحن فقد فات أمرنا، وذكر العوّام الواصل بهذه الكتب أنه وقع في الليل صوت انزعج منه الطائفتان ، وظن الفرنج أن عسكرا عظيها قد عبر الى عكا وسلم وصار فيها واندفع كيد العدو في تلك الأيام بعد أن كان قد أشفى البلد على الأخذ ، ووصل من عساكر الاسلام صاحب شيزر سابق الدين، وبدر الدين دلدرم ومعه تركان كثير كان السلطان أنفذ اليهم ذهبا أنفقه فيهم وصاحب حمص، و اشتد ضعف البلد وكثرت ثغور سوره فبنوا عوض الثلمة سورا من داخلها حتى إذا تم انهدامها قاتلوا عليه، وثبت الفرنج على أنهم لايصالحون ولا يعطون الذين في البلد أمانا حتى تطلق جميع الاسرى الذين في ألبدي في أيدي

المسلمين، وتعاد البلاد الساحلية إليهم، وفي يوم السابع عشر خرج العوّام وفي كتبه أن أهل البلد ضاق بهم الأمر وتيقنوا أنه متى أخذ البلد عنوة ضربت رقابهم عن آخرهم، وأخل جميع مافيه من العدد والأسلحة والمراكب وغير ذلك، فصالحوهم على أنهم يسلمون إليهم البلد وجميع مافيه من الآلات والعدد والمراكب ومائتني الف دينار، وألفا وخسائة أسير مجاهيل الأحوال، ومائة أسير معينين من جانبهم يختارونهم، وصليب الصلبوت، على أنهم يخرجون بأنفسهم سالمين ومامعهم من الأموال والاقمشة المختصة بهم وذراريهم ونساؤهم ،وضمنوا للمركيس الملعون. -فانه كان قد استرضى وعاد- عشرة الأف دينار ، لأنه كان واسطة، ولأصحابه أربعة الاف دينار ، واستقرت القاعدة على ذلك بينهم وبين الفرنج، ولما وقف السلطان على ذلك أنكره وأعظمه ، وعزم على أن يكتب إليهم في ذلك انكارا عليهم ، فهو في مثل هذه الحال وقد اجتمع أمراءه وأصحاب مشورته ، فما احس المسلمون الا وقد ارتفعت أعلام الكفر وصلبانه وشعاره على أسوار البلد وذلك ظهيرة نهار الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة ،وصاح الفرنج صيحة واحدة، وعظمت المصيبة على المسلمين ، واشتد حزن الموحدين، وانحصر كلام العقلاء من الناس في إنالله وإنا إليه راجعون ،وغشي الناس بهتة عظيمة ، وجيرة شديدة ، ووقع في العسكر الصياح والعويل والبكاء والنحيب ،وكان لكل قلب حظ في ذلك على قدر إيانه، ولكل إنسان نصيب من هذاالحظ على مقدار ديانته ونخوته ، واقشعت الحال على أن المركيس لعنة الله دخل البلد، ومعه أربعة أعلام للملوك عوضا عن علم الاسلام ، وحيىز المسلمون إلى بعض اطراف البلد ، وجرى عل أهل الاسلام المشاهدين لتلك الحال ماكثر التعجب من الحياة معه.

قال :ومثلت بخدمة السلطان رحمه الله عشية ذلك اليوم ،وهو أشد حالة من الوالدة الثكلي والوالهة الحيري ، فسليته بها تيسر من التسلية واذكرته الفكر فيها قد استقبله من الأمر في معنى البلاد الساحلية

والقدس الشريف، وكيفية الحال في ذلك وإعبال الفكر في خلاص المسلمين المأسورين في البلد، وانفصل الحال على أن رأى التأخر عن تلك المنزلة مصلحة فإنه لم يبق غرض في المضايقة، فتقدم بنقل الاثقال ليلا الى المنزلة التي كان عليها أولا بشفر عم، وأقام هو جريدة مكانه لينظر ماذا يكون من أمر العدو وحال أهل البلد، فانتقل الناس في تلك الليلة إلى الصباح، واشتغل العدو بالاستيلاء على البلد، وأقام السلطان إلى التاسع عشر، ثم انتقل إلى الثقل، ووصل ثلاثة نفر ومعهم أقوش حاجب بهاء الدين قراقوش، وكان لسانه فإنه كان رجلا عاقلا مستنجزين ماوقع عليه عقد الصلح من المال والأسرى، فأقاموا ليلة مكرّمين وساروا إلى دمشق يبصرون الاسارى.

قال العهاد :وخرج سيف الدين المشطوب ، وحسام الدين حسين باريك، وأخذا امان الفرنج يعنى على القطيعة المقدّم ذكرها.

قال: ولم نشعر إلا بالرايات الفرنجية على عكا مركوزه، وأعطاف أعلامها مهزوزة ، وعمّ البلاء ، وتم العناء ، وعز العزاء وقنط الرجاء ، وحضرنا عند السلطان وهومغتم ، وبالتدبير للمستقبل مهتم، فعزيناه وسليناه، وقلنا هذه بلدة مما فتحه الله قد استعادها أعداءه، وقلت له: إن ذهبت مدينة فهاذهب الدين، ولا ضعف في نصر الله اليقين .

قال: ودخلوا عكا وتسلموها ، ولم يقفوا على الشرائط التي أحكموها ، فإنهم منعوا أصحابنا من الخروج واحتاطوا عليهم وعلى الأموال بحبسهم واعتقالهم ، ثم طلبوا المال فجمعه السلطان وكمله، وأودعه خزانته بعد ماحصله ، وأحضر صليبهم المطلبوب المسلوب ، وأتم شرطهم المخطوب، فظهرت أمارات غدرهم ، وبدت دلائل مكرهم .

وفي كتاب كتبه الفاضل عن السلطان الى شمس الدولة بن منقذ

وهوبالمغرب في الرسالة : «لقد تجاوزت عدة من قتل على عكا، يعنى من الفرنج، الخمسين الفا، قولا لايطرقه التسمح ، بل يحرزه التصفح فانبروا في هذه السنة ملك افرنسيس وانكلتيز وملوك آخرون في مراكب بحرية وحمالة حملوا فيها الخيول والخيالة والمقاتلة والآلة ، ووصلت كل سفينة تحمل كل مدينة، واحدقت بالثغر فمنعت الناقل بالسلاح اليه، والداخل بالميرة عليه »ثم قال: «وأخذ البلد على سلم كالحرب ، ودخله العدو ولو لم يدخل من الباب دخل من النقب، وماوهنا لما أصابه في سبيل الله وماضعفنا، ولا رجعنا ورا ءنا ولا انصرفنا، بل نحن بمكاننا ننتظر أن يبرزوا فنبارزهم ، ويخرجوا فنناجـزهم، وينشروا فنطويهم ، وينبثوا فنزويهم، واقمنا على طرقهم ، وخيمنا على مخنقهم، وأخدنا بأطراف خندقهم ، وأحوج ماكنا الى النجدة البحرية، والأساطيل المغربية، فإن عاريتنا به ترد، وعاديتنا بها تشتد، والامير يبلغ مابلغه من خطب الاسلام وخطوبه، ويقوم في البلاغ يوم الجمعة مقام خطيبه ، ويعجل العودة وقبلها الاجابه، ويستصحب السهم ويسبق ببشرى الاصابه، ويشعر أن الراية قد رفعت لنصر تقدّم به عرابه، فإن للاسلام نظرات الى الافق الغربي يقبلها ، وخطرات من اللطف الخفي يقرّبها، ويكفى من حسن الظن أنها نظرة ردّت الهواء الشرقى غربا، وخطرة أوهمت ان تلك الهمة لو لم تلم بالسفائن لأخذت «كل سفينة غصبا».

قال العاد: وعزم ملك الافرنسيس على المسير الى بلاده لأمر إختل عليه، فأخذ قسما من الأسارى وسلمهم إلى المركيس ووكله في قبض نصيبه، ورضي بتدبيره وترتيبه، وخرج الفرنج يوم الخميس انسلاخ الشهر من جانب البحر، وانتشروا بالمرج ووصلوا الى الآبار التي حفرها اليزك، وتواقعوا مع اليزك وأمدهم السلطان ففلوا العدو وصرع منهم خسون فارسا.

قال القاضي :وخرج خلق عظيم ولم يزل السيف فيهم حتى دخلوا

خنادقهم ، قال : ولم تنزل السرسل تتردّد بين الطائفتين حتى كان يوم الجمعة تاسع رجب، فخرج حسام الدين حسين بن باريك المهراني، ومعه اثنان من أصحاب الآنكلتيز فأخبر أن ملك الافرنسيس صار إلى صور، وذكروا أشياء من تحرير أمر الأسارى، وطلبوا أن يشاهدوا صليب الصلبوت وشاهدوه وعظموه ورموا أنفسهم إلى الارض ، ومرّغوا وجوههم على التراب، وخضعوا خضوعا عظيها لم ير مثله، وذكروا أن الملوك قد أجابوا إلى أن يكون ماوقع عليه القرار يدفع في تروم ثلاثة، أي نجوم ، كل ترم شهر ، ولم تزل الرسل تتواتر في تحرير القاعدة وتنجيزها حتى حصل لهم ماالتمسوه من الأسارى والمال المختص بذلك الترم وهو الصليب ، ومائة ألف دينار وستهائة أسير، وأنفذوا نقباءهم وشاهدوا الجميع ماعدا الأساري المعينين من جانبهم فإنهم لم يكونوا فرغوا من تعيينهم، ولم يكملوهم حتى يحصلوا ولم يزالوا يطاولون ويقضون الزمان حتى انقضى الترم الأول في ثامن عشر رجب ،ثم أنفذوا في ذلك اليوم يطلبون ذلك، فقمال لهم السلطان :إما أن تنفذوا إلينا أصحمابنا وتتسلموا الذي عين لكم في هذا الترم، ونعطيكم رهائن على الباقي يصل اليكم في ترومكم الباقية، واما أن تعطونا رهائن على ما نسلمه إليكم حتى تخرجوا إلينا أصحابنا، فقالوا : لانفعل شيئا من ذلك بل تسلمون مانقبضه بهذا الترم وتقنعون بأمانتنا حتى نسلم إليكم أصحابكم، فأبى السلطان ذلك لعلمه أنهم إن تسلموا المال والصليب والأسرى وأصحابنا عندهم لايؤمن غدرهم، فلما رأوه قد امتنع من ذلك أخرجوا خيامهم إلى ظاهر خنادقهم مبرزين في الحادي والعشرين الانكلتيز وجماعة من الخيالة والرجالة والتركبلي وركبوا في وقت العصر السابع والعشرين من رجب، وساروا حتى أتوا الى الآبار التي تحت تل العياضة ، ثم احضروا من الاسارى المسلمين من كتب الله شهادته، وكانوا زهاء ثلاثة الاف مسلم في الحبال ووقفوهم وحملوا عليهم حملة الرّجل الواحد، فقتلوهم صبرا طعنا وضربا بالسيف رحمة الله عليهم ، واليزك الاسلامي

يشاهدهم، ولايعلم ماذا يصنعون لبعده عنهم، وكان اليزك قد انفذ إلى السلطان وأعلمه بركوب القوم ووقوفهم، فأنفذ إلى اليزك من قواه، وبعد أن فرغوا منهم حمل المسلمون عليهم وجرت بينهم حرب عظيمة جرى فيها قتل وجرح من الجانبين، ودام القتال الى ان فصل الليل بين الطائفتين وأصبح المسلمون يكشفون الحال فوجدوا المسلمين الشهداء في مصارعهم، وعرفوا من عرفوا منهم، وغشي المسلمين بذلك حزن عظيم، ولم يبقوا من المسلمين إلا رجلا معروفا مقدما أو قويا أعد للعمل في عمائرهم.

قال العياد: وطلب السلطان منهم أن يضمنهم الداوية في قبض المال، فقال الداوية: ماندخل في الضيان، فاقنعوا منهم بالقول والأمان، فظهر من فحوى كلامهم الخلف، ثم ذكر قتل الاسارى، قال: فشاهدناهم مستشهدين بالعرا عرايا مجردين، ولاشك أن الله كساهم من سندس النعيم، ونقلهم إلى دار المقامة في العز المقيم، وتصرف السلطان حيننذ في المال، وفرق مجموعه في رجاء الرجال، وأعاد الاسارى إلى أربابها، واحتوت عليها بدمشق أيدي أصحابها، وحفظ الصليب السليب ورده الى مكانه وأعاده الى صوائه لا لعزه بىل لهوائه، فإنه لامصاب عندهم أعظم من استيلائنا عليه، وامتداد ايدينا اليه، وقد بذل فيه الروم عندهم أعظم من استيلائنا عليه، وامتداد ايدينا اليه، وقد بذل فيه الروم عندهم أعظم من استيلائنا عليه، وامتداد ايدينا اليه، وقد بذل فيه الروم عددها ألكرج بذولا، وانفذوا بعد رسول رسولا، في وجدوا قبولا، ولا صادفوا سولا.

ومن كتاب عادي عن السلطان في ذلك: « وللكرام آجال، والحرب سجال، ولله من المؤمنين رجال، والآن فقسد ثارت الحميات، وهبت النخوات، ووجب على كل مسلم ان ينهض لنصرة الاسلام، ويتدارك ماحدث من الكسر والوهن، بالجبر والاحكام ويعيد ما وهى من عقد الفتوح الى النظام، فأين ذوو الأنفة والحمية، والهمم العليه، والنفوس الأبية، أما يغتمون لمصرع من استشهد من أخوانهم، أما يثورون لشأر الأبية، أما يغتمون لمصرع من استشهد من أخوانهم، أما يثورون لشأر

#### - 4414 -

ايمانهم،أما تبكي العيون لمن قتل من أماثلهم وأعيانهم، فإن مصابهم عظيم، ومقامهم عند ربهم الكريم كريم، وأراد الله بذلك تنبيه الهمم الرّاقدة واثارة العزائم الراكدة».

## فصل

## فيها جرى بعد انفصال أمر عكا

قال العهاد: ثم ان الفرنج رحلت صوب عسقلان مستهل شعبان، وسار السلطان في عراضهم، والمسلمون يخطفونهم ويقتلون منهم ويأسرون ويجرحون ويسلبون ويسرقون، وكل أسير أي به السلطان أمر بقتله، ووصلوا إلى حيفا فأقاموا بها ونزل المسلمون بالقيمون وقدم السلطان ثقله الى مجدل يابا وأضحى نازلا على النهر الجاري الى قيسارية، وودع الفاضل السلطان وسار الى دمشق لأنها مدرج الوافدين من الأكابر، والنواب بها ربها جبنوا عن إقامة الوظائف، وكان الامر ودرك، وفي تاسع شعبان جاء الخبر بأن الفرنج ركبوا وتألبوا وهم يسيرون في الساحل بالفارس والرّاجل، وعن يمينهم البحر، وعن يسارهم في الساحل بالفارس والرّاجل، وعن يمينهم البحر، وعن يسارهم والزرديات السابغة المحكمة ،بحيث يقع فيهم النشاب ولا يتأثرون،وهم والزرديات السابغة المحكمة ،بحيث يقع فيهم النشاب ولا يتأثرون،وهم ومون بالزنبورك فتجرح خيول المسلمين وغيرهم.

قال القاضي: ولقد شاهدتهم وفي ظهر الواحد منهم النشابة والعشرة مغروزة وهويسير على هيئته من غير انزعاج ، وثم قسم آخر من الرجالة مستريح يمشون على جانب البحر ولا قتال عليهم ، فإذا تعب هؤلاء المقاتلة أو أثخنتهم الجراح قام مقامهم القسم المستريح، واستراح القسم العيال، هذا والخيالة في وسطهم لايخرجون عن الرجالة إلا في وقت الحملة لاغير، وقد انقسموا أيضا ثلاثة أقسام الاول الملك العتيق كي وجماعة الساحلية معه في المقدمة والانكلتيز والفرنسيسية معه في الوسط، وأولاد الست أصحاب طبرية وطائفة اخرى في الساقة، وفي وسط القوم برج على عجلة، وعلمهم على ماوصفته من قبل يسير أيضا في وسطهم برج على عجلة، وعلمهم على ماوصفته من قبل يسير أيضا في وسطهم برج على عجلة، وعلمهم على ماوصفته من قبل يسير أيضا في وسطهم

على عجلة كالمنارة العظيمة، وساروا على هذا المثال، وسوق الحرب قائمة بين الطائفتين والمسلمون يرمونهم من جوانبهم بالنشاب، ويحرّكون عزائمهم حتى يخرجوا وهم يحفظون نفوسهم حفظا عظيما ويقطعون الطريق على هذا الوضع، ويسيرون سيرا رفيقا ومراكبهم تسير في مقابلتهم في البحر إلى أن أتوا المنزل فنزلوا، وكانت منازلهم قريبة لأجل الرجالة، فإن المستريحين كانوا يحملون أثقالهم وخيمهم لقلة الظهر عليهم.

قال: فانظر إلى صبر هؤلاء القوم على الأعمال الشاقة من غير ديوان ولانفع ،وطاف الجيش حولهم من كل جانب ولنزوهم بالنشاب، وكلما ضعف قسم عاونه الذي يليه، وهم يحفظ بعضهم بعضا، والمسلمون محدقون بهم من ثلاثة جوانب، ورأيت السلطان وهو يسير بنفسه بين الجاليشية ونشاب القوم يتجاوزه ، وليس معه الا صبيان بجنبيتين لاغير، وهو يسير من طلب الى طلب يحتهم على التقدم ويأمرهم بمضايقة القوم، والصياح بالتهليل والتكبير يرتفع ، والعدو على أتم ثبات ترتيبهم لايتغيرون ولا ينزعجون ، وجسرت حملات كثيرة ، ورجالتهم تجرح المسلمين وخيولهم بالزنبورك والنشاب إلى أن أتوا إلى نهر القصب، فنزلوا عليه، وقد قام قائم الظهيرة ، وضربوا خيامهم ، وتراجع الناس عنهم فانهم كانوا إذا نزلوا أيس الناس من أمر يتم معهم ، وفي ذلك اليوم قتل من فرسان المسلمين وشجعانهم إياز الطويل وهو من مماليك السلطان وكان قد فتك بهم ، وقتل خلقًا من خيالتهم وشجعانهم ، وكان قد استفاضت شجاعته بين العسكرين بحيث أنه جرت لـ وقعات كثيرة صدّقت أخبار الاوائل ، وصار بحيث أنه إذا عرف الفرنج في موضع يخافون منه، فاتفق أن تقنطر به فرسه فاستشهد في ذلك اليوم ، ودفن على تل مشرف على البركة وحزن المسلمون عليه حزنا عظيها، وقتل عليه مملوك له، ونزل السلطان بالثقل على البركة وهو موضع يجتمع فيه مياه كثيرة، ثـم رحل بعـد العصر وأتى نهر القصب، فنزل عليـه أيضا، فكنـا

نشرب من أعلاه والعدو يشرب من أسفله، ليس بيننا إلامسافة يسيرة ، وبات الفريقان هناك.

قال العماد: وكانت نوبة اليزك لعز الدين ابراهيم بن المقدّم في الساقه، وكانت الفرنج قد انست بانقضاء الحرب فخرج منها جماعة مسترسلين، وتقدّمواعلى البركة مشرفين، فبصرهم ابن المقدم، فعبر اليهم من ورائهم هو ومن معه النهر ولم يأخذوا من خلفهم الحذر، ففجأهم وفجعهم، وفرغ من شغلهم قبل ان يدركهم الصريخ وسلبهم وغنمهم، ثم نهض الفرنج اليه، وحملوا عليه وجرت وقعة شديدة لحزب الضلال مبيدة، الفرنج اليه، وحملوا عليه مريمة، وأحضر الأسارى عند السلطان بحزام الذل والهوان، فأخبروا أنهم جرح منهم بالأمس ألف، وسرى فيهم بعزام الذل والهوان، فأخبروا أنهم جرح منهم بالأمس ألف، وسرى فيهم وهن وضعف.

ثم رحل السلطان وعبر شعراء أرسوف، ونزل على قرية تعرف بدير الراهب، وطلب ملك الانكلتيز الاجتماع بالملك العادل خلوة فاجتمعا، فاشار بالصلح وكان حاصل كلامه أنه طال بيننا القتال ونحن جئنا في نصرة افرنج الساحل، فاصطلحوا انتم وهم وكل منا يرجع إلى مكانه، فقال: على ماذا يكون الصلح؟ قال: على أن يسلم إلى أهل الساجل مأخد منهم من البلاد، فأبى الملك العادل، وأخبره أن دون ذلك قتل كل فارس وراجل، فرجع مغضبا.

وفي يوم السبت رابع عشر رمضان كانت وقعة أرسوف تأهب المسلمون للقائهم ، فأزعجوهم وأبلوهم ببلائهم ، فلما رأى العدو ما هو فيه من الضيقة احتموا وحملوا حملة واحدة فانكشف من كان قدامهم، واندفعوا وثبت ذلك اليوم العادل وأصحابه وقاياز المجمي، وعسكر الموصل ، ثم كرت العساكر كرا إليهم، وجرت النوائب عليهم ، فجرت بين الفئتين مقتلة عظيمة ، فلجأوا إلى جدران أرسوف ، ولولا ذلك بين الفئتين مقتلة عظيمة ، فلجأوا إلى جدران أرسوف ، ولولا ذلك

لاستوعبت فيهم الحتوف، فنزل السلطان على نهر العوجا ورحل العدو الى ياف فنزلوها ، والمسلمون على العادة في عراضهم، مقيمة على تبديد جموعهم واعتراضهم ، وقتل يوم أرسوف لهم كند كبير تحت حكمه من الفرنج عدد كثير، وكان من عظم شأنه وفخامة مكانه انه يوم صرع قاتل دونه جماعة من المقدمين، فما قتل حتى قتلوا، ولا بذل حتى بذلوا روحهم .

قال القاضي ابن شدّاد: رأيتهم وقد اجتمعوا في وسط الرجالة وأخذوا رماحهم، وصاحوا صيحة الرجل الواحد، وفرج لهم رجالتهم، وحملوا حملة واحدة من الجوانب كلها فاندفع الناس بين أيديهم ولم يبق في طلب السلطان إلا سبعة عشر مقاتلا، والأعلام باقية والكؤوس تدق لاتفتى فلها رأى السلطان مانزل بالمسلمين سار حتى أتى طلبه فوقف فيه، والناس يفرون من الجوانب وكلها رأى فارا يأمر من يحضره عنده فاجتمع في الطلب خلق عظيم، ووقف العدو قبالتهم على رؤوس التلول والروابي، وخاف العدو أن يكون في الشعراء كمين، وثابت العساكر كلها، فتراجع العدو إلى منزلته، وجلس السلطان ينتظر الناس من كلها، فتراجع العدو إلى منزلته، وجلس السلطان ينتظر الناس من وحملهم وقتل رجالة كثيرة وجرح جماعة من الطائفتين، وصدم الملك وحملهم وقتل رجالة كثيرة وجرح جماعة من الطائفتين، وصدم الملك الأفضل وانفتح دمل كان في وجهه، وسال منه دم كثير على وجهه، وهو مابر محتسب في ذلك كله، وقتل من العدو جماعة وأسر واحد وأحضر فأمر بضرب عنقه.

وفي بعض الكتب السلطانية السيار العدو من عكا على قصد عسقلان، وسقنا لمعارضتهم في كل طريق ، ومضايقتهم في كل مضيق، ومنازلتهم في كل منول ، ومدافعتهم في كل منهل، وهم يسيرون البحر البحر لايفارقون ساحله، ولا يتجاوزون مراحله، والمواضع مضائق ، وشعراء ورمال ،وما للقتال فيها مجال، وماوجدنا فسحة إلا وضايقناهم

فيها، وأخذنا عليهم في نواحيها، ومن جملة أيامنا المشهودة، ومواسمنا المعروفة المحمودة يوم الاثنين تاسع شعبان عند رحيلهم من قيسارية» فذكر الواقعة السابقة وفيها « أنه نفق ألف رأس»، ثم ذكر يوم أرسوف وحسن عاقبته للمؤمنين بعد اليأس، ثم رحل السلطان تاسع عشر شعبان ونزل بالرملة ، واجتمعت الاثقال بها في تلك الرحلة، ورحل ليلا واصبح على يبنا وجاوزها إلى نهر أمر أن الخيام عليه تبنى، قال :وزرنا بيبنا قبر أبي هريرة رضوان الله عليه ،وتبادر الناس بالتيمن به إليه.

قلت: اعتمد العماد في هذا على مااشتهر بين العامة من ذلك ، وأما اهل العلم المصنفون في أخبار الصحابة رضي الله عنهم، كابن سعد وغيره، فذكروا أن أبا هريرة توفي بالمدينة، ولم يذكروا غيره على ماذكرناه في ترجمته في التاريخ والله اعلم.

قال العهاد: ورحل السلطان ، ونزل بظاهر عسقلان بعد العصر، وشرع فيها عزم عليه من الأمر، وكان لما نزل بالرملة أحضر عنده أخاه العادل وأكابر الأمراء ، وشاور في أمر عسقلان ذوي الآراء ، فأشار علم الدين سليهان بن جندر بخرابها، للعجز عن حفظها على مابها، ووافقه الجهاعة وقالوا: قد ضاق عن صونها الاستطاعة، فإن هذه يافا قد نزلوا بها وسكنوا فيها، وهي مدينة بين القدس وعسقلان متوسطة ، ولاسبيل الى حفظ المدينتين، فاعمد إلى أشرف الموضعين فحصنه وحكمه، فاقتضت الأراء اقامة العادل بقرب يافا مع عشرة من الأمراء ، حتى إذا تحرك العدو كانوا منه على علم.

قال القاضي: أشار عليه بتخريب عسقلان خشية أن يستولى عليها الفرنج، وهي عامرة فيتلقفوا من بها من المسلمين، ويأخذوا بها القدس الشريف، ويقطعوا طريق مصر، وخشي السلطان من ذلك، وعلم عجز المسلمين عن حفظها لقرب عهدهم من عكا وماجرى على من كان

مقيها بها، فسار حتى أتى عسقلان ، وقد ضربت خيمته شهاليها ، فبات هناك مهموما بسبب خراب عسقلان ومانام تلك الليلة إلَّا قليلا ، ولقد دعاني إلى خدمته سحرا وكنت فارقته بعد مضى نصف الليل ، فحضرت وبد أ بالحديث في معنى خرابها، وأحضر ولده الأفضل وشاوره في ذلك وطال الحديث ، ولقد قال رحمه الله: والله لأن افقد أولادي بأسرهم أحب الي من أن أهدم منها حجرا واحداً، ولكن إذا قضى الله بذلك ، وعينه لْحفظ مصلحة المسلمين طريقا، فكيف أصنع؟ قال: ثم استخار الله تعالى فأوقع في نفسه ان المصلحة في خرابها فاستحضر الوالي، وأمره بذلك في تأسع عشر شعبان، ولقد رأيته وقد اجتاز بالسوق والوطاق بنفسه يستنفر آلناس للخراب ، وقسم السور على الناس، وجعل لكل أمير طائفة من العسكر بدنة معلومة وبرجاً معلوما يخربونه ، ودخل الناس الى البلد ، ووقع فيه الضجيج والبكاء ، وكان بلد نضرا خفيفًا على القلب، محكم الأسوار عظيم البناء مرغوبا في سكناه ، فلحق الناس عليه حزن عظيم ، وكان هو بنفسه وولده الأفضل يستعملان الناس في الخراب خشية أن يسمع العدو فيحضر، ولايمكن من خرابها وأباح الناس الهري الله كان ذخيرة في البلد للعجز عن نقله، وضيق الوقت والخوف من هجوم الفرنج ، وامر بحريق البلد ، فأضرمت النار فيه والاخبار تتواتر من جانب العدوبعارة يافا ،وخرب من سور عسقلان معظمه، وكان عظيم البناء بحيث أنه كان في موضع تسعة أذرع وفي موضع عشرا ، وذكر بعض الحجارين للسلطان وأنا حاضر أن عرض البرج الذي ينقبون فيه مقدار رمح، فلم ينزل الخراب والحريق يعملان في البلد وأسواره إلى سلخ شعبان ، وعند ذلك وصل من جرديك كتاب يذكر فيه أن القوم قد تفسحوا ،وصاروا يخرجون من يافا يغيرون على البلاد القريبة منها، فلو تحرك السلطان لعله يبلغ منهم غرضا في غربهم، فعزم على الرحيل وعلى أن يخلف في عسقلان حجارين، ومعهم حيل تحميهم يستقصون في الخراب، ثم رأى ان يتأحر بحيث يحرق

البرج المعروف بالاسبتار ، وكان برجاعظيها مشرفا على البحر كالقلعة المنيعة، ولقد دخلته وطفته ، فرأيت بناءه أحكم بناء لاتعمل فيه المعاول وإنها أحرق ليبقى بالحريق قابلا للخراب، وبقيت النار تشعل فيه يومين بليلتيهها .

قال العياد: ونقض منها الابراج التي على ساحل البحر، ودخلتها فرأيتها أحسن مدينة ، منيعة حصينة ، فطال بكائي على رسومها، وفض ختومها، وقبض ارواحها من جسومها، وحلول الدوائر بدورها، ونزول السوء بسورها، في برح السلطان منها حتى رأينا طلولها دوارس، والسومها طوامس، والرؤوس حياء من معاهدها نواكس، قال: ولوحفظت لكان حفظها متعينا وصونها ممكنا، لكن وجد كلا له متجنبا، متجببا، وقد راعتهم نوبة عكا وحفظها ثلاث سنين ، وعادت بعد ذلك بمضرة المسلمين ، وقال من تعلل واعتذر عن دخولها: تدخلها أنت أو أحد أولادك فندخلها إتباعا لمرادك ، فحينئذ لم يجد بدا من نقض أسوارها، وفض سوارها، وسكانها كانوا في رفاهية ، فانتقلوا عنها على كراهية، وباعوا أنفس الأعلاق بأبخس الاثبان ، وفجعوا بالأوطار

### فصل

## فيها جرى بعد خراب عسقلان

قال العهاد: فارقها السلطان يوم الشلاثاء ثاني رمضان ، ونزل على يبنا، ونزل بالرملة يوم الاربعاء وأمر بتخريب حصنها، وتخريب كنيسة لدّ، وركب جريدة إلى القدس فأتاه يوم الخميس، وأعاد إليه رسوم التأنيس ، وخرج منه يوم الاثنين ثامن رمضان ، وبات في بيت نوبة وعاد إلى المخيم يوم الثلاثاء، ووصل معز الدين قيصر شاه صاحب ملطية ابن قليج أرسلان وافدا عليه منتصرا به على أبيه وأخوته ، فإنهم كانوا يقصدون أخذ بلده من يده، فأقام في الخدمة السلطانية مدة ،وتزوج بابنة العادل على صداق مائة ألف دينار ، وسار مستهل ذي القعدة ، وفي فوارسه مخفراً للحطابة والحشاشه، وكاد يؤخذ الملك ، لكن أحد خواصه فوارسه مغفراً للحطابة والحشاشه، وكاد يؤخذ الملك ، لكن أحد خواصه فداه بنفسه، بأن أظهر حسن لباسه ، فظن انه الملك فأسر .

وقال ابن شدّاد: حال بينه وبينهم فرنجي فقتل الفرنجي وجرح هو ، وفي ثاني عشره جرت أيضا وقعة كان النصر فيها للمسلمين ، وقتل مقدّم كبير من المشركين ، ومازال يقع بينهم وبين اليزك وقعات ،وتسرق العرب من خيولهم وبغالهم ورجالهم.

ومن كتاب الى صاحب سنجار: «قد تقدم الإعلام بها جرى عند رحيل العدو على قصد عسقلان ، وما تم عليه منا في طريقه من النكاية والخذلان، وإنه قطع في سبعة عشر يوما مسافة يومين لما لابسه وغامره من الحين ، وماصدق كيف وضل إلى ياف فأظهر بها الاستيطان، وأقام بها يعمر المكان، وهذه مدينة ياف متوسطة بين القدس وعسقلان ، ومنها الى كل واحدة منها مسافة نصف نهار، وكلتاهما من العدو على خوف

وحذار ، وكل واحد من الموضعين يحتاج في تحصينه إلى ثلاثين ألف مقاتل، وتعذر الجمع بين حفظ الثغرين ، وتحصين البلدين، وتعينت في تخريب عسقلان عمارة القدس وتحصينه، وعصمته من العدو وتأمينه».

ثم رحل السلطان إلى النطرون، وخيم على تل عال، والنطرون حصن حصين كان للداوية، لكن لما فتح تشعثت أسواره، وانقض جداره، فأمر بهدمه فهدم، ثم بعث ملك الانكلتيز راغبا في المصالحة والمسالمة إلى العادل، وزعم أن له أختا عزيزة عليه، كبيرة القدر، وأنها كانت زوجة ملك كبير من ملوكهم، وهو صاحب صقلية ، توفي عنها ورغب أن يتزوجها العادل، ويجعل له الحكم على بلاد الساحل ينفذ أمره فيها، وهو يقطع الداوية والاسبتار من البلاد والقرى دون الحصون، وتكون اخته مقيمة بالقدس ومعها فيه قسيسون ورهبان، حافظة لها من أفة الزمان، فرأى العادل في ذلك عين الصواب، وشاور السلطان فوافقه فيا أجاب، فنفذ الرسول إلى الانكلتيز بالاجابة ، فدخل الفرنج على المرأة وخوّفوها، واتهموها في دينها وعنفوها، وقطيعة ، وأنت عاصية وغوقوها، واتهموها في دينها وعنفوها، وقطيعة ، وأنت عاصية للمسيح لامطيعة، فرجعت عن ذلك وماأجابت، فاعتذر الانكلتيز بعدم موافقتها إلا ان يدخل العادل في دينها، فعرف أنها خديعة كانت من الانكلتيز.

قال القاضي: ووصل رسول من المركيس يذكر أنه يصالح الاسلام بشرط أن يعطى صيداوبيروت على أن يجاهر الفرنج بالعداوة، ويقصد عكا ويحاصرها ويأخذها منهم، فأجيب إلى ذلك على أن يطلق من بها وبصور من الاسارى، ولما سمع الانكلتيز بذلك رجع إلى عكا لفسخ هذه المصالحة، واسترجاع المركيس إليه، وجاء الخبر أن ملك الافرنسيس مات بأنطاكية.

ووصل كتاب من تقي الدين يخبر فيه أن قـزل صاحب ديـار العجم ابن ألدكز قتل ، وجرى بسبب قتله في بلاد العجم خطب عظيم.

قال العهاد: وكان محتقراً للعظائم، مقترف للهآئم واضعا للشرب والقصف والمواسم، وقتل باصفهان عشرة من رؤساء الشافعية المعروفين، وكبرائهم الموصوفين.

ووصل من الديوان كتاب يذكر فيه قصد تقي الدين خلاط ، ويظهر فيه العناية التامة ببكتمر، ويشفع في حسن بن قفجاق ، ويتقدم باطلاقه، وكان قد قبض عليه مظفر الدين بإربل، ويتقدّم بمسير القاضي الفاضل الى الديوان لبت حال، وفصل أمر ، فأجاب السلطان بأنا لم نأمر تقي الدين بشيء من ذلك ، وإنها عبر ليجمع العساكر ، ويعود الى الجهاد، وأما ابن قفجاق فقد تقدم إلى مظفر الدين حتى نحضره إلى الشام، فيقطعه فيه، ويكون ملازما للجهاد ، وأما الفاضل فاعتذر عنه بأنه كثير الامراض، قوته تضعف عن الحركة إلى العراق.

قلت: وبلغني أن الفاضل رحمة الله كتب في الاعتذار بالحضور الى الديوان، وتمثل في كتابه بهذين البيتين:

مساكئىت أوّل سار غسره قمسسر

ورائد خـــدعتــه خضرة الـــدمــن

مثللنفسك شخصي اننكي رجل مثلل المعيدي فاسمع بي ولاترني

قال القاضي: وأرسل الانكلتيز إلى السلطان إن المسلمين والفرنج قد هلكوا، وخربت البلاد وتلفت الأموال والأرواح، وقد أخد هذا الأمرحقه، وليس هناك حديث سوى القدس والصليب والبلاد، والقدس متعبدنا ماننزل عنه ولو لم يبق منا واحد، وأما البلاد فيعاد إلينا ما هو قاطع الأردن، وأما الصليب فهو خشبة عندكم لامقدار له، وهو عندنا

عظيم، فيمن به السلطان علينا، ونستريح من هذا العناء الدائم، فارسل السلطان في جوابه: القدس لنا كها هو لكم، وهو عندنا أعظم ما هو عندكم، فانه مسرى نبينا ومجتمع الملائكة، فلا يتصور أن ننزل عنه ولانقدر على التلفظ بذلك بين المسلمين، وأما البلاد فهي أيضا لنا في الأصل واستيلاؤكم كان طارتا عليها لضعف من كان بها من المسلمن في ذلك الوقت، وأما الصليب فهلاكه عندنا قربة عظيمة لايجوز أن نفرط فيه إلا لمصلحة راجعة إلى الاسلام هي أوفى منها.

وهرب شيركوه بن باخل الكردي من عكا ، وكان أسيرا بها ،وكان الدخر حبلا في خدته فتدلى من طاقة في بيت الطهارة ، واشتد هربا في قيوده إلى تل العياضية ، فكمن في الجبل وقد طلع عليه النهار، ثم كسر قيوده وسار إلى المسلمين ، ثم تواتر الخبر أن الفرنج على عزم النهوض، فسار السلطان من المخيم بالنطرون إلى الرملة سابع شوال، وأقام بهاعشرين يوما، فجرت وقعات ، تمت دفعات ، منها وقعة في ناحية يازور، وكان النصر فيها للمسلمين ، وفقد من المسلمين ثلاثة ، وذلك ثامن شوال ، وفي سادس عشر شوال وقعت وقعة أخرى عظيمة قتل فيها جماعة من الامراء، وأسر فارسان من الكفرة معروفان بالبأس سوى غيرهما، وقتل منهم زهاء ستين نفر.

وفي خامس شوال وصل الخبر أن الاسطول المصري استولى على مراكب الفرنج ، ومنها مركب يعرف باسم المسطح قيل انه كان فيه خسيائة نفر وزائد على ذلك ،وانه قتل منهم خلق عظيم واستبقى منهم أربعة نفر مذكورون .

وفي ثامن عشر شوّال اجتمع الملك العادل والانكلتيز على طعام ومحادثة وانفصلا عن توادد ومطايبة ،وطلب منه الاجتماع بخدمةالسلطان فامتنع رحمه الله وقال: الملوك إذا اجتمعوا يقبح بينهم المخاصمة بعد

ذلك ، وإذا انتظم امر حسن الاجتماع ، ورحل الفرنج ثالث ذي القعدة إلى الرملة، وأظهروا قصد القدس بتلك الرّحلة ، ودامت الوقعات بين المسلمين وبينهم ، ورحل السلطان إلى القدس بنية المقام في الثالث والعشرين من ذي القعدة ،وكان الشتاء قد دخل ، والغيث قد اتصل، فوصل إلى القدس وقت العصر ونزل بدار الاقساء مجاورة كنيسة قهامة، وفي ثمالث ذي الحجة وصل عسكر من مصر بأموال ورجال مع أبي الهيجاء السمين ، وتحول الفرنج إلى النطرون فقوى السلطان اليزك فوقعوا على سرية فغنموها ، وسيق منهم الى القدس نيف وخمسون أسير سوى من قتل منهم ، وواقعهم سابق الدين عثمان صاحب شيرز يـــوم عيد الأضحى، فنحر منهم وضحى، واحتوى على عشرة من مقدميهم أسرا وقتلا ، وتسلق باقي الفرنج في الجبال وتركوا خيلهم ، فغنمها المسلمون، ولم يـزل المسلمون عليهـم مستظهرين مـدة مقامهـم بالنطرون وجعل المسلمون يقطعون الطريق على تجارهم حتى أنهم أخذوا قافلة ثقيلة بمن فيها ولم يقدروا على تخليصها فرحلوا عائدين الى الرّملة في الثاني والعشرين من ذي الحجة ، وفي ذلك اليوم وصل من الموصل خمسون رجلا برسم قطع الصخور من الخندق ، فأن السلطان شرع في تحصين القدس وعمارة أسواره ، وتقبل الامراء فيه العمل، وعمل فيه السلطان بنفسه بنقل الحجارة هو وأولاده وأمراؤه وأجناده ،ومعهم القضاة والعلماء، والولاة .

قلت: في قصد الفرنج للسلطان بالقدس يقول الرشيد بن النابلسي من جملة قصيدة له: ويسح الفرنجة بسل ويسل أمهسم أوما فيهام لبيب على العالات يعتبر

كمم نشرتهم ضربااذ انتظمروا

وك منظمته مطعن اذ انتثروا

كــم قــدسقيتهــم ذلا فــلاعجــب
أن عـربــدواسفهــأفــالقــوم قــدسكـروا
إن يممــوك فـــلابــدع لجهلهـــم
تسعــى إلى الاســد في غــابــاتها الحمــر
زاروانمـــوراولا تغنـــي وقــاحتهــم
إذاأســـودك في أبطـــالهم زأروا
فحــام عــن حــوطــة البيــت المقــدس لا
خــوف وحــاشــاك مــن خــوف ولا ضرر
هـــو الشريــف وقــدنــاداك معتصا
فها على مجده مـــن بعــدهـــاحــذر
وســـوف تستغفـــر الايـــام هفـــوتا

#### فصل

## في باقي حوادث هذه السنة

قال العهاد: في ربيع الأول منها تولى القاضي محيي الدين محمد بن الزكي قضاء دمشق، وفيها يوم الجمعة تاسع عشر رمضان كانت وفاة تقي الدين عمر ابن أخي السلطان وراء الفرات ، وكان قد امتدت عينه الى بلاد غيره، فاستولى على السويدا، وعلى مدينة حاني، وعزم على قصد خلاط وكسر صاحبها سيف الدين بكتمر، وتملك معظم تلك النلاد، ثم اناخ على مناز كرد يحاصرها ومعه عساكر كثيرة ، فأناخت بجسده المنية بسبب مرض اعتراه وزاد إلى أن بلغ منه المراد، وأخفى ولده الملك المنصور وفاته، وحاد به إلى البلاد التي يده ، وعجب الناس من حزمه وعزمه وثباته وجلده، وجاءت رسله في يده ، وعجب الناس من حزمه وعزمه وثباته وجلده، وجاءت رسله شروطا نسبه بسببها الى العصيان ، وكاد أمره يضطرب، وقلبه يكتئب ، شروطا نسبه بسببها الى العصيان ، وكاد أمره يضطرب، وقلبه يكتئب ، وشأنه ينعكس وينقلب ، حتى احتمى بالملك العادل فنصره وأظهره الى الوجود وأظهره.

وقال القاضي ابن شداد: كانت وفاته في طريق خلاط عائدا إلى ميافين، ثم عملت له تربة ميافارقين، ثم عملت له تربة عليها مدرسة مشهورة بأرض حماه، وحمل إليها فدفن بها.

قال العياد: وفيها توفي ابن اخت السلطان حسام الدين محمد بن عمر ابن لاجين بدمشق، ليلة الجمعة تاسع عشر رمضان ، ففجع السلطان بابن اخيه وابن اخته في تاريخ واحد، وكانا من أعظم الأعوان على ما يكابده من الشدائد.

قلت ودفن بالتربة الحسامية المنسوبة اليه من بناء والدته ست الشام بنت أيوب، وهي المدرسة الشامية ظاهر دمشق بالعوينة.

قال: وفيها في أواخر ذي الحجة توفي الامير علم الدين سليان بن جندر من أكابر أمراء حلب ، وكان في خدمة السلطان بالقدس وهو شيخ الدولة وكبيرها وظهيرها ومشيرها، وهو الذي أشار بتخريب عسقلان لتتوفر العناية والاهتهام بالقدس، ثم مرض بالقدس و طلب المسير الى الوطن فأدركته المنية بقرية غباغب على مرحلة دمشق ، وفيها في الثالث من رجب كانت وفاة الصفي بن القابض نائب السلطان بدمشق ، وكان قد خدم السلطان أيام عدمه، وهو في كفالة أبيه وعمه، فلها ملك مصر أمرحه في أموالها، وحكمه في أعهالها، حتى نال المنى، ووجه ونجح وحصل على الغنى وكتب لمهاليكه دوره وأملاكه وجميع أمواله، وفيها توفي نسيب العهاد وهو جمال الدين أبو الفتح اسهاعيل بن عبيد بن كوبه سابع عشر ذي الحجة بدمشق.

قال العهاد: وكنت استنبته في كتابة الإنشاء وخرجته، وقلبته في مراتب المعالي ودرجته، واعتمد السلطان عليه في الترسل الى السلاطين العجم، وخواص الأمراء منهم والخدم، وكان نبيلا نبيها كريها وجيها. وفيها توفي الحكيم الموفق اسعد بن المطران في شهر ربيع الاول، وكان من أهل النظافة والظرافة، ومن ذوي الفصاحة والحصافة، وفقه الله في بدايته لهداية الاسلام، ونال أسباب الاحترام، وتقدم عند السلطان، وما شانه كبر وهو كبير الشان، وفي أواخر هذه السنة توفي الشيخ الفقيه نجم الدين الخبوشاني بمصر، وهو الذي عمر تربة الامام الشافعي رضوان الله عليه، وبنى المدرسة في جوارها، واحيا شعار التوحيد، وبنى أمره على التسديد والتشديد، وحفظ شمل الشافعية من التبديد، وكان السلطان عيبا له الى كل مايستدعيه، ويقضي له من الحوائج مايقتضيه، ووقف على المدرسة التي بناها وقوفا، وأعطاه في بنائها ألوفا، فلما توفي على المدرسة التي بناها وقوفا، وأعطاه في بنائها ألوفا، فلما توفي

الخبوشاني طلب المدرسة جماعة من العلماء فردوا ، وشفع العادل في صدر الدين أبي الحسن محمد بن حمويه شيخ الشيوخ، فكتب بها له، ورتب بوقفها وتدريسها استقلاله، وذلك في أواخر سنة ثمان وثمانين ثم صرف بعد السلطان عن المدرسة، وتبدّلت بالوحشة الأنسه.

قلت : ثم استقرت عليها يد أولاده واحدا بعد واحد إلى الآن.

قال : وفيها توفي الوجيه بن النفيس مستوفي ديوان دمشق بها، وكان نبيها مهيبا نزها عارفا مصيبا ، وفيها توفي القاضي أمين الدين أبوالقاسم بحماه في حادي عشر رمضان، وكان كريها سخيا نابها سريا.

وفيها: نقلت تربة القاضي محيي الدين أبي حامد محمد بن محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري إلى المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، وكان قاضي الموصل، وقد بنى رباطا هناك، وكانت وفاته بالموصل في الثامن والعشرين من جمادى الأولى سنةست وثهانين، وقد تقدم ذلك وسأل ابن اخيه القاضي بعده كتابا إلى أمير المدينة فكتب له كتاب منه: «سبب اصدارها الى الامير مسير نائب القاضي كهال الدين بصريح اذن عمه محيي الدين من الموصل الى المدينة المقدسة، على ساكنها أفضل السلام ليدفن في الرباط الذي أنشأه حيث يبعث مع شفيع الامة يوم البعث والنشور، ويأمن ظلام اللحد المحفور، في جوار الضياء والنور، ويحشر بها يناله من البركة والحبور، منشرح الصدر (اذا بعثر مافي القبور \* وحصل مافي الصدور) (١٢٨)، ولقد وفق في اختياره ايام حياته نقله إلى ذلك البيت المعمور، فليعن الأمير على هذه المكرمة، وليعتز بمواراته في التربة المجاورة للبقعة المعظمة ». قال: وكان القاضي حزقا جواداً لبذل اللهى معتادا، واسع المروة جامع اسباب الفتوة، يحب معالى الامور، فضائله متجاوزة حد الوفور.

قال ابن القادسي: ووصل الحاج في صفر بعدما اعتاقت اخبارهم ، وأخبروا أن داود أمير مكة أخذ ما في الكعبة من أموال، وأخذ طوقا كان يلزم الحجر الاسود فأوجب ذلك لشعثه ، وكان قد دخل بعض الباطنية بعد سنة أربعائة فضربه بدبوس ، وقال: إلى كم حجر، وفي يد ذلك الرجل سيف، فها تجاسر أحد يقرب منه، فتطوع رجل وبذل نفسه للقتل ، وتقدم اليه فقتله، فأخذ الحجر وجمعت شظاياه، وألفت وجعل له طوق، فأخذ أمير مكةذلك الطوق، فلما وصل أمير الحاج عنزل داود وولى أخاه مكثرا، ونقض قلعة كان بناها على جبل أبي قبيس ، وهو داود بن عيسى ابن فليته بن قاسم بن محمد بن أبي هاشم الحسني، ولما صرف عن مكة أقام بنخلة وتوفي بها في رجب سنة تسع وثهانين ، وهو أمير بن أمير إلى أخر من ذكرنا من آبائه وهم به ستة نفر.

قال ابن الاثير: وفي ربيع الأوّل سنة سبع وثمانين سار عز الدين سعنى صاحب الموصل إلى جزيرة ابن عمر فحصرها وبها ابن اخيه معز الدين سنجر شاه، لأنه كان سيء السيرة معه خارجا عن طاعته مساعدا للأعداء عليه، فعزم على أخذها منه فخضع وطلب العفو والصفح ، فأجابه وصالحة على قاعدة استقرت بينها ، وعاد إلى الموصل، فعاد سنجر شاه إلى حالته الأولى ،فتجاوز عنه واطرحه.

# ثم دخلت سنة ثمان وثمانين

قال العهاد: والسلطان مقيم بالقدس، وقسم سور البلد على أولاده وأخيه و أجناده، فشرعوا في إنشاء سور جديد محدق مديد، وكان يركب كل يوم وينقل الصخر على قربوس سرجه، فيستن الأكابر والأمراء في نقل الحجارة بنهجه ،ولو رأيته وهو يحمل حجراً في حجره ،لعلمت أن له قلبا قد حمل جبلا في فكره، ولقد جد في حماية الصخرة المقدسة حتى حمل لها الصخور، وانشرح صدره حتى باشر صدور مماليكه بها الصدور، وماتغلو دار يبنيها في الجنة بنقل حجارتها، ليكون ملكا في دارها وقمرا في دارتها ، وداوم البكور في الركوب ، وعرض وجهه الكريم للشحوب.

قال : وفي ثالث محرم رحل الفرنج على سمت عسقلان ، وأشاعوا أنهم يعيدون بها العمران، وهم نازلون بظاهرها ،جائلون في مواردها ومصادرها، فرأى الانكلتيز دخاناعلى بعد فقصد ، وكان ثم جماعة من الاسدية وسيف الدين يازكوج وعلم الدين قيصر ، وهم غارون عما دهمهم، فوصل اللعين إليهم وقت المغرب فوقع عليهم وكانوا فريقين نازلين في موضعين ، فلما وقع على أحدهما ركب الفريق الثاني ودافعه حتى ركب الفريق الأخر فدافعوهم وواقعوهم ، وساقوا قدامهم أثقالهم وخلصوا ناجين ، وسلم الله أنفسهم من أيدي الملاعين، ولم يفقد المسلمين إلا أربعة ، وكانت نوبة عظيمة دفع الله خطرها ، وهون ضررها.

وفي حادي عشر المحرّم كبس عـز الديـن جرديـك يبنا إلى أن عبرت قوافل الفرنج ، فساقها بأحمالها وأثقالها ونسائها ورجالها.

وفي مستهل ربيع الاخر ، وصل سيف الدين المشطوب ، وقد خلص من الأسر ، وقطعت عليه الفرنج خمسين ألف دينار، عجل منها عشرين ألفا، وأعطاهم بالباقي رهائن ، فأحسن السلطان لقاءه وأقطعه نابلس بأعمالها ، فتوفي بها في آخر شوال .

وفي ثالث عشر ربيع الآخر قتل المركيس لعنه الله بصور، وذلك أن رجلين دخلا صور وتنصرا ، وأظهرا الترهب والتعبد، ولنرما الكنيسة وشكرهما الاقساء والرهبان ، واحبها المركيس ، ولم يكن يصبر عنها، ففي بعض الايام وثبا عليه وقتلاه ، فأخذا وقتلا وعرف انها كانا من الحشيشية، فجلس مكانه الكندهري بأمر الانكلتيز وسر الانكلتيز بمصاب المركيس، فإنه كان يضاده ويراسل السلطان في الاعانة عليه، فلما قتل سكن روعه وذهب عنه ضره، وتزوّج الكندهري بالملكة زوجة المركيس في ليلته، ودخل بها وهي حامل ، وما الحمل في ملة الفرنج عن النكاح حائل، ويكون الولد منسوبا الى الملكة ، هذه قاعدة الطائفة المشركة، وهذا الكندهري ابن اخت ملك افرنسيس من أبيه، وملك الانكلتيز من أمه، ودخل الفرنج في حكمه وعاش إلى أخر سنة أربع وتسعين ، وتولاهم دون سبع سنين .

وقال العياد في الفتح: أضافه الأسقف بصور فاستوفى رزقه، وتعدّى ومادرى أنه يتردّى ، وأكل وشرب وشبع وطرب، وخرج وركب، فوثب عليه رجلان وسكنا حركته، بالسكاكين،ودكاه عند تلك الدكاكين، وهرب أحدهما ودخل الكنيسة، وقد أخرج تلك النفس الخسيسة، فقال المركيس وهو مجروح ، وفيه روح: احملوني الى الكنيسة فحملوه، فلما أبصره أحد الجارحين وثب إليه وزاده جرحا على جرح، وقرحا على قرح، فأخذ الفرنج الرفيقين فألفوهما من الفداوية الاسماعيلية مرتدين، فسألوهما من وضعها على تدبير هذا التدمير، فقالا: ملك الانكلتيز فسألوهما من وضعها على تدبير هذا التدمير، فقالا: ملك الانكلتيز فقال شر قتلة فيا لله من كافرين سفكا دم كافر، وفاجرين فتكا بفاجر، قال: ولم يعجبنا قتل المركيس في هذه الحالة وان كان من طواغيت الضلالة، لانه كان عدو ملك الانكلتيز ومنازعه على الملك والسرير ومنافسه على القليل والكثير.

قال: وفي تاسع جمادى الأولى استولى الفرنج على قلعة الداروم، ثم خربوها، ورحلوا عنها واسروا من فيها، وكان الانكلتيز الملعون قد استفسد من نوبة عكا نقابين حلبين ، فتمكنوا من نقب المكتان واحرقوا النقب ، وطلب أهل الحصن مهلة يشاورون فيها السلطان فلم يمهلهم ، وفي رابع عشرة خرجت اليزكية على الفرنج على قلعة تعرف بمجدل جناب حكذا قال في الفتح . وقال في البرق: بمجدل يابا وكذا قال ابن شدّاد — وقتل كند كبير ، ثم نزلوا تل الصافية ، ثم الى النطرون ، ثم الى بيت نوبة وهي وطأة بين جبال بينها وبين القدس مرحلة، وقد ألههم المسلمون بنهبهم وأضعف وهم بسلبهم ، يتسلطون عليهم من كل ناحية ، ويكمنون لهم تحت كل رابية ، وقد قويت قلوبهم بثبات السلطان ويكمنون لهم تحت كل رابية ، وقد قويت قلوبهم بثبات السلطان علونية، وهي من القدس على فرسخين ، فلما رأى العدو مالا يدان له به رجع ناكصا على عقبيه، والمسلمون في اثرهم يكمنون لهم وينالون منهم، وكان بدر الدين دلدرم في اليزك ، فبعث من كمن لهم عند طريق يافا، فمرّت بهم فوارس ، فاستولى عليهم الكمين وماسلم منهم أحد.

وفي ثالث جمادى الآخرة كبست الكمناء قافلة ، فكسبت وسلبت واسرت.

وفي تاسعه وصل الخبر بأن الفرنج رحلوا بأسرهم ليلا وادلجوا ، ولم نعلم قصدهم ، فعرف السلطان أنه إلى طريق العسكر المصري ، فندب الامير فخر الدين الطنبا العادلي وشمس الدين أسلم الناصري ، حتى يعلما العسكر فالتقيا بهم بالحسي واخبراهم الخبر فنزلوا وعرسوا وهم يظنون أن لاحس للعدو بأرض الحسي ، فجاءهم وفجأهم فاستولى على بعض الأموال وخلص أكثرها مع الرجال، ومن جملة من كان في العسكر فلك الدين أخو العادل لأمه، فنجا بها قدر عليه من القوافل.

قال العهاد :وجرى هذاكله والملكان العادل والافضل غائبان وعساكر الموصل وسنجار وديار بكر متباطئة في الاتيان، وسببه ماكان من تقى الدين وموته، وتشرط ولده في بقاء بلاد أبيه عليه، وإن الافضل كانًا طلب من والده البلاد قاطع الفرات، ونزل عن جميع ماله من الولايات، وأنه إذا عبر إلى الرها وحران ، ملك تلك البلدان ، ورحل من القدس في ثالث صفر، وأطلق له السلطان عشرين ألف دينار سوى مااصحبه برسم الخلع والتشريفات، ووصل الى حلب فاحتفل اخوه الظاهر لقدومه، وأقَّام له بسنن المكارم ورسومه، ووقف بخدمته ماثلا ، وبعطف الابتهاج اليه مائلا، وأحضر له مفاتيح بلده، وقدّم له كل مافي يده ، وسمع ناصر الدين بن تقي الدين بما اقلقه، ودفع منه الى ماازهجه وأزهقه، ووصل رسولـه الى العادل وهـو بالقـدس لآجئا إلى ظلـه، راجياً لفضله ، لائذا بجنابه، عائذا ببابه، فاحتمى له واحتمله، وقوّى في تقويته أمله، وخاطب السلطان في حقه واستعطفه، وقال: أنا امضى إليه وأحضره، وأومنه مما يحذره، وتبقى هذه السنة عليه حران والرها ونعطيه في السنة الاخرى حماه والمعره، ثم قرر السلطان مع أخيه العادل أن يأخذُ هو تلك البلاد وينزل عن اقطاعاته بمصر، ونصف خاصه ، ففعل واستزاد قلعة جعبر، فامتنع الملك الظاهر من تسليمها حتى استظهر ، فسار العادل في العشر الأول من جمادى الأولى وكتب السلطان إلى الأفضل بالعود، فجاء هذا راجعا، وذهب ذلك مسارعا، ووصل إلى حران والرها وعاد في آخر جمادي الآخرة ومعه ابن تقى الدين.

قال القاضي ابن شدّاد :عاد الأفضل منكسرا متعتبا ، فوصل دمشق ولم يحضر إلى خدمة السلطان، فلما اشتد خبر الفرنج سير إليه وطلبه فما وسعه التأخر ، فسار إليه مع العساكر الواصلة اليه من الشرق فلقيه السلطان وترجل له جبرا لقلبه، وتعظيما لأمره.

قال ولما بلغ ابن تقي الدين موجدة السلطان ، أنفذ إلى العادل

يستشفع به ليطيب قلب السلطان عليه، ويقترح احد قسمين: إما حران والرها وسميساط، وإما حماه ومنبج وسلميه والمعرة مع كفالة أخوته، فراجع العادل السلطان مرارا فلم يفعل ذلك ولم يجب الى شيء منه، فكثرت الشفاعة اليه، فحلف له على حران والرها وسميساط على أنه إذا عبر الفرات أعطي المواضع التي اقترحها، ويكفل اخوته، وتخلى عن تلك المواضع التي في يده، ثم التمس العادل خط السلطان فأبى وألح عليه فخرق نسخة اليمين، وانقطع الحديث، وأخذ من السلطان الغيظ كيف يخاطب بمثل ذلك من بعض أولاد اولاد أخيه، ثم أعطاه خطه بها استقر من القاعده، ثم إن العادل التمس من السلطان البلاد التي كانت بيد ابن تقي الدين بعد انتقاله، وجرت مراجعات كثيرة في العوض عنها، فكان آخر ما استقر أنه ينزل عن كل ماهو شامي الفرات ماخلا الكرك والشوبك والصلت والبلقاء وخاصه بمصر بعد النزول عن الصلت والبلقاء إلى القدس.

## فصل

# في عزم الفرنج على قصد القدس وسببه

قال القاضي ابن شدّاد :وكان تقدّم الى عسكر مصر بالمسير وأوصاهم بالاحتراز عند مقاربة العدو ، فأقاموا ببلبيس أياما حتى اجتمعت القوافل إليهم، واتصل خبرهم بالعدو ، ثم ساروا طالبي البلاد ، والعدو يترقب اخبارهم ويتوصل إليهم بالعرب المفسدين ، ولما تحقق العدو أمر القفل، أمر عسكره بالانحياز إلى سفح الجبل وركب في ألف راكب مردفين ألف راجل، فأتى تل الصافية فبآت ،ثم سار حتى اتى ماء يقال له الحسى، فأنفذ السلطان الى القافلة ينذرهم بنهوض العدو ويأمرهم ان يبعدوا في البرية، وركب الانكلتيز الملعون مع العرب بجمع يسير ،وسار حتى أتى القفل وطاف حوله في صورة عربي ورآهم ساكنين قد غشيهم النعاس ، فعاد واستركب عسكره، وكانت الكبسة قريبة الصباح ، فبغت الناس ووقع عليهم بخيله ورجله ، فكان الشجاع الايد القوي الذي ركب فرسه ونجا بنفسه، وانقسم القفل ثلاثة أقسام :قسم قصدوا الكرك مع جماعة من العرب، وقسم أوغلوا في البرية مع جماعة من العرب، وقسم استولى العدو عليهم فساقهم بجالهم وأحمالها وجميع مامعهم ، وكانت وقعة شنعاء لم يصب الاسلام بمثلها من مدة مديدة ، وتبدد الناس في البرية ورموا أموالهم ، وكان السعيـد منهم من نجا بنفسه، وجمع العدو ماأمكنه جمعه من الخيل والبغال والاقمشة وسائر أنواع الأموال، وكلف الجمالين خدمة الجمال، والخربندية خدمة البغال، والساسة خدمة الخيل، وسار في جحفل من غنيمة يطلب عسكره ، ولقد حكى من كان أسيراً معهم أنه في تلك الليلة وقع فيهم الصوت أن العسكر السلطاني قد لحقهم فتركوا الغنيمة وانهزموا ، وبعدوا عنها زمانا، ثم انكشف الأمر فعادوا ، وقد هرب جمع من الاسرى ، وكان الحاكي منهم، وأخبر أن الاسارى خسمائة، والجمآل تناهيز ثبلاثة آلاف جمل،

ووصل العدو إلى مخيمه سادس عشر جمادى الآخرة، وكمان يوما عظيها عندهم.

وصح عزمهم على القدس، وقويت نفوسهم بها حصلوا عليه من الأموال والجهال التي تنقل الميرة والازواد، ورتبوا جماعة على لد يحفظون الطريق على من ينقل الميرة، وأنفذوا الكندهري إلى صور وطرابلس، وعكا يستحضر من فيها من المقاتلة ليصعدوا إلى القدس حرسه الله تعالى.

ولما عرف السلطان ذلك منهم عمد إلى الأسوار فقسمها على الأمراء وتقدم إليهم بتهيئة أسباب الحصار، وأخذ في افساد المياه ظاهر القدس، فخرب الصهاريج والجباب بحيث لم يبق حول القدس ماء يشرب أصلا، وأرض القدس لايطمع في حفر بشر فيها ماء معين في جميعها لأنها جبل عظيم، وحجر صلب، وسير إلى العساكر يطلبها من الجوانب والبلاد.

قال: ولما كان ليلة الخميس تاسع عشرجمادى الآخرة أحضر السلطان الأمراء عنده ، فحضر الأمير أبوالهيجاء السمين بمشقة عظيمة، وجلس على كرسي في خدمة السلطان ، وحضر المشطوب والأسدية بأسرهم وجماعة الأمراء ، ثم أمرني أن أكلمهم وأحثهم على الجهاد، فذكرت مايسر الله من ذلك ، وكان مما قلته أن النبي بي الما اشتذ به الأمر بايعه الصحابة رضوان الله عليهم على الموت في لقاء العذو، ونحن أولى من تأسى به والمصلحة الاجتماع عند الصخرة والتحالف على الموت، فلعل ببركة هذه النية يندفع هذا العدو، فاستحسن الجماعة ذلك ووافقوا عليه، ثم شرع السلطان بعد ان سكت زمانا في صورة فكر، والناس سكوت كأن على رؤوسهم الطير، ثم شرع وقال: الحمد لله والصلاة على رسول الله ، إعلموا أنكم جند الإسلام اليوم ومنعته وأنتم تعلمون أن

دماء المسلمين وأموالهم وذراريهم معلقة في ذممكم ،وأن هذا العدو ليس له من المسلمين من يلقاه إلا أنتم فإن لويتم أعنتكم ، والعياذ بالله طوى البلاد (كطي السجل للكتاب)(١٢٩) وكان ذلك في ذمتكم فإنكم انتم الذين تصديتم لهذا كله، وأكلتم مال بيت مال المسلمين، فالمسلمون في سائر البلاد متعلقون بكم والسلام.

فانتدب لجواب سيف الدين المشطوب وقال: يامولانا نحن مماليكك وعبيدك، وأنت الذي أنعمت علينا وكبرتنا ، وعظمتنا وأعطيتنا وأغنيتنا ، وليس لنا الا رقابنا وهي بين يديك ، والله مايرجع احد منا عن نصرتك الى ان يموت ، فقال الجماعة مثل ماقال، وانبسطت نفس السلطان بذلك المجلس وطاب قلبه واطعمهم ،ثم انصرفوا ، ثم انقضى يـوم الخميس على اشدِّحال في التأهب والاهتمام حتى اذا كان العشاء الآخرة اجتمعنا في خدمته على العادة وسمرنا حتى مضى هزيع من الليل وهو غير منبسط على عادته، ثم صلينا العشاء ، وكانت الصلاة هي الدستور العام فصلينا وأخذنا في الانصراف ، فدعاني رحمه الله وقال: أعلمت ما الذي تجدد ؟قلت: لا، قال: إن أبا الهيجاء السمين أنفذ إلى اليوم وقال إنه أجتمع عندي جماعة الماليك الأمراء وأنكروا علينا موافقتنا لك على الحصار والتأهب له، وقالوا: لا مصلحة في ذلك فإنا نخاف ان نحصر، ويجري علينا مثل ماجرى على أهل عكا ، وعند ذلك تؤخذ بلاد الاسلام جمعا، والرأي أن نلقى مصاف فإن قدر الله أن نهزمهم ملكنا بقية بـ الادهـم، وإن تكـن الأخرى سلم العسكر ومضـى القدس ، وقد انحفظت بلاد الاسلام بعساكرها مدّة بغير القدس ،وكان رحمه الله عنده من القدس أمر عظيم لاتحمله الجبال ،فشق عليه هذه الرسالة ،وأقمت تلك الليلة في خدمته حتى الصباح وهي من الليالي التي أحياها في سبيل الله رحمه الله، وكان مما قالوا في الرسالة: إنك إن أردتنا نقيم فتكون معنا أو بعض أهلك حتى نجتمع عنده، وإلا فالأكراد لايدينون للاتراك، والأتراك لايدينون لـلأكراد ، وانفصل الحال على ان يقيم من أهله مجد الدين بن فرخشاه صاحب بعلبك ، وكان رحمه الله : يحدّث نفسه بالمقام، ثم منعه رأيه عنه لما فيه من خطر على الإسلام، فلما قارب الصبح أشفقت عليه وخاطبته في أن يستريح ساعة لعل العين تأخل حظها من النوم ، وانصرفت عنه إلى داري ، فها وصلت إلا والمؤذن قد أذن ، فأخذت في أسباب الوضوء ، فها فرغت إلا والصبح قد طلع ، وكنت أصلي الصبح معه في غالب الأحوال ، فعدت إلى خدمته ، وهو يجدد الوضوء فصلينا ، ثم قلت له: قد وقع لي واقع أعرضه، فأذن لي يجدد الوضوء فصلينا ، ثم قلت له: قد وقع لي واقع أعرضه، فأذن لي هو فيه، وقد عجزت أسبابه الأرضية فينبغي أن يرجع إلى الله تعالى، وهذا يوم الجمعة وهو أبرك أيام الاسبوع، وفيه دعوة مستجابة في صحيح الاحاديث، ونحن في أبرك موضع يقدر أن يكون فيه في يومنا هذا ، فالسلطان يغتسل للجمعة ويتصدق بشيء خفية بحيث لايشعر أنه منك، وتصلي بين الأذان والإقامة ركعتين تناجي فيها ربك ، وتفوض مقاليد أمورك إليه وتعترف بعجزك عما تصديت له ، فلعل الله يرحك مقاليد أمورك إليه وتعترف بعجزك عما تصديت له ، فلعل الله يرحك مقاليد أمورك إليه وتعترف بعجزك عما تصديت له ، فلعل الله يرحك ويستجيب دعاءك .

قال : وكان رحمه الله حسن العقيدة تام الإيان، يتلقى الأمور الشرعية بأكمل انقياد وقبول ، ثم انفصلنا ، فلما كان وقت الجمعة صليت إلى جانبه في الأقصى وصلى ركعتين ورأيته ساجدا، وهو يذكر كلمات ودموعه تتقاطر على مصلاه رحمه الله، ثم انقضت الجمعة بخير، فلما كان عشيتها ونحن في خدمته على العادة وصلت رقعة جرديك ، وكان في اليزك يقول فيها إن القوم ركبوا بأسرهم ووقفوا في البر على ظهر، ثم عادوا إلى خيامهم، وقد سيرنا جواسيس تكشف أخبارهم ، ولما كان صبيحة السبت وصلت رقعة أخرى يخبر فيها أن الجواسيس رجعوا وأخبروا أن القوم اختلفوا في الصعود إلى القدس والرحيل إلى بلادهم، فلهب الفرنسيسية إلى الصعود إلى القدس، وقالوا: نحن إنها جئنا من فلهب الفرنسيسية إلى الصعود إلى القدس، وقالوا: نحن إنها جئنا من بلادنا بسبب القدس ولا نرجع دونه ، وقال الانكلتيز إن هذا الموضع قد

أفسدت مياهه ، ولم يبق حوله ماء أصلا فمن أين نشرب؟ قالوا: نشرب من نهر نقوع وبينه وبين القدس مقدار فرسخ ، فقال: كيف نذهب إلى السقي ، فقالوا: ننقسم قسمين قسم يذهب إلى السقي مع الدواب، وقسم يبقى على البلد في اليزك ويكون الشرب في اليوم الواحد مرة، فقال الانكلتيز :إذا يـوّخذ العسكر البراني الذي يـذهب مع الدواب ، ويخرج عسكر البلد على الباقين ، ويذهب دين النصرانية، فانفصل الحال على أنهم حكموا ثلاثها ته من أعيانهم ، وحكم الثلاثها ثة اثني عشر من أعيانهم، وحكم الثلاثها ثة اثني عشر من أعيانهم، وحكم الاثنا عشر ثلاثة منهم وقد باتوا على حكم الثلاثة في المحوانه من يفعل، فلم أصبحوا حكموا عليهم بالرحيل فلم تمكن يأمرونهم به يفعل، فلم أصبحوا حكموا عليهم بالرحيل فلم تمكن المخالفة ، وأصبحوا في بكرة الحادي والعشرين من جمادى الآخرة راحلين المخالفة ، وأصبحوا في بكرة الحادي والعشرين من جمادى الآخرة راحلين لم يبق في المنزلة إلا الآثار ، ثم نزلوا بالرملة وتواتر الخبر بذلك، فركب للسلطان قدس الله روحه ، وركب الناس ،وكان سرور وفرح ، ولكن السلطان خاف على مصر لما حصلوا عليه من الجهال والظهر، وكان قد السلطان خاف على مصر لما حصلوا عليه من الجهال والظهر، وكان قد ذكر الانكلتيز مثل هذا مرارا.

#### فصل

### في تردد الانكلتيز في معنى الصلح وماجرى اثناء ذلك الى ان تم ذلك ولله الحمد

وقد ساق ذلك القاضي ابن شداد أحسن سياق، واستقصى الأمر فيه بخلاف العماد فقال: إنَّ الانكلتيز جاء منه رسول يقول قد هلكنا نحن وأنتم والأصلح حقن الـدماء، ولاينبغي أن يعتقـد أن ذلك عـن ضعف منى بل للمصلّحة ، ولا تغتر بتأخري عن منزلي فالكبش يتأخر لينطح، ثم جاء رسوله يقول لا يجوز لك ان تهلك الفرنج كلهم، وهذا ابن اختى الكندهري قد ملكته هذه الديار وسلمته إليك يكون هو وعسكره بحكمك، ولو استدعيتهم الى الشرق سمعوا واطاعوا، وإن جماعة من الرهبان والمنقطعين قد طلبوا منك كنائس فما بخلت عليهم بها، وأنا اطلب منك كنيسة وتلك الأمور التي كانت تضيق صدرك لما كانت تجري المراسلة مع الملك العادل قد قبلت بتركها وأعرضت عنها ،ولو أعطيتني مقرعة أو قرية قبلتها وقبلتها ، فاستشار السلطان الامراء في جوابه فأشاروا بالمحاسنة وعقد الصلح ، لما كان قد أخذ المسلمين من الضجر والتعب، وعلاهم من الديون، واستقر الحال على هذا الجواب: إنك إذا دخلت معنا هذا الدخول فها (جزاء الاحسان إلا الاحسان)(١٣٠) ابن أختك يكون عندي كبعض أولادي وسيبلغك ما أفعل في حقه من الخير وأنا أعطيك أكبر الكنائس وهي القهامة وبقية البلاد نقسمها ، والساحلية التي بيدك تكون بيدك ، والتي بأيدينا من القلاع الجبلية تكون لنا وما بين العملين يكون مناصفة ، وعسق لان وما وراء هما تكون خرابا لا لنا ولا لكم ، وإن أردتم قراها كانت لكم، والذي كنت أكرهه حديث عسقلان ، فانفصل الرسول طيب القلب ، واتصل الخبر أنهم بعد وصول الرسول إليهم راحلون إلى جهة عسقلان طالبون جهة مصر .

ووصل الرسول من جانب قطب الدين بن قليج أرسلان يقول ان البابا قدوصل الى قسطنطينية في خلق لا يعلم عددهم الا الله تعالى، وقال الرسول: إني قتلت في الطريق اثني عشر فارساً، ويقول تقدم إلى من يتسلم بلادي مني فإني عجزت عن حفظها ،فلم يصدق السلطان هذا الخبر ولا أكترث به.

ثم جاء رسول الانكلتيز يطلب أن يكون في قلعة القدس عشرون نفراً وإن من سكن من النصارى والفرنج في البلد الايتعرض لهم ، وأما بقية البلاد فلنا منها الساحليات والوطأة ، والبلاد الجبلية لكم ، وأخبر الرسول من عند نفسه مناصحة أنهم قد نزلوا عن حديث القدس ماعدا الزيارة وإنها يقولون هذا تصنعا وأنهم راغبون في الصلح ، وأن الانكلتيز لابد له من الرواح إلى بلده فأجيب بأن القدس ليس لكم فيه حديث سوى الزيارة، فقال الرسول وليس على النزوار شيء يؤخذ منهم ، فعلم من هذا القول الموافقة ، وأما البلاد فعسقلان وماوراءها وقراها لابِّد من خرابه، فقال الرسول: قدخسر الملك على سورها مالا جزيلا، فسأل المشطوب أن يجعل مزارعها وقراها له في مقابلة خسارته ، فأجاب السلطان : وإن الداروم وغيره يخرب ويكون بلدها مناصفة ، وأما باقي البلاد فيكون لهم من يافا إلى صور بأعمالها ، ومهما اختلفا في قرية كانت مناصفة ، ثم جاءً الرسول يقول: الملك يسألك ويخضع لـك في أن تترك له هذه الأماكن الثلاثة عامرة ، وأي قدر لها عند ملكك و عظمتك ، وماسبب اصراره عليها إلا أن الفرنج لم يسمحوا بها ، وهو قد ترك القدس بالكلية لايطلب أن يكون فيه لارهبان ولاقسوس إلا في القيامة وحدها، فتترك له انت هذه البلاد ويكون الصلح عاما فيكون لهم كل مافي أيديهم من الداروم إلى أنطاكية، ولكم مافي أيديكم ، وينتظم الحال ويروح، وإن لم ينتظم الصلح فالفرنج ما يمكنونه من الرواح ولايمكنه مخالفتهم.

قال القاضي: فانظر إلى هذه الصناعة في استخلاص الغرض باللين

تارة، وبالخشونة أخرى، وكان لعنه الله مضطراً إلى الرواح، وهذا عمله مع اضطراره والله المسؤول في أن يكفي المسلمين مكره، فما بلوا بأعظم حيلة ولا أشد اقداما منه، فأجابه السلطان بأن أنطاكية لنا معهم حديث فيها ورسلنا عندهم فإن عادوا بها نريد أدخلناهم في الصلح و إلا فلا ، وأما التي سألها فلا يسوافق المسلمون على دفعها إليه، وإلا فلا قدر لها، وأما سور عسقلان فيأخذ في مقابله ماخسر عليه لد في الوطأة ، ثم عاد الرسول وقال: إن الملك قال: لايمكننا أن نخرب من عسقلان حجرًا واحدا ولايسمع عنا في البلاد مثل ذلك، أما البلاد فخذوها معروفة لامناكرة فيها ،وعند ذلك تأهب السلطان للخروج إلى جهة العدو ، وإظهار القوة وشدة العزم على اللقاء ، وبلغه في العاشر من رجب أن الفرنج خلم الله قد رحلوا طالبين نحو بيروت، فبرز من القدس الى منزلة يقال لها الجيب ، وجاء العادل من الشرق والظاهر من حلب ورحل من الجيب الى بيت نوبة،ثم رحل إلى الرملة فنزل بها على تلال بين الرملة ولد وركب جريدة حتى أتى يازور وبيت جن وأشرف على يافا ، ثم نزل عليها من الغد ورتب عسكره في الميمنة ولده الظاهر، وفي الميسرة أخوه العادل ،وركب المنجنيقات،وزحف عليها، فأرسل العدو رسولين نصرانيا وفرنجيا يطلبان الصلح، فطلب منهم قاعدة القدس وقطيعته، فأجابوا إلى ذلك ، واشترط وا أن ينظروا إلى يـوم السبت تـاسع عشر رجب، فإن جاءتهم نجدة ، وإلا تمت القاعدة على ما استقر، فأبى السلطان الإنظار، وأمرب النقب فحشي وأحرق ، فوقع بعض البدنة فوضع العدو أخشابا عظيمة خلف النقب فالتهب فمنع من الدخول في الثلمة، وقاتلت خارج الأبواب إلى الليل ، فلما أصبحواً وقعت البدنة فعلا غبار مع الدخان، فَأَطْلَم الأَفْق ،وما تجاسر أحد على الولوج خوفا من اقتحام النار، فلما انكشفت الغبرة ظهرت أسنة قد نابت مناب الأسوار، ورماح قد سدت الثلمة حتى عن نفوذ الأبصار، ورأى الناس هولا عظيها من صبر القوم وثباتهم ، ولقد رأيت رجلين على ممشى السور، يمنعان المتسلق فيه

من جهة الثلمة ، وقد أتى أحدهما حجر المنجنيق فأخذه ونزل إلى داخل فقام رفيقه متصديا لمثل مالحقه أسرع من لمح البصر، بحيث لم يفرق بينهما إلا نافذ بصير، ولما رأى العدو ما قدّال الآمر إليه سيروا يطلبون الأمان ، فقال رحمه الله : الفارس بفارس، والتركبلي بمثله، والراجل بالراجل، والعاجز فعلى قطيعة القدس، فنظر الرسول ورأى القتال على الثلمة اشد من اضرام النار، فسأل السلطان أن يبطل القتال إلى أن يعود فقال ما أقدر على منع المسلمين من هذا الأمر ولكن ادخل إلى أصحابك فقل لهم ينحازون إلى القلعة، ويتركون الناس يشتغلون بالبلىد فما بقي دونــه مانع، ففعلوا وانحازوا إلى قلعة ياف بعد أن قتل منهم جماعة، ودخل الناس البلد عنوة ونهبوا منه أقمشة عظيمة وغلالاً كثيرة وأثاثاً، وبقايا قهاش مانهب من القافلة المصرية ، واستقرّت القاعدة على الوجه الذي قرره السلطان ، وكمان قايهاز النجمي في طرف الغور لحمايته من عسكر العدو الذي بعكما فوصل منه كتآب يخبر فيه أن الانكلتيز الملعون لما سمع خبر يافا أعرض عن قصد بيروت، وعاد على قصد يافا ، فاشتد عزم السلطان على تتمة الأمر وتسلم القلعة ،وكنت ممن لم ير الأمان لأنه قمد لاح اخدهم ، وكان الناس لهم مدّة لم يظفروا من العدو بمغنم يوثبهم عليه، فكان أخلهم عنوة مما يبعث همم العسكر، غير أن الأمان وقع واتفق الصلح فكنت بعد ذلك ممن يحث على اخراج العدّو من القلعة وتسلمها خوفاً من لحوق النجدة، وكان السلطان يشتد حرصه على ذلك، غير أن الناس قد أقعدهم التعب عن امتشال الأمر وأخمذ منهم الحديد، وشدّة الحر ودخان النار بحيث لم يبق لهم استطاعة على الحركة، وسمعنا بوق الفرنج في السحر ، فعلمناً بوصول النجدة فسيّر السلطان معي عز الدين بن جرديك وعلم الدين قيصر ودرباس المهراني وعدل الخزانة شمس الدين وقال: امض إلى الملك الظاهر وقبل له يقف ظاهر الباب القبلي ، وتدخل أنت ومن تراه إلى القلعة وتخرجون القوم وتستولي على ما فيها من الأموال والأسلحة وتكتبها بخطك إلى الظاهر،

وهو ظاهر البلد وهويسيرها إلينا ففعلنا ،ودخلنا القلعة وأمرنا الفرنج بالخروج فأجابوا وتهيئوا ، فقال جرديك : لاينبغي أن يخرج منهم أحد حتى يخرج الناس من البلد خشية أن يتخطفوهم ،وكان الناس قلد داخلهم الطمع في البلد وأخمذ يشتد في ضرب الناس وإخراجهم وهم غير مضبوطين بعدة ولامحصورين في مكان فكيف يمكن إخراجهم ، وطال الأمر إلى أن علا النهار، وأنا ألومه وهو لايرجع عن ذلك ، والزمان يمضى ، فلما رأيت الوقت يفوت قلت له: إن النجدة قد وصلت والمصّلحة المسـارعة في إخـراجهم فـأجاب وأخـرجنا خمســة وأربعين نفراً بخيولهم ونسائهم، وسيرناهم ، ثم اشتدت أنفس الباقين وحدثتهم نفوسهم بالعصيان،وكمانـوا استقلـوا المراكـب التي جـاءتهم وظنـوا أنّ لانجدة لهم فيها، ولم يعلموا أن الانكلتيـز مع القوم وراءهـم قد تـأخروا عن الننزول إلى علو النهار، فخافوا أن يمتنعوا فيؤخذوا ويقتلوا ، فخرج من خرج ، ثم بعــد ذاك قويت النجدة حتى صاروا خمســة وثلاثين مركباً فقويت نفوس الباقين في الحصن ، فظهرت منهم أمارات العصيان ودلائله فقلت لاصحابنا :خذوا حذركم ، فقد تغيرت عزائم القوم فما كان إلا ساعة بحيث صرت خارج البلد، وقد حمل القوم من القلعة وأخرجوا من كان في البلد من الأجناد، ولقد ازدحم الناس في الباب حتى كاد يتلف منهم جماعة ، وبقي في بعض الكنائس جماعة من رعاع العسكر مشتغلين بها لايجوز فهجموا عليهم وقتلوا منهم وأسروا، ولما عرف السلطان أمر الناس زحف، وعاد للحصار كما كان وحشروا العدو في القلعة ، واستبطئوا نزول النجدة إليهم وخافوا خوفاً عظيماً ، فأرسلوا بطركهم والقسطلان إلى السلطان يعتذران مما جرى ويسألانه القاعدة الأولى ، وكان سبب امتناع نزول النجدة أنهم رأوا البلد مشحونا ببيارق المسلمين ورجالهم ، فخافوا أن تكون القلعة قد أخذت ، وكان البحر يمنع من سماع الصوت وكثرة الضجيج والتهليل والتكبير، فلما رأى من في القلعة شدّة الزحف عليهم وامتناع النجدة من النزول مع كثرتها فانها

بلغت نيفًا وخمسين مركبًا منها خمسة عشر من الشواني ، علموا أن النجدة قد ظنوا أن البلد أخذ، فوهب رجل منهم نفسه للمسيح ، وقفز من القلعة إلى المينا ، وكان رملاً فلم يصبه شيء وعدا إلى البحر فحدث الانكلتيز بالحديث في كان إلا ساعة حتى نزل كل من في الشواني إلى المينا، هذا كله وأنا أشاهد ذلك فحملوا على المسلمين وأخرجوهم من المينا فقبض السلطان على الرسل وأمر بتأخير الثقل والأسواق إلى يأزوره فرحل الناس وتخلف لهم ثقل عظيم مما كانوا نهبوا من يافا، وخرج الانكلتيز إلى موضع السلطان الذي كان فيه لمضايقة البلد، وأمر من في القلعة أن يخرجوا إليه لتعظيم سواده، ثم اجتمع به جماعة من الماليك طلبهم وحضر الحاجب أبو بكر العادلي، وكان قد صادق جماعة من خواص الماليك ، ودخل معهم دخولا عظيماً بحيث كانوايجتمعون به في أوقات متعددة ، وكان قد صادق من الأمراء جماعة كبدر الدين دلد رم وغيره، فلم حضروا عنده جدّ وهزل ومن جملة ماقال : هدا السلطان عظيم، وما في الارض للاسلام ملك أكبر ولا أعظم منه كيف رحل عن المكان بمجرد وصولي، ووالله مالبست لأمة حربي ولا تأهبت لأمر وليس في رجلي إلا زربول البحر، فكيف تأخرتم، ثم قال: والله انه لعظيم، والله ماظننت أنه يأخذ يافا في شهرين، فكيف أخذها في يومين، ثم قال لأبي بكر الحاجب: تسلم على السلطان وتقول له:بالله عليك أجب سؤالي في الصلح فهذا أمر لابد له من آخر، وقد هلكت بلادي وراء البحر وما دوام هذا مصلحة لا لنا ولا لكم ، فأرسل السلطان إليه في الجواب: إنك كنت طلبت الصلح أولاً على قاعدة وكان الحديث في يافا وعسقلان، والآن فقد خربت هذه يافا فيكون من قيسارية إلى صور، فأرسل الانكلتيز يقول إن قاعدة الافرنج إنه إذا أعطى واحد الواحد بلداً صار تبعه وغلامه، وأنا أطلب منك هـ نين البلدين يافا وعسقلان وتكون عساكرهما في خدمتك دائماً ، وإذا احتجت إليّ وصلت إليك في أسرع وقت وخدمتك كما تعلم خدمتي، فقال السلطان: حيث دخلت هذا

المدخل فأنا أجيبك على أن تجعل البلدين قسمين: أحدهمالك وهـو يافا وما وراءها ، والثاني لي وهو عسقلان وما وراءها، ثم رتب السلطان الينزك بيازور، وأمر بخرابها وخراب بيت جن ورتب النقابين لذلك ، وسار إلى الرملة ، فغادر رسول الانكلتيز يشكر على إعطائه يافا، ويجدد السؤال في عسقلان ، ويقول له إن وقع الصلح في هذه الأيام الستة سار إلى بلاده، وإلا احتاج أن يشتى ههنا، فأجابه السلطان في الحال وقال: أما النزول عن عسقلان فلا سبيل إليه، وأماتشتيته ههنا فلا بد منها لأنه قد استولى على هــذه البلاد ويعلم أنه متى غاب عنهـا أخذت بالضرورة، وإذاأقام أيضا إن شاء الله تعالى، وإذا سهل عليه ان يشتي ههنا ويبعد عن أهلُه ووطنه مسيرة شهرين ، وهـو شاب في عنفوان شبابه، ووقت اقتناص لذاته، مايسهل على أن أشتى وأصيف في وسط بلادي وعندي أهلى وأولادي، ويأتي إلى ما أريده وأنا رجل شيخ قد كرهت لذات الدنيا، وشبعت منها ورفضتها عنى، والعسكر الذي يكون عندي في الشتاء غير الذي يكون في الصيف، وأنا أعتقد أني في أعظم العبادات، ولا أزال كذلك حتى يعطى الله النصر لمن يشاء، شم جاء رسول يقول: كم أطرح نفسي على السلطان وهـو لايقبلني، وأنا كنت أحـرص حتى أعود إلى بلادي والآن فقد هجم الشتاء، وتغيرت الأنواء، وعزمت على الاقامة وما بقي بيننا حديث، ثم بلغ السلطان أن عسكر العدّو قد رحل من عكا قاصدا يافا، فسار رحمه الله فنزل على العوجا، ووصل من أخبره أن العدو دخل قيسارية ولم يبق فيه طمع، وبلغه أن ملك الانكلتيز نازل خارج ياف في نفر يسير، فوقع له أن يكبسه فأتاه فوجد خيمه نحو عشر خيم، فحملوا عليهم فثبتوا ولم يتحركوامن أماكنهم وكشروا عن أنياب الحرب، وكانوا على الموت أصبر، فارتاع المسلمون منهم ووجموا من ثباتهم، وداروا حولهم حلقة، وكانت عدة الخيل سبعة عشر، وقيل تسعة والرجالة ثلاثائة أو أكثر ، فوجد السلطان من ذلك موجدة عظيمة، ودار على الأطلاب بنفسه يحثهم على الحملة، ويعدهم بالحسنى على ذلك، فلم يجب دعاءه أحد سوى ولده الظاهر.

قال: وبلغني أنه قال له الجناح أخو المشطوب: قل لغلمانك الذين ضربوا الناس يوم فتح يافا وأخذوا منهم الغنيمة يحملون، وكان في قلوب العسكر من صلح السلطان على يافا شيء حيث فوتهم الغنيمة، فلما رأى السلطان ذلك أعرض عن القتال وغضب وسار إلى طرف يازور.

قال: ولقد بلغني أن الانكلتيز أخذ رمحه ذلك اليوم وحمل من طرف الميمنة إلى طرف الميسرة ، فلم يتعرض له احد.

قلت: ووصل من الفاضل كتاب من دمشق يقول فيه: «الا تنصروه فقد نصره الله» (١٣١) وجواب السلطان لهم عن ملك الانكلتيز الا تقتلوه فقد قتله الله، ولم يزل لطيفا، ولم يزل مولانا يحمل الثقل ثقيلاً وخفيفاً ، ومن كان الله عليه لم يكن قوياً، ومن كان الله معه لم يكن ضعيفاً.»

قال القاضي: ثم سار السلطان الى النطرون، ثم إلى القدس فنظر إلى العهائر ورتبها، ثم عاد إلى النطرون وتوافت إليه فيه العساكر، ووصل علاء الدين ابن صاحب الموصل، ثم قدم عسكر مصر وفيهم سيف الدين يازكوج وجماعة الأسدية في خدمة ولده الملك المؤيد مسعود، ووصل المنصور ناصر الدين محمد بن تقي الدين فلقيه الظاهر إلى بيب نوبة، ودخل به على السلطان، فنهض واعتنقه وضمه إلى صدره وغشيه البكاء فصبر نفسه حتى غلبه الأمر فبكى الناس لبكائه ساعة،ثم باسطه وسأله عن الطريق، وكان معه عسكر جميل فقرّت عين السلطان به، ثم سار ونزل في مقدمة العسكر عما يلي الرملة، ولما رأى السلطان العساكر شديدا والافرنسيسية قد ساروا راجعين ليعبروا البحر من غير شك، شديدا والافرنسيسية قد ساروا راجعين ليعبروا البحر من غير شك، ونفقاتهم قد قلت، و أرى ان نسير الى يافا فإن وجدنا فيها طمعا و إلا عدنا الى عسقلان فها تلحقها النجدة الا وقد بلغنا منها غرضا، فوافقوه على ذلك، فأرسل عز الدين جرديك وجمال الدين فرج سادس شعبان

حتى يكونا قريبا من يافا، هذا ورسل الانكلتيز لاتنقطع في طلب الفاكهة والثلج، وأوقع الله عليه في مرضه شهوة الكمثرى والخوخ، وكان السلطان يمده بذلك ويقصد كشف الأخبار بتواتر الرسل، والذي انكشف له أن فيها ثـ لاثهائة فارس على قـ ول المكثر ومـ اثتي فـ ارس على قول المقلل، وإن الكندهري تردد بينه وبين الفرنسيسية في مقامهم وهم عازمون على عبور البحر قولا واحدا "،فسار السلطان إلى جهة الرملة وجاء رسول الانكلتيز مع الحاجب أبي بكر يشكر السلطان على اسعافه بالفاكهة والثلج، وذكر أبو بكر أنه انفرد به وقال له: قل لأخى -يعنى - الملك العادل: يتبصر كيف نتوصل الى السلطان في معنى الصلح، ويستوهب لي منه عسقلان وأمضى ويبقى هو ههنا مع هذه الشرذمة اليسيرة يأخذ البلاد منهم، فليس غرضي إلاإقامة جاهي بين الفرنجية، وإن لم ينزل السلطان عن عسقلان فيأخــ لى منه عوضا عن خسارتي على عمارة سورها، فأرسل السلطان الى العادل: إن نزلوا عن عسقلان فصالحهم فإن العسكر قد ضجر من ملازمة البيكار والنفقات قدنفدت، ثم ان الانكلتيز نزل عن عسقلان وعن العوض عنها واستوثق منه على ذلك ، فأحضر السلطان الديوان يوم السبت ثامن عشر شعبان، وذكر يافا وعملها ، وأخرج الرملة منها ولدّ ومجدل يابا، ثم ذكر قيسارية وأعمالها، وأرسوف وعملها، وحيف وعملها، وعكا وعملها، وأخرج منه الناصرة وصفورية، وأثبت الجميع في ورقةوقال للرسول: هذه حدود البلاد التي تبقى في أيديكم فإن صالحتم على ذلك فمبارك وقد اعطيتكم يدي، فينفُّذ الملك من يحلف في بكرة غد، وإلا فتعلم أن هذا تــدفيعُ ومماطلة، وكمان من القاعدة أن تكون عسقلان خرابا وأن يتفق أصحابنا وأصحابهم على خرابها، واشترط دخول بلاد الاسماعيلية، واشترطوا هم دخول صاحب انطاكية وطرابلس في الصلح، وشرط أن تكون الرملة ولد بين المسلمين وبينهم مناصفة، واستقرت القاعدة على أنهم يحلفون يـوم الاربعاء الثاني والعشرين من شعبان، ورضي الاسبتارية والداوية وسائر مقدمي الافرنجية بذلك، ولم يحلف الانكلتيز، بل أخذوا يده وعاهدوه واعتذر بأن الملوك لايحلفون، وقنع من السلطان بمثل ذلك، ثم حلف الجهاعة، فحلف الكندهري ابن اخته المتخلف عنه في الساحل، وباليان ابن بارزان وابن صاحبة طبرية، ووصل ابن الهنفرى وابن بازران وجماعة من مقدميهم إلى السلطان فأخذوا يده على الصلح واقترحوا حلف من مقدميهم إلى السلطان فأخذوا يده على الصلح واقترحوا حلف جاعة: العادل، والأ فضل ، والظاهر، والمنصور، وسيف الدين المشطوب، ودلدرم ، وابن المقدم، صاحب شيزر، وكل مجاور لبلادهم، وحلف صاحب انطاكية وطرابلس، وعلق اليمين بشرط حلفهم للمسلمين.

قال: ووصل رسول سيف الدين بكتمر صاحب خلاط يبدي الطاعة والموافقة، وتسيير العسكر، وحضررسول الكرج وذكر فصلا في معنى الديارات التي لهم في القدس، وعارتهاوشكوا من أنها أخلت من أيديهم، ويسأل ردها إلى أيدي نوابهم، وورد رسول صاحب أرزن الروم يبذل الطاعة والعبودية.قال العهاد: وعقدت هدنة عامة في البر والبحر والسهل والوعر، وجعل لهم من يافا الى قيسارية إلى عكا الى صور، واخلوا في الصلح طرابلس وأنطاكية، ووقعت المصالحة مدة ثلاث سنين وثلاثة أشهر، اولها مبتدأ أيلول الموافق للحادي والعشرين من شعان.

قال: وكان الفرنج قد ملؤوا يافا من الرجال والاسلحة والأقوات ليتقوا بها على فتح القدس، لتكون لهم ظهرا وعونا لقربها من البيت المقدس.

قلت: ومن الألفاظ الفاضلية: «وقد فعلت الاقدار في رياضة عرائكهم ما كان سببه هذه الحركات المباركة، وكيف تشنع ملك انكلتيز بالغدر وهو لعنه الله قد أتى بأقبح الغدر وأفحشه في أهل عكا نهارا

جهارا، وشهد بخزيه وفضيحته المسلمون والنصارى ، وغدر الفرنج

إذاغدرت حسناءأوفت بعهدها ومنن عهدهاأن لايسدوم لهاعهسد

القوم هادنوا لما ضعفوا، ويفسخون اذا قووا، ونحن ننتظر في ملك الانكلتيز ماتفصح عنه المقادير في أمره إما الهلاك ، ولا بأس بها، فيلقى الأحبة المركيس، والدوك، وملك الألمان ، ويؤنس في النار غربتهم، ويكثر عدتهم، وإما أن يعافي ،فهو بين أمرين إما أن يرجع إلى لعنة الله وإلى مروءة البحر في تغريقه وإما أن يقيم، فهناك قد أبدى الشر ناجذيه، ونكبص الملعون من الوفاء على عقبيه، وانتظر الفرصة لينتهز، والعورة

ومماقيل في هذه الهدنة أبيات من قصيدة نجم الدين يوسف بن الحسين بن المجاور، والتي تقدّمت في فتح البيت المقدس وهي: ياصاح قل للانكلتيسز الكلسبدع

عنك الجنون وخد مقالة منصف

والمسجدالأقصى فعنه تقصممن

وقع الدبابيسس الأليمة تعرف

واستفت نفسك فهي أخبث ناصح

واترك متابعة اللجاج المتلف

واعجب لرميح بالرؤوس معميم واطرب لسيف بالدماء مغلف

قدقلت لاقيل صلح قدجري 

سلف تولى السيف عقد شروطه أحبببه مسن مسلم ومسلف ظنـــوه سلما وهـــو في أرواحهـــم سلـــم إلى أجـــل لهم متخلـــف

وذكر أبو الحسن الساعاتي الانكلتية هذا في قصيدة مدح بها السلطان رحمه الله يقول فيها. منعـــت ظبـاء المنحنـــيبأســوده وأشــــــــــــا أشكــــوه فتــــــك ظبــائه رحمه الله يقول فيها:

فعلت بناوهي الصديق لحاظها

كظبسى صلاح الديسن في أعسدائه

سلعنه قلب الانكتاز في

خفق ات ماشئت من أنبائه

لـــولاك أم البيــتغير مــدافــع ولسـال سيــل نــداه في بطحــائه

وبكت جفون القدس ثبانية دميا

لترنام الناقات الاستانة

#### فصل

### فيها جرى بعد الهدنة

قال القاضى: أمر السلطان أن ينادى في الوطاقات والأسواق: ألا إن الصلح قد انتظم، فمن شاء من بلادهم يدخل بلادنا فليفعل، ومن شاء من بلادنا يدخل في بلادهم فليفعل، وأشاع رحمه الله ان طريق الحج قد فتح من الشام، ووقع له عـزم الحج في ذلك المجلس، وكنت حاضر ذلك جميعه، وأمر أن يسير مائة نقاب لتخريب سور عسقلان معهم أ مير كبير، ولإخراج الفرنج منها ، ويكون معهم جماعة من الفرنج الى حين وقوع الخراب في السور خشية من استبقائه عامراً، ففعل ذلك ، وخربت، وكان يوم الصلح يوما مشهودا غشى الناس من الطائفتين من الفرح والسرور ما لايعلمه الآالله تعالى، والله العالم ان الصلح لم يكن من ايثاره، فإنه قال لي في بعض محاوراته في الصلح: «أخاف أن أصالح وما أدري ايش يكون مني، فيقوى هذا العدو وقد بقي لهم هذه البلاد فيخرجون الستعادة بقية بلادهم ، وترى كل واحد من هؤلاء الجماعة قد قعد في رأس قله-يعنى حصنه-وقال: لا أنزل ويهلك المسلمون» فهذا كلامه، وكان كهاقال رحمه الله، لكنه رأى المصلحة في الصلح لسأم العسكر ومجاهرتهم بالمخالفة، وكان ذلك مصلحة علمها الله تعالى، فإنه اتفقت وفاته بعيد الصلح، ولو كان اتفق ذلك في اثناء الوقعات لكان الاسلام على خطر، فما كان الصلح إلاتوفيقا وسعادة من الله رحمة الله عليه.

ورحل السلطان الى النطرون واختلط العسكران، وذهب جماعة من المسلمين الى يافا في طلب التجارة، ووصل خلق عظيم من العدو الى القدس للحج، وفتح لهم السلطان الباب في ذلك، ونفذ معهم الخفراء يحفظونهم حتى يردوهم الى يافا، وكان غرض السلطان بذلك ان يقضوا

وطرهم من الزيارة ويرجعوا الى بلادهم، فيأمن المسلمون شرهم، ولما علم الملك كثرة من يزور منهم صعب عليه ذلك وسير الى السلطان يسأله منع الزوار، واقترح ان لايأذن لأحد إلا بعد حضور علامة من جانبه او بكتابه، وعلمت الفرنجية ذلك فعظم عليها واهتموا في الحج، فكان يرد في كل يوم منهم جموع كثيرة مقدّمون وأؤساط وملوك متنكرون، وشرع السلطان في اكرام من يرد ومدّ الطعام لهم ومباستطهم ومحادثتهم، وعرفهم انكار الملك ذلك، وأذن لهم السلطان في الحج وعرفهم انه لم يلتفت الى منع الملك من ذلك، واعتذر الى الملك بأن قوما وصلوا من ذلك البعد ويسر لهم زيارة هذا المكان الشريف الاستحل منعهم، ثم اشتد المرض بالملك فرحل ليلة الاربعاء التاسع والعشرين من شعبان، وقيل انه مات، وسار هو والكندهري وسائر المقدّمين الى جانب عكا، ولم يبق في يافيا إلا مريض أو عاجز و نفر يسير، ثم أعطى السلطان ولم يبق في يافيا إلا مريض أو عاجز و نفر يسير، ثم أعطى السلطان رحمه الله أمر الحج، وقوي عزمه على براءة الذمة منه.

قال القاضي: وكان هذا مما وقع لي وبدأت بالاشارة به في يوم تتمة الصلح ، ووقع منه رحمة الله عليه ، وقعا عظيا ، وأمر الديوان أن كل من عزم على الحج من العسكر يثبت اسمه حتى يحصي عدة من يدخل معنا الطريق ، وكتب جرائد بها يحتاج إليه في الطريق من الخلع والأزواد وغير ذلك وسيرها إلى البلاد ليعدوها ، ورحل من النطرون رابع شهر رمضان وسار حتى أتى مار صمويل يفتقد أخاه العادل وكان مريضا بها فوجده قد سار إلى القدس ، وكان قد انقطع عن أخيه مدة بسبب المرض، وكان قد تماثل فعرف بمجيء السلطان إلى مار صمويل لعيادته فحمل على نفسه وسار حتى لقيه بذلك المكان ، وهو أول وصوله ولم ينزل بعد ، ونزل وقبل الأرض وعاد ركب فاستدناه وسأله عن مزاجه، وسارا جميعا حتى أتيا القدس بقية ذلك اليوم .

وقال العهاد: عاد السلطان بعد السلم إلى القدس لتفقد أحواله، وعرض رجاله واشتغل بتشييد أسواره وتحصينها، وتخليد آثاره وتحسينها، وتعميق خنادقه ، وتوثيق طرائقه، وزاد في وقف المدرسة (١٣٢) سوقا بدكاكينها وأرضا ببساتينها ، وكذلك رتب أحوال الصوفية في رعايتها ، والسوقف الكافيل بكفايتها ، وعين الكنيسة التي في شارع قهامة للبيهارستان، ونقل إليه العقاقير والأدوية من جميع الأنواع والألوان ، وأدار سور القدس على قبة صهيون وأضافها إلى المدينة، وأمر بادارة الخنادق على الجميع، وصمم العزم على الحج فلم يوافقه القدر، وتأسف على فواته بعد أن قدم مقدماته وأقام شهر رمضان ، وأفاض الإحسان ، وفوض ولاية القدس كعمل الخليل ، وغزة والداروم، وعسقلان.

قلت: ولما بلغ القاضي الفاضل من قبل السلطان أنه عازم على الحج كتب إليه مشيراً بتبطيله: « إن الفرنج لم يخرجوا بعد من الشام ، والسلوا . عن القدس، ولاوثق بعهدهم في الصلح، فلا يؤمن مع بقاء الفرنج على حالهم وافتراق عسكرنا، وسفر سلاطيننا سفراً مقدرا معلوما مدة الغيبة فيه أنْ يسروا ليلة فيصبحوا القدس على غفلة ، فيدخلوا إليه ، والعياذ بالله ويفرط من يد الإسلام ويصير الحج كبيرة من الكبائر التي لاتغفر ومن العثرات التي لاتقال» ثم قال: « وحاج العراق وخراسان أليس هم مائتي ألف وثلاثمائة ألف وأكثر ، هل يؤمن أن يقال قد سار السلطان لطلب ثار وسفك دم وتشويش موسم ، فاقعدوا والا فيكون تاريخ سوء، أعوذ بالله منه، ما هذه الشناعة ممتنعة الوقوع ، ولامستبعدة من العقول السخيفة ، فينعم المولى بتأمل ما أنهاه المملوك مستورا فإنه يسأل مولانا أن لايشارك أحدًا فيها يكتبه لا من مهم ، ولا من غير مهم، يا مولانا مظالم الخلق كشفها أهم من كل ما يتقرب به إلى الله وما هي بواحدة في أعيال دمشق من المظالم من الفلاحين ما يستغرب معه وقوع القطر، ومن تسلط المقطعين على المتقطعين ما لاينادي وليده، وفي وادي بردى والزبداني من الفتنة القائمة والسيف الذي يقطر دما مالا زاجر له،

وللمسلمين ثغور تريد التحصين والذخيرة ، ومن المهات إقامة وجوه الدخل وتقدير الخرج بحسبها ، فمن المستحيل نفقة من غير حاصل، وفرع من غير أصل ،وهذا أمر قد تقدم فيه حديث كثير ، وعرضت للمولى شواغل دونه ، ومشت الأحوال مشيا على ظلع ، فلما خلت النوب أعاذ الله من عودها ، كان خلو بيت المال أشد ما في الشدة ، وليس المملوك مطالبا بذخيرة تحصل إنها يطلب تمشية من حيث يستقر».

قلت: ولم يزل البيت المقدس شرف الله تعالى ملحوظا بالعارة والتحصين من عهد السلطان رحمه الله إلى سنة ست عشرة وستائة، فإنه خرب في المحرم منها بسبب خروج الفرنج لعنهم الله وانتشارهم في البلاد، فخيف من استيلائهم عليه، وفي السنة التي قبلها توفي الملك العادل أبوبكر بن أيوب أخو السلطان وتشتت الناس بعد خرابه ورغبوا عن السكني به، ورثاه الرئيس الفاضل شهاب الدين أبو يوسف يعقوب ابن محمد المجاور بقصيدة منها:

أعينـــي لاتــرقــي مـــن العبرات

صلى في البكاالآصال بالبكرات

لعل سيول الدمع يطفى ء فيضها

توقيدمافي القلب من جمرات

ويساقلب اسعر نسار وجسدك كلما

خبست بساد كساريبعسث الحسرات

ويسافهم بسح بالشجه ومنك لعلمه

يسروح ما ألقي مسن الكسربسات

على المسجد الأقصى الذي جل قدره

على مسوطن الاخبات والصلوات

على منزل الاملك والسوحسى والهدى

على مشهددالابدال والبدلات

على سلم المعسراج والصخسرة التسي

أنسافست بهافي الارض مسن صخرات

على القبلـــة الأولى التـــي اتجهـــت لما صلة البرايا في اختسلاف جهات على خير معمىور وأكررم عسامرر وم\_\_\_\_ازال في\_\_\_\_ه للنبيين معبــــــد يـــوالـــون في أرجــائه السجــدات عفالسجدالأقصبي المسارك حوله الس ـــرفيع العهاد العـــالى الشرفــات عفابعدماقدكان للخيرموسها وللبر والاحسان والقرريات يسوافي اليسه كسل أشعست قسانست لمولاه بــــردائم الخلــــوات تسوشك بالأيسات والسورات فم نين نين نواح وبين بكاة لتبك عليها مكة فهي أختها وتشك والذي لاقت إلى عرفات لتبك على ماحل بالقدس طيبة وتشرح في أكر مالحج رات لقد أشمت واعكا وصورجدمها وياطاطالاالمان لقدد شتت واعنه اجماعة أهلها وك\_\_\_\_اجتهاعم\_\_\_ؤذنبشت\_\_ات وقددهد مروامجد الصلاح بهدمها وقددكدابان مجداباذخ الغدرفسات وقددأخمدوا صدوتها وصيتا أثساره لهم عظهم مساوالسوامسن الغسزوات

أماعلم ابناء أيروب أنهم بمسعات على السروات بمسعات المسعات السروات وإن افتتاح القدس زهرة ملكهم وهمل أمرالاً من السروات وهمل أنهم وهمان بناول المراب وهمان بناول المراب والمناف فمن بناول بناول المراب ومن المراب ومن المراب المراب المراب ومن المراب ومن المراب المرا

قلت: هذا البيت الأخير لدعبل بن علي الخزاعي في أول قصيدة يرثي بها أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم، وهذه السنة التي توفي فيها العادل قبل التي خرب فيها القدس، هي السنة التي نزل فيها الفرنج خلطم الله على ثغر دمياط حرسه الله تعالى، وهي المرة الأولى في زماننا وأقاموا عليه إلى أن استولوا بعد أن جرى لهم نحو مما جرى لهم على عكا، ثم أخذه المسلمون منهم، وقتلوا وأسروا ثم إن الفرنج استولوا عليه صلحا في سنة خمس وعشرين وستائة وشرعوا في بناء طائفة منه، ثم أخرجوا منه عنوة مرتين أخرجهم في إحدى المرتين الملك الناصر صلاح الدين داود بن المعظم شرف الدين عيسى بن العادل أبي بكر بن أيوب، وقال فيه حينئذ بعض شعراء العصر، هذا الشاعر هو الصاحب جمال الدين يحيى بن مطروح رحمه الله تعالى:

المسجدالأقصي لسهعادة

سارت فصارت مشلا سائرا

إذا غـــدا للكفــر مستــوطنــا

فن اصرطه وأوّلا

ونــــاصرطهــــرهآخــــرا

ثم استولى الفرنج أيضا على طبرية وعسقلان، ثم أخذتا منهم عنوة في شهور سنة خمس وأربعين وستهائة في دولة الملك الصالح نجم الدين أيوب، أيوب بن الملك الكامل ناصر الدين محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب، وقد استولوا أيضا على الشقيف وصفد، والله يسهل عودهما إلى أهل الاسلام، ويؤيد الدين الحنيفي على ممر الايام.

#### فصل

## في مسير السلطان رحمه الله من القدس إلى دمشق

قال العهاد: ولما استتم السلطان النظر في أحوال القدس وعهارته، وفوض القضاء والنظر في الوقوف إلى القاضي بهاء الدين يوسف بن رافع ابن تميم، وعول منه على أمين كريم، آثر أن يعود إلى دمشق على الثغور عابرا، وفي أحوالها ناظرا، وكان عزم على الحج، وصمم، وكتب إلى مصر واليمن بها عليه عزم، وأمر أن يحمل له في المراكب كل ما يحتاج إليه من الأزواد والنفقات، والثياب والكسوات، فقيل له: لو كتبت إلى أمير المؤمنين وأعلمته بحجك، وعرفته بنهجك حتى لا يظن بك أمر أنت المؤمنين وأعلمته بحجك، وعرفته بنهجك حتى لا يظن بك أمر أنت المخبر الأفاق، ثم هذه البلاد إذا سافرت تركتها على مابها من الشعث، وهذه المعاقل التي في الثغور حفظها من أهم الأمور، ولا تغتر بعقد الهدنة، فإن القوم على ترقب المكنة والغدر دأبهم ، فهازال به الجهاعة حتى حلوا عقد عزمه على الحج فشرع في ترتيب قاعدة القدس في ولايته حتى حلوا عقد عزمه على الحج فشرع في ترتيب قاعدة القدس في ولايته وعهارته .

ثم خرج من القدس يوم الخميس خامس شوّال وجاوز ناحية البيرة، وبات على بركة الداوية، وبزل يوم الجمعة ظاهر نابلس، وأقام بها إلى ظهر يوم السبت حتى كشف مظالم ووظف مكارم، وكان بها سيف الدين المشطوب، وشكا أهلها نوائب من جهته تنوب، فأزال الشكوى، وأزاح البلوى، ورحل بعد ظهر السبت وبات عند عقبة ظهر حمار بموضع يعرف بالفريديسه، ورتعنا في مروجها الأنيسة، وأصبحنا راحلين وزلنا ضحوة على جينين، وهناك ودعنا المشطوب، وداع الأبد فإنه انتقل بعد أيام إلى رحمة الواحد الصمد، وجئنا ضحوة الإثنين إلى بيسان وصعد إلى قلعتها المهجورة الخالية فأبصر قللها العالية، وقال: الصواب

بناء هذه وتخريب كوكب، وصعد نظر رأيه فيها وصوّب، ورحل ضحوة الثلاثاء ونزل بطبرية وقت العشاء، وهناك لقينا بهاء الدين قراقوش وقد خرج من الأسر وتلقيناه بالبشر والبر، ووصل مع السلطان إلى دمشق وأقام إلى أن خلص أصحاب من الأسر، وتوجه إلى مصر وقد ضاق نفسه ببذل ماله، وخرج من ثروته ودخل في اقلاله،

قال: وتوالت تلك الليلة الأمطار وواصلها النهار، فأقمنا يوم الأربعاء ، وسرنا بكرة الخميس ونزلنا بسفح الجبل اللذي عليه قلعة صفد، وصعد إليها وكمل فيها الرجال والعدد، ثم سار يوم الجمعة على طريق جبل عاملة إلى قلعة تبنين، وجازيوم الأحد على هونين، وخيمنا على عين الذهب عند نزولنا من الجبل، واجتمعنا تلك الليلة بالثقل، ثم سرنا إلى مرج عيون مرحلة، وإلى جسر كامد منزلة، وطريقنا بين عمل صيدا ووادي التيم ، وطلعنا من تلك الأودية والشعاب طلوع الأنوار من الغيم.

وقال في الفتح: على صيدا يسرة ، وعمل وادي التيم يمنة، وعرسنا على مرج تلفياثا مقابل مرج القُنعبه، ودفعنا إلى سلوك المسالك الصعبة، ورحلنا يوم الثلاثاء إلى البقاع فخيمنا على جسر كامد ويوم الأربعاء بناحية قب الياس، ودخل يوم الخميس بيروت وبها واليها عز الدين سامه فاهتم له بالكرامه، ولما أراد عن بيروت الانفصال في الحادي والعشرين من شوّال قيل له: إن الابرنس الأنطاكي بيمند، مع عصابة من الوفد قد وصل إلى الخدمة مستمسكا بحبل العصمة، فثني عنانه ونزل وأقام وما ارتحل ، وإذن للابرنس في الدخول وشرفه في حضرته بالمثول ، وقرّبه وآنسه، ورفع مجلسه وكان معه من مقدمي فرسانه أربعة عشر بارونيا ، فوهب كلا منهم تشريفا سريا ، وأجزل له ولهم العطاء، وأبدى بهم الاعتناء، وكتب له من مناصفات أنطاكية معيشة بمبلغ عشرين ألف دينار ، وخص أصحابه بمبار ، وأعجبه استرساله إليه عشرين ألف دينار ، وخص أصحابه بمبار ، وأعجبه استرساله إليه ودخوله بغير أمان عليه ، فلا جرم تلقاه بالاحسان ووافقه ، وودعه يوم

الأحد وفارقه، وكانت الأثقال قد انتقلت من قب الياس إلى مرج قلميطيه من البقاع فبات في المخيم ، وعبر يوم الإثنين عين الجرّ إلى مرج يبوس ، وقد زال البوس ، وهناك توافد أعيان دمشق وأماثلها وأفاضلها وفواضلها ،ونزلنا يوم الثلاثاء بالعرّاده ، وجرى الملتقون بالطرف والتحف على العاده، وأصبحنا يوم الاربعاء إلى جنة دمشق داخلين بسلام آمنين، لو لا أننا غير خالدين ، وكانت غيبة السلطان عنها طالت أربع سنين، فأخرجت دمشق أثقالها ، وأبرزت نساء ها ورجالها، فكانت يوم الزينه، وخرج كل من في المدينة، وحشر الناس ضحى وأشاعوا استبشاراً وفرحا ، وكانت غيبة السلطان في الجهاد طالت، فاهتزت بقدومه واختالت، وقرت بفضائله الأعين وأقرت بفواضله الألسن ، وأبدوا وجوه الاستبشار وألسن الاستغفار وأعين الاستعبار ، ورفعوا أيلدي الابتهال بصالح الدعاء عن خالص الولاء، وجاء ربيع الفضل في فصل الخريف، واتصل تليد الجد بالطريف، واتسع فضاء الفضائل ، وارتدع جاه الجاهل ، وحل في القلعة حلول الشمس في برجها ، وأخذت بحار سماحه في موجها ، وجلس في دار العدل فأجاب وأجار، وأنال وأنار ، وخرجت السنة والسلطان في أسنى سنائه، وأبهى جلاله ، وأجلى بهائه والناس راتعون في رياض نعائه ، ورسل المالك الغربية الشرقية يخطبونه ويطلبونه ، وينتظرون عزمه ويرقبونه ، وهـو يعدهـم بانحسـار الشتاء وانكسـاره ، وابتسام ثغر الرّبيع وافتراره، وأقمنا على هذا العزم إلى آخر السنة، والسلطان مشتغل بالصيد والقنص ، منتهز من العمر للفرص ، وقرب العلماء وأكرم الفضلاء ، وفضل الكرماء ، وما كان أحسن إلى الحق أصغاه ، وأشرع للباطل ألغاء.

وقال القاضي أبو المحاسن: أقام السلطان بالقدس يقطع الناس ويعطيهم دستوراً، ويتأهب للمسير إلى الديار المصرية ، وانقطع تشوفه إلى الحج، ولم يزل كذلك حتى صح عنده اقلاع مركب ملك الانكلتيز المخذول متوجها إلى بلاده في مستهل شوال، فعند ذلك حرّر السلطان

عزمه على أن يدخل الساحل جريدة، ويتفقد القلاع البحرية إلى بانياس ويدخل دمشق يقيم بها أياما قلائل ويعود إلى القدس الشريف سائراً إلى الديار المصرية لتفقد أحوالها ، وتقرير قواعدها والنظر في مصالحها .

قال: وأمرني بالمقام بالقدس إلى حين عوده لعارة بيهارستان انشأه فيه، وادارة المدرسة التي أنشأها فيه إلى حين عوده، وخرج من القدس، وودعته إلى البيرة، ونزل بها، ثم ذكر ازالته للمظالم عن بلد نابلس. ثم رحل ونزل بسبسطيه فتفقد أحوالها، ثم أتى في طريقه إلى كوكب في عاشر شوال، وانفك بهاء الدين قراقوش من الأسر حادي عشر شوال ومثل بالخدمة السلطانية، ففرح به فرحا شديدا، وكان له حقوق كثيرة على السلطان والاسلام، واستأذن السلطان رحمه الله في المسير إلى دمشق لتحصيل القطيعة، فأذن في ذلك وكانت القطيعة على ما بلغني ثمانين ألفا.

قال: ولما وصل السلطان إلى بيروت وصل إلى خدمته البرنس صاحب أنطاكية مسترفدا، فبالغ في إكرامه واحترامه ومباسطته، وأنعم عليه بالعمق وارزغان ومزارع تعمل خمسة عشر ألف دينار، ثم سار السلطان إلى دمشق بعد الفراغ من تصفح أحوال القلاع الساحلية بأسرها، والتقدم بسد خللها واصلاح اجنادها، وإشحانها بالرجال فدخل دمشق بكرة الأربعاء سادس عشري شوّال، وفيها أولاده: الأفضل، والظاهر، والظافر، وأولاده الصغار، وكان يجب البلد ويوثر فيه الاقامة على سائر البلاد، وجلس للناس في بكرة الخميس، وحضر عنده الناس وبلوا شوقهم من رؤيته وأنشده الشعراء، وعم ذلك عنده الناس وبلوا شوقهم من رؤيته وأنشده الشعراء، وعم ذلك المجلس الخاص والعام، وأقام ينشر جناح عدله ويطل سحاب انعامه وفضله، وكشف مظالم الرعايا في الأوقات المعتادة، واتخذ الأفضل يوم الإثنين مستهل ذي القعدة دعوة لأخيه الظاهر، وكان الظاهر لما وصل دمشق بلغه حركة السلطان إليها فأقام بها حتى يتملى بالنظر إليه ثانيا

وكأن نفسه الشريفة كانت قد أحست بدنّو أجل السلطان ، فودعه في تلك الدفعة مراراً متعددة وهو يعود إليه، ولما اتخذ الأفضل له الدعوة أظهر فيها من بديع التجمل وغريبه ما يليق بهمته، وكأنه أراد مجازاته عما خدمه به حين وصل إلى حلب المحروسة، وحضرها أرباب الدنيا وابناء الآخرة ، وسأل السلطان رحمه الله الحضور فحضر جبراً لقلبه.

قال: وكان العادل قد استأذن السلطان في أواخر رمضان في القدس بالمضي إلى الكرك لتفقدها ، فمضى وأمر باصلاح ما قصد اصلاحه، وعاد طالبا المضي إلى البلاد الفراتيه التي أعطاه السلطان إلى لقائه وأقام يتصيد دمشق سابع عشري ذي القعدة، وخرج السلطان إلى لقائه وأقام يتصيد حول غباغب إلى الكسوة حتى لقيه، وسارا جميعا يتصيدان، وكان دخولها إلى دمشق في الحادي والعشرين منه ، وأقام السلطان بدمشق يتصيد هو وأخوه وأولاده ويتفرجون في أراضي دمشق ومواطن الصبى ، وسهر يتصيد هو وأخوه وأولاده ويتفرجون في أراضي دمشق ومواطن الصبى ، وسهر الليل ونصب النهار ،و ما كان فيه من ملازمة التعب والنصب ، وسهر الليل ونصب النهار ،و ما كان ذلك إلّا كالوداع لأولاده ومرابع نزهه وهو لا يشعر رحمة الله عليه، ونسي عزمه المصري، وعرض له أمور أخر وعزمات غير تلك، ووصلني كتابه إلى القدس يستدعيني إلى خدمته ، وكان شتاء شديداً ووحلاعظيها .

قلت: وفي عيد الأضحى من هذه السنة أنشده الرشيد النابلسي قصيدة حسنة على وزن قصيدة التهامي التي مطلعها: « حازك البين حين أصبحت بدرا " يقول فيها يعنى قصيدته:

وأبيه الولاتغ زل عينيه

ولكسانست مسدائح الملسك النسا

صر أولى ما فيه أعمل فكرا

ملك طبيق المالك عسدلا

مشكل مساأوسما البريسة بسرا

### فصل

## في ذكر أمور أخر جرت في هذه السنة من وفيات وغيرها

قال العاد: في شهر ربيع الآخر توفي القاضي شمس الدين محمد بن موسى المعروف بابن الفراش، من أهل دمشق، قاضي العسكر، وكانت وفاته بملطية وهو عائد من الرسالة إلى أولاد قليج أرسلان بالروم، وكان هذا القاضي لي من أصدق الاصدقاء، وأكرم الكرماء، وما فارقني من أيام الملك العادل نور الدين رحمه الله في السراء والضراء، وكنت بأحواله شديد الاعتناء، وتوصلت له عند السلطان في تخصيصه بالمواصلة الموصلية، والمراسلة في المهام الخفية والجلية، ثم تولى نيابة عن السلطان في الولاية الشهرزورية، والحكم على المقطعين بها وإنصاف الرعية، فلما فوضت إلى مظفر الدين صاحب إربل رجع شمس الدين ودامت غيبته عن الحضرة مدة سبع سنين، وكان تولى قضاء العسكر موضعه بهاء عن الحضرة مدة سبع سنين، وكان تولى قضاء العسكر موضعه بهاء الدين بن شدّاد، وكان خطب أولاد السلطان قليج أرسلان مها عند السلطان، فاعتمد على القاضي شمس الدين في الوصول إليهم، والحكم السلطان، فاعتمد على القاضي شمس الدين في الوصول إليهم، والحكم بأليف ذات بينهم عليه، فمضى وعاد وأدركته المنيه بمدينة ملطيه.

قال: وفي يوم الخميس السادس والعشرين من شوّال توفي الأمير سيف الدين علي بن أحمد الهكاري، المعروف بالمشطوب بنابلس، وقد سبق ذكر هذا الأمير وبأسه وبسالته واصابته وأصالته، وإقدامه في الحروب، وتقدمه في الخطوب، وقد حضر مع أسد الدين شيركوه النوب الثلاث التي فتح في آخرها مصر، ولازم صلاح الدين إلى منتهى العمر، ولما احتيج إلى البدل في عكا إذ ضجر من أقام به وتشكى أجاب إلى دخوله وقابل الأمر بقبوله، وحصل بقضاء الله في الأسر، واحتوت عليه قبضة الكفر، وفدى نفسه بخمسين ألف دينار ونجا، وآتاه الله من نعمة خلاصه ما رجا، وأنعم السلطان عليه بنابلس وأعالها، وخص بأموالها،

وحين جزنا ودّعنا عند جينين ، وداع الأبد إلى جنة عليين ، وإنها سمي مشطوبا لشطبة في وجهه من أثر طعنة في غزاة حضرها ، وله مواقف في الجهاد كثيرة معهوده ، ومقامات مشهورة مشهوده ، ووقف السلطان بعده ثلث نابلس وأعها على مصالح القدس، وأقطع ولده وأميرين معه الثلثين محافظة على حقه الذي التزمه التزام الدين.

وقال القاضي ابن شداد: وكان السلطان خلف المشطوب بالقدس من جملة العسكر المقيمين به ولم يكن واليه إنها كان واليه عز الدين جرديك، وتوفي المشطوب رحمة الله بالقدس يوم الأحد الثالث والعشرين من شوال، و دفن في داره بعد أن صلي عليه في المسجد الأقصى.

قال العهاد: وفي منتصف شعبان توفي سلطان بلاد الروم عز الدين قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بقونيه، وكان أولاده لما كبروا تجبروا وتفرد كل منهم باقليم ، فضعف بقوتهم، وعجز بقدرتهم ، وانخفض برفعتهم، فإنه فرق بلاده على جماعتهم ، طمعا في طاعتهم ، وانخفض برفعتهم، فإنه فرق بلاده على جماعتهم ، طمعا في طاعتهم ، واختار لتدبير ملكه اختيار الدين حسن بن غفراس ، فخالف عليه من أولاده قطب الدين ملك شاه صاحب سيواس ، فجاء وغلب على والده وأخذ عليه الأنفاس ، وقال له: أنا بين يديك عوض الاختيار ، ثم أخلى منه الديار ، ثم أبعد عن خدمة والده خواصه وأولياءه، وأفنى بالقتل والاغتيال أمراءه وكبراءه ، واستخلصه لنفسه ، وأجلسه على ملكه وهو في والاغتيال أمراءه وكبراءه ، واستخلصه لنفسه ، وأجلسه على ملكه وهو في أبيه ، فوجد قليج أرسلان فرصة في خلاصه ، فساق وحده ودخل البلد ونجا من الولد إلى الولد، فعاد ملكشاه إلى قونيه واقصرا دار ملك أبيه فتملكهم ولم يزل قليج أرسلان يتحول من ولد إلى ولد ، ومن بلد إلى بلد فتملكهم ولم يزل قليج أرسلان يتحول من ولد إلى ولد ، ومن بلد إلى بلد فتملكهم ولم يزل قليج أرسلان يتحول من ولد إلى ولد ، ويعرض عنه، حتى يتردد في بلاده في ضيافة أولاده ، وكلهم يضجر منه ، ويعرض عنه، حتى يتردد في بلاده في ضيافة أولاده ، وكلهم يضجر منه ، ويعرض عنه، حتى عضل عند ولده غياث الدين كيخسرو صاحب برغلو، فلما حضره

وأبصره آواه ونصره ،وجاء به إلى قونيه فدخلها ، وحلى عطلها ، ومات بها، فجلس مكان والده، وقوى على أخيه.

قال: وجماء الربيع في شهر ربيع الأول، فكتب إلى نشو الدولة أحمد ابن نفاذه أبياتا يدعوني إلى دمشق في خامس جمادى الأولى، وقد دخل أوان المشمش المعهود، وهو موسم دمشق المشهود، أولها:

دعا الناس للدات مشمس جلت

فقد أسرع وامن كل غرب ومشرق

فقم ياعادالدين تحظ باكلت

ولاتثن عنه عنزمة السير تسبق

وقل حين يبدو أصفر اللون مشرقا

ويساحسنه مسن أصفسر اللون مشرق

لاكلك مايلقى الفراد ومالقى

وللنوب مسالم يبق منسي ومسابقسي

فليسس سوى الحلواء في القيدس ماكل

وماجلبوه منزبيب وفستق

قال: فعرضت أبياته على السلطان فقال: ماقلت في جوابه ،فأنشدته: هلم وانسابق نحومشم شجلق

وثــــم كما نهوى على الأكــــل ننتقــــي

تصفر شروقا لانتظار قدومنا

ومسن يتعشق ذاالفضائل يشتسق

إذا حضرت اطباق وغاب رشدنا

لمايت لاقى مسن مشوق وشيق

حكى جمرات بالفضاق تعلقت

فياعجبي منجره المتاليق

كسان نجسوم الأرض فسوق غصسونسه

فياحيري منزجما المتأليق

وجنـــاتها محمـــرة وجنــاتها فمــن يــرهــامثلي يحب ويعشــق بـــدت بين أوراق الخصــون كــائها كـــرات نضــار في لجين مطــرق

قال: فلما أنشدت السلطان هذا البيت، قال: تشبيه الورق باللجين غير موافق فإن الورق اخضر فقلت:

كسسرات نضاربسالسزمسرد محدق تساقطهاأشجارهافكانها دنانير في أيدي الصيارف ترتقيي ومشمسش بستسان الزكسي بشهده شهادتاه تقضى فالزنة وصادق يقــــول رفيقــــى في دمشــــق تعجبــــ أمالك بستان مقالة مشفق فقلت إلى باب البريسد وسسوقه لأمشالنا تجني بساتين جلق ولوكسان لي بسالسهسم سهسم وجسدت لي منسالي بسأيسام الثهار ومسرفقسي إذا كنست مبتساعها مسن السسوق مشمشي لة المتسوق ومالي بأرباب البساتين خلطة فيصبح في حيط انها متسلقي كسرام وثسسوقسي في الشتساء بسودّهس ولكنهم في الصيف ينسون موثقي ومائهم منزيجدي ويقري ويقتنسي ثنائى سوى المحيسى الكسريسم الموفسق أمن أجل يدوم واحد قلت لي اسبق

على أننسي لوقيل بالصين دعسوة أشرت اليها لوعسة المتحرق أشرت اليها لوعسة المتحرق فسإن جئست قبلي جلقاف المحديث منعما حديث بنادي المنعمين وحلق لعسل كسريها ينتخسي لضيافتي بمشمشة عند القدوم وينتقي بمشمشة عند القدوم وينتقي فلا تنس نشوالدين نشوة خاطري وقل عن صبوحي كيف شئت ورقق وهات وساعدني وخدمن قريحتي

قال: فقال لي السلطان عن صبوح ترقق، كأنك تريد تمضي إلى دمشق وتسبق فقلت: الأهل والولد، وقد عيل عنهم الجلد، ولكن مغيبي عن الخدمة لايدور به الخلد، وظلك وهو السكن والبلد.

قال: وكتبت أيضا في جوابه، وصفة المشمش، وذكر تشبيهاته، وقد اذن لى السلطان لمهم له ايضا اتفق:

قددصيح عسزمسي على المسير فسلا

أبغي مقامي والقلب قدر حلا امضي إلى دمية مقبلها

مصــــوربـــل مـــــدور عجـــب

ففسي قلوب الأشجسار منه جسدي

وفي ظهـــور الغصــون منــه كـــلا

طلــــوابماالنضـــارظـــــاهــــره

لباطن في حشاه نار طللا يخفي إذام العينال عينال عينال عن العينال عينال عن العينال عن الع

فيك وفيال النوى اذا وصلا

حلى تبر على عـــــرائس أغصـــــا نتشك تمن قبلها عط لا حمر حسان السوجسوه قسند لبست مـــن خضر أوراقهـــالها حلــــلا عـــرائس مـــن خــدورهــا بـرزت تحسب أشجسارهسا لهاكلسلا زه\_\_\_\_\_\_ رکشه\_\_\_\_\_ناماءراجمة جسن جناة بقطفه اكفسلا عيرة بناال رمد في ترقبنا جاحظة أبرزت لنامق لا م اذاالت واني وذاالت أخر والا بطاءقكم مسيرناعجلا قددانتظررنا مسن الخزانة مسا نعطي فاكسدى نسوّابها البخلا فالمسامسن عسدهسم ذهبا فهاعـــدمنـاعنــه بــه بــدلا وكلنسا في عسوارف الملسك النسسا قال: وقلت فيه رباعية: المشم ش لانتظارن امصفر والــــروض إلى لقـــائنـــامفتر قم نغتنه الوقت فها العمر لالب ث ل م فم ن ب م يغتر

قال: وفي هذه السنة نصرت الاساطيل في البحر مرارا، ونفذ السلطان في استدعائها ، استظهارا.

قال محمد بن القادسي: وفي مستهل رجب وكل بأمير الحاج طاشتكين، يعني الذي قتل أمير حاج الشام شمس الدين بن المقدم بعرفات سنة ثلاث وثهانين ،ثم قبض عليه، وسببه أنه اتهم بمكاتبة السلطان صلاح الدين رحمه الله فيها يتعلق بقلب الدولة، وأظهر عليه استاذ الدار أبو المظفربن يونس كتابا قيل انه خطه وفيه : «المصلحة مهادنة الفرنج والمجيء إلى البلاد، فها يقف بين أيديكم أحد، والبلاد لكم إذا ملكتم العراق ، وهذا وقتكم إن كان لكم نيه، وأنا مشدود الوسط في الخدمة » .ثم ذكر ابن القادسي أن ذلك مستبعد في حق طاشتكين وزور وبهتان ، ونسب ذلك إلى افتعال ابن يونس عليه ، وكان طاشتكين أمير الحاج عشرين سنة يخطب له بمكة بعد الخطبة لأمير المؤمنين ،وله اقطاع بهائة ألف دينار.

قال: وفيها في ربيع الآخر توفي أبو المرهف نصر بن منصور النميري الشاعر الأديب الزاهد، سمع قاضي البيارستان، وروى عن ابن نبهان وكان قد ولي بالشام وخالط أهل الأدب واضر بالجدري، وله أربع عشرة سنة ، وكان يبصر الأشياء القريبة منه، ولايحتاج الى قائد إذا مشى ،ثم قدم العراق لمداواة عينه فأياسه الاطباء من ذلك ، فاشتغل بالقرآن وحفظه، وصاحب المتدينين والزهاد من أهل الفقه والحديث واللغة ،وله ديوان شعر كبير وسئل عن مذهبه فأملى:

أحسب عليا والبتسول وولد دهسا

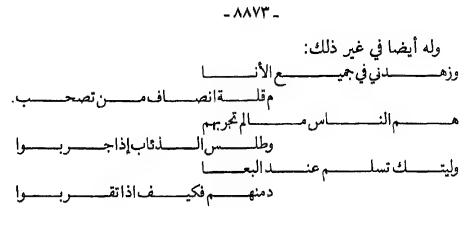
ولاأجحددالشيخين فضلل التقلم

وابررأمسن نسال عثمان بسالاذي

كهاأتبرأمين ولاءابين ملجين أهيا الحديث لصدقه

ويعجبنسي أهمل الحديث لصدقهم

فلست إلى قصوم سهواهمم بمنتهم



## ثم دخلت سنة تسع وثمانين

قال العاد: والسلطان مقيم بدمشق في داره، وممالك الآفاق في انتظاره، والأنام مشرقة بمطالع أنواره، ورسل الأمصار مجتمعون على بابه، منتظرون لجوابه، والضيوف في فيوض انعامة عائمون، والفقراء في رياض صدقته راتعون، ويجلس في كل يوم وليلة لاسداء الجود، وابداء السعود، وبث المكارم وكشف المظالم، وبرّز إلى الصيد شرقيي دمشق بزاد خمسة عشر يوما، واستصحب معه أضاه وأبعد في البرية وظهر عن ضمير ضمير إلى الجهة الشرقية، وطابت له الفرص، ووافق مراده القنص، ثم عاد يوم الاثنين حادي عشر صفر ووافق ذلك عود الحاج الشامي فخرج للتلقي، وسعاداته في الترقي، ولما لقي الحجاج استعبرت عيناه، فخرج للتلقي، وسعاداته في الترقي، ولما لقي الحجاج استعبرت عيناه، وخصبها ومحلها، وكم وصلهم من غلات مصر وصدقاتها، والفقراء وخصبها ومحلها، وكم وصلهم من غلات مصر وصدقاتها، والفقراء والمجاورين ورواتبها وادراراتها، وسر بسلامة الحاج، ووضوح ذلك المنهاج، ووصل من اليمن ولد أخيه سيف الاسلام فتلقاه بالاكرام.

قال القاضي ابن شدّاد: وخرجت من القدس الشريف يوم الجمعة الثالث والعشرين من المحرم ،وكان الوصول إلى دمشق ثاني عشر صفر، وكان الأفضل حاضراً في الايوان الشهالي ،وفي خدمته خلق من الأمراء وأرباب المناصب ينتظرون جلوس السلطان، فلما شعر بحضوري استحضرني وهو وحده قبل أن يدخل إليه أحد ، فدخلت عليه رحمه الله، فقام ولقيني ملقى مارأيت أشد من بشره فيه، ولقد ضمني إليه ودمعت عينه، وفي ثالث عشر صفر طلبني فحضرت ، فسألني عمن في الايوان فأخبرته أن الملك الأفضل جالس في الخدمة والأمراء والناس في خدمته، فاعتذر إليهم على لسان جمال الدولة اقبال، ثم استحضرني بكرة الخميس فاعتذر إليهم على لسان جمال الدولة اقبال، ثم استحضرني بكرة الخميس الحاضرين، فقيل رسل الفرنج، وجماعة الأمراء والأكابر ، فاستحضر رسل

الفرنج إلى ذلك المكان فحضروا، وكان له ولد صغير، وكان كثير الميل إليه يسمى الأمير أبابكر، وكان حاضرا وكان رحمة الله عليه يداعبه، فلما وقع بصره على الفرنج ورأى أشكالهم خاف منهم وبكي فاعتذر اليهم وصرفهم بعد أن حضروا، ولم يسمع كلامهم وقال لي: أكلت اليوم شيئاً، وكانت عادته رحمه الله هذه المباسطة، ثم قال: أحضروا لنا أرزا بلبن ومايشبه ذلك من الاطعمة الخفيفة، فأكل رحمه الله، وكنت أظن أن ماعنده شهوة ، وكان في هذه الأيام يعتذر إلى الناس لثقل الحركة عليه، وكان بدنه ممتلئا وعنده تكسل، فلما فرغنا من الطعام ، قال: ماالذي عندك من خبر الحاج، فقلت قد اجتمعت بجماعة منهم في الطريق، ولولا كثرة الوحل لدخلوا اليوم، ولكنهم في غد يدخلون فقال: نخرج إن شاء الله إلى لقائهم، وتقدّم بتنظيف طرقاتهم من المياه فإنها كانت سنة كثيرة الأنداء والأمطار، وقد سالت المياه في الطرق كالأنهار، وانفصلت عن خدمته، ولم أجد عنده من النشاط ما أعهده منه، ثم بكر في يوم الجمعة فركب ثم لحقته وقد لقى الحاج ولم أجد عليه كزاغنده، وماكان له عادة يركب بدونه، وكان يوما عظيما قد اجتمع فيه للقاء الحاج والتفرج على السلطان معظم من في البلد ، فاذكرته ذلك، فكأنه استيقظ، فطلب الكزاغند فلم يوجد، وأوقع الله في قلبي تطيراً بذلك ، ثم سار رحمه الله بين البساتين يطلب جهة المنيبع حتى أتى القلعة، فعبر على الجسر اليها وهو طريقه المعتاد ،وكانت آخر ركباته رحمه الله.

### فصل

### في مرض السلطان ووفاته احله الله بحبوحة جناته

قال القاضي: لما كانت ليلة السبت وجد كسلا عظيها ، فها انتصف الليل حتى غشيته حمى صفراوية، وكانت في باطنه أكثر منها في ظاهره، وأصبح يوم السبت سادس عشر صفر عليه أثر الحمى، ولم يظهر للناس ذلك ، لكن حضرت عنده أنا والقاضى الفاضل، ودخل ولده الافضل، وطال جلوسنا عنده، وأخذ يشكو من قلقه بالليل، وطاب له الحديث إلى قريب الظهر، ثم انصرفنا والقلوب عنده، فتقدّم إلينا بالحضور على الطعام في خدمة ولده الافضل، ولم يكن للقاضي عادة بذلك ، فانصرف ودخلت إلى الايوان القبلي وقد مدّ الطعام، وولده الأفضل قد جلس في موضعه، فانصرفت وماكان لي قـوّة للجلوس استيحاشاً، وبكـى في ذلكُ اليوم جماعة تفاؤلا بجلوس ولده موضعه ، ثم أخذ المرض في تزايد من حينتذ، ونحن نلازم التردد في طرفي النهار، وأدخل إليه أنا والقاضي الفاضل في النهار مرارا ويعطى الطريق في بعض الأيام التي يجد فيها خفة، وكان مرضه في رأسه، وكان من أمارات انتهاء العمر عيبةطبيبه الذي كان قد ألف مزاجه سفراً وحضرا، ورأى الأطباء فصده ففصدوه في الرابع ، فاشتد مرضه وقلت رطوبات بدنه، وكان يغلبه النفس غلبة عظيمة، ولم يزل المرض في تزايد حتى انتهى إلى غاية الضعف ، ولقد أجلسناه في السادس من مرضه، وأسندنا ظهره إلى مخدّة، وأحضر ماء فاتر ليشربه عقيب شراب يلين الطبع ، فشربه فوجده شديد الحرارة، فشكا من شدّة حرّه ، فغير وعرض علّيه ثانيا، فشكا من برده ولم يغضب ولم يصخب رحمه الله، ولم يقل سوى هذه الكلمات :سبحان الله ألا يمكن أحد تعديل الماء، فخرجت أنا والقاضي الفاضل من عنده وقد اشتدّ منا البكاء، والقاضي الفاضل يقول لي: أنظر هذه الأخلاق التي قد أشرف المسلمون على مفارقتها ،والله لو أن هذا بعض الناس كان قد ضرب بالقدح رأس من أحضره، واشتد مرضه في السادس والسابع والثامن ولم يزلُّ متــزايدا ،وتغيب ذهنه ،ولما كان التَّاسع حــدثت به رعشةً وامتنع من تناول المشروب واشتد الارجاف في البلد وخاف الناس ونقلوا الأقمشة من الأسواق وغشى الناس من الكآبة مالايمكن حكايته ، ولقد كنت أنا والقاضي الفاضل نقعد كل ليلة الى أن يمضى من الليل ثلثه أو قريب منه، ثم يحضر في باب الدار فإن وجدنا طريقا دخلنا وشاهدنا وانصرفنا، وإلا تعرفنا احواله وانصرفنا ، وكنا نجد الناس يرتقبون خروجنا إلى بيوتنــا، حتى يقــرؤوا أحواله مــن صفحات وجــوهنا، ولما كــان العاشر من يـوم مرضه حقن دفعتين ، وحصـل من الحقنة راحة، وحصـل بعض الخفة، وتناول من ماء الشعيرمقدارا صالحاً، وفرح الناس فرحاشديدا فأقمنا على العادة إلى أن مضى من الليل هزيع، ثم أتينا الدار فوجدنا جمال الدولة اقبالا ، فالتمسنا منه تعريف الحال المتجدّد، فدخل، ثم أنفذ الينا مع الملك المعظم تورانشاه يقول: إن العرق قد أخد في ساقيه فشكرنا الله على ذلك، وانصرفنا طيبة قلوبنا، ثم أصبحنا فأخبرنا أن العرق أفرط حتى نفذ في الفرش، وتأثرت به الأرض، وأن اليبس قد تزايد به تزايدا عظيها، وخارت القوة واستشعر الأطباء، ولما رأى الملك الأفضل ماحل بوالده، وتحقق منه شرع في تحليف الناس، وجلس في دار رضوان المعروفة بسكنه، واستحضر القضاة، وعمل له نسخة يمين مختصرة محصلة للمقاصد تتضمن الحلف للسلطان مدّة حياته، وله من بعد وفاته، واعتذر إلى الناس بأن المرض قد اشتد، ومانعلم مايكون ومانفعل هذا إلا احتياطيا على جاري عادة الملوك، ثم سمى القاضي ممن حلف له جماعة منهم: سعد اللدين مسعود أخو بدر اللدين مودود الشحنه، وناصر الدين صاحب صهيون ،وسابق الدين صاحب شيزر،وخشترين الهكاري ،ونوشروان الـزرزاري، وعلكان ومنكلان ، ثم مدّ الخوان وأكلوا، ولما كان العصر أعيد مجلس التحليف، وأحضر ميمون القصري وشمس الدين سنقر المشطوب والبكى الفارس ، وأيبك

الأفطس، وأخو سياروخ ، وحسام الدين بشارة، وبعضهم اشترط في يمينه، وبعضهم لم يشترط، ولم يحضر أحد من الأمراء المصريين ، ولم يتعرض لهم.

ولما كانت ليلة الاربعاء السابع والعشرين من صفر، وهي ليلة الثاني عشر من مرضه، اشتد مرضه، وضعفت قوته، ووقع في أوائل الأمر من أوائل الليل، وحال بيننا وبينه النساء، واستحضرت أنا والقاضي الفاضل في تلك الليلة ، وابن الزكي، ولم تكن عادته الحضور في ذلك الوقت، وعرض علينا الملك الأفضل أن نبيت عنده، فلم ير الفاضل ذلك رأيا، فان الناس كانوا في كل ليلة ينتظرون نزولنا من القلعة، فخاف أن لاننزل فيقع الصوت في البلد، وربها نهب الناس بعضهم بعضا، فرأى المصلحة في نزولنا واستحضار الشيخ أبي جعفر إمام الكلاسة، وهو رجل صالح يبيت بالقلعة حتى إن احتضر بالليل، حضر عنده ،وحال بينه وبين النساء، وذكره بالشهادة، وذكر الله تعالى، ففعل ذلك، فنزلنا وكل منا يوّد لو فداه بنفسه، وبات في تلك الله على حال المتنقلين الى الله تعالى، والشيخ أبوجعفر يقرأ عنده القرآن، ويذكره بالله تعالى، وكان ذهنه غائبا من ليلة التاسع لايكاد يفيق إلا في بعض الأحيان ، وذكر الشيخ أبو جعفر أنه لما انتهى إلى قوله تعالى: (هو الله الذي لا اله الا هو عالم الغيب والشهادة)(١٣٤) سمعه وهو يقول: صحيح وهذه يقظة في وقت الحاجة، وعناية من الله تعالى به، فلله الحمد على ذلك، وكانت وفاته رحمة الله عليه بعد صلاة الصبح من يوم الأربعاء السابع والعشرين من صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة، وبادر القاضى الفاضل بعد طلوع الصبح فحضر وفاته، ووصلت أنا وقد مات، وانتقل إلى رضوان الله، ومحل كرامته، ولقد حكي لي أنه لما بلغ الشيخ أبو جعفر إلى قوله تعالى: (لاالمه الا هو عليه توكلت (١٣٥) تبسم و تهلل وجهه وسلمها إلى ربه، وكان يوما لم يصب الاسلام والمسلمون بمثله منذ فقد الخلفاء الراشدون، وغشى القلعة والبلد والدنيا من الوحشة مالايعلمه إلا الله تعالى، وتالله لقد كنت أسمع من بعض الناس أنهم يتمنون فداء من يعز عليهم بنفوسهم، فكنت أحمل ذلك على ضرب من التجوّز والترخيص إلى ذلك اليوم، فإني علمت من نفسي ومن غيري، أنه لوقبل الفداء لعدي بالنفس.

ثم جلس ولده الافضل للعزاء في الايوان الشهالي، وحفظ باب القلعة إلا عن الخواص من الأمراء والمعممين ، وكان يوما عظيا قد شغل كل انسان ما عنده من الحزن والأسف والبكاء والاستغاثة عن أن ينظر إلى غيره، وحفظ المجلس عن أن ينشد فيه شاعر أو يتكلم فيه قصاص أو وعاظ ، فكان أولاده يخرجون مستغيثين بين الناس، فتكاد النفوس تزهق لهول منظرهم ودام الحال على ذلك إلى بعد صلاة الظهر، ثم اشتغل بتغسيله وتكفينه، فيا مكنا أن ندخل في تجهيزه ماقيمته حبة واحدة الا بالقرض حتى في ثمن التبن الذي يلت به الطين، وغسله الدولعي بالقرض حتى في ثمن التبن الذي يلت به الطين، وغسله الدولعي المنظر، واخرج بعد صلاة الظهر في تابوت مسجى بشوب فوط، وكان المنظر، واخرج بعد صلاة الظهر في تابوت مسجى بشوب فوط، وكان ذلك وجميع مااحتاج إليه من الثياب في تكفينه، قد أحضره الفاضل من وجه حل عرفه.

وارتفعت الأصوات عند مشاهدته، وعظم الضجيج حتى أن العاقل يتخيل أن الدنيا كلها تصيح صوتا واحداً، وغشي الناس من البكاء والعويل ماشغلهم عن الصلاة، وصلى عليه الناس أرسالا، وكان أوّل من أم بالناس القاضي محيي الدين بن الزكي، ثم أعيد رحمة الله عليه إلى الدارالتي في البستان الذي كان متمرضا بها، ودفن في الصفة الغربية منها، وكان نزوله في حفرته قريبا من صلاة العصر، ثم نزل في أثناء النهار ولده الظافر، وعزى الناس فيه، وسكن قلوب الناس، وكان الناس قد شغلهم الحزن والبكاء عن الاشتغال بالنهب والفساد، في يوجد قلب إلا حزينا، ولاعين إلا باكية إلا من شاء الله، ثم رجع الناس إلى بيوتهم أقبح رجوع، ولم يعد منا أحد في تلك الليلة إلا أنا حضرنا وقرأنا، وجددنا

حالا من الحزن، واشتغل ذلك اليوم الملك الأفضل بكتب الكتب إلى أخوته وعمه يخبرهم بهذا الحادث، وفي اليوم الثاني جلس للعزاء جلوسا عاما وأطلق باب القلعة للفقهاء والعلماء، وتكلم المتكلمون، ولم ينشد شاعر، ثم انفض المجلس في ظهيرة ذلك اليوم واستمرّ الحال في حضور الناس بكرة وعشية لقراءة القرآن والدعاء له رحمة الله عليه.

وقال العهاد: جلس السلطان ليلة السبت سادس عشر صفر ونحن عنده حتى مضى من الليل ثلثه، وهويحدثنا ونحن يحدثه، ثم صلى به وبنا امامه، وحان قيامه، وانفصلنا باحسانه مغتبطين، وبامتنانه مرتبطين، واصبحنا يوم السبت وجلسنا في ايوانه ننتظر خروجه لوضع الخوان ووجدناه قد اغلق باغلاق بابه رهنه، ولم نشعر بها قضاه القدر وأجنه، وخرج من خدمه من أخبر بسقمه، وكان من شرط الأدب أن يخلي له موضعا، فتطيرنا من تلك الحالة، وتكرهنا منها سوء الدلالة، فتلاعبت فيه العيون، وتراجمت الظنون ، ودخلنا إليه ليلة الأحد للعيادة ومرضه في الزيادة، وفي كل يوم تضعف القلوب وتتضاعف الكروب، وانتقبل من الضياء، ودخل قمره ليلة السابع والعشرين في السرار، ودجت مطالع الأنوار، ومات بموته رجاء الرجال، وأظلم بغروب شمسه فضاء الأفضال، وغاضت الأيادي، وفاضت الأعادي، ودفن بقلعة دمشق في مسكنه، ودفن جماع الكرم والفضل والدين بمدفنه.

ثم بنى الملك الأفضل قبة شمالي الجامع في جواره، بشباك إلى الجامع لنزواره، ونقله إليها يوم عاشوراء سنة اثنتين وتسعين، واسترجعنا وقلنا مالنا إلا أن نستعيذ بالله ونستعين به، قال :ومما قلت رباعية في المرثية: قيال الملك الناصر من كلفني

## ما يعلم أن ذلك الملك فني الجود إلا كفن لم يبر قام الماد إلا كفن الماد إلى الماد

وقال العماد أيضا في رسالته الموسومة بعتبى الزمان: وكان السلطان رحمه الله لما تــوفي بالقلعــة في منــزله ، ومــازال الأفضــل يتروّى في موضــع ينقله إليه، واستشار في ذلك فأشير عليه، في سنة تسعين بأن يبنى تربته عند مسجد القدم، ويبنى عندها مدرسة للشافعية، وقالوا إذا وصل الملك العزيز استغنى بزيارتها عن الدخول إلى دمشق لأجلها، وقالوا إن السلطان رحمه الله لما مرض سنة احدى وثمانين بحرّان كان قد أوصى أن يدفن بدمشق قبلي ميدان الحصا، ويكون قبره على النهج السائل، وطريق القوافيل ، ليدعو له الوارد والصادر، والبادي والحاضر ، وتجوز عليه في الغزوات العساكر. قالوا: وإن تنأت هذه الأرض عن مكان الوصية فهي منه قريبة، فأمر الأفضل ببناء التربة عند مسجد القدم، وتولى عمارتها بدر الدين مودود والى دمشق، فاتفق وصول العزيز تلك ألسنة للحصار، وهم قد شرعوا في عمارتها، فخرّب ما كان قد ارتفع من البناء، ثم استقرأ الأفضل حدود الجامع ليجعل التربة فيها، فوفق لدار كانت لبعض الصالحين وهي في حدًّ المكان الذي زاده الأجل الفاضل في المسجد، فاشتراها منه وأمر بعمارتها قبة فعمرت، ونقل إليها السلطان يوم عاشوراء من سنة اثنتين وتسعين بكرة الخميس ومشى الأفضل بين يدي تابوته، وأراد العلماء والفقهاء حمله على أعناقهم التي فيها منته، فقال الافضل: كفته أدعيتكم الصالحة التي هي في المعاد جنته، وحمله مماليكه وخدمه، وأولياؤه وحشمه، وأخرج من باب القلعة في البلد على دار الحديث إلى باب البريد، وأدخل منه إلى الجامع، ووضع قدّام باب النصر، وصلى عليه القاضي محيى الدين بن محمد القرشي بآذن الأفضل، ثم حمل منه على الرؤوس إلى بطن ملحده، ثم جاء الأفضل وحده، ودخل لحده، وأودعه وخرج وسد الباب على أبيه، وجلس هناك في الجامع ثلاثة أيام للعزاء ، وانفقت ست الشام أخت السلطان في هذه النوبة أموالاً كثيرة.

قال محمد بن القادسي: وفي يوم السبت ثالث عشر ربيع الأوّل شاعت الأخبار —يعني ببغداد— بوفاة صلاح الدين يوسف بن أيوب، وذكر أنه دفن معه سيفه الذي كان معه في الجهاد، وكان ذلك برأي الفاضل وقيل عنه هذا يتوكأ عليه إلى الجنة، وأن الفاضل كفنه من ماله وتولى غسله الفاضل، وخطيب دمشق.

قلت: وحكي لي أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم في جماعة من الصحابة رضي الله عنهم زاروا قبر صلاح الدين رحمه الله، وأنهم لما صاروا عند الشباك سجدوا.

ووجدت في بعض الكتب الفاضلية: «أن رجلا رأى ليلة وفاة السلطان كأن قائلا يقول له: قد خرج الليلة يوسف من السجن، وهو من الاثر النبوي: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»(١٣٦١)قال: وما كان يوسفنا رحمة الله عليه في الدنيا بالاضافة إلى ماصار إليه في الآخرة إلا في سجن، رضي الله عن تلك الروح، وفتح له باب الجنة فهو آخر ماكان يرجوه من الفتوح».

ومن كلام غيره في وفاة السلطان رحمه الله تعالى: «أفلت الشمس عند الصباح، وذهبت روح الدنيا الذي ذهب بلهابها كثير من الأرواح، وتلك ساعة ظلت لها الألباب حائرة، وتمثلت فيها السهاء مائرة، والجبال سائرة، وأغمد سيف الله اللذي كان على أعدائه دائم التجريد، وخفت الأرض من جبلها الذي كان يمنعها أن تميد، وأصبح الاسلام وقد فقدنا ناصره ثاكلا لوحيد، فهو أعظم فاقد لأعظم فقيد، وليس أحد من الناس إلا وقد صم عن الخبر، وأصيب في سواد القلب والبصر» وقال: «وقد توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول عمر» (١٣٧)

وختم كتابه البرق الشامي بقصيدة رثى بها السلطان رحمه الله عددها

في ديوانه مائتان وثلاثون بيتا أوّلها:

شمال الهدى والملك عمم شتاتمه والمدهمر ساءوأقلعت حسنه مـــــرجـــــقة رهبـــــاتـــــــه وهب آين اللذي كانت له طاعاتنا مبلدولية وليربيه طياعهاتيه بالله أين الناصر الملك الندى لله خـــالصـــة صفــــتنيــ أيسن السذى شرف السزمسان بفضلسه وسمت على الفضللاء تشريفاتسه أين المادي عنت الفرنج لبأسه ذلاً ومنها أدركت ثساراته اط واق أجيادال ورى مناتسه لم يجدتـــدبير الطبيـــب وكـــم وكـــم أجــدت لطـــب الــدهــر تـــدبيرا تــه مسن في الجهاد صفاحسه مساأغمسدت بالنصر حتى أغمدت صفحاته من في صدور الكفر صدر قناته حتيى تسوارت بسالصباح قناتسه المتاعب في الجهادولم تكن ملاعاش قطللاته للذاته مسع ودة غسدوات محمودة روحاته ميمونة ضحواته

في نصرة الاسكام يسهدوائها ليط ـــول في روض الجنــان سنــاتــ لاتحسبوه مات شخصص واحمد فهات كــــل العـــالمين ممــاتـــه ملك عسن الاسلام كسان محاميسا قد أظلمت مذغاب عنها دوره لما خلست مسن بسدره داراتسه دف\_نالساح فلي\_سينب\_ش بعدم\_ا أودى إلى يـــوم النشــور رفـاتــه الدين بعدا أبي المظفريوسف أقسوت قواه وأقفرت ساحاته جبل تضعضع مسن تضعضع ركنسه ر \_\_\_ أركياننا وتهذنا هدداته ماكنت أعلم أن طوداً شامخاً یهوی ولاتهوی بنـــا مهـــواتـــه ماكنت أعلم أن بحراط أميا فينا يطم وتنتهي زخراتسه بحسر خسلامسن وارديسه ولم تسزل محف وظ قب وف وده حفاتد من لليتسامسي والأرامسل راحسم متعطف مفض وضة صدقاته لــوكـان في عصر النبــي لأنــزلــت فيذكـــرهمــنذكــرهآيـاتــه فعلى صلاح الدين يوسف داتما رضوان رب العرش بسل صلواتسه لضريحه سقياالسحاب فإن يغب تحضر لـــرحمة ربـــه سقيـــاتـــه

\_\_\_بيت الحرام عليه بـــــلعـ من للثغسور وقدعداها حفظه مـــن للجهـاد ولم تعـــدعـاداتـــه بكت الصوارم والصواهل إذخلت مسن سبلها وركوباغسزواتسه و بسیفیسه صیداء لحزن مصیبایسیه إذليـس يشفـــى بعـده صــديـاتــه يـــاوحشتــاللبيـــضفي اغمادهـــا لاتنتضيهاللوغييء ياوحشة الإسلام يوم تمكنت في كسل قلسب مسؤمسن روعساتسه ياحسرتامن باسراحت اللذي يقضى الزمان وماانقضت حسراته مسلأت مهابته البسلاد فسإنسه أسدوإن بلاده غيابات مـــاكـــان أسرع عصره لما انقضـــــى فكــأنها سنـــواتــه ســاعـــاتــه لمأنسسيوم السبت وهسولمابسه يبدى السبات وقدبدت غشياته والبشر منه تبلج تأنسواره والوجه منه تالالأت سبحاته ويقـــولشالمهيمــنحكمــة في مرضة حصلت بها مرضاته وقف فالملسوك على انتظار ركسوبسه لهم ففي م تاخرت ركبات، كانواوقو اأمس تحت ركابه واليوم هم حول السريسر مشاتسه

ونمالك الأفاق ساعية له فمتـــــى تجىء بفتحهـــــن سعـــ تهوقيعبه فيها فأيسن دواته قدكان وعدك في الربيع بجمعها والجندف الديروان جدد عرضه وإذاأم رب تجددت نفق السات والقـــدس طـامحة إليــك عيـونــه عجل فقد طمخت إليه عداته والغرب منتظر طلوعك نحسوه حتى تفسىء إلى هسداك بغساتسه والشرق يسرجسو غسرب عسزمسك مساضيسا ف ملک و حتی تطیع عصاتیه مغرى باسداء الجميل كانها فرضت عليه كالصلاة ملاته هـــل للملــوك مضـاؤه في مــوقـف وإذا الملــــوك سعـــوا وقصر سعيهـــم رجحـت وقــدنجحـت بــه مسعـاتــه كه جاءه التوفيق في وقعاته من كان بالتوفيت تسوقيعاته

قال: ووجد بخط العهاد في حاشية ديوانه كانت علامته «الحمد لله وبه توفيقي»

ياراعياللنديان حين تمكنت

مناكان ضرك لو أقمت مراعيا

ديناتولى منذرحلت ولاته

أضج رت مناأم أنف ت فلم نكسن نصـــابلشـــدة ضجــراتـــه أرضيت تحت الأرض يامن لم يزل فــــوق السهاء عليـــة درجـــاتـــه فارقت ملكاغير باق متعبا ووصلت ملكاً باقياراحات اعــززعلى عينـــي بــرؤيــة بهجــة الـــ ــدنيايــابــى مــاالكــرام أبــاتــه لاتقتــدوا إلا بسنـة فضلــه لتطيب في مهدالنعيم سناته وردوا مسوارد عسدلسه وسياحسة لتردعــــننهج الشمات شما تـــــه ولئــن هـــوى جبــل لقــدبنيــت لنــا ببنيـــه مـــن هضبـــاتـــه ذرواتـــه وبفض لأفضل وعسز عريروه وظه ورظ اهروات، الأفضل الملك السذى ظهرت على السد \_\_\_نياب\_زه\_ر ج\_لالهجلواته والسديسن بالملسك العسز يسزعهاده عثمان حالية لناحالاته والملك غازي الظاهر العالى المذي صحبت لاظهرار العلى مغرزاته ولنسابسيف السديسن أظهر نصرة بالعادل الملك المطهر ذاته وللعماد فيه قصيدة أخرى:

وللعماد فيه قصيدة اخرى: مــنللعـــلامـــنللــــدرىمـــنللهـــدى يحميـــهمـــنللبـــأسمـــنللنـــائل طلب البقاء للكه في آجيل إذ لم يشق ببقاء ملك العاجل بحر أعدالبر بحراً بروه وبسيف فتحت بلاد الساحل مين كان أهيل الحق في أيامه وبعين ويردون أهيل الباطل وبعيزه يردون أهيل الباطل وفت وحده والقدس مين ابكيارها أبقت له فض لا بغير مساجل مين ابكيارها وابلا مين بغيرك وابلا ورأيت جودك مجمل لاللوابل في ورأيت جودك محجم لا للهام الهاطل المنازي سقيا الغيام الهاطل المنازي سقيا الغيام الهاطل المارتضي سقيا الغيام الهاطل المارتضي سقيا الغيام الهاطل المارتضي سقيا

### فصل

## في تركة السلطان ووصف أخلاقه رحمه الله

ذكر القاضي ابن شداد أنه لما مات لم يخلف في خزانته من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعين درهما ناصرية، وديناراً واحدًا ذهبا صورياً، ولم يخلف ملكا لا دارا ولاعقارا، ولا بستانا ولا مزرعة يعني في البلد، ولا مسقفا ولا ظاهرا مستغلا من أنواع الاملاك.

وقا ل العمادفي كتاب الفتح: خلف السلطان رحمه الله سبعة عشر ولدا ذكرا، وابنة صغيرة، وأبقى له مآثـر أثيره، ومحاسن كثيرة، ولم يخلـف في خزانته سوى دينار واحد وستة وثلاثين درهما، فإنه كان باخراج مايدخل من الأموال في المكرمات والغرامات مغرما، وكنان يجود بالمال قبل الحصول، ويقطعه عن خزانته بالحوالات عن الوصول، وإذا عرف بوصول حمل وقع عليه بأضعافه، وخص الآحاد من ذوي الغنا في الجهاد بآلاف، ولاجبه أحدا بالرد إذا سأله، بل تلطف له كأنه استمهله، فإنه يقول ما عندنا شيء الساعة ومفهومه أنه يعطى، وإن كان يبطى ، وأنه يصيبه بالنوال ولا يخطي، وكان مشغوفا في سبيل الله بالانفاق موقوفا عزمه في الأعداء بإدناء الآجال ، وفي الأولياء بإجراء الأرزاق، وماعقر في سبيل الله فسرس أوجرح إلا وعوض مالكه مثله، وزاده من فضله فضله، وحسب ماوهبه من الخيل العراب والأكاديش الجياد للحاضرين معه في صف الجهاد، مدة ثلاث سنين وشهر مذ نزل الفرنج على عكا في رجب سنة خمس وثمانين إلى يوم انفصالهم بالسلم في شعبان سنة ثمان وثمانين، فكان تقديره إثني عشر ألف رأس من حصان وحجرة واكديش، وذلك غير ما أطلقت من المال في اثبان الخيل المصابة في القتال، ولم يكن له فرس يركبه إلا وهو موهوب أوموعود به، وصاحبه ملازم في طلبه، وماحض اللقاء إلا استعار فرسا فركبه، وهجر جياده، فاذا نزل جاء

صاحبه واستعاده، فكلهم يركب خيله، ويطلب خيره، وهو يستعيرجوادا، ويستعر في الجهاد اجتهاداً.

قال في البرق: وحضرت بعده عند بعض الملوك وقد قيدت إليه عراب، فقيل له: كان السلطان يضيع هذه، وماعنده لهاحساب، ونسبوا جوده بها إلى السرف وعدوه من معايبه، وأعرضوا عن ذكر مفاخره ومناقبه، وبمثل ذلك استتبت له الفتوح وخلصت له طاعة كتائبه.

قال في الفتح: وكان لايلبس إلا مايحل لبسه، وتطيب به نفسه، كالكتان والقطن والصوف، وكسوته يخرجها في اسداء المعروف ، وكانت محاضره مصونة من الخطر وخلواته مقدسة بالطهر، ومجالسه منزهة عن الهزء والهزل، ومحافله حافلة آهلة بأهل الفضل ، وماسمعت له قط كلمة تسقط، ولا لفظة فظة تسخط، ويغلظ على الكافرين الفاجرين، ويلين للمؤمنين المتقين ويؤثر سهاع الأحاديث بالأسانيد، ويكلم العلماء عنده في العلم الشرعي المفيد، وكان لمداومة الكلام مع الفقهاء ومشاركة القضاة في القضاء أعلم منهم بالأحكام الشرعية والأسباب المرضية والأدلة المرعية، وكان من جالسه لايعلم أنه مجالس السلطان بل يعتقد والأدلة المرعية، وكان من جالسه لايعلم أنه مجالس السلطان بل يعتقد أنه مجالس أخ من الأخوان، وكان حليهاً مقيلاً للعشرات، متجاوزا عن المفوات، تقيا نقيا، وفيا صفيا، يغضي ولا يغضب، ويبشر ولا يتقطب، مارد سائلا ولا صد نائلا، ولا أخجل قائلاً، ولا خيب آملاً.

قال: ومن جملة مناقبه أنه تأخر عنه في بعض سفراته الأمير أيوب بن كنان، فلما وصل سألم عن سبب تخلفه، فلذكر دينا فأحضر غرماءه، وتقبل بالدين ، وكان اثني عشر ألف دينار مصرية وكسرا.

قال: ولما كنا بالقدس في سنة ثمان وثمانين كتب إليه سيف الدولة بن منقذ نائبه بمصر، أن واحدا ضمن معاملة بمبلغ فاستنض منها الفي

دينار، وتسحب، وربيا وصل إلى الباب، فتحيل وتمحل وكذب، فجاء من أخبر السلطان أن الرجل بالباب، فقال: قبل له: إن ابن منقذ يطلبك فاجهد أن لا تقع في عينه، فعجبنا من حلمه وكرمه بعد أن قلنا قدم الرجل إلى حينه بقدمه.

قال: وبما أذكره له في أول سفري معه إلى مصر سنة اثنتين وسبعين، أنه حوسب صاحب ديوانه عما تولاه في زمانه ، فكانت سياقة الحساب عليه سبعين ألف دينار باقية عليه، فماطلبها ولا ذكرها ، وأراه أنه ماعرفها، على أن صاحب الديوان ماأنكرها، وكان يرضى من الأعمال بها تحمل صفوا عفوا، وتحصل حلوا ، وكله يخرج في الجود والجهاد، ثم لم يرض له بالعطلة، فولاه ديوان جيشه.

قال: ولما كنا بظاهر حران عم بصدقاته الفقراء والمساكين، وكتب إلى نوابه في الولايات بإخراج الصدقات وقال لي: اكتب إلى الصفي بن القابض بدمشق أن يتصدق بخمسة آلاف دينار صورية، فقلت :إنها الذهب الذي عنده مصري، فقال : فيتصدق بخمسة آلاف دينار مصرية ، واشفق من صرف المصري بالصوري فيكون حراما، ويرتكب في كسب الأجر آثاما، فسمح ومنح، وتاجر الله وربح، ولما عزم على الرحيل من حران أفاض بها الفضل وبث الاحسان، وقال لي يوم الرحيل: انظر كم بقي بالباب من الوافدين أبناء السبيل وهذه ثلاثهائة دينار أقسمها عليهم بالقلم على أقدارهم، وكانوا عدة يسيرة لم تبلغ عشرة، فعينت لكل اسم بالقلم على أربعائة دينار، فأعلمته وقلت أنقص من كل اسم ربعا، فقال اجر ما جرى القلم به.

قال: وكمان رحمه الله إذا أطلق لعاف عارفة، وقلت له: هذه ماتكفيه ردّها مضاعفة.

قال: وكان يغضب للكبائر، ولا يغضي عن الصغائر، ويرشد إلى الهدى، ويهدي إلى الرشاد، ويسدد الأمر، ويأمر بالسداد، فكل مماليكه وخواصه بل أمراؤه وأجناده أعف من الزهاد والعباد.

قال: ورأى لي يوماً دواة محلاة بالفضة، فأنكرها، فقلت له: إن الشيخ أبا محمد والد أبي المعالي قد ذكر وجها في جوازها، ثم لم أكتب بها عنده بعدها.

وكان محافظا على الصلوات الخمس في أوائل أوقاتها، مواظبا على أداء مفروضاتها ومسنوناتها، فيا رأيته صلى إلا في جماعة ، ولم يؤخر له صلاة من ساعة إلى ساعة، وكان له امام راتب ملازم مواظب، فان غاب يوما صلى به من حضره من أهل العلم، إذاعرفه متقيا متجنبا للاثم، وكان يأخل بالشرع ويعطي به، ولم يكن إلى المنجم مصغيا، ولم يزل لقوله ملغيا، ولا يتعيف ولا يتعين ولا يتحير، بل إذا عزم توكل على الله، فلا يفضل يوما على يوم، ولازمانا على زمان إلا بتفضيل الشرع، ومازال ناصراً للتوحيد، وقامعا جميع اهل البدع بالتبديد، شافعي المذهب أصولا وفروعا، معتقلا له معقولا ومسموعا، يدني أهل التنزيه، ويقصي أهل التشبيه، ويديم استفادة فقه الفقيه، واستزادة نباهة النبيه، ووجاهة ألوجيه، فالعالمون في عدله، والعاملون في فضله والبلاد في أمنه، والعباد في منه.

### فصل

قال القاضي ابن شداد: كان مولد السلطان رحمه الله في شهور سنة اثنتين وثلاثين وخسيائة بقلعة تكريت، وكان والده أيوب بن شادي واليا بها، وكان كريها، أريحيا حليه، حسن الأخلاق مولده بدوين، ثم اتفق له الانتقال من تكريت إلى الموصل، وانتقل ولده المذكور معه، وأقام بها إلى أن ترعرع، وكان والده محترما مقدّما، هو وأخوه أسد الدين شيركوه عند أتابك زنكي، واتفق لوالده الانتقال إلى الشام واعطي بعلبك وأقام بها مددة ومعه ولده المذكور، فأقام في خدمة والده يتربى تحت حجره، ويرتضع ثدي محاسن أخلاقه حتى بدت منه أمارات السعادة، ولاحت عليه لوائح التقدم والسيادة، وقدّمه الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله، وعوّل عليه، ونظر إليه وقربه وخصصه، ولم يزل كلها تقدم قدما يبد منه أسباب تقتضي تقديمه إلى ماهو أعلى منه، حتى اتفق نعمه أسد الدين شيركوه الحركة إلى مصر، والنهوض إليها وقد مضى ذلك.

ثم قال:

# ذكر ماشاهدناه من مواظبته على القواعد الدينية وملاحظته للأمور الشرعية

مماورد في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «بني الاسلام على خمس: شهادة أن لا إله الا الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، والحج إلى بيت الله الحرام» فكان رحمه الله حسن العقيدة، كثير الذكر لله تعالى، قد أخذ عقيدته عن الدليل بواسطة البحث مع مشايخ أهل العلم وأكابر الفقهاء، ويتفهم من ذلك ما يحتاج إلى تفهمه، بحيث كان إذا جرى الكلام بين يديه يقول فيه قولا

حسنا، وإن لم يكن بعبارة الفقهاء، فتحصل من ذلك سلامة عقيدته عن كدر التشبيه والتعطيل، جارية على نمط الاستقامة، وكان قد جمع له الشيخ الامام قطب الدين النيسابوري رحمه الله عقيدة تجمع جميع ما يحتاج إليه في هذا الباب، وكان من شدّة حرصه عليها يعلمها الصغار من أولاده، حتى ترسخ في أذهانهم من الصغر، ورأيته وهو يأخذها عليهم، وهم يقرؤونها من حفظهم عليه.

وأما الصلاة فإنه كان شديد المواظبة عليها بالجماعة، وكان يواظب على السنن والرواتب، ولقد رأيته يصليها إن استيقظ بوقت الليل و إلا اتى بها قبل صلاة الصبح، وما كان يترك الصلاة مادام عقله عليه، ولقد رأيته يصلي في مرضه الذي مات فيه قائما، وماترك الصلاة إلا في الايام الثلاثة التي تغيب فيها ذهنه، وكان إذا أدركته الصلاة وهوسائر نزل وصلى.

وأما الزكاة فانه مات رضي الله عنه ولم يحفظ ماوجبت عليه به الزكاة، وأما صدقة النفل فانها استنفدت جميع ما ملكه من الأموال.

وأما صوم رمضان فإنه كان عليه فيه فوائت بسبب أمراض تواترت عليه في رمضانات متعددة،وكان القاضي الفاضل قدتولى ثبت تلك الأيام، وشرع رحمه الله في قضاء فوائت ذلك في القدس الشريف في السنة التي توفي فيها، وواظب على الصوم مقدارا زائدا على شهر فإنه كان عليه فوائت رمضانين، شغلته الأمراض وملازمة الجهاد عن قضائها، وكان الصوم لايوافق مزاجه فألهمه الله الصوم لقضاء الفوائت، فكان يصوم وأنا أثبت الأيام التي يصومها ، فان القاضي كان غائبا، والطبيب يلومه وهو لايسمع ويقول: ماأعلم مايكون ، فكأنه كان ملها براءة ذمته، ولم يزل حتى قضى ما عليه رحمه الله.

وأما الحج فإنه لم يزل عازما عليه وناويا له لاسيا في العام الذي توفي فيه، فإنه صمم العزم عليه وأمر بالتأهب، وعملت الزوادة ولم يبق إلا المسير، فاعتاق عن ذلك بسبب ضيق الوقت ، وفراغ اليد عما يليق بأمثاله، فأخره إلى العام المستقبل، فقضى الله ماقضى.

قال: وهذا شيء اشترك في العلم به الخاص والعام، وكأن رحمه ألله يحب سماع القرآن العظيم حتى أنه كان يستخير إمامه، ويشترط عليه أن يكون عالما بعلوم القرآن العظيم متقنا لحفظه، وكان يستقرىء من يحضره في الليل، وهو في برجه الحزبين والثلاثة والأربعة وهو يسمع، وكان يستقرىء في مجلسه العام من جرت عادته بذلك الآية والعشرين والزائد على ذلك، ولقد اجتاز على صغير بين يدي أبيه وهو يقرأ القرآن، فاستحسن قراءته فقرّبه وجعل له حظا من خاص طعامه، ووقف عليه، وعلى أبيه جزءا من مزرعة،وكان رحمه الله خاشع القلب رقيق الدمعة إذا سمع القرآن العزيز يخشع قلبه وتدمع عينه في معظم أوقاته، وكان شديد الرغبة في سماع الحديث، ومتى سمع عن شيخ ذي رواية عالية وسماع كثير، فإن كان بمن يحضر عنده استحضره وسمع عليه، واسمع من يحضره في ذلك المكان من أولاده ومماليكه والمختصين به، وكان يتأمر الناس بالجلوس عند سماع الحديث اجلالًا له، وإن كان الشيخ ممن لايطرق أبواب السلاطين ويتحامى عن الحضور في مجالسهم سعى إليه وسمع عليه، تردد إلى الحافظ السلفي بالاسكندرية وروى عنه أحاديث كثيرة، وكان يحب أن يقرأ الحديث بنفسه، فكان يستحضرني في خلوته ويحضر شيئامن كتب الحديث، ويقرأ هنو فإذا مر بحديث فيه عبرة رق قلبه ودمعت عينه، وكان كثير التعظيم لشعائر الدين قائلا ببعث الأجسام ونشورها ، ومجازاة المحسن بالجنة والمسيء بالنار، مصدقا بجميع ماوردت به الشرائع منشرحا بلك صدره، مبغضا للفلاسفة والمعطلة والدهرية، ومن يعاند الشريعة المطهرة ، ولقد أمر ولده الظاهر صاحب حلب بقتل شاب كان نشأ يقال له السهـروردي، قيل عنه أنه كان معانداً

للشرائع مبطلا، وكان قد قبض عليه ولده المذكور لما بلغه من خبره، وعرّف السلطان به فأمر بقتله وصلبه أياما فقتله، وكان حسن الظن بالله كثير الاعتهاد عليه عظيم الانابة إليه، ولقد شاهدت من آثار ذلك ما أحكيه، فحكى التجاءه إلى الله تعالى عند خوفه من قصد الفرنج بيت المقدس، وامتناع أصحابه من دخوله للحصر، فصلى ودعا فكفي ذلك، وقد تقدّم ذكره.

ثم قال: وكان رحمه الله عادلا رؤوف رحيها ناصرا للضعيف على القوي، وكان يجلس للعدل في كل يـوم اثنين وخميس في مجلس عام يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء، ويفتح الباب للمتحاكمين حتى يصل إليه كل أحد مـن كبير وصغير، وعجـوز هرمـة وشيـخ كبير، وكــان يفعل ذلـك سفـرأ وحضراً، على أنه كـان في جميع زمانه قـابلا لمايعرض عليه مـن القصص، كاشف لما ينهى إليه من المظالم، وكان يجمع القصص في كل يوم، شم يجلس مع الكاتب ساعة في اللَّيل أو في النهار، ويوقع عَلَى كل قصة بهأ يطلق الله على قلبه، وما استغاث إليه أحد إلا وقف وسمع ظلامته، وأخذ قصته، وكشف قضيته، ولقد رأيته وقد استغاث إليه أنسان من أهل دمشق، يقال له ابن زهير على تقي الدين ابن أخيه، وأنفذ إليه ليحضره في مجلس الحكم، فما خلصه إلا أنَّ أشهد عليه شاهدين أنه وكل القاضي أمين الدين أبا القاسم قاضي حماه في المخاصمة، فأقاما الشهادة عندي في " مجلسه، فأمرت أبا القاسم بمساواة الخصم فساواه، وكان من خواص جلساء السلطان، ثم جرت المحاكمة بينهاواتجهت اليمين على تقى الدين، وكان تقي الدين من أعز الناس عليه، وأعظمهم عنده ، ولم يحابه في الحق.

قال: وكنت يوما في مجلس الحكم بالقدس الشريف إذ دخل علي شيخ حسن تاجر معروف يسمى عمر الخلاطي، ومعه كتاب حكمي سأل فتحه، وقال: خصمي السلطان، وهذا بساط الشرع، وقد سمعنا

انىك لاتحابي، فقلت : وفي أي قضية هـ و خصمك، فقال: إن سنقـ ر الخلاطي كان مملوكسي، ولم يزَّل على ملكسي إلى أن مات، وكان في يده أموال عظيمة كلها لي، ومات عنها، واستولى عليها السلطان وأنا مطالبه، فقلت: ياشيخ وما اللذي أقعدك إلى هذه الغاية فقال: الحقوق التبطل بالتأخير، وهذا الكتاب الحكمي ينطق بأنه قد اشتراه من فلان التاجر بأرجيش في اليوم الفلاني من شهر كذا من سنة كذا، وأنه لم يزل في ملكه إلى أن شذ عن يده في سنة كذا، وماعرف شهود هذا الكتاب خروجه عن ملكه بوجه وتمم الشرط إلى آخره، فتعجبت من هذه القصة، وأعلمت السلطان بذلك، فأحضره واستدناه حتى جلس بين يدي، وكنت إلى جانبه ثم انفرك من طرّاحته حتى ساواه رحمه الله تعالى، ثم ادّعى الرجل وفتح كتابه وقرىء تاريخه، فقال السلطان :إن لي من يشهد أن سنقر هذا كان في ملكي وفي يدي بمصر، وأني اشتريته مع ثمانية أنفس في تاريخ متقدم على هذا التاريخ بسنة وأنه لم يزل في يـدي وملكى إلى أن اعتقته، ثم استحضر جماعة من أعيان الأمراء المجاهدين فشهدوا بذلك وحكوا القَضية كماذكرها، وذكروا التاريخ كما ادّعاه، فأبلس الرجل فقلت له: يامولانا هذا الرجل ما فعل ذلك الاطلبا لمراحم السلطان، وقد حضر بين يدي المولى وما يحسن أن يرجع خائب القصد، فقال: هذا باب آخر، وتقدّم له بخلعة ونفقة بالغة.

قال: فانظر إلى ما في طي هذه القضية من المعاني الغريبة العجيبة من المتواضع والانقياد إلى الحق وإرغام النفس، والكرم في موضع المؤاخذة مع القدرة التامة رحمة الله عليه.

قال: وكرمه كان أظهر من أن يسطر، كان رحمه الله يهب الأقاليم وفتح آمد فطلبها منه ابن قرا أرسلان فأعطاه إياها، ورأيته وقد اجتمع عنده وفود بالقدس ولم يكن في الخزانة مانعطيهم، فباع قرية من بيت المال وفضضنا ثمنها عليهم ولم يفضل منه درهم واحد، وكان يعطي في وقت

الضائقة كما يعطى في حال السعة، وكان نواب خزانته يخفون عنه شيئا من المال حذر أن يفجأهم لعلمهم أنه متى علم به أخرجه، وسمعته يوما يقول: يمكن في الناس من ينظر إلى المال كما ينظر إلى التراب، فكأنه أراد بذلك نفسه، وكان يعطي فوق ما يؤمل الطالب، وماسمعته يقول: أعطينا لفلان، وكان يعطي الكثير، ويبسط وجهه للمعطى بسط من لم يعط شيئا، وكان الناس يستزيدونه في كل وقت، وماسمعته قط يقول: قد زدت مرارا فكم أزيد؟ وأكثر الرسائل في ذلك كان يكون على لساني ويدي وكنت أخجل من كثرة ما يطلبون، ولا أخجل منه لعلمي بعدم مؤاخذته بذلك، وماخدمه قط أحد الا وأغناه عن سؤال غيره.

وأما تعدد عطاياه فقال: حصرنا عدد ماوهب من الخيل بمرج عكا لاغير فكان عشرة آلاف رأس، ومن شاهد مواهبه يستقل هذا القدر، اللهم إنك ألهمته الكرم، وأنت أكرم الأكرمين فتكرم عليه برحمتك ورضوانك يا أرحم الراحين.

قال: وكان رحمه الله من عظاء الشجعان، قوي النفس شديد البأس، عظيم الثبات لايهوله أمر، ولقد رأيته مرابطا في مقابلة عدة عظيمة من الفرنج، ونجدهم تتواصل، وعساكرهم تتواتر، وهو لايزداد إلا قوة نفس، وصبرا، ولقد وصل في ليلة واحدة منهم نيف وسبعون مركبا على عكا، وأنا أعدها من بعد صلاة العصر إلى غروب الشمس، وهو لايزداد إلا قوة نفس، ولقد كان يعطي دستورا في أوائل الشتاء، ويبقى في شرذمة يسيرة في مقابلة عدتهم الكثيرة، ولقد سألت باليان بن بارزان، وهو من كبار ملوك الساحل، وهو جالس بين يديه يوم انعقاد الصلح عن عدتهم الكثيرة، فقال الترجمان عنه أنه يقول كنت أنا وصاحب صيدا وكان أيضا من ملوكهم وعقلائهم قاصدين عسكرنا من صور، فلما أشرفنا عليه تحاورنا فحزره هو بخمسائة ألف، وحزرته أنا بستائة ألف، أوقال عكس ذلك، فقلت: كم هلك منهم؟ فقال: أما بالقتل فقريب

مائة ألف، وأما بـالموت والغرق فـلا يعلم، ومـارجع مـن هذا العـالم إلا الأقل.

قال: وكان لابد له من أن يطوف حول العدو كل يوم مرة أو مرتين إذا كنا قريبا منهم، وكان إذا اشتد الحرب يطوف بين الصفين ومعه صبى واحد، وعلى يده جنيب، ويخرق العساكر من الميمنة إلى الميسرة يرتب الأطلاب ويأمرهم بالتقدّم والوقوف في مواضع يراها، وكان يشارف العدو ويجاوره، ولقد قرىء عليه جزء من الحديث بين الصفين، وذلك أنى قلت له قدسمع الحديث في جميع المواطن الشريفة، ومانقل أنه سمع بين الصفين، فإن رأى المولى أن يؤثر عنه ذلك كان حسنا، فأذن في ذلك فأحضر جزءا هناك من له به سماع، فقرىء عليه ونحن على ظهور الدواب بين الصفين يمشى تـارة ويقف أخرى، ومـا رأيته استكثـر العدو أصلا، ولا استعظم أمرهم قط، وكان مع ذلك في حال الفكر والتدبيريذكر بين يديه الأقسام كلها، ويرتب على كل قسم مقتضاه من غير حدّة ولا غضب يعتريه، ولقد انهزم المسلمون في يوم المصاف الأكبر بمرج عكا حتى القلب ورجاله، ووقع الكوس والعلم وهوثابت القدم في نفر يسير، وقد انحاز إلى الجبل يجمع الناس ويردهم ويخجلهم حتى يرجعوا، ولم ينزل كذلك حتى عكس السلمون على العدو في ذلك اليوم، وقتل منهم زهاء سبعة آلاف مابين راجل وفارس، ولم يـزل مصابـرا لهم وهم في العدة الوافرة إلى أن ظهر لـ ضعف المسلمين فصالح وهومسؤول من جانبهم، فإن الضعف والهلاك كان فيهم أكثر، ولكنهم كانوا يتوقعون النجدة، ونحن لانتوقعها، وكانت المصلحة في الصلح.

وكان رحمه الله يمرض ويصح وتعتريه أحوال مهولة وهوصابر مرابط وتتراءى الناران ونسمع منهم صوت الناقوس، ويسمعون منا صوت الأذان إلى أن قضي الأمر.

قال: وكان رحمه الله شديد المواظبة على الجهاد عظيم الاهتهام به ولو حلف حالف أنه ماأنفق بعد خروجه إلى الجهاد دينارا ولا درهما إلا في الجهاد، وفي الارفاد، لصدق وبر في يمينه، ولقد كان الجهاد وحبه والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاء عظيها، بحيث ماكان له حديث إلا فيه ولا نظر إلا في آلته، ولا اهتهام إلا برجاله، ولا ميل إلا إلى من يذكره ويحث عليه، ولقد هجر في محبة الجهاد في سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسكنه وسائر ملاذه، وقنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهب بها الرياح يمنة ويسرة، ولقد وقعت عليه الخيمة في ليلة ريحة على مرج عكا، فلو لم يكن في البرج لقتلته ولا يزيده ذلك إلا رغبة ومصابرة واهتهاما.

قلت: وشواهد ماذكر القاضي من ذلك كثيرة، وقد سبقت مفرقة في وقعاته رحمه الله، منها ماقاساه على حصار كوكب من الأمطار والأوحال، وقال الرشيد بن النابلسي من قصيدة له:

ما أبهج الدين والدنيابا لكهاالص

ـــديق يــوسف لا لاذت بــه الغير

ملك تساوى جمادى في الجهاد وتمسا

ــموزلـديــهوضاهـىناجــرأصفـر

فليسس يثنيه حران ترقد دعن

رضي الالهولاإن اغسدق المطسر

ولاينهنه عايك ابده

ضبة أعيد لمعاليه ولاضجر

ولايرى الروح إلاظهر سلهبة

في بطن معركة مسرك وبها وعسر

صبر جميل كطعمالشهدفي فمسه

وعند كرمايك طعمه الصبر

قال القاضي: وكان الرجل إذا أراد أن يتقرب إليه يحشه على

الجهاد،أويذكر شيئا من أخبار الجهاد،ولقد ألف له كتب عدة في الجهاد،وأنا ممن جمع له فيه كتابا جمعت به آدابه، وكل آية وردت نيه، وكل حديث روي فيه، وشرحت غريبها، وكان رحمه الله كثيراً مايطالعه حتى أخذه منه ولده الأفضل.

قال: والأحكين عنه ماسمعت منه في ذلك، وذلك أنه كان قد أخذ كوكب في ذي القعدة سنة أربع وثمانين، وأعطى العساكر دستورا وأخذ عسكر مصر في العود إلى مصر، وكان مقدمه أخاه العادل، فسار معه ليودعه، ويحظى بصلاة العيد في القدس ففعل ووقع له أنه يمضى معهم إلى عسقــلان ويودعهــم، ثــم يعود على طـريق الســاحــل ويتفقد البــلاد الساحلية إلى عكا، ويرتب أحوالها، فأشاروا عليه أن لايفعل فإن العساكر إذا فارقتنا نبقى في عدة يسيرة ، والفرنج كلهم بصور، وهذه مخاطرة عظيمة، فلم يلتفت وودع أخاه والعسكر بعسق للأن، ثم سرنا على الساحل طالبي عكا، وكان الزمان شتاء عظيما، والبحر هائجا هيجاناعظيما، وموجه كالجبال ، كهاقال الله تعالى، وكنت حديث عهد برؤية البحر، فعظم أمر البحر عندي حتى خيل لي أنني لو قال لي قادر: لو جزت في البحر ميلا واحدا ملكتك الدينا، لما كنست أفعل، واستخففت رأي من يركب البحر رجاء كسب دينار أو درهم واستخففت رأي من لايقبل شهادة راكب البحر، هذا كله خطر لي لعظم الهول الذي شاهدته من حركة البحر وتموجه، فبينا أنا في ذلك أذ التفت اليّ وقال: في نفسي انه متى يسر الله تعالى فتح بقية الساحل قسمت البلاد وأوصيت وودعت وركبت هذا البحر إلى جزائرهم أتبعهم فيها حتى لاأبقى على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت، فعظم وقعُ هـذا الكلام عنـدي حيث ناقض ماكان يخطر لي، وقلت له ليس في الأرض أشجع نفسا من المولى، ولا أقوى نية منه في نصرة دين الله، وحكيت له ماخطر لي، ثم قلت ما هذه إلآنية جميلة، ولكن المولى يسير في البحر العساكر، وهو سور الاسلام ولاينبغي أن يخاطر بنفسه، فقال:

أنا أستفتيك ماأشرف الميتات؟ فقلت: الموت في سبيل الله، فقال:غاية ما في الباب أن أموت أشرف الميتات، قال: انظر الى هذه الطوية ماأطهرها، وإلى هذه النفس ماأشجعها وأجسرها، اللهم إنك تعلم أنه بذل جهده في نصرة دينك رجاء رحمتك فارحمه.

قال: وأما صبره فلقد رأيته بمرج عكا وهو على غاية من مرض اعتراه بسبب كثرة دماميل، كانت ظهرت عليه من وسطه إلى ركبته بحيث لايستطيع الجلوس، وإنها يكون متكثا على جانبه إذا كان في الخيمة، وامتنع من مد الطعمام بين يديه لعجزه عن الجلوس، وكمان يأمر أن يفرق على الناس، وكان مع ذلك كله يركب من بكرة النهار إلى صلاة الظهر يطوف على الأطلاب، ومن صلاة العصر إلى صلاة المغرب وهو صابر على شدّة الألم وقوّة ضربان الدمامل، وكان يعجب من ذلك فيقول رحمه الله: إذا ركبت يزول عنى ألمها حتى أنزل، وهذه عناية ربانية، ولقد مرض ونحن على الخروبة، وكان قد تأخر عن تل الحجل بسبب مرضه، فبلغ الفرنج ذلك فخرجوا طمعا في أن ينالوا من المسلمين شيئا بسبب مرضه، وهي نوبة النهر فخرجوا في مرحلة إلى الآبار التي تحت التل، ثم رحل العدو في اليوم التالي يطلبنا، فركب رحمه الله على مضض ورتب العساكر للحرب وجعل أولاده في القلب، ونزل هـو وراء القوم بطلبه، وكلما سار إلى العدو يطلب رأس النهر سار هو يستدير إلى وراثهم، حتى يقطع بينهم وبين خيامهم، وهو رحمه الله يسير ساعة ثم ينزل يستريح ويظلل بمنديل على رأسه من شدة وقع الشمس، ولا ينصب له خيمة حتى لايرى العدو ضعفا، ولم يزل كــللك حتى نزل العــدو برأس النهر ونزل هـو على تل قبالتهم مطـل عليهم إلى أن دخل الليل، ثـم أمر العساكر أن تعود إلى محل المصابرة وأن يبيتوا تحت السلاح، وتأخر هو إلى قمة الجبل، وضربت له خيمة لطيفة، وبات تلك الليلة أجمع أنا والطبيب نمرضه ونشاغله، وهوينام تارة ويستيقظ تارة أخرى حتى لاح الصباح، ثم ضرب البوق وركب رحمه الله، وركبت العساكر، وأحدقت بالعدو - 433 -

ورحل العدو عائدا إلى خيمه من الجانب الغربي للنهر، وضايقه المسلمون مضايقة شديدة، وفي ذلك اليوم قدّم أولاده بين يديه احتسابا: الأفضل والظاهر، والظافر، وجميع من حضره منهم، ولم يزل يبعث من عنده حتى لم يبق عنده إلا أنا وطبيب وعارض الجيش والغلمان بأيديهم الأعلام والبيارق لاغير فيظن الرائي لها عن بعد أن تحتها خلقا كثيرا، وليس تحتها إلا واحد يعد بخلق عظيم رحمه الله، وبقي في موضعه والعساكر على ظهور الخيل قبالة العدو إلى آخر النهار، ثم أمرهم أن يبيتوا على مثل ماباتوا عليه بارحتهم، وبتنا على مابتنا عليه إلى الصباح، وعاد العسكر إلى ماكان عليه بالأمس من مضايقة العدو.

قال: ولقد رأيته ليلة على صفد وهو يحاصرها، وقال: لاننام الليلة حتى ينصب لنا خمسة مجانيت، ورتب لكل منجنيق قوما يتولون نصبه وكنا طول الليل في خدمته في ألل فكاهة وأرغد عيشة والرسل تتواصل مخبرة بأنه نصب من المنجنيق الفلاني كذا، ومن الآخر كذا حتى أتى الصباح وقد فرغ منها، وكانت من أطول الليالي وأشدها برداً ومطراً.

قال : ولقد رأيته وقد جاءه خبر وفاة ولد له بالغ أو مراهق يسمى اسهاعيل، فوقف على الكتاب، ولم يعرف أحد ولم نعرف حتى سمعناه من غيره، ولم يظهر عليه شيء من ذلك سوى أنه لما قرأ الكتاب دمعت عينه رحمه الله.

قال: ولقد رأيته وقد وصله خبر وفاة تقي الدين، ونحن في مقابلة الفرنج جريدة على الرملة، وفي كل ليلة تقع الصيحة فتقلع الخيام، ويقف الناس على ظهر إلى الصباح والعدو بيازور بيننا وبينه شوط فرس لاغيرها، فأحضر العادل وابن جندر وابن المقدم وابن الداية سابق الدين، وأمر بالناس فأبعدوا عن الخيمة بحيث لم يبق حولها أحد عن غلوة سهم، ثم أظهر الكتاب ووقف عليه وبكى بكاء شديدا حتى أبكانا

من غير أن نعلم السبب، ثم قال رحمه الله والعبرة تخنقه: توفي تقيي الدين، فاشتد بكاؤه وبكاء الجهاعة، ثم عدت إلى نفسي فقلت: أستغفر الله من هذه الحالة وانظروا أين أنتم، وأعرضوا عما سواه، فقال رحمه الله: نعم أستغفر الله، وأخذ يكررها ثم قال: لا يعلم هذا أحد.

قال: وكان رحمه الله شديد الشوق والشغف بأولاده الصغار، وهو صابر على مفارقتهم راض ببعدهم عنه، وكان صابرا على مر العيش وخشونته مع القدرة التامة على غير ذلك احتسابا لله تعالى، اللهم إنه ترك ذلك كله ابتغاء لمرضاتك فارض عنه.

قال: ولقد كان رحمه الله حليها متجاوزا قليل الغضب، ولقد كنت بخدمته بمرج عيون قبل خروج الفرنج إلى عكا، يسر الله فتحها، وكان من عادته أنه يركب في وقت الركوب، ثم ينزل فيمد الطعام ويأكل مع الناس، ثم ينهض إلى خيمة خاصة له ينام فيها ثم يستيقظ من منامه ويصلى ويجلس خلوة، وأنا في خدمته يقرأ شيئا من الحديث أوشيئا من الفقه ولقد قرأ على كتابا مختصرا لسلم الرازي يشتمل على الأرباع الأربعة من الفقه، فنزل يوما على عادته ومدّ الطعام بين يديه ثم عزم على النهوض فقيل له: إن وقت الصلاة قد قرب، فعاد إلى الجلوس وقال: نصلي وننام، ثم جلس يتحدث حديث متضجر وقد أخلى المكان إلا عمن لزم، فتقدم إليه مملوك كبير محترم عنده وعرض عليه قصة لبعض المجاهدين، فقال له: أنا الآن ضجر أخرها ساعة، فلم يفعل وقدّمها إلى قريب من وجهه الكريم بيده وفتحها بحيث يقرؤها، فوقف على الاسم المكتوب في رأسها فعرفه وقال :رجل مستحـق، فقال يوقع له المولى فقال: ليست الدواة حاضرة الآن، وكان رحمه الله جالسا في باب الخركاة بحيث لايستطيع أحد الدخول إليها والدواة في صدر الخركاه والخركاة كبيرة، فقال لـ المخاطب هاهي الدواة في صدر الخركاه، قال القاضى : فليس لهذا معنى إلاأمره إياه بإحضار الدواة لاغير، فالتفت رحمه الله فرأى الدواة، فقال: والله صذق، ثم استند على يده اليسرى، ومد يده اليمنى، واحضرها، ووقع له، فقلت: قال الله تعالى في حق نبيه صلى الله عليه وسلم: (وانك لعلى خلق عظيم) (١٣٨) وماأرى المولى إلا قد شاركه في هذا الخلق، فقال: ماضرنا شيء قضينا حاجته، وحصل الثواب، قال القاضي: ولو وقعت هذه الواقعة لآحاد الناس لقام وقعد، ومن الذي يقدر أن يخاطب أحدا هو تحت حكمه بمثل ذلك، وهذا غاية الاحسان والحلم، (والله لايضيع أجر المحسنين) (١٣٩).

قال: ولقد كانت طراحته تداس عند التزاحم عليه لعرض القصص وهو لايتأثر لذلك، ولقد نفرت يوما بغلتي من الجهال وأنا راكب في خدمته، فزحمت وركه حتى آلمته وهو يتبسم، ولقد دخلت بين يديه في يوم ريح مطير إلى القدس، كثير الوحل، فنضحت البغلة عليه من الطين حتى أهلكت جميع ماكان عليه، وهو يتبسم، وأردت التأخر عنه بسبب ذلك فها تركني، ولقد كان يسمع من المستغيثين إليه والمتظلمين أغلظ ما يمكن أن يسمع ويلقى ذلك بالبشر و القبول.

ثم قال القاضي: وهذه حكاية يندر أن يسطر مثلها، فذكر ماتقدم من المتناع عسكره من الهجوم على ملك الانكلتيز، وهو في جمع يسير من اصحابه بعد أن أطافوا بهم، وواجه الجناح السلطان بذلك الكلام الخشن، فرجع السلطان مغضبا وظن أنه ربها صلب وقتل في ذلك اليوم، فنزل بيازور، وقد وصله من دمشق فاكهة كثيرة فطلب الأمراء ليأكلوا، فحضروا فرأوا من بشره وانبساطه ماأحدث لهم الطهانينة والأمن والسرور.

قال: وكمان رحمه الله كثير المروءة، ندي الوجه كثير الحياء منبسطا لمن يرد عليه من الضيوف، يكرم الوافد عليه، وإن كان كافرا، ولقد وفد عليه البرنس صاحب أنطاكية في أحس به إلا وهو واقف على باب خيمته،

بعد وقوع الصلح في شوّال عند منصرف من القدس الى دمشق، وقد تقدم ذلك وعرض له في الطريق، وطلب منه شيئا، فأعطاه العمق وهي بلاد كان أخذها منه عام فتح الساحل سنة أربع وثهانين، ولقد رأيته وقد دخل إليه صاحب صيدا فاحترمه واكرمه وأكل معه، وعرض عليه الاسلام وذكر له طرفا من محاسنه وحثه عليه، وكان يكرم من يرد عليه

من المشايخ وأربـاب العلم والفضـل وذوي الأقدار، وكـان يوصينـا لئلا نغفل عمن يجتاز بالخيم من المشايخ المعروفين ، حتى نحضرهم عنده وينالهم من احسانه، ولقد مر بنا سنة أربع وثمانين رجل جمع بين العلم والتصوف وكان من ذوي الأقدار، وكان أبوه صاحب تـوريز، فأعرض هوعن فن أبيه واشتغل بالعلم والعمل، وحبح ووصل زائرا لبيت الله المقدس، ولما قضى لبانته منه ورأى اثار السلطان فيه، وقع له زيارته فوصل إلينا إلى العسكر، فلقيته ورحبت به، وعرفت السلطان وصوله فاستحضره وشكره عن الاسلام وحثه على الخير، وانصرف وبات عندي في الخيمة ، فلما صلينا الصبح أخذ يودعني، فقبحت له المسير بدون وداع السلطان فلم يلتفت ولم يلو على ذلك وقال: قضيت حاجتي منه والأغرض لي فيها عدا رؤيته وزيارته، ثم انصرف من ساعته ومضى على ذلك ليال، فسأل السلطان عنه فأخبرته بفعله، فظهر عليه اثار العتب كيف لم اخبره برواحه، وقال: كيف يطرقنا مثل هذا الرجل وينصرف عنا من غير احسان يمسه منا، وشدد النكير عليّ في ذلك، فهاوجدت بدا من أن أكتب كتابا إلى محيي الدين قاضي دمشق، كلفته فيه السؤال عن حال الرجل، وايصال رقعة كتبتها اليه طي كتابي أخبرته فيها بانكار السلطان رواحمه من غير اجتماع به، وحسنت لمه فيها العود وكان بيني وبينه صداقة تقتضي مثل ذلك فعاد واجتمع بالسلطان، فرحب به وانبسط معه واستوحش له، وأمسكه أياما ثم خلع عليه خلعة حسنة، و أعطاه مركوبا لائقا وثيابا كثيرة ليحملها إلى أهل بيته وأتباعه وجيرانه، ونفقة يرتفق بها، وانصرف عنه وهو أشكر الناس له وأخلصهم دعاء لأيامه. قال: ولقد رأيته رحمه الله وقد مثل بين يديه أسير فرنجي ، وقد هابه بحيث ظهر عليه أمارات الخوف والجزع ، فقال له الترجمان : من أي شيء تخاف فأجرى الله على لسانه أن قال: كنت أخاف قبل أن أرى هذا الوجه، فبعد رؤيتي له وحضوري بين يديه أيقنت أني ماأرى إلا خيرا فمن عليه وأطلقه، ورق له.

قال: وكنت راكبا في خدمته في بعض الأيام قبالة الفرنج ووصل بعض اليزكية ومعه امرأة شديدة التحرق، كثيرة البكاء متواترة الدق على صدرها، فذكر قصة أم الرضيع الذي سرق وقد مضت.

قال: وكان رحمه الله لايرى الاساءة إلى من صحبه وإن أفرط في الجناية، ولقد بدل في خزانته كيسان من الذهب المصري بكيسين من الفلوس فها عمل بالنواب شيئا سوى أنه صرفهم من عملهم لاغير، وكان رحمه الله حسن العشرة لطيف الأخلاق طيب الفكاهة، حافظا لأنساب العرب ووقائعهم، عارف بسيرهم وأحوالهم ، حافظ الأنساب خيلهم، عالما بعجائب الدنيا ونوادرها، بحيث كان يستفيد محاضره منه مالايسمعه من غيره، وكان يسأل الواحد مناعن مرضه ومداواته ومطعمه ومشربه، وتقلبات أحواله ، وكان طاهر المجلس لايـذكر بين يديـه أحد إلا بالخير، وطاهر السمع فلا يحب أن يسمع عن أحد إلا بالخير، وطاهر اللسان فها رأيته أولع بشتم قط، وطاهر القلم فها كتب بقلمه أذى لمسلم قط، وكان حسن العهد والوفاء في أحضر بين يديه يتيم إلا وترحم على مخلفه، وجبر قلبه وأعطاه خبر مخلفه، إن كان له من أهله كبير يعتمد عليه وسلمه إليه، وإلا أبقى له من الخبز مايكفى حاجته، وسلمه إلى من يكفله ويعتني بتربيته، وكان مايري شيخا إلا ويرق لـه ويعطيه ويحسن إليه، ولم يزل على هذه الأخلاق إلى أن توفاه الله عز وجل إلى مقر رحمته، ومحل رضوانه

قلت: ولجعفر بن شمس الخلافة من قصيدة رثاه بها: ألسست تسرى كيسف انبرى الخطسب ثسائرا ومندين أمنه إلى دافع الخطب إلى الناصر الملك الكالاني ملتت ب قلوب البرايسامن رجساء ومسن رعسب كريم أتساه الموت ضيف افلم يكن لينزلسه إلا على السهم لوالسرحسب ولوخاب منه قبل ذلك سائل لخاب وليس البخلل من شيسم السحب قضى فقضى المعسروف وانقسرض النسدى وحطت رحال الوفد في الشرق والغرب أفاض على الدنيا سجال نوالم فغاضت عليه أعين العجم والعسرب ول وأن بيك على قدر حق و أسال دموع المزن من أعين الشهب ج\_\_\_\_ناهع\_\_\_نالاسكلام خيرا إلهه فهامسل عنده مسن دفساع ومسن ذب وكان شديدا لخوف من مقارنة الصلب أذل الله العدامدام أطاعد وسهل منهم كل ممتنع صعب سقى الخلد دعندالله دار مقره يمتمع منه بسالجوار وبسالقسرب

#### فصل

# في انقسام ممالكه بين أولاده وأخوته وبعض ماجرى بعد وفاته

قال العماد في كتاب البرق: خلف السلطان سبعة عشر ولداً.

أكبرهم الملك الأفضل نور الدين أبو الحسن علي، ومولده بمصر يوم عيد الفطر سنة خمس وستين وخمسائة، وتولى بعده دمشق إلى أن خرج منها إلى صرحد، وتولاها عمه العادل في شعبان سنة اثنتين وتسعين مضافة إلى ممالكه بالبلاد الشرقية والجزيرة وديار بكر.

ثم الملك العزيز عماد الدين أبو الفتح عثمان، ومولده بمصر ثامن من جمادى الأولى سنة سبع وستين، وتوفي بها في ملكه ليلة الاحد العشرين من محرم سنة خمس وتسعين، وتولى بعده احد اولاده الصغار.

ثم الملك الظاهر غياث الدين غازي، ومولده بمصر منتصف شهر رمضان سنة ثمان وستين، وتولى حلب واعمالها.

قال : ولقد أنشأت الرسالة الموسومة بالعتبى والعقبى فيها طرأ بعد السلطان إلى آخر سنة اثنتين وتسعين.

وقال في كتاب الفتح: تولى الملك الأفضل دمشق والساحل ومايجري مع ذلك من البلاد، وهو الذي حضر وفاة والده، وقام بسنة العزاء، وفرض الاقتداء بأبيه في إيلاء الآلاء وإدناء الاولياء، وخلع على الاماثل والامراء والافاضل والعلماء وآوى اليه اخوته، وضم جماعته، وجهز اخاه الظافر خضرا مظفر الدين وانهضه لانجاد عمه العادل، كما سنذكره، وكانت حمص والمناظر والرحبة وبعلبك ومايجري معها في المملكة

الافضلية داخله، وقدم عليه سلطاناهما الملكان المجاهد والامجد الى دمشق، فتأكدت بينهم القرابة والالفة، ولما استقر الافضل بدمشق في مقام والده قدّم الى الديوان العزيز نجابين بانهاء الحال، ثم ندب ضياء الدين بن الشهرزوري في الرسالة، واصحبه عدة والده في الغزاة وسيفه، ودرعه وحصانه، واضاف الى ذلك من الهدايا والتحف والخيل العراب ما استنفد وسعه وامكانه، في تهيأ مسير الرسول إلا في اواخر جمادى الآخرة، حتى حصل كل ما أراد من الهدايا الفاخرة، وحتى كاتب مصر وحلب واعلم بمسير رسوله، حتى لايظن انه انفرد بسوله، وقصد مداراة اخوته، وفضل بفضل نخوته، وذلك بعد ان جدّد نقش الدينار والدرهم بسمتي امير المؤمنين وولي العهد عدّة الدين.

وقال ابن القادسي: وفي يوم الشلاثاء مستهل رمضان حمل ابن الشهرزوري ماكان أصحبه الافضل من حمل الشام الى الديوان العزيز، وهو صليب الصلبوت الذي كان قد أخذه والده، وذكر أنه ذهب يزيد على العشرين رطلا مرصعا بالجواهر، ومعه خادم مختص بخدمته، وحمل فرس أبيه وزرديته وخودته وكانت صفراء مذهبة، ودبوس حديد وسيف وأربع زرديات، وقالوا هذه تركته وبها كان يقاتل، وتحفا جمة من الثياب، وحمل في جملة التحف أربع جوار من بنات ملوك الروم فيهن ابنة بارزان، وبنت صاحب جبلة.

قال العياد: وأمرني بانشاء الكتب وتحريرها، وتقريب المقاصد وتقريرها، منها: «اصدر العبد هذه الخدمة وصدره مشروح بالولاء، وقلبه معمور بالصفاء، ويده مرفوعة الى السياء للابتهال بالدعاء، ولسانه ناطق بشكر النعياء، وجنانه ثابت من المهابة والمحبة على الخوف والرجاء، وطرفه مغض من الحياء، وهو للارض مقبل، وللفرض متقبل، وهو يمت بها قدمه واسلفه من الخدمات وذخره ذخر الأقوات لهذه الأوقات، وقد أحاطت العلوم الشريفة بأن الوالد السعيد الشهيد الشديد السديد المبير

للشرك المبيد، لم يزل أيام حياته، وإلى ساعة وفاته مستقيها على جدد الجد، مستقيها في صون فريضة الجهاد إلى بدل الجهد، ومصر بل الامصار باجتهاده في الجهاد شاهده، والأنجاد والأغوار في نظره واحدة، والنيت المقدس من فتوحاته، والملك العقيم من نتائج عزماته، وهو الذي ملك ملوك الشرق وغل اعناقها، وأسر طواغيت الكفز وشد خناقها، وقمع عبدة الصلبان وقطع اصلابها، وجمع كلمة الايهان وعصم جنابها، ونظم أسبابها، وسد الثغور وسدد الأمور، وقبض وعدله مبسوط وامره محوط، ووزره محطوط، وعمله بالصلاح منوط، وماخرج من الدنيا الا وهو في حكم الطاعة الإمامية داخل، وبمتجرها الرابح الى دار المقامة راحل، ولم تكن له وصية الا بالاستمرار على جادتها والاستكثار من مادتها، وان مضى الوالد على طاعة إمامه، فالمهاليك أولاده وأخواه في مقامه».

قال: وتولى ولده الملك العزيز أبو الفتح عثمان مصر وجميع اعمالها، وأبقاها على اعتدالها، ونقاها من شوائب اختلالها واعتلالها، واحيى سنتي الجود والباس، وثبت القواعد من حسن السياسة على الاساس، واطلق كل ماكان يؤخذ من التجار وغيرهم باسم الزكاة، وضاعف ماكان يطلق برسم العفاة، وقدم أمر بيت الله المقدس وعجل له عشرة آلاف دينار مصرية لتصرف في وجوه ضرورية، ثم أمده بالحمل، وأفاض عليه من الفضل، وقرر واليه عز الدين جرديك على ولايته، وأقوى يده برعايته، ووالى حمل الغلات من مصر إلى القدس، وابدل وحشته بوفاة السلطان من وفائه بالانس، ثم أشفق من غدر الفرنج في فسخ الهدنة، فأتى من عهيز العساكر الى البيت المقدس بكل ما في المكنة، ثم سمع بحركة المواصلة ومن تابعهم، وبايعهم وشايعهم، وقد خرجوا في ايهانهم حانثين، فخيم ببركة الجب واستشار امراءه أهل الرأي واللب، وجهز حانثين، فخيم ببركة الجب واستشار امراءه أهل الرأي واللب، وجهز حيشا فوصلوا إلى دمشق وقد فرغ العادل من حرب القوم وسلمهم، وهز منهم أعطاف الاستكانة له بعد هزمهم، فرأى ان الحمد اعود.

قال : وتولى حلب وأعيالها وحصونها ومعاقلها وكرائم البلاد وعقائلها الملك الظاهر غازي، وهو برجاحته وسهاحته الطود والجود الموازن الموازي، وملك مملكة أقطارها واسعة، وأمصارها شاسعة، فحاها وحواها، وبهاء العدل رواها وقواها، وأقر البيرة وأعها لهاوما يجري معها على أخيه الملك الزاهر مجير الدين داود، ودخل في امره صاحب حماه ابن تقي الدين فأعزه وحماه.

قلت :وهو مأوى ذرية والده، وبقي الملك منهم في عقبه، وانحاز كل من أخوته وأولادهم إليه، وعوّلوا في تمشية أمورهم عليه، والأمر مستمر على ذلك في عقبه إلى الآن، والله تعالى ولي الاحسان.

ثم زال ملك هـذا البيت في صفـر سنة ثمان وخمسين وستمائة بسبب غلبة التتار الكفرة على البلاد، والله بصير بالعباد.

ومن كلام القاضي الفاضل في جواب ورد عليه منه بعد موت السلطان: «متى رأى المملوك خط مولانا طالعا في كتاب، وطليعة على خطاب، تمثل ذلك الشخص الكريم، وذلك السلطان العظيم، وذلك الخلق الكريم، وذلك العهد القديم، فحيي بعد موته، وسبح من (يحيي العظام وهي رميم) (١٤٠) ، ورفع يده بها الله رافعه، ودعا بصالح الله سامعه».

قال العهاد: وكان الملك العادل مع السلطان في الصيد قبل وفاته، وكان موافقه ومرافقه في مقتضياته، فلما عاد السلطان إلى دمشق ودّعه ومضى إلى حصنه بالكرك، فنابه النائب، ولم يحضر وقت احتضاره الاخ الغائب، فلما عرف وصل الى دمشق بعد أيام، ولم يطل المقام ورحل طالبا لبلاده بالجزيرة، حذراعليها من أهل الجريرة، وكان السلطان جعل له كل ماهو شرقى الفرات من البلاد والولايات، فلما وصل إلى الفرات

وجد مماخاف دلائل الفترات، فأقام بقلعة جعبر، وسير إلى الولايات الولاة، ووصى برعاياه الرعاة، واستناب في مياف ارقين وحاني وسميساط وحرّان والرّها، وشحنها بالشحن وعلم العدا انه في خف، فخفوا وعرضوا وصفوا، وكان سيف الدين بكتمر صاحب خلاط قد استبشر بموت السلطان، وتلقب بالملك الناصر، وحدّث أمله بجر العساكر، وراسل صاحبي الموصل وسنجار، وطير إليهم كتب الاستنفار، وضم إليه من ماردين ماردين، وطار وطاش، وارتاش وانتاش، فبينا هو في أثناء ذلك قتلته الاسماعيلية بخلاط رابع عشر جمادى الأولى سنة تسع وثمانين، وأوّل من بدا أمره بالخروج على بلاد السلطان متولى ماردين، ونزل على حصن الموزر، وهذا الحصن كان السلطان اقتطعه عن أعمال ماردين حين صالح أهلها، وأضافه إلى نائبه بالرها، ثم تحرك عز الدين أتابك صاحب الموصل وأخوه عماد المدين زنكى صاحب نصيبين، وأرسلوا إلى العادل: تخرج من بـ لادنا أو تـ دخل في مرادنا، فكتب إلى بنـي أخيه يستنجـ دهم ويستنفرهم فـأنجـدوه، وكـان إنجاد حلـب أقـرب، وتقـدّم ذكر نجـدةً الأفضل مع أخيه الظاهر، ونجدة العزيز الواصلة إلى دمشق بعد نجاز الأمر، ووصلت المواصلة الى رأس عين ، والعادل بحران، وتقارب العسكران حتى ان الطلائع تتواجه وتتجابه، فمرض صاحب الموصل ولم يطق الاقامة، فغادر ورجع عهاد الدين أخوه، وتضرع صاحب ماردين، وتشفع الأمراء الأكابر فرضي العادل عنه وبلغه قدوم ابن أخيه الظافر إلى الفرات، فكتب إليه بمنازلة سروج وهي من أعمال ماردين، وأمدّه بابن تقى الدين، وابن المقدّم، فنزلوا عليها ثامن رجب وفتحوها تاسعه، ورحل العادل منتصف رجب إلى الرّقة وتسلمها، ثم تملك بلد الخابور جميعه، وجاء الى نصيبين فنزل بظاهرها، وشرع في ضم ذخائرها، فجاءت الرّسل العمادية في طلب الصلح، فرحل ونزل دارا، وأتاه خبر وفاة صاحب الموصل وتسليم بلده إلى ولده نور الدين أرسلان شاه، وجرى بينهم وبينه صلح، ثم كاتبه أهل خلاط، فرحل إليها فرأى أن البرد يشتد وأمد الحصار يمتد، فعاد إلى حران والرها، وأعرض عن مخالطة خلاط، وتأخر إلى الربيع أمرها.

قال: واقليم اليمن مستقر للملك ظهير الدين سيف الاسلام طغتكين ابن أيوب أخي السلطان، وهو هناك سلطان عظيم الشان، مستول على جميع البلدان، وكان قدوصل ولده مع الحاج قبل وفاة السلطان بأيام، فلما استقر الملك الأفضل على سرير أبيه كاتب عمه سيف الاسلام.

#### فصل

## في وفاة صاحب الموصل وتتمة أخبار هذه الفتنة ببلاد الشرق

قال عن الدين أبو الحسن على بن الأثير: لما وصل خبر وفاة صلاح الدين إلى صاحب الموصل عز الدين استشار في الذي يفعله، فأشار عليه أخي مجد الدين أبو السعادات بالاسراع في الحركة، وقصد البلاد الجزرية فإنها لامانع لهامنه. وقال مجاهد الدين قايهاز: ليس هذا برأي فإنا نترك وراءنا مشل المولى عهاد الدين صاحب سنجار، ومعز الدين صاحب الجزيرة، ومظفر الدين صاحب إربل ونسير، وانها الرأي أنا نراسلهم ونستميلهم ونـأخذ برأيهم وننظـرمايقولــون. فقال أخى: إن كنتــم تفعلون مايشيرون به ويرونه فاقعدوا فانهم لايرون إلا هذا لأنهم لأيؤثرون حركتكم ولا قوتكم، انها الرأي ان يبرز هذا السلطان ويكاتبهم ويراسلهم، ويستميلهم ويبذل لهم اليمين على مابأيديهم، ويعلمهم انه على الحركمة، فليس فيهم من يمكنه أن يخالف خوفا من قصد ولأيته لاسيها اذا رأوا جده وخلو البلاد الجزرية من مانع وحام، فهم لايشكون انه يملكها سريعا فيحملهم ذلك على موافقته، ومتى أراد الانسان أن يفعل فعلا لا تتطرق إليه الاحتالات بطلت أفعاله، انها اذا كانت المصلحة أكثر من المضرة أقدم، وإن كان العكس أحجم، فظهرت أمارات الغيظ على مجاهد الدين، فسكت أحي لأنه هو كان مخدوم الجميع على الحقيقة، والحاكم فيهم، واتبع المرحوم-يعني صاحب الموصل - قول مجاهد الدين، وأقام بالموصل عدّة شهور يراسل المذكورين فلم ينتظم بينه وبين أحد منهم حال، غير أخيه عماد الدين فإنها اتفقا على قواعد استقرت بينها، فإلى أن انفصل الحال وصل الملك العادل أبوبكر بن أيوب من الشام إلى حران وأقام هناك، وجاءته العساكر من دمشق وحمص وحماه وحلب، وامتنعت البلاد به، وسار عز الدين عن الموصل إلى نصيبين وقد ابتدأ به اسهال بنزيف، واجتمع فيها بأخيه عهاد الدين، وسارا في عساكرهما إلى تل موزن من شبختان لقصد الرها، فأرسل العادل حينئذ يطلب الصلح، وأن تكون البلاد الجزرية؛ الرها، وحران، والرقة وما معها بيده على سبيل الاقطاع من عز الدين، فلم يجبه إلى ذلك وقوي المرض به واشتد إلى أن عجز عن الحركة، فعاد إلى الموصل في طائفة يسيرة من العسكر، فلما وصل دنيسر رأى ضعفا شديداً فأحضر أخي، وكتب وصية، ثم سار إلى الموصل فوصلها مريضا بالاسهال، وبقي كذلك إلى أن توفي في السابع والعشرين من شعبان سنة تسع وثمانين وخمسمائة.

قال: ولم أسمع عن أحد من الناس بمثل حاله في مرضه، فإنه كان لايزال ذاكراً الله تعالى حتى أنه كان إذا تحدث مع إنسان يقطع حديثه مراراً، ويقول أشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له، لـ الملك ولـ ه الحمد يحيي ويميت، وهو حي لايموت، بيده الخير، وهو على كل شيء قدير، وأشهد أن محمدا صلى الله عليه وسلم عبده ورسوله، وأشهد أن الموت حق، وعداب القبر حق، وسؤال منكر ونكير حق، والصراط حق، والميزان حق، وأن الساعة آتية لاريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور، ويقول لمن عنده يخاطبه: إشهد لي بهذا عند الله تعالى، ثم يعود إلى حديثه، وأحضر عنده من يقرأ القرآن، فلم يزل كذلك إلى أن توفي رحمه الله ودفن بالمدرسة التي أنشأها بباطن الموصل، مقابل دار المملكة، وهي للفريقين الشافعية والحنفية، وكانت مملكته نحو ثلاث عشرة سنة وستة اشهر، وكان أسمر مليح الوجه حسن اللحية،خفيف العارضين، وحكى لى والدى قال: هو أشبه الناس بجده الشهيد قدس الله روحه، قال: وكان رحمه الله ديِّناً خيراً قد ابتنى في داره مسجدا يخرج إليه في الليل، ويصلى فيه أوراداً كانت له، ويلبس فرجية كان قد اخذها من الشيخ عمر النسائي الصوفي، ويصلي فيها، وكان قد حج ولبس بمكة حرسها الله خرقة التصوف من الشيخ عمر النسائي المذكور، وكان من الصالحين، وأوصى بالملك لابنه نور الدين أرسلان شاه، وأراد اخوه شرف الدين بن مودود بن زنكي أن يوليه فلم يفعل، وبقي نور الدين إلى سنة سبع وستائة، فتوفي في شهر رجب منها، ودفن بالملارسة التي أنشأها بباطن الموصل حذاء دار السلطنة، وكان عهد بالملك لابنه القاهر عز الدين مسعود، وجعل الامير بدر الدين لؤلؤا القائم بأمر دولته، وولاه إمارة الجيوش والعساكر، وسياسة القبائل والعشائر، شم توفي الملك القاهر في ربيع الاول من سنة خمس عشرة وستائة فجأة وخلف ثلاثة بنين صغارا.

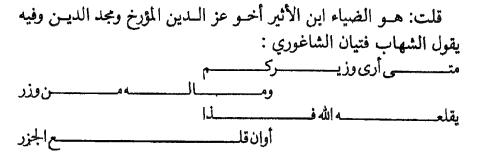
قال: وأما عهاد الدين زنكي بن مودود بن زنكي، صهر نور الدين رحه الله، وهو صاحب سنجار، فإنه توفي في المحرم سنة أربع وتسعين، وكانت ولايته ثلاثين سنة، وكان عدله قد عم البلاد، وغمر العباد، وأريقت الخمور وحد شاربها، وكانت صدقاته تصل إلى أقاصي البلاد، وتولى بعده ولده الأكبر قطب الدين محمد بن زنكي، وكان متولي أمره مجاهد الدين يرنقش العهادي.

قال: وحاصر الملك العادل أبو بكر بن أيوب ماردين في سنة خمس وتسعين، فبقي محاصراً لها أحد عشر شهراً، ولم يبق إلا الاستيلاء عليها، فبينا العادل محاصرها إذ توفي ابن أخيه الملك العزيز صاحب مصر، وكان عسكره مع عمه العادل على ماردين، فلما توفي ملك أخوه الأفضل مصر، وكان بينه وبين عمه العادل نفرة، فلما ملك مصر أرسل إلى العسكر المصري الذي مع عمه يأمرهم بمفارقته، ففارقوه، وعادوا إلى مصر فقل جمعه وعسكره، ثم خرج الأفضل عن مصر عازما على حصر دمشق واستعادتها من عمه، فسار العادل عن ماردين جريدة إلى دمشق ليحفظها بعدما كان قد طلع سنجقه إلى قلعة ماردين، وترك ولده الملك الكامل محمداً محاصراً لها إلى أن اجتمع صاحب سنجار، وصاحب الموصل على ترحيله عنها، فرحل.

قال: وفي سنة ست وستهائة سار الملك العادل بن أيوب من الشام إلى سنجار في العساكر الشامية والمصرية، والجزرية والدياربكرية، فحصرها ونزل عليها من كل جانب، ونصب أحد عشر منجنيقا ثلاثة أشهر، وانتخى صاحب الموصل وصاحب إربل لصاحب سنجار، وأنفذ الخليفة رسله فأصلح الأمر، وإنتظم الصلح ولله الحمد.

#### فصل

وأما رسالة العهاد: الكاتب المعروف قبالعتبى والعقبى التي أشار إليها في آخر كتاب البرق، فيها جرى بعد وفاة السلطان إلى سنة اثنتين وتسعين، فقد وقفت عليها، وحاصل مافيها أن قال: لما توفي السلطان رحمه الله، وملكت أولاده كان العزيز بمصر يقرّب أصحاب أبيه، ويكرمهم، والأفضل بدمشق يفعل ضد ذلك يقرّب الأجانب ويبعد الاقارب، وأشار عليه بذلك جماعة داروا حوله كالوزيرالجزري الذي استوزره.



قال العهاد: لما طلب من الأمراء أن يحلفوا له ، أظهروا له أيهاناً وهم قد أضمروا الحنث فيها ، ولم يخف ذلك عليه ، ولما رأى الفاضل أمور الأفضل مختلة، تركه وسار إلى مصر ، وشرع الوزير الجزري في تفريق العصبة الناصرية، وما منهم إلا من فارق إلى الديار المصرية ، وكان قد أشير على الأفضل بإخلاء البيت المقدس لنواب العزيز بأعهاله، حدراً من تكاليفه وأثقاله، فأجاب إلى ذلك، وقد كانت نابلس وأعها قد وقف السلطان ثلثها على مصالح القدس، وباقيها على ابن الأمير علي ابن أحمد المشطوب فشاركه أحد الأمراء الأكراد فيه، فمدوا أيديهم إلى الوقف، وساءت سيرتهم وتخوفوا من إنكار الملك العزيز عليهم، فلجأوا إلى الأفضل، فأفضل عليهم وسكن إليهم، فتأثر الملك العزيز بذلك، وأقوى الأسباب فيها حدث من النفار، نفار الأمراء الناصرية الكبار، ومفارقتهم دمشق إلى مصر على سبيل الإضطراب والإضطرار، فأعزهم ومفارقتهم دمشق إلى مصر على سبيل الإضطراب والإضطرار، فأعزهم

العزيز، ورفعهم فاتفقوا على أن تكون كلمة الإسلام مجتمعة على الملك العزيز لإحياء سنة والده في الجود والبأس والكرم، ومن جملة الأسباب الباعثة تسلم الفرنج ثغر جبيل من بعض مستحفظيه، وضعف الأفضل عن استخلاصه، فقيل للعزيز: إن توانيت استولت الفرنج على البلاد، فخرج العزيز بعساكره، وبلغ الأفضل فضاق صدره، واجتمع بمن في خدمته من الأمراء برأس المآء، وأراد أن يستعطف قايهاز النجمي وكان في اقطاعه بالسواد، وكان بينه وبين الأفضل شقاق وعناد، فأرسل إليه فلم يقبل ورحل إلى عسكر العزيز، ورأى الأفضل أن يكتب إلى أُخيه بكل ما يحب من إعلاء كلمته والإجتماع عليه، ويكون الأفضل من بعض القائمين بين يديه، طلباً لتسكين الفتن، ورغبة في ذهاب الاحن، فأشير عليه بغير الصواب ، وقيل أنت الكبير وإليك التدبير، فجد واجتهد ولايعلم أصحابك بهذا الخور المذي داخلك، والجبن الذي نازلك، ونحن بين يديك، وكلنا عاقدون بالخناصر عليك، ووصل رسول الملك الظاهر والكتب من الملوك الأكابر بالانجاد المتظاهر للأفضل، وسير الأفضل إلى عمه العادل وهـو بحران والـرها كتبـاً ورسلاً، لما أبطـاً عليه مسير عز الدين عثمان الزنجيلي على نجيب ليسرع ويأتي به عن قريب، وكتبه واصلة بعزمه على نصره ونجدته، وذلك أواثل جمادى الآخرة من شهور سنة تسعين، ولم يشعر الأفضل إلا والعزيز بعساكره قد وصلوا إلى الفوار، فعجل الرحيل وقد خالطت عساكر العزيز ساقه جيش الأفضل، فأسرع ودخل دمشق يوم الجمعة خامس جمادى، ونزل العزيز يوم السبت بالكسوة، ونزل على دمشق يـوم الأحد، فلم يزل الأفضل يهانع ويدافع حتى وصل عمه العادل، فكتب إلى العزيز يسأله الإجتماع فتواعداً واجتمعا راكبين بصحراء المزة، فعذل في أخيه، واستنزله عما كانُّ فيه، فقال: على رضاك واتباع هواك، وقال: نفس عن البلد الخناق، وكان قد بلي البلد منهم بهالا يطاق، من قطع الأنهار، وقطف الثهار، فتأخر العزيز إلى صوب داريا، والأعوج، وكان قد اجتمع عند الأفضل من الملوك: عمه العادل، والمجاهد أسد الدين شيركوه بن ناصر الدين محمد ابن شيركوه صاحب حمص، والأمجد مجد الدين بهرام شاه بن فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب صاحب بعلبك، والمنصور ناصر الدين محمد بن تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب صاحب حماه، ثم وصل الملك الظاهر غياث الدين ابن السلطان، فاتفقوا على عقد يؤكد، وعهد يمهد، ورحل العزيز إلى مرج الصفر لكون المقام به أرفق، فمرض حتى أيس منه، ثم أفاق وأرسل من جانبه الأمير فخر الدين جركس، واعتمد عليه في هذه النوبة، فوصل إلى العادل في تعديل الأمور، فتقرر بينهم الصلح، وتـزوج العزيـز ابنة عمـه العادل، وخـرج الملوك لتـوديع الملـك العزيز في أول شعبان واحداً بعد واحد، فخرج الظاهـ وأولاً، والتقيا ونزلا بمرج الصفر، وبات عنده ليلة، ثم رجع وخرج العادل، ثم الأفضل، فلما اجتمع بأخيه فارقه وما ثـوى، ورجع كـل إلى بلده، ولما استقـر الأفضل بدمشق قضى حقوق الجهاعة وشكرهم، ورحل الظاهر صوب حلب رابع عشر شعبان، وأقام العادل إلى تاسع شهر رمضان، ورحل إلى بلده الرها وحران، ثم إن الأفضل نظم أبياتاً يكتبها إلى أخيه العزيز في استعطافه واستهالته، وقال: كنت فارقت أخى مذ تسع سنين، وما التقينا إلا في هذه السنة فقلت:

نظرت كنظرة من بعد تسع تقضت بالتفرق من سنين تقضد وغض الدهر عنها طرف غدر مسافة قدرب عين من سنين مسافة قدرب عين من جبين وعداد إلى سجيت ه فاجرى بفرقتنا العيون من العيون فريح الدهر لم يسمح بوصل فريح الدهر لم يسمح بوصل يعدو بين يعدو بين يعقب بين في الماج في ال

ولايبدي جيوش القرب حتى يسرت بيدي جيدش بعد في الكمين ولايد دي محلي مناك الا ولايد دي محلي مناك الا إذا دارت رحدى الحرب السزيدون فليت الدهر يسمح لي باخرى وليسم وليسم المناح وليسم المناك وليسو أمضى بها حكم المناك ون

قال: ثم كثر الشر ممن حول الأفضل في حق الأمراء الكبار ذوي الأقدار، فأنفوا من ذلك، وازمعوا على الإنفصال لسوء تلك الحال، فممن سار إلى مصر عز الدين سامة، وحرض العزيز على القيام لنصرة الدولة الناصرية، وعرفه أن أخاه الأفضل مسلوب الإختيار، مع من حوله من الأشرار، وممن سار إلى مصر القاضي محيي الدين محمد بن أبي عصرون، وتولى بعد أشهر قضاء القضاة بمصر وأعالها، وذلك سنة إحدى وتسعين فاستمرت ولايته إلى أن عاد العزيز من الشام، وتبعه العادل فصرفه وأعاد القضاء إلى زين الدين على بن شرف الدين يوسف الدمشقي، وكان نائباً لصدر الدين عبد الملك بن عيسى بن درباس، ثم استقل ثم عزل بابن أبي عصرون ثم أعيد إليه، وكان الأفضل قد اشتغل بعد انصراف أخيه باللذات، وتشاغل عن أمور الناس بإدمان الشراب، مع من حوله من الأصحاب، ثم أقلع عن ذلك وتاب وجد في الذكر وظهرت حقيقته، وذلك في أوائل سنة إحدى وتسعين.

وفي هذه السنة في ربيع الآخر وصل الخبر بأن العزيز قادم يحصر دمشق مرة ثانية، فاشتد غم الأفضل، فأشير عليه بأن يرحل إلى عمه العادل، ويأتى به لدفع هذا القضاء النازل، فرحل رابع عشر جمادى الأولى والتقى بعمه بصفين، وطلب منه الرجوع معه إلى دمشق ففعل، ووصل العادل إليها تاسع جمادى الآخرة، وتخلف عنه الأفضل، وقصد

حلب للاستظهار بأخيه الظاهر، فوثق معه الإيان على ما كان عليه من الصفا، وكذلك فعل بابن تقي الدين بحماه، ووصل إلى دمشق واجتمع مع عمه العادل، وكان العادل أبداً يشير بصرف الوزير الجزري، وكان قد استولى على الأفضل، فلم يقبل، فكان العادل أبداً مغتماً لذلك، فبالغ الأفضل في إكرام عمه، وإزالة غمه حتى ترك له سنجقه وصار يركب في خدمة عمه، وضاق أخوه الظافر من هذه الحال، وكان الظاهر قد نفر عليه جماعة من الملوك والأمراء ممن هم في طاعته من جملتهم صاحب عليه وكان من جماعتهم بدر الدين بن المقدّم صاحب بارين، فراسلا العادل في الاعتصام به، وكان من جماعتهم بدر الدين دلدرم بن بهاء الدولة بن ياروق صاحب تل باشر فاعتقله الظاهر وبني عمه، وطلب منه تسليم حصنه، فشفع العادل فيهم، وكفل أنه يكفهم ويكفيهم، واستصحبهم إلى دمشق فطلب منه الظاهر الوفاء بضمانه فتعذر عليه ردهم، وتيسر له ودهم، فطلب منه الظاهر الدلك وراسل العزيز يحثه على الإسراع في القدوم فأقبل العزيز وخيم بالفوّار.

وشرع العادل في تدبير أمور الأفضل، فكاتب الأمراء الأسدية من أصحاب العزيز يحثهم على تركه، والانقطاع إلى حزب الأفضل وسلكه، وكانت الأسدية أبداً في عناء من تقدّم الناصرية عليها، وراسل العادل أيضاً العزيز يخوفه من قبل الأسدية، ويعرفه ماانطوت عليه قلوبهم من الغل، فكانوا إذا لقيهم عرفوا في وجهه التغير عليهم فرغبوا عنه وحسنوا للأكراد مرافقتهم في الإنصراف عنه، ففعلوا، وكان أمير أمراء الأكراد أبو الهيجاء السمين، فدارت الأكراد حوله وقالوا: لانأمن عليك من الناصرية فأبرمواأمرهم، وعجلوا رحيلهم، فرحل أبو الهيجاء والمهرانية والأسدية عشية الإثنين رابع شوّال، وكانوا أكثر العسكر، واعلم العزيز بهم فها بالى بانصرافهم، وقال: صفونا من أكدارهم ولم يأمر أصحابه باتباعهم وردّهم ، وبقي في خواصه مقيهاً تلك الليلة، ثم رحل عائداً إلى مصر فجاء رسول أبي الهيجاء السمين إلى العادل يعلمه برحيل العزيز العريز العرير الع

خائفاً، ويأمره بالقدوم ليلحقوه ويأخذوه ويتسلموا ملك الديار المصرية، فتحالف العادل الثلث فتحالف العادل الثلث وللأفضل الثلثان.

وخرجا يوم الأربعاء في الجيوش واستناب الأفضل بدمشق أخاه الأصغر قطب الدين موسى، وأما العزيز فإنه سار وأخذ طريق اللجون والرملة وفرق من الأسدية الذين بالقاهرة أن يفعلوا فعل إخوانهم فيمنعوه من دخول البلد، وكان مقدّمهم الأمير بهاء الدين قراقوش وهو أكبر الأمراء الأسدية قد استنابه العزيز بالديار المصرية فهو مقيم على الصفاء، والمودّة والاخاء، فلما وصل العزيز تلقوه، وإلى ذروة سلطنته رقوه، وأما العادل والأفضل فاجتمعا بالمتخلفين عن العزيز وحرصت الأسدية أن يسبقوا العزيز فلم يقدروا، واجتهدوا أن يدركوه ويتقدّموا فتأخروا فأمرهم العادل بالثبات، وتسلم القدس وأعماله وما يجاوره من أعمال الساحل أبو الهيجاء السمين بأمر الأفضل والعادل فرتب فيها نوابه، وأسكنها أصحابه، وصحبهم إلى الديار المصرية لمحالفة الأسدية ومخالفة الناصرية، فنزل بهم العادل على بلبيس، وكان أوان أخذ زيادة النيل في الإنتهاء والسعر غيال، وظهرت ندامة الأسدية، وضعفت معونتهم، وضوعفت مؤونتهم، فخاف من مكرهم والعدول إلى مستقرهم، فأرسل إلى القاضى الفاضل يستوفده للإستزاره، ويسترشده بالإستشارة، فألزمه العزيز بإجابة سؤاله فخرج إليه واستبشر الناس بخروجه رجاء الصلح، وركب العادل وتلقاه على فراسخ واجتمعا وأصلحا الأمور على ما يحب الفريقان، وعفا العزيز عن الأسدية، وأقام العادل عند العزيز وأما الأفضل فإن العزيز خرج إليه وودّعه فانصرف، ومعه أبو الهيجاء السمين وتولى القدس، ووصل الأفضل إلى دمشق غرة المحرم سنة إثنتين وتسعين.

ثم إن الأفضل لازم صيامه وقيامه، وقلل شرابه وطعامه، وحسن شعاره، واستوى ليله ونهاره، ووزيره الجزري قد بلي الناس منه ببلايا،

وهو في غفلة عن تلـك القضايا، وكان يدخل إليه ويـوهمه من قبل أقوام أنهم عليه، وأنهم يميلون إلى أخيه فيصدّقه الأفضل فيها يدعيه، فصار يبلغ العادل عنه أحوال ما تعجبه بل تغضبه، وصار يتصل به كل من هاجر من الشام إلى مصر، وما منهم إلا من يشكو من الوزير الجزري، وكان قايهاز النجمي قد لصق بالعادل، وكذلك عز الدين سامة، وصاهر العادل وظاهره، وكان العادل بمصر، مستوطنا للقصر، فوعد الجماعة بإزالة يد الوزير الجزري ورده إلى بلاده، وقرر مع العزيز، تسيير عسكره معه إلى الشام ليمهد له قاعدة الملك في سائر بلاد الإسلام، فاخرج العساكر إلى بركة الجب، وخرج العزيز لتشييعه وذلك مستهل ربيع الأوّل، ووصل الملك الزاهر مجير الدين داود من حلب إلى أخيه العنزيز من جانب الظاهر لتسكين هذا الرهج الثائر، ومعه سابق الدين عثمان صاحب شيزر، والقاضى بهاء الديس بن شدّاد، ثم إن العادل أشار على العزيز بأن يوافقه على المسير ويرافقه فيه، فرآه عين التدبير، فسارا بالعساكر نحو الشام، ولما انصرفت رسل الظاهر من مصر بها طلبوا مروا بدمشق، فأعلموا الملك الأفضل بها أبرم من الأمر، فضاق صدره، وطال فكره، واستشار أصحابه فأشار عليه شيوخ الدولة بأن يستقبل أخاه وعمه، ويسلم لها حكمه وأشار الجزري وأصحابه بالتصميم على المخالفة، وترك المجاملة والملاطفة، ثم دخل عليه أخوه الملك الظافر خضر فشجعه وصبره، وتولى أسباب التحصير، وحلفوا الأمراء والمقدّمين، وقطعوا ما فوق المصلى عند مسجد فلوس بفصيل، ورتبوا رجالا حوالي البلد يتناوبون لحفظه في البكرة والأصيل، وتفرّق الأمراء على الأسوار والأبراج، وجاءت الرسل الظاهرية لإظهار المظاهرة، وندب الأفضل فلك الدين أخا العادل إليه منه رسولا، فوصل إلى العسكر العزيزي بالداروم وغزة، ولقي عند العزيز من قوله العزة، فبقي فلك الدين هناك أيــاماً في إصـــلاح ذّات البين، ولاشك أنهم اشترطــوا على الأفضل شروطــاً ورد وه بها وأقاموا ينتظرون الجواب، فنفذ من ذكر أن الأفضل أبي ذلك،

فلما رأى الأكابر وشيوخ الدولة أن الأفضل لايسمع من رأيهم، وأنه عازم على المحاربة، ولا يعدل عن رأي وزيره، مع ما قد عرفه من شؤم تدبيره، شرعوا في إصلاح أمورهم في الباطن، فراسلوا العزيز والعادل واستظهر كل لنفسه، وأقام العسكر مـ عاشر رجب على البلذ مستظهراً بالعدد والعدد، لا يحدث حدثاً، ولا يعبث بالبلد إلا عبثاً، فكتب الأولياء من البلد إلى العزيز والعادل بانتهاز الفرصة، فركبوا وتأهبوا يـوم الأربعاء السادس والعشرين من رجب، فما صدهم عن قصد البلد أحد، وما كان في طريقهم إلا الملك الظافر ومعه عسكر حلب، فقاتل على ظن قتال الجاعة، وما عنده علم بها دبروه من المخامرة، فحادوا ولم يكترثوا، ووصل العزيز إلى الميدان الأخضر، ووصل العادل إلى باب تـوما وكـان الأمير الأمين بم قداستنهضه إليه بكتبه، ففتحه له فدخل العادل وأصحابه من باب توما والباب الشرقي، وبات العادل في الدار الأسدية، ودخل العزيز من باب الفرج، وبات في دار عمته الحسامية، وخرج إليه الأفضل ولقيه، وتجرع من هم زوال ملكه ما سقيه، فلما ملك العزيز دمشق أقام أياماً بالميدان الأخضر الكبير إلى أن انتقل الأفضل من القلعة بأهله وأصحابه، وأخرج وزيره الجزري مخفياً في صناديقه، إشفاقاً عليه من قتله وتحريقه، وتحوّل الأفضل تلك الأيام إلى مسجد خاتون وما يجاوره ومعمه وزيره فهرب ليلا إلى بالده وقد ادّخر فيها أموال دمشق وأعمالها ثلاث سنين.

قال وكان العزيز قرّر مع العادل أن يقيم العزيز بدمشق ويستنيب العادل بمصر، فلما ملك دمشق ندم على ماقرره، ورجع عما دبره، ونفذ إلى أخيه الأفضل في السر يعتذر إليه، ويشير بها كان اشترط عليه، فأظهر الأفضل هذا السر لصحبه، والمخصوصين بقربه، فقالوا لا تنخدع بهذا القول فربها كانت خديعة، وأطلع عمك العادل على هذا السر فإنه يرى ذلك عين البر، فأرسل إلى العادل من أعلمه بذلك فعزت عليه مراسلة العزيز الأفضل واجتمع بالعزيز وعتبه ، وقرعه بها أنبىء به وأنبه، وقال العزيز الأفضل واجتمع بالعزيز وعتبه ، وقرعه بها أنبىء به وأنبه، وقال

له: أبني وتهدم، وأوجد مصالحك وتعدم، فأنكر الحال وأحالها وانتقض الأمر قبل إبرامه، ووجه إلى الأفضل من أزعجه، وإلى صرخد أخرجه، وسد طريق الاستنصار على أخيه الطافر حتى أسلم في تسليم بصرى للظفر بسلامته، وبـذلها ولم يتبعها بنـدامتـه، ورحل إلى حلـب وأظهـر الظاهم الاحتفال به، وأما الأفضل فإنه سار إلى قلعة صرخمد وسكنها، وحوّل أهله وأخاه قطب المدين إليها وتوطنها، وعند خروج الأفضل من قلعة دمشق دخل العزيز إليها يوم الأربعاء رابع شعبان، وجلس يـوم الجمعة في دار العدل، واعتقد الناس أنه يطول مقامه عندهم، فلم يشعروا به إلا وقد برّز للرحيل، وتقدم إلى العادل بأن يتولى البلاد وفارق دمشق عشية الإثنين تاسع الشهر، ونزل بالمخيم فوق مسجد القدم، ثم تحوّل إلى الكسوة وودّعه بها يـوم السبت رابع عشر الشهـر، فلما عـاد العادل من وداع العزيز قرىء بالجامع منشوره العزيزي بالبلاد والأعمال والنظر في جميع الأحوال، وتشاع أنه نائب العزيز، وهو سلطانه، وأبقى الخطبة باسم العزيز خالية من اسمه ، حالية برسمه، وضرب الدينار والدرهم على سكته وأظهر أنه قوي بشوكته وشكته، وجلس يومي الإثنين والخميس للعدل، وبسط يده لجمع الأموال وخزنها، لوقت عموم الحاجة إلى صرفها.

## فصل

هذا آخر ما انطوت عليه «رسالة العتبى من أخبار ما جرى بعد موت السلطان رحمه الله»، وللعهاد أيضاً كتاب آخر سهاه « بنحلة الرحلة » ذكر فيه أيضاً نحواً من ذلك وهو أن الأحوال اختلت وتغيرت بعد موت السلطان، وأراد العماد الرحلة إلى مصر، فأصحب الأفضل رسالة إلى أخيه العزيز فمضى إليه وعنده عمه العادل، فلم يتمكن من الرجوع إلا معها لما خرجا بالعساكر فذكر الحديث في أخذ البلد، قال: وخرج الملك الأفضل واجتمع بالعزيز في الميدان، ودخلا من باب الفرج متصاحبين إلى الضريح الناصري، وصعد العزيز القلعة يسوم الأربعاء وصلى هذه الجمعة عند ضريح والده في هيئة المودع، وأظهر بالبكاء والنحيب عنده سر القلب الموجع، ودخل دار الأمير سامة في جوار تلك القبة، وأمر القاضي محيي الدين بن الزكي بأن يبنيها مدرسة للتربة، قلت هي المدرسة المعروفة بالعزيزية، ووقفها قرية عظيمة تعرف بمحجه، فهذا قدر ما في كتاب النحلة مما يتعلق بها نحن فيه، ولم يكن ذكر مثل هـذا من شرط كتابنا هذا، لأنه موضوع للدولتين النيرتين إلا أنه لا بدّ من ذكر ما يتعلق بهما مما وقع فيهما وعقبيهما، وتبعنا العماد فيما ذكر في العتبى لكونه أشار إليها في كتاب البرق، واستوفينا ما في كتاب البرق، والفتح القدسي، والتاريخ الأتابكي، وكتاب القاضي أبي المحاسن وأتينا على ما فيها من المحاسن، وانضاف إلى ذلك قطعة كبيرة من مواضع متفرقة كثيرة من عدة مصنفات، ودواوين ومراسلات، والله تعالى يوفق ملوكنا للاقتداء بسيرة سلفنا، في إقامة فرض الجهاد، وتخليص البلاد من أيدي الكفرة، والنظر في مصالح العباد، ومن كتاب فاضلي: « أما هذا البيت فإن الآباء منه اتفقوا فملكوا، وإن الأبناء منهم اختلفوا فهلكوا، وإذا غرب نجم فها الحيلة في تشريقه وإذا بدا تخريق ثوب فهايليه إلا تمزيقه، وهيهات أنَّ يسدّ على قدر طريقه، وإذا كان الله مع خصم على خصم فمن كان الله معه فمن يطيقه».

#### فصل

بعد انتهاء هذا الكتاب واسماعه مرة، وقفت على ماحسن لي الحاقه بهذا الكتاب، من ذلك أن القاضى الفاضل كتب في سنة ثلاث وتسعين إلى القاضي محيي الدين بن الزكي كتابا قال فيه: « وبما جرى في هذه المدود من المثلاث الجارية، والمعضلات العادية بأس من الله طرق بياتا، ونحن نيام وظن الناس أن اليوم الموعود قلد طرق في الليل الممدود فإذا هم قيام إن الله تعالى أتى بساعة كالساعة، كادت تكون للدنيا كساعة، في الثلث الأول من ليلة الجمعة ثامن عشر جمادى الآخرة، وذلك أنه أتى عارض فيه ظلمات متكاثفة، وبروق خاطفة، ورياح عـاصفة، قوي لهوبها واشتد هبويها، وارتفعت لها صعقات، وتدافعت لها أعنة مطلقات، فرجفت لها الجدران واصطفقت، وتلاقت على بعدها واعتنقت، وثار من السماء والأرض عجاج، فقيل لعل هذه على هذه قد انطبقت، وتوالت البروق من جهة المقطم على نظام، وتبع الواحدة الأخرى وتقفى الثانية على أثر الأولى، وترى البروق واقفة وهي تتعاقب، وقائمة وهي تتجاذب، ولاتحسب إلا أن جهنم قد سال منها واد، وعدا منها عاد، وزاد عصف الريح إلى أن انطفأت سرج النجوم ومزقت أدم السماء، ومحت ماكان فوقه من الرقوم، ولاتزال هذه الريح تسكن سكونا خفيفا ثم تعاود عودا عنيفا، فكنا كما قال الله تعالى (يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق (١٤١١) وكما قلنا: ويردون أيديهم على أعينهم من البوارق، لاعاصم من الخطف للأبصار، ولا ملجاً من الخطب إلا معاقل الاستغفار، وفـرّ الناس رجالا ونساء وأطفالا، وبهضـوا من دورهم خفـافا وثقالا، لايستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا، اذ يستغيثون ربهم ويذكرون ذنبهم، لايستغربون العذاب لأنهم على موجباته مصرون، وفي وقت وقوع واقعاته باستحقاقه مقرون، معتصمين بالمساجد الجامعة، ومتلقين الآية النازلة من السماء بالاعناق الخاضعة، بوجوه عانية، ونفوس عن الأموال

والأهل سالية، ينظرون من طرف خفى، ويتوقعون أي خطب جلي، قد انقطعت من الحياة علقهم، وعميت عن النجاة طرقهم، ووقعت الفكرة فيها عليه قادمون وندموا ونحمد الله أن نفعهم بأنهم نادمون، وقاموا إلى صلواتهم وودوا أن لو كانوا من اللذين عليها دائمون، ولم يزل ذلك دأبهم كلم سكنت الرياح تحركت، وكلما قيل استقلت بركت، وكلما أخذت قيل ما تركت، حتى الثلث الأخير من الليلة المذكورة، والقلوب إلى الحناجر بالغة، والأبصار عن سننها زائغة، إلى أن أذن الله في الركود، وأسعف الهاجديين بالأمر لها بالهجود، وأصبح كل يسلم على رفيقه ويهنيه بسلامة طريقه، ويرى أنه قد بعث بعد النفخة، وأفاق بعد الصيحة والصرخة، وأن الله قدرد له الكرّة، وأدب بعد أن كاد يأخذ على الغرة، وورد من الخبر أن المراكب كسرها ماكان معترضا في التحرز للعارض، والأصول العادية من الشجر عدت عليها الريح بحماها النافض، وأن في الطرق من المسافرين من كان نائها فدفنته الرياح حيا، وركب عما أغنى الفرار بما هو أمامه شيئاً، ولايحسب المجلس أني أرسلت القلم محرفا، والقول مجزفا، فالأمر أعظم ولكن الله سلم، والخطب أشق، ومابلغت ولا قضيت بهذا التكثير بعض الحق، ونرجو أن الله سبحانه قد أيقظنا، بهاوعظنا، ونبهنا بها ولهنا، فها من عباده من رأى القيامة عيانا، ولم يلتمس عليها من بعده برهانا إلا أهل بلادنا فها اقتص الأوّلون مثلها في المثلات، ولا سبقت لها سابقة في المعضلات، والحمدلله الذي من فضله أن جعلنا نخبر عنها ولانخبر عنها ولا تخبر عنا، ونسأل الله أن يصرف عنا عارض الحرص والغرور إذا عنّا، وشغلت خدمته بهذا المهم، وجعلته على علم من هذا العلم، فالسعيد من وعظ بغيره، وقدكانت لنا وفينا الموعظة، وللذكري حدود ونعوذ بالله من اقامة حدوده المغلظة».

ومن كتاب له آخر الى العادل في سنة ثلاث وتسعين أيضا: « وقد تجدد من وصول العدو اللعين وحركته إلى جانب بيروت، وخطر البلاد ماأذهل كل مرضعة، وأوقع في ضائقة تنفق الأفكار فيها من سعه، - 461 -

ولـ السلام اليـوم قـدم إن زلت زل، وهمة إن ملت فـإن النصر منه مـل، وتلك القدم العادلية، وتلك الهمة الهمة المسايفة السيفية، فالله الله ثبتوا ذلك الفؤاد، ودمثوا ذلك المهاد، واسهروا في الله فليست بليلة رقاد، ولاتنظروا في حديث زيد ولا عمرو، ولا أن فلانا نفع ولا ضر، ولا أن من الجماعة من جاء ولا ان فيهم من مر، انظروا إلى انكم الاسلام كله قد برز إلى الشرك كله، وأنكم ظل الله فان صححتم تلك النسبة فإن الله لاناسخ لظله واصبروا إن الله مع الصابرين، ولا تهنوا وإن ذهب الناصر فإن الله خير الناصرين، فما هي إلا غمرة وتنجلي، وهيعـة وتنقضي، وليلة وتصبح، وتجارة وتربح،

ومن كتاب له آخر إلى الملك العادل : « أدام الله ذلك الاسم تاجا على مفارق المنابر والطروس ، وحياة للدنيا ومافيها من الاجساد والنفوس، وعرف المملوك ماعرفه من الأمر الذي اقتضته المشاهدة، وحرست به العاقبة في بيروت، ولامزيد على تشبيه الحال بقوله:

فيقطعها عمداليسلم سائره

ولوكان فيها تدبير لكان مولانا قد سبق إليه، ومن قلم من الاصبع ظفرا، فقد جلب إلى الجسد بفعله نفعا، ودفع عنه ضرا: وتجسمه المكسروه ليسس بضسائر

ماخلت مسبرالى المحمود

وآخر كل شقوه أوّل كل غزوه، فلا يسأم مولانا نية الرباط وفعلها، وتجشم الكلف فهوإذا صرف وجهه إلى واحد، وهو وجه الله صرف الله إليه الوجوه كلها (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين)(١٤٢)

ومن كتماب. آخر له: « هذه الأوقات التي أنتم فيها عرائس - 462 -

الأعمار، وهذه النفقات التي تجري على أيديكم مهور الحور في دار القرار، وماأسعد من أودع يد الله مافي يديه، فتلك نعم الله عليه، وتوفيقه الذي ماكل من طلبه وصل إليه، وسواد العجاج في هذه المواقف بياض ماسودته الذنوب من الصحائف، فما أسعد تلك الوقعات، وماأعود بالطمأنينة تلك الرجفات».

## فصل

وللعهاد الكاتب رحمه الله كتاب آخر سهاه «خطفة البارق وعطفة الشارق» ذكر فيه أشياء من حوادث سنة ثلاث وتسعين إلى أن توفي هو رحمه الله في سنة سبع وتسعين وخمسهائة، واشتمل ذلك على فوائد تتعلق بها تقدّم، فأحببت إلحاقها به، من ذلك وفاة سيف الاسلام طغتكين بن أيوب باليمن في شوال سنة ثلاث وتسعين، وتولي ابنه شمس الملوك اسهاعيل، هذا والملك العادل بدمشق وقد انتقل الملك الظافر إلى حلب بعد أن أخذ عمه منه بصرى، وعزم على قصد بغداد فصرفه أخوه الظاهر عن ذلك، وذهب الأمير أبوالهيجاء السمين إلى بغداد بأصحابه فأكرم، ثم سير في جيش الى همذان، ثم بعد رجوعه مات بدقوقا.

وانقضت مدّة هدنة الفرنج التي عقدوها مع الملك الناصر رحمه الله، فخرجوا والتقوا مع الملك العادل برأس الماء بمرج عكا، فكسرهم وفتح يافا عنوة، وكانوا كاتبوا ملك الألمان، وكان قد ملك صقلية، فأنهوا إليه تلك البلية،وقالوا إن عظام أبيه إلى الآن في صور في تابوت مكلل بالديباج، وكأنه في الأسر، منتظر الافراج، فإنه لايقبر إلا بالبيت المقدس اذا استخلص، والآن ماكان غلا منه استرخص، فان المسلمين قد اشتغل بعضهم ببعض، ولهوا عن كل سنةو فرض، فتدافعت إلى عكا سفنهم، وتدفقت مزنهم، وامتلأت بهم في الساحل مدنهم، وقصدوا بيروت وبها الامير عز الدين سامة، فلها سمع بوصولهم إلى صيدا خرج بجهاعته منها وسار بأهله ومال عن وعر الأمر إلى سهله، ودخلها الفرنج بعد يوم من والخبيث، فمن قائل تجبن ومن قبل أن ينكب تنكب، ومن قائل رجاله هابوا فغابوا، ولو أنه دعاهم ماأجابوا، واتسع القول، ووقع الهول، حتى نظم بعضهم والفرنج على تبنين:

سلم الحصن ماعليك ملامه ما الحصن ماعليك ملامه ما الحصون من غير حسرب فعطها الحصون من غير حسرب سنه سنه سنه سنه سنه سنه وت سامه

وتصرفت الفرنج في بيروت وأعمالها الساحلية، وبقي لسامة الولاية الجبلية، ثم توجه إلى مصر.

# ودخلت سنة أربع وتسعين

فنزل الفرنج سادس عشر المحرم على تبنين، وأرسل العادل القاضي عيي الدين عمد بن علي القرشي إلى الملك العزيز بمصر فخرج بجيوشه، ووصل في الثالث والعشرين من ربيع الأوّل، فجفلت الفرنج بعد ان كانوا ضايقوا الحصن، ورحلوا وجاءهم الخبر بهلاك ملك الألمان، ثم انتقل عسكر المسلمين إلى جانب الطور، ومع العزيز أخوته: الظافر والمعز، والمؤيد، وكان الافضل قد جاء إلى عمه قبلهم، وكان معهم على تبين المجاهد صاحب حمص، والأمجد صاحب بعلبك، وعز الدين بن المقدم، وبدر الدين دلدرم وغيرهم من الأعيان، ثم رجعوا إلى بلادهم بعد عقد الهدنة، ورجع العزيز إلى مصر بعد أن خلع على ابن عمه الملك المعظم عيسى بن العادل، وخصه بالسنجق واللواء المنشور لطي اللأواء، وعاد المعظم إلى دمشق وقد قرت به العيون، وحسنت فيه الظنون، فكان أعز أولاد العادل عنده، وأعلقهم بقلبه، وأخصهم بحبه، قد ولاه سلطنة دمشق، وأطاب فيها بنشر كرمه النشق، وأقام العادل حتى استقرت الهدنة، وظهرت في عمارة تبنين المكنه، ثم عاد إلى دمشق وأقام قليلا ثم شرق، ورقع بها من الأمر ما تخرق، ورتق ما تفتق، ورد بـ لاد أولاد عماد الدين زنكى إليهم لأنه توفي في هذه السنة، واستولى عليها ابن عمّهم صاحب الموصل، فأنجدهم عليه السلطان الملك العادل.

وتوفي جماعة من أمراء الموصل منهم الأمير عز الدين جرديك، وكان فارس الاسلام ومقدامه، وشجاعه وهمامه، ومابرح من أيام نور الدين إلى أيام صلاح الدين رحمهم الله ليث العرين، أشم العربين، وهو الذي أعان صلاح الدين على القبض على شاور، وولاه صلاح الدين القدس في آخر عهده، فقام بمصالحه من بعده، شم تسلم منه الملك الأفضل، وسلمه إلى أبي الهيجاء السمين، فلما خرج الأفضل من دمشق وصل إلى الموصل، وانتقل من حوض الكوثر إلى أعذب منهل.

قال: ونزل السلطان العادل على قلعة ماردين في شهر رمضان، وملك ربضها ومدنها وولاياتها وصاف عليها وشتا، وصبر وصابر ولم يقل كيف ومتى، وماشك أحد أن ماردين في ملك مضافة إلى ملكه، وقد هنأه بها الشعراء منهم ابراهيم بن مروان من أهل رأس عين له من قصيدة: في المناه من قصيدة في المناه من المناه من قصيدة في المناه المناه

إذانسب البلسدان فحسل المالسك

تقساعس عنها سنجر وأبن عمسه وقصر عنها عسزم زنكي الاتسابكسي

فان تك قد شوركت في فتح غيرها فالسك في أمثالها من مشارك

## ودخلت سنة خمس وتسعين

والملك العادل نازل على ماردين، وقد وصل إليه أصحاب الأطراف مساعدين، وقد أصلح بين صاحب الموصل وبني عمه عاد الدين، وردهم إلى سنجار، والخابور ونصيبين، وقد أذعن له الجماعه بالطاعة، ونائبه في تلك البلاد وديار بكر ولده الملك الكامل محمد.

قال: وفيها ليلة الأحد العشرين من المحرم تـ وفي الملك العزيـ ز بداره بالقاهرة، وكان عزم على الصيد في أعمال الفيوم فخيم تلك الليلة عند الاهرام، فقيل انه أصبح وركض حلف صيد فكبا به الفرس مرة بعد أخرى فتمت له سقطه، عمت بها على الزمان سخطه، فتفاقم ألمه وأقام يـومين أوثلاثـة لايستطيع لـه مخلـوق إعانـة ولا إغـاثة، ثـم حم حمامـه ، وأظلمت بفجيعته أيامه، وقبر في داره، لينقل منها إلى دار قراره،ثم حوّل منها في الأيام الأفضلية إلى التربة المقدسة الشافعية، وورد كتاب القاضي الفاضل تعزية به للملك العادل: « أدام الله سلطان مولانا الملك العادل، وبارك في عمره، وأعلى أمره بأمره، وأعز نصر الاسلام بنصره، وفدته الأنفس الكريمة، وأصغر الله العظائم بنعمته فيه العظيمة، وأحياه الله حياة طيبة يقف هو فيها والاسلام في مواقف الفتوح الجسيمة، وينقلب عنها بالأمور المسلمة والعواقب السليمه، ولا نقص لـ رجالا ولا عددا، ولا أعدمه الله ماقدر في الملك العزيز رحمه الله له ذيلا ولا يدا، ولا أسخن له قلبا ولا كبدا، ولا كدر له خاطرا ولا موردا، ولما قدّر الله في الملك العنزيز رحمة الله عليه، وتحياته مكررة إليه من انقضاء مهله، وحضور أجله، كانت بديهة المصاب عظيمة، وطالعة المكروه أليمة، فرحم الله ذلك الوجه ونضره، ثم السبيل إلى الجنة يسره

واذامحاســــن أوجــــه بليــــت

فعف الثرىء ن وجهما لحسن

فاعزز على المملوك وعلى الأولياء، بل على قلب مولانا، لاسلبه الله ثوب العز بسرعة مصرعه، وإنقلابه إلى مضجعه، ولباسه ثوب البلا قبل أن يبلى ثـوب الشباب، وزفه إلى التراب وسريره محفوف بالللذات والأتراب، وكانت مدّة المرض بعد العود من الفيوم أسبوعين، وكانت في الساعة السابعة من ليلة الأحد العشرين من المحرم، والمملوك في حال الساعة السابعة من ليلة الأحد العشرين من المحرم، والمملوك في حال تسطيرها مجموع له بين مرض القلب وجسد، ووجع أطراف وغليل كبد، وقد فجع بهذا المولى والعهد بوالده رحمه الله غير بعيد، والأسى في كل يوم عليه جديد».

ووصل قبل هذا إلى العهاد كتاب من الفاضل فيه: « وأنا على ما يعلمه المولى من العزلة إلا أنها بلا سكون، ونحن على انتظار البرق الشامي أن يمطر، وحاشى ذمة الوعد به أن تخفر، واشتغال سيدنا في هذا الوقت بالدرس والتدريس، والتصوير والتكييف، والتصانيف التي تصرف فيها بالبلاغة أحسن التصاريف، نعمة يتعين شكرها على العلهاء، ويختص باللذة بها سادتهم من الفقهاء».

قال العهاد: ولما توفي الملك العزيز خلف بنين صغار يزيدون على العشرة، وولده الأكبر ناصر الدين محمد قد أنافت سنوه على عشر، وكان إلى أبيه أحب أولاده، يشيم من شيمه مخيلة سداده، وقد اختص لديه، ونص عليه، فاجتمع الامراء الصلاحية وكبيرهم ومقدمهم فخر الدين إياز سركس ومنهم أسد الدين سراسنقر وزين الدين قراجه، وعقدوا الأمر لولده ناصر الدين، ونعتوه بالملك المنصور، وأخذوا له أيهان الجمهور، قال: وكانت الأسدية في الايام العزيزية الناصرية مغمورين، وبالاستيلاء عليهم مقهورين، وكبيرهم سيف الدين يازكوج، وكان عند وفاة العزيز غائبا بأسوان، فلما بلغه ذلك حضر وجمع الأسدية، واجتمعوا هم والصلاحية ظاهر القاهرة، فقال لهم: نعم مارأيتموه من حفظ العزيز في ولده، لكنه صغير السن لايحتمل ثقل هذا الفن، ولا بدّ من العزيز في ولده، لكنه صغير السن لايحتمل ثقل هذا الفن، ولا بدّ من

كبير من أهل البيت يربيه ويدبر الدواوين، ويرتب القوانين، وماهاهنا الملك العادل، وهو الآن ببلاد الشرق مشغول، وهاهنا من هو أقرب منه، وهو الملك الأفضل، فقال الأسدية: هذا هو الرأي الراجح، ولم يسع الصلاحية مخالفته، فاتفقوا على استدعاء الأفضل من صرحد، فخرج منها ليلة الأربعاء التاسع والعشرين من صفر، وسلك البرية، فوصل إلى القدس يوم الخميس، وخرج إليه عسكره، وساروا معه إلى بيت جبريل، ثم أغذ السير فلما قرب منهم في تاسع ربيع الاوّل تلقوه، وإلى أعلى مراقي العلا رقوه، وسروا بقدومه، وجروا لمرسومه.

قال: وكان الناصرية كتبواإلى رفقائهم بالشام إنا أحوجنا إلى الوفاق، وتأكيد الميثاق، وقد كتب إلى نور الدين بالحضور، وضبط الأمور، وهو عندكم في صرحد، وإن توصل الينا انتظم أمره، وتمهد، فاجتهدوا في حصره وهو في حصنه، ولاتسمحوا بفك رهنه، ووصل إلى دمشق بعض الكتب يوم الاثنين السابع والعشرين من صفر فخرج عسكرها إلى صرخد فوصلوا إلى بصرى يوم الأربعاء، فقيل لهم: إن الأفضل أدلج ليلا، واستصحب نجبا وخيلا فرجعوا إلى دمشق، وقيل لما عبر الأفضل بالبيت المقلّس وجد في طريقه نجابًا مسرعًا فأستحضره، واستكشف ورده وصدره، فقال أنا نجاب فخرالدين اياز سركس، ومعي كتبه إلى من يأنس به ويحبه، فتسلم منه الكتب، وعاد النجاب في خدمته، فلما وصل إلى القاهرة احتفل سركس له وأضاف وقدّم وغرم أموالا ثم أبصر نجابه، واقفاً بيابه، فأخبره الخبر فاستشعر من ذلك وتضور، فمضى وتبعه عسكره وزين الدين قراجه فوصلا إلى القدس وسكنا به وعرف الناصرية جلية الحال، فأخذوا في الانتقال، وتوهم الأفضل من الباقين فقبضهم وحوى جوهرهم وعرضهم، فتفرقت الكلمة المجتمعة، وتوقفت الهمم المسرعه، وأمر الأفضل بالخطبة لابن العزية على جميع المنابر، ثم الدعاء له في الآخر، ونقشت السكة أيضاباسم الولد في البلد وغير البلد.

قال: ولما استقر الأفضل بمصر حملوه على قصد دمشق، وحصرها، وقالوا له: اطلب بلدك الذي منه أخرجت، وعن المقام فيه أزعجت، ومالك في مصر ما يكفيك، ودمشق لك بوصية أبيك، وجاءته رسل أخيه الظاهر من حلب وهداياه، وقال له: انتهز الفرصة فعمنا عنا مشغول وإلى إن يتم من ماردين مراده، وينضم إلى بياضه سواده نخرج دمشق عن يده، ونعجله اليوم فيها عن غده، وأنا أصل إليك وأقدم عليك بالبنود والجنود والأساور والأسود، فما زالوا به حتى خرج بالعسكر واستناب سيف الدين يازكوج مكانه.

قال: ووصل إلى الملك العادل الأمير سراسنقر أحد الأمراء الناصرية المفارقين، فاستحثه على مفارقة ماردين، وتواصل من الناصرية جماعة بعده، وعندهم من الإستحثاث ما عنده، فحركه القول وتجرد عن العسكر واستصحب معه الأميرين: عز الدين بن المقدم وبدر الدين دلدرم، وسرى ليلا لخمس بقين من رجب، وأوصى ولده الكامل أن يسير في مضايقة حصن ماردين بسيرته، ويقتدي بعزمته، ووصل إلى دمشق يوم الإثنين حادي عشر شعبان، وأخذ في تحصين البلد.

ووصلت العساكر المصرية يوم الخميس وأحاطت بدمشق، ودخلها جماعة منهم من باب السلامة بلغوا إلى السوق الكبير، وأعلنوا الفتح بالتكبير، ولم يتبعهم أحد على هذا التدبير، فخرجوا من باب الفراديس وكروا على أعقابهم لمن وقف لهم من الكراديس، وأما الأفضل فإنه وصل إلى الميدان الأخضر، وضرب فيه دهليز سرادقه، وأقدم برواعده وبوارقه، فأشار عليه أمراؤه بالتأخر عن تلك المنزلة، وكانت منهم زله، فنزلوا عند ميدان الحصا ثم تأخروا إلى مسجد القدم، وامتلا ذلك الفضا بمضارب الخيم، ففترت الصدمة الأولى، وقصرت الصدعة الطولى، وخمد الجمر فصار رمادا، واستحالت تلك الأمواج المتلاطمة ثهادا، ولنزموا منازلهم أكثر من ستة أشهر هناك، وقت فوارط عدمت الاستدراك، وامتدت

خيامهم من أقصى داريا إلى الغوطة، وظنوا أنهم آخلون بمخنق دمشق المضغوطة، وكاتب الملك العادل جماعة من أمراء العسكر المصري ففارقوه ودخلوا دمشق، فأكرمهم واحترمهم منهم طغرل المهراني، وإياز البانياسي، وابن كهدان، ومثقال الخادم، وابن أخت السلطان ابن سعد الدين كمشبه، وكثر الواصلون القاطعون لمن وراءهم، وأحسن العادل جزاءهم، فتكاثرت الأطهاع وتتابعت الرؤوس والاتباع، ووصل الملك الظاهر، ومعه أخواه الظافر، والمعز، وجاءهم الملك المجاهد صاحب الظاهر، ومعه أخواه الظافر، والمعز، وجاءهم الملك المجاهد صاحب بنياس، وهو شيخ الدولة وكبيرها، وأمينها وأميرها، وفي حمايته حصنا بنياس، وهو شيخ الدولة وكبيرها، وأمينها وأميرها، وفي حمايته حصنا فرغبهم في السلامة والسلم، والاحتمال والحلم، وأشار على كل من الجانبين بتجنب المجانبة، والتقرب بالمقاربة والمراقبة، وجاءهم أيضا سعد الدين مسعود صاحب صفد، وأخوه نور الدين مودود.

قال: ولما جبنوا عن مضايقة الحصار واصلوا قطع الاشجار، وكسر الأنهار، ومنع كل مايدخل البلد من نعمة ونعم، وغنيمة وغنم، حتى ردوا القوافل، وصدوا الفروض والنوافل.

قال: وكان الناصرية المقيمون بالقدس قد استولوا عليه، ونظفوا ممن ارتابوا به حواليه، وأخرجوا منه المغاربة، ورجاله وأجناده الراتبه، ومعهم الأمير فارس الدين ميمون صاحب نابلس، وعز الدين سامة صاحب كوكب وبيسان، ثم وصل الخبر أن سركس ومن معه واصلون إلى دمشق، فتجرد من المحاصرين عسكر إلى طريقهم، وكانوا قد وصلوا إلى طبرية، وعبروا منها الى البقاع وتمكنوا خلال تلك الضياع، وسيروا إلى بعلبك ماصحبهم من الأثقال والأحمال، وكان صاحبها الامجد في جانب الملك العادل، وتجردوا خيلا، وقطعوها ليلا، وتوقلوا الجبال حتى أشرفوا على دمشق من عقبة دمر، وقد فاتوا العسكر، فتقوى عسكر البلد فصاروا

يبكرون ويركبون، ويقربون من العسكر المصري ولايرقبون، وحفر المحاصرون حولهم خندقا عميقا فصار لهم به عن الحصار شغل شاغل.

قال: وعلى الجملة فما ظهر منهم صنع إلا في قطع الاء ومنع الميره، والمضايقة الكثيرة، واحراق البساتين، وتخريب الطواحين، حتى إذا انحسمت المواد، وفنيت في البلد الأزواد واضطروا إلى التسليم، واضطربوا على التأخير والتقديم، فتسلط الرعية على الملك العادل وحملوه على التسليم والاستسلام، فتباينت أواء الملوك المحاصرين، بها دبره العادل سيف الدين، ولابد للكبار من الاحتيال، إذا صمم الصغار على الاغتيال، وليس في ذلك بدعة، فإن الحرب خدعة، فنفذ الى الظاهر في الباطن، وقال له: أنت السلطان وحكمك على جميع الأماكن والمواطن، وأنا أسلم إليك دمشق على أنها تكون لك لا لغيرك، فقال الظاهر لأخيه الافضل: قلدني في الانعام بدمشق منة المتفضل، فقال له هذه لاتخلو من أقسام جالبات لأسقام، أجلك أن تتولاها تولية النائب، وإن أخذتها دوني فمن النوائب، وإن أعطيتني عنها عوضاً مما أعرف لك فيه غرضا، فها لك مايصلح أن تقايض به دمشق، وأنت لاتدعى لها العشق، فتغير بهذا رأي الظاهر، والله المطلع على الضمائر، وقيل أرسل العادل وقال: أسلم اليكم دمشق بعد سبعة أشهر، وتربص وتصبر، فخذوا يميني، وكلوني إلى ديني، وظن أنهم لايوافقون وفي الحصر يضايقون، فلما أجابوه إلى هذا الملتمس، وقعقعوا في الاستضاءة بهذاالقبس، عرف انهم نادمون فيها عليه من الحصر قادمون، فعاد عن هذا البذل، وردهم إلى سنن العدل، وقيل: كان يكتب إلى الأفضل إن الأمر انفصل مع الظاهر، وإنه يعاملك معاملة المسر لا المجاهر، فخذ لنفسك وأبدل معى وحشتك بأنسك، ويكتب أيضا إلى الظاهر إن الأفضل قد صالحني، وعلى الرضى صافحني، وإنك تحصل على المضاغنة، وستفضى بلك المباينة إلى المغابنه، وقيل إنه كان يكتب في كل يوم أجوبة كتب قوم لم يكاتبوه، ويجيبهم عما فيه لم يخاطبوه، وخبزت تلك الملطفات في عجين، لتفرّق على من يقصد العسكر من المساكين، فإذا فتشوا عشر على تلك الملطفات، فنعت من كتب إليه ، ولاعلم له، بالأفات، وعدّوا من المخامرين، فصار أكثر العسكر من المتهمين.

## ثم دخلت سنة ست وتسعين

وهم على ذلك والشتاء قدهجم، وكل بأمره مهتم، ودهمهم أيضا خبر وصول الملك الكامل من الشرق، وخرج من دمشق جماعة يظهرون أنهم من الناصحين، وترددوا إليهم ومنهم غادين ورائحين، وأبرقوا وأرعدوا وقالوا: غدا يكون قدوم الملك الكامل في الجحفل الحافل، ومعه من المال الصامت إلى أبيه العادل، فيستظهر بولده والمال والرجال، فلا يقعد عن النهوض إلى القتال، والصواب أن نتأخر قليلا، فرحلوا إلى سفح جبل العقبه، وبقيت أسواقهم مملوءة، وباتوا تلك الليلة وهم لكل مايحتاج اليه عادمون، وعلى مافرط منهم نادمون، وفقدوا حتى الماء للشرب، وكانت تلك الحالة كسرة قبل الحرب فاضطربوا المحل المحيل، واضطروا إلى راحة الرحيل.

ووصل الكامل تاسع عشر صفر، وقد جمع التركمان، واستصحب جند الرها وحران، ونزل في جوسق أبيه، فاستبشرالسلطان برحيلهم وقدوم ابنه، وقضت خشية الله بأمنه، وأقام الكامل حتى توجه أبوه إلى مصر، فخرج معه أياما ثم عاد ولم يؤثر مقاما، وانتقل إلى حران والرها واستقام به أمرها، وذلك حادي عشر ربيع الأوّل، وأما المحاصرون فإنهم انتقلوا من الكسوة إلى مرج الصفر، وسير الملكان الظاهر والمجاهد بعض الأثقال إلى بانياس، وأصحبا بقية الأحمال الملك الأفضل إلى مصر، وودّعاه وكلاهما سار جريدة إلى مقره، واستمر بعد ذلك على أمرار أمره، كلما رحل القوم عن منزل أحرقوا مالم يظفروا له بمحمل، وانتقلوا من مرج وذهبت أسادهم تروم معاودة الشرى، وتبعهم الصلاحية ينزلون بعدهم في وذهبت أسادهم تروم معاودة الشرى، وتبعهم الصلاحية ينزلون بعدهم في مناذنم، ويخلفونهم في مناهلهم، وكان القوم ظنوا انهم يقدرون بمرج الصفر على الاقامة، فلقوا من البرد ماحضهم على النجاة والسلامة، وهذا المرج بقرب جبل الثلج في تموزلايقيم به إلا لابس فروة فكيف في كانون،

وقد عرفوا أنهم الجانون حيث لم يلزموا القانون، وأرسلت الصلاحية إلى الملك العادل يستعجلونه، ويحثونه ولا يهملونه، فخرج يوم الخميس تاسع ربيع الأوّل، وودّع أعيان البلد وسار وتلا من تقدّمه إلى تل العجمل، وأقام حتى اجتمع اتباعه.

وأرسل إلى الافضل العدل النجيب أبا محمد ،وكان صلاح الدين رحمه الله يعتقد في صلاح دينه، ويمكنه من خواص حــاجاته، ويرسله في مهام الـرسائل، وكـان مـدلول الـرسـالـة: أرفق في السير، ووافـق على الخير، فمأ عندك اليوم من يصدّقك، وأنا لك كالوالد وأبلغك مقصودك، وأحالفك ولا أخالفُ ك، وأوافقك ولا أفارقك، فأشار على الافضل جماعته بأن يرد جواب الرسالة: إن مقاربتي لك بمباعدتك للصلاحية منوطة، وموافقتي بمخالفتهم مشروطه، فلما سمع ذلك الصلاحية استشاطوا ونفروا، واستدلوا به على أنهم ظفروا، وجدّ جدّهم، واحتدّ حدّهم، فطووا المراحل إلى السائح، وكان الأفضل على بلبيس، وقد تفرّق معظم أصحابه إلى أخبازهم، وجماعة منهم مع العادل في الباطن كاتبوه، وعلى الابطاء عاتبوه، فسأر الجمعان بعضهم إلى بعض، والتقوا فانكسر أصحاب الأفضل وانهزموا، فدخلوا القاهرة، وأغلقوا الأبواب للمحاصرة وانتهى إلى الأفضل أن جماعة منهم أرسلوا إلى العادل في إصلاح أحوالهم، وإنجاح آمالهم ، فقال سيف الدين يازكوج للأفضل: لكل زمان عمل، ولكل أوان أمل، فاصلح الأمر كيف تهيأ، فلا ملام على اللبيب بأي زي تـزيا، فشرع الافضل في اصـلاح الامر مع عمـه، وراسله على أن يكون بحكمه، ثم سلم الأمر ومر سالماً، وحصل له من التجربة ماعاد به بالعواقب عالماً.

قال: وخيم العادل بالبركه، واستبدّ بملك مصر آمنا من الشركة، ونفذ المقطعين إلى اقطاعهم، ونظر للصلاحية في صلاح ضياعهم، وأرسل إلى الأفضل إن وافقتني على ماأعطيك وقبلت سعدت، فهؤلاء الذين عندك

مامنهم إلا من كتب إليّ وتقرّب، وانتظر يـومي هذا وترقب وهذه إضبارة كتبهم فتأملها، وإن لم "مسدقني فتسلمها واعلم أنهم غرّوك وضرّوك، وساؤوك بها سرّوك، وقيل: لم يبق من الأمراء من لم يكتب إليه، ولم يخامر إلا أربعة أخلصهم سيف الدين يازكوج، فلما عرف الأفضل صدق عمه سلم المسألة، وسأل المعدله، فقرر للأفضل في ديار بكريمياف وين وأعهالها، وجبل جور وحاني وجملين، والمعاقل والحصون المحسوبة من ميافارقين، فرضي بها مكرها، وخرج إلى الشام متوجها ليلة السبت سابع عشر ربيع الآخر في الليلة التي دخل العادل في بكرتها القاهرة فاستقر بدار السلطنة، وقدم سيف الدين يازكوج وحكمه، واستبقى رضى بدار السلطنة، وقدم سيف الدين يازكوج وحكمه، واستبقى رضى الناصرية بابقاء الخطبة لابن العزين، ولم ينافسهم مع حصول المعنى له في التفضيل والتميين، وأقام وهو كل يـوم في ارتفاع وسياده، وقوته في نمو وزيادة.

قال: ورد القضاء الى القاضي صدر المدين عبد الملك بن درباس الكردي، ولم يزل قاضي القضاة بالديار المصرية، من الأيام الناصرية وكان نائبة القاضي زين الدين على بن يوسف المدمشقي، وتعصب الامراء المتغلبون على الملك العزيز في مراتبه بصرف صدر الدين وتولية نائبه، ولم يزل صدر المدين مصروفا تارة بمحيي الدين بن أبي عصرون، وتارة بزين الدين حتى تعصب العادل له وبعث العزيز على ردّه، فلما انقضت أيام العزيز وجاء الأفضل كان أوّل ماحل عليه أن صدر الدين يعزل، وتولى زين الدين القضاء، فلما جاءت نوبة العادل في هذه السنة يعزل، وتولى زين الدين القضاء، فلما جاءت نوبة العادل في هذه السنة ردّ صدر الدين إلى منصبه، وردّ التدريس بالمدرسة الشافعية في التربة المقدسة، وبالمشهد الشريف الحسيني الذي أجرى عليه حكم المدرسة إلى شيخ الشيوخ صدر الدين بن حمويه، وكتب إليه وهو بدمشق فاستدعاه، وقد كان قبل ذلك ولاه في ممالكه الجزرية أمور المناصب الشرعية، والامور وقد كان قبل ذلك ولاه في مماصبه نوّاب، وفي مراتبه أصحاب.

قال: ولما دخل العادل القاهرة، استشعر أصحاب الدواوين مهابة الوزير صفي الدين ابن شكرالظاهرة، ونزل في الدار السلطانية في الحجرة الفاضلية، وتصدّر في مكان مكانته وشهر من قلمه عضب شهامته، وسيف صرامته، وقمع المتجبرين، ووضع المتكبرين، وأخذ قوس الوزارة باريها، وأجرى الله الأمورأحسن مجاريها.

قال: وندب العادل من الأسدية والصلاحية أميرين كبيرين إلى الشام لإصلاح ذات البين بحمص، وهماه وحلب وغيرها، وهماسرا سنقر، وكرجي.

قال: ولما ودّع الافضل عمه بالبركة سار إلى صرخد، وأقام بها وندب إلى البلاد التي بديار بكر من يتسلمها، ولما انفصل عن مصر وجد المواصلين له لصحبته مفارقين، وكذا الدنيا ماتقبل على أحد ولاتمدّه بمدد، إلا تواردت على حياضه الجموع، وتزاحم في رياضه الرقوع، فاذا صرفت عنه وجوهها صرف أهلها عنه الوجوه، وأحلوا به مكروه المكروه.

قال وأما الظافر فإن عمه أحسن إليه، ووعده بعطاء جزيل، وودعه بثناء جميل، وأقطعه بأعمال دمشق حزرما وضياع السواد، وشق عليه انه لايجد ما يجود به وهو من الاجواد، ووصل إلى دمشق رابع جمادى الآخرة وسكن في جوسق بستانه بالنيرب، وسلك طريقة الاحتراز والاحتراس، واختار البعد عن مقاربة الناس، ولزم السكينة، ولم يدخل المدينة، وطلب من القاضي بجامع النيرب خطيبا شافعياً ليكون بالصلاة فيه عن حضور الجامع بالبلد غنيا، واحتاط غاية الاحتياط، وطوى بساط النشاط.

## فصل

قال العهاد: واستدعى العادل ابنه الكامل إلى مصر ليستنيبه فيها وكان بحران، وهوفي تلك البلاد نائب السلطان، فسلم تلك الولاية إلى أخيه الفائز، ووصل إلى دمشق سادس عشر شعبان، ونزل بجوسق أبيه في بستانه، ومعه شمس الدين المعروف بقاضي دارا، وهو وزيره، ومستحثه على المكارم ومشيره.

قال: وخدمته بكلمة أوّلها:

انتــم تحبون بالاعــراض تعــذيبــي

وتقصــدون بخلــقالصــدّتهذيبــي

ساروافياصحتــي مــن مهجتــي ارتحلي

غــابــوافياسنتــي عــن مقلتــي غيبــي

قد كان يهضمني دهري فأدركني

عمــدبـــن أبي بكــربـــن أيــوب

الكــامـــل المالــك الأمــلاك حيـــثـــه

رق الأعــاجــم منهــم والأعــاريــب

معطــر عــرفــه عــرفــا ومكــرمــة

خمـــر طينــه بــالطهــر والطيـــب

لايـدعــي جـوده البحـر عـرفــا ومكـرمــة

يلفــي تــأبيـه في الشــم الشناخيــب

دعــــك مصر إلى سلطـــانها فـــأ بـــــ في الشــم الشناخيــب

دعـــاءهــا فهـــو حـــق غـر مكـــدوب

قال: وعزمت على صحبته في هذه السفرة إلى مصر، فخرج في الثالث والعشرين من شعبان إلى الكسوة، وخرج سلطان دمشق الملك المعظم ليودّع سلطان مصر أخاه الكامل، وصحبه إلى رأس الماء مع عدّة من الأمراء، ثم ودعه وانصرف وتشوّش مزاج الكامل بعده وانحرف، ووصل

إلى العباسة في الحادي والعشرين من رمضان، والتقاه والده العادل وأنزله بالقصر، ثم ركب إليه بعد يومين وأستصحبه إلى الدار ورتب أحواله على الإيثار، وكان قد عقد له على ابنة عمه الملك الناصر رحمه الله، فأدخله إليها ليبني عليها.

قال: وأصبح العادل يوم الإثنين سابع عشر شوّال، وركب بالسنجق السلطاني والمركب الخسرواني، والسيوف المسلولة، والعقود المحلولة، وأمر الخطيبين بجامعي مصر والقاهرة بالخطبة له ولولده الكامل من بعده ليس بعد دعاء الخليفة إلا المدعاء لهما، وانقطعت الخطبة لابن العزيز، وكان أحضر جماعة من الفقهاء والقضاة والكبراء والولاة، وقال لهم قول المستفتى المستشير: هل تصح ولاية الصغير؟ فقالوا: هذا مولى عليه فلا يلى، وغيابات الحوادث بنظره لاتنجاب ولا تنجلي، فقال: فهل يجوز للمولى الكبير أن ينوب عنه إلى أن يكبر، ويرتب الأمور بحكم النيابة ويدبر؟ فقالوا: إذا كانت الولاية غير صحيحة فلا تصح النيابة، ومن رآه صواباً أخطأ به الإصابة، لاسيها في السلطنة التي هي خلافة الخليفة، فلا حق فيه إلا للكبير الذي يعين على الحقيقة، وجرى منهم في هذا المعنى الإمعان، فلما عرف الشرع أحضر الأمراء والتمس منهم الطاعة والسمع، وخاطبهم في اليمين له والميثاق، وألزمهم بالوفاء، والوفاق، فأبوا وخاطبهم بماراعهم، وملا بالتقريع اسهاعهم، ثم قال: قلد علمتم ما هو الواجب من التظافر على حفظ ثغور الإسلام، وتدبير المالك بمصر والشام، وما هذا أمر يناط بالصبيان، أو يحاط بغير ذي القدرة والسلطان، فأذعنوا وأطاعوا وحصل الإئتلاف، ورفع الخلاف.

قال: ولما أصبحنا يوم السبت شاهدنا الملك الكامل قد ركب مثل والده، معقوداً سنجقه بمعاقده، والمناصل مجذوبة، والصواهل مجنوبة، والأعين ناظرة، والألسن ذاكرة، ومشى في ركابه من إليه تحبب، وإلى السلطان تقرب.

قال: وركب يوم الخميس السابع والعشرين من شوال إلى برج المقسم، والمقسم موضع على شاطىء النيل يزار، وهناك مسجد يتبرك به الأبرار، وهو المكان الذي قسمت فيه الغنيمة عند استيلاء الصحابة رضي الله عنهم على مصر، ولما أمر صلاح الدين رحمه الله بإدارة السور على مصر والقاهرة، وتولاها الأمير قراقوش جعل نهايته التي تلي القاهرة عند المقسم، وبني فيه برجاً هو مشرف على النيل ذو شرفات ومعقل ذو طبقات، وثيق البناء، رفيع الفناء، وبني مسجداً جامعاً، واتصلت العارة منه إلى البلد، متتابعة المدد، وهو متنزه عن الأكدار والأقذار منزه وبالجنات مشبه، وإلى البحر والبر بمناظرة الشبابيك موجه، فاختار الكامل أن يجلس فيه يوماً للتفرج، فجلس في الطبقة العليا، واجتمع الأمراء والأعيان في الطبقة الدنيا، شم مدّ الساط في الجامع، ثم ذكر العاد أنه مدحه ثم بكلمة أقلها:

مغررم القلاب مدند ف وجدده ليسس يسوصف وعددون واخلف واخلف وفين وفين وا

قال: وفي الحادي والعشرين من شوّال قدم فلك الدين أخو العادل من دمشق.

قلت: هو أخوه لأمه واسمه أبو منصور سليمان بن شروه بن جلدك، وإليه تنسب المدرسة الفلكية بنواحي باب الفراديس بدمشق وبها قبره.

قال العماد: وفي هذا اليوم خطب للعادل وابنه الكامل، والعادل في مهامه يستشيره ويستدعيه، والمرء كثير بأخيه، ثم عاد إلى دمشق بعد شهور.

قال: وفي العشرين من الشهر خرج حاج مصر إلى البركة، وأمر - 481 -

عليهم نصير الدين الخضر بن بهرام، وكان والي المحلة، وهو مستمر الولاية من الأيام الصلاحية، وحج معه من معروفي الأجناد وأمرائها عدّة، وكذلك حج في هذه السنة حاج دمشق وصحبهم الأمير عز الدين سامة، وكانت السنة مباركة، والنعم متداركة، والخيرعام، والخصب تام.

قال: وانتظرنا زيادة بحر النيل في أوقاتها، فبلغ إلى احدى وعشرين أصبعا من ثلاث عشرة ذراعا، فعاد بذلك كل قلب مرتاعا، ثم أخذ في النقص وهو مرجو الزيادة مأمول الوفاء على العاده، فقنط الناس، ووقع اليأس، واشتد المحل، وغلا السعر، ويئس الفلاحون من الفلاح، وأجفلوا من البلاد للانتزاح، وطاروا بأجنحة النجاة في طلب النجاح، وقيل إن هذا النقص لم يعهد من عهد الصحابة، وشرعنا في الاستغفار والانابة، وصام الناس ثلاثة أيام قبل يوم التروية، وكأنها أصابهم مصيبة فهم في التعزية، ثم استسقوا ثلاثة أيام إلى العيد، وأفاض الخطيب في ذكر الوعيد، وغصت بالخلائق الأمكنة، وضجت بالأدعية والضراعات الألسنة.

قال: وفي السنة التي قبلها، وهي سنة خمس وتسعين، استدعي القاضي ضياء الدين أبو الفضائل القاسم بن يحيى بن عبد الله الشهرزوري إلى بغداد، وولي قضاء القضاة، وكان متولي القضاء بالموصل، فحرج في أواخر شعبان، فلما وصل بغداد بجل وعظم، وكان قد تردد إلى بغداد دفعات في الأيام الصلاحية بسبب الرسالة، فهو كان المعين لها، كما تقدم ذكره.

### فصل

# في وفاة جماعة من الأعيان في هذه السنةأعني سنة ست وتسعين

قال العهاد: وفيها ثالث عشر جمادى الأولى توفي في داره بدمشق الأمير صارم الدين قايماز النجمي، وكان متولي أسباب صلاح الدين رحمه الله في مخيمه وبيوته، يعمل عمل أستاذ الدار، وإذا فتح بلد أسلمه إليه، واستأمنه عليه، فيكون أوّل من افتض عذرته، وشام ديمته، وحصل له من بلد آمد عند فتحه، ومن ديار مصر عند موت عاضدها أموال عظيمة، وتصدّق في يوم واحد بسبعة آلاف دينار مصرية عينا، وأظهر أنه قضى من حقوق الله في ذمته دينا، وهمو بالعرف معروف، وبالخير موصوف، يحب اقتناء المفاخر ببناء الربط والقناطر، ومن جملتها رباط خسفين ورباط نوى، وله مدرسة مجاورة داره، ولماكفى الله دمشق الحصر خسفين ورباط نوى، وله مدرسة مجاورة داره، ولماكفى الله دمشق الحصر ولده، ويكون من أقوى عدده وأولى عدده، وكان في خلقه زعاره، وكانت حصافته مستعارة.

قال: ولما دفن نبشت أمواله، وفتشت رحاله، وحضر أمناء القاضي، وضمناء الوالي، وأخرجوا خبايا الزوايا، وسموط النقود، وخطوط النسايا، وغيروا رسوم المنزل ومعالمه، واستنبطوا دنانيره ودراهمه، وحفروا أماكن في الحدار وبركة الحمام في الجوار، فحملوا أوقارا من النضار، وظهروا على الكنوز المخفية، والدفائن الألفية، فقيل زادت على مائة ألف دينار، وهو قليل في جنب مايحرزه من كذا وكذا قنطار واستقل ماطواه الخزن، وأخفاه الدفن، وقيل كان يكنز في صحارى ضياعه، ومغارات اقطاعه.

قلت: واتهم بعده جماعة بأن له عندهم ودائع، وتأذى بذلك المتأبي - ده - 483 -

منهم والطائع، وداره بدمشق هي التي بناها الملك الاشرف أبو الفتح موسى بن العادل داراً للحديث في سنة ثلاثين وستمائة، وأخرب الحمام الـذي كان مجاورا لها، وأدخله في ربعها، وذلك في جوار قلعة دمشق بينهما الخندق والطريق، وثم مدرسته المعروفة بالقيهازية.

قال العماد: وفي جمادى الآخرة من هذه السنة تـوفي -يعني بمصر-الحاجب لولؤ وكان في الأيام الصلاحية أشجع الشجعان، وأفريس الفرسان وله مقامات في الغزاة، ومواقف مع العداة، وهو الذي نهض وراء مراكب الفرنج الناهضة في بحر إيلة إلى الحجاز، وأتى في كسرهم وأسرهم بالإعجال والإعجاز، وكانوا قطعوا الطريق في بحر عيذاب على التجار، وحصلت أموالهم تحت الاستيلاء بعد حصولهم تحت الاسار، فأنقذ واستنقذ، ومانزل حتى أحذ، وساق إلى القاهرة أولئك الكفار مقهورين واعتقلهم مأسورين.

قلت: وفيه يقول الرضى بن أبي حصينة المصري يخاطب الفرنج: والمدر في البحر لايخشم مسن الغير فأمر حسامك أن يحظمى بنحرهم فالسدر مذكسان منسوب إلى النحس

وقد قيل فيه أشعار كثيرة، تقدّم بعضها في أخبار سنة ثمان وسبعين.

قال العماد: ومن دلائل سماحه ماشاهدته بالقاهرة في سنة إحدى وتسعين من مبراته الظاهرة أنه لما حط القحط رحله، ووصل المحل محله، وتم الغلا، وعم البلا، ابتكر هذا الحاجب الكبير مكرمة لم يسبق إليها، وذلك أنه كان يُخبر كل ليلة اثنى عشر ألف رغيفا فإذا أصبح جلس على باب الموضع الذي فيه حشر الفقراء، ثم يفتح الباب مقدار ما يخرج منه واحد بعد واحد، ويعلم أنه غير عائد فيتناول كل منه قـرصه، ويـرى

ذلك من خيراته فرصه، فها يزال قاعداً حتى يفرق الألوف على الألوف، وكان هذا دأبه في هذا الغلاء، حتى هب رخاء الرخاء، فحينئل تنوعت صدقاته، واستغرقت بالصلاة أوقاته، وكان بهي الشيب نقي الجيب، قد جعل الله البركة في عمره، وخصه مدة حياته بإمرار أمره، فأنجده في أوان ضعفه بتضعيف بره، ولا شك أنه من الأولياء الأبدال، والصالحين الصالحي الأعمال.

قال: وفي يوم السبت الحادي والعشرين من ذي القعدة، وأنا بالديار المصرية، توفي الفقيه الكبير شهاب الدين الطوسي، وهو أكبر الأئمة الشافعية ورئيسها، وإليه فتياها وتدريسها، وهو من أصحاب محمد بن يحيى، وكم واجه الملوك بالحق المر، وأنكر عليهم ماينكرونه من العرف ويعرفونه من النكر، ولما وصل إلى مصر كان تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب متوليها، فأعجبه سمت المذكور، فولاه مدرسته بمصر، وهي المعروفة بمنازل العز فوليها، وأقام فيها مفيدا حتى فاز في جنة النعيم بفوزه، وخلت منازل العز من منازل عنوه، وأصبح الناس حول سريره مزدهين، وعليه متوجعين، فوصلوا به إلى القرافة، معان الرحمة والرأفة، وهناك الأصاغر والأكابر من الملوك والأمراء مشاة، وجنازته بها فيه من لباس التقوى مغشاة، ولما نفضوا أيديهم من ترابه انفضوا من أيادي بركته متربين، وبنار اللهب والتلهب عليه مضطرمين، ونمى الخبر إلى حمر وقوف أبيه، وسير نائبه لتسلم ذلك وتوليه، وكان اتفق حضوره عنده في الرسالة فاهتدى برشده إلى الضلالة.

قال: وفي العشرين من جمادى الآخرة توفي الفقيه العالم بدر الدين بن عسكر رئيس الحنفية بدمشق.

قلت: وقيل كانت وفاته في تاسع عشر جمادى الأولى، ويعرف بابن العقاده.

قال: وفي سابع عشر شعبان توفي بحلب الفقيه الكبير ظهير الدين عبد السلام الفارسي، وكان أبرع فقيه وأفقه بارع، ورد إلى اصفهان سنة تسع وأربعين، ولقى بها العلماء المبرزين، وخالط صدورها بني الخجندي، وكان تفقه بكرمان، وقرأ على فخر الدين الوازي، من أكبر تلامذة محمد ابن يحيى، وتنقل في بلاد خراسان والعراق، ولقيته بمصر سنة اسبق وسبعين في العهد الصلاحي، وسامه السلطان المقام بها ليفوض إليه التدريس بقبر الشافعي رضي الله عنه، فعبر وماصبر، وعاد إلى البلاد، ثم وفد إلى دمشق في جمادى الأولى سنة خمس وتسعين ثم سار إلى حلب في ثاني شعبان، فكان من وفاته بها ماكان.

قال: وفي هذه السنة توفي بنيسابور الفقيه الكبير محيي الدين بن محيي الدين محمد بن يحيى.

وفيها توفي صاحب آمد قطب الدين سكمان بن نور الدين قرا أرسلان.

وفيها مات بدمشق في العشر الأوسط من شعبان الهمام العبدي، الشاعر البغدادي، وهو أبو الحسن على بن نصر بن عقيل بن أحمد بن علي بن عبد القيس من ربيعة وقدم دمشق سنة خس وتسعين، وهو أشعر من رأيته في هذا الزمان، وسمعته ينشد الملك العادل ودمشق محصورة كلمة شاعره، وصادفته ذا سمت حسن، وفصاحة ولسن، ومعه ديوان شعره يحوي قلائد دره وفرائد سحره، وتوفر على مدح الأعجد صاحب بعلبك ومن شعره:

وماالنساس الاكمامل الحظنساقص وأخسر منهم نساقص الحظ كمامل

### وان لمسرمسن حيساء وعفسة وإن لم يكسن عندي مسن المال طسائل

قال: وتوفي في هذه السنة قبل الفاضل بثلاثة أيام الأثير بن بنان، وكان مشمولا في الدولتين بكل قبول واحترام واحسان، وكان السلطان لما تصرف في القصر ولاه بيع موجوده، وبذل في نصرته غاية مجهوده، ولما فرغ من شغله أبقاه على رسم انعامه كله، واستمر إمراره واستقر قراره، وجلس في ببته يسم مليه رواياته العالية، حتى أدرك أيام الملك العزيز، ولم يدرك في العز أملا، ولم يملك عملا، حتى تغير خلقه، وتقلل رزقه، وتبطل حقه، وآل أمره إلى اعتقاله بالديون، واحتباسه في الرهون، وعمن غاظه وزير العزيز، وكان مؤدبه في الصغر، واستوزره في الكبر فتجهمه، واسمعه ماكرهه، وقال له: ماأحسن ماأدبت مخدومك وخرجته، وعلى مراتب أخلاقك درجته، وقال للفاضل: أنا خلصتك في أيام شاور مرتين، ودافعت عنك دفعتين، وهذه قصائدك في مدحي، ومقاصدك مرتين، ودافعت عنك دفعتين، وهذه قصائدك في مدحي، ومقاصدك المناصب إلى الغايات، فكرهه النواب ودحضوه ولمعارض النوائب المناصب إلى الغايات، فكرهه النواب ودحضوه ولمعارض النوائب عرضوه، وكان بالقاهرة جاري، وباب داره مقابل باب داري، وأنا أعينه في الأيام الصلاحية بأصلح إعانة، وأصونه بأرجح صيانه.

#### فصل

# في وفاة القاضي الفاضل رحمه الله

قال العماد: وفي هذه السنة تمت الرزية الكبرى، والبلية العظمى وفجيعة أهل الفضل بالدين والدنيا، وذلك بانتقال القاضي الفاضل من دار الفنا إلى دار البقاء، في داره بالقاهرة سادس ربيع الآخر، يوم الثلاثاء وكان يعني ذلك اليوم بمصاف الأفضل يوم الكسرة، وبمصاب الفاضل يوم الحسرة، وذكر أنه ليلة الثلاثاء في مدرسته صلى العشاء، وجلس مع الفقيه ابن سلامة مدرسها، وتحدّث معه ماشاء وشوهد من كل ليلة أبش، وأبسم وأهش، وقد طابت المحاضره وطالت المسامرة، وانفصل إلى منزله صحيح البدن فصيح اللسن، وقال لغلامه: رتب حوائج الحمام، وعرفني حين أقضي مُنسى المنام، فوافاه سحراً للاعلام، فها اكترث بصوت الغلام، ولم يدر أن كلم الحام حمى من الكلام، وأن وثوقه بطهارته من الكوثر أغناه عن الحام، فبادر إليه ولده فألفاه وهو ساكت باهت، فعرف أن القدر لهباغت، فلبث يومه لايسمع له إلا "أنين خفي، علم منه أنه بعهد الله وفي، ثم قضى سعيداً، ومضى شهيدا حميـدا، فُوقاه الله تعالى الوصية فكانت له بسيد الأولين والآخرين أسوه، وإن تردى عن رداء العمر فله من حلل البقاء في عليين كسوه، ولأنه لم يبق في مدّة حياته عملاً صالحاً إلا وقدّمه، ولا عهداً في الجنة إلا أحكمه، ولا عقداً في البر إلا أبرمه، فإن صنائعه في الرقاب، وأوقافه على سبل الخيرات متجاوزة عن الخراب، لاسيها أوقافه لفكاك أسرى المسلمين إلى يـوم الحساب، وأعان طلبة الشافعية والمالكية عند داره بالمدرسة والأيتام بالكتاب، والخيرات الدارة على الأيام، فكانت حياة ثانية إلى يوم البعث وإعادة حياة الأنام، وكان رحمه الله للحقوق قاضياً، وفي الحقائق ماضياً، سلطانه مطاع، والسلطان مطيع، وفضله جامع، وشمل الفضل به جميع، وهو واحد الزمان، وصاحب القرآن، قد خصه الله بالمكانة والإمكان،

والسلطان رحمه الله من مفتتحات فتوحمه ومختتهاتها، ومبادىء أمور دولته وغاياتها، ما افتتح الأقاليم إلا بأقاليد آرابه وآرائه، ومقاليد غناه وعنائه، وكنت من حسناته محسوبا، وإلى مناسب آلائه منسوبا، أعرف صناعته ويعرف صناعتي، وأعارض بضاعته الثمينة بمزجاة بضاعتي، ولم يزل يجذب بضبعي، ويجلب نفعي، وما أوسيع درعه للخطاب في شغلي إذا ضاق بالخطب الشاغل ذرعي، وكانت كتابته كتائب النصر ، ويراعته رائعة الدهر، وبراعتنه بارية للبرية، وعبارته نافثة في عقد السحر، وكانت بلاغته للدولة مجملة، وللمملكة مكملة، وللعصر الصلاحي على سائر الأعصار مفضلة، ومفتتحاته في الفتوحات البديعة بديعة، وتخترعاته في الصنائع المخترعة صنيعة، وإنها نسجت على منواله، ومزجت من جرياله، ورويت بـزلاله، وهو الذي نسخ أساليب القدماء بما أقدمه من الأساليب، وأغربه من الابداع وأبدعه من الغريب، وما ألفيته كرر دعاء ذكره في مكاتبته، ولا ردّد لفظا في مخاطبته بل تأتي فصوله مبتكرة، مبتدعة مبتدهة لا مفتكره، بالعرف والعرفان معرفة لانكره، وكانت الدولة بادالته تدال، والزلة بازالته تزال، والكرام في ظله يقيلون، ومن عثرات النوائب بفضله يستقيلون، وبعز حمى حمايته يعزون، ولهز عطف عطف يهتزون، فإلى من الوفادة بعده، وبمن الافادة، وفيمن السيادة ولمن السعادة؟ والحمد لله الـذي له الغيب والشهاده، وإنا لله وإنا إليه راجعون، ولأمره منقادون .

وقد وصف العهاد أيضافي كتاب الخريدة في القسم الرابع في ذكر عاسن فضلاء مصر وأعهالها، فقال: وقبل شروعي في ذكر أعيان مصر وأحاسنها ومزايا فضلائها ومزائنها، أقدّم ذكر من جميع أفاضل الدهر وأماثل العصر ، كالقطرة في تيار بحره بل كالذرة في أنوار فجره، وهو المولى القاضي الأجل الفاضل الأسعد أبو علي عبد الرحيم بن القاضي الأشرف أي المجد علي بن الحسن بن البيساني، صاحب القرآن، العديم الأقران، وواحد الزمان العظيم الشان، رب القلم والبيان واللسن

واللسان ، والقريحة الوقادة، والبصيرة النقادة، والبديهة المعجزة ، والبديعة المطرزة والفضل الذي ما سمع له بمهاثل في الأوائل عمن لو عاش في زمانه لتعلق بغباره، أو جرى في مضهاره ، فهو كالشريعة المحمدية التي نسخت الشرائع، ورسخت بها الصنائع، يخترع الأفكار، ويفترع الأبكار ويقلع الانوار ، ويبدع الأزهار، وهو ضابط الملك بآرائه، ورابط السلك بالائه، إن شاء أنشأ في يـوم واحد بل في ساعة مـا لو دوّن لكـان لأهل الصناعة خير بضاعة، أين قس في مقام حصافته، ومن حاتم وعمرو في سهاحته وحماسته، فضله بالافضال حال، ونجم قبوله في أفق الاقبال عال، لامنّ في فعلم ولا مين في قولم، ولا خلف في وعده ولا بطء في رفده الصادق الشيم، السابق بالكرم، ذو الوفاء والمروّه، والصفاء والفتوّه والتقىي والصلاح، والندى والسماح، منشر رفات العلم وناشر راياته ، وجالي غيابات الفضل وتالي آياته، وهو من أولياء الله الذين خصوا بكرامته، وأخلصوا لـولايته قد وفقه الله للخير كله، وفضل هذا العصر على الاعصار السالفة بفضله ونبله، فهو مع ما يتولاه من أشغال المملكة الشاغلة ، ومهماته المستغرقة في العاجلة لايغفل عن الآجلة، ولا يفتر عن المواظبة على نوافل صلاته ونوافل صلاته، وحفظ أوراده ووظائفه، وبث أصفاده وعوارفه، ويختم كل يوم من القرآن المجيد، ويضيف إليه ما شاء الله من المزيد ، وأنا أؤثر أن أفرد لنظمه ونشره كتابا، فإنني أغار من ذكره مع الذين هم كالسها في فلك شمسه وذكائه، وكالثرى عند ثريا علمه وذكائه فإنما تبدو النجوم إذا لم تبرز الشمس حاجبها، وتحجب نور الغزالة عند إشراقها كواكبها، وإنه لايؤثر أيضا إثبات ذلك، فأنا ممتثل لأمره المطاع ملتزم له قانون الاتباع، وأضع أذني لأذنه، قابض يميني على يمنه راكن بأملي إلى ركنه، قاطن برجائي في ظل أمنه، افترض رضاه ولا أعترض على ما يحكم به ويراه، ولا أقوم إلا حيث يقيمني ، ولا أسـوم إلا ما يسـومني ولا أعـرف يد المكتنـي غير يده ، ولا أتصدّى إلا لما جعلني بصدده، وأسأل الله التوفيق للثبات على هذا السنن وابتهاج جدده وهو أحق ممدوح بمدحي واقضاهم بحقه، وأسهاهم في أفقه، وأولاهم بصدقه، وأهداهم إلى طرقه، ولي فيه مدائح منظومة ومنثوره، ومقاصد معاهدها معموره، وقصائد قلائدها على مجده موفوره.

ثم ذكر منها بعض ماتقدم ذكره في مواضع من هذا الكتاب وله فيه من قصيدة أوَّلها:

بحياتكم ماعندكم بعدي فسوى الأسسى مابعدكم عندي ماللجنة لاعدمتهم رغبواعث الاسعادفي السزهد إنالم يف وافلق دوفي كرم عبددالسرحيدم بدامة المجد ذو الـــرتبــة الشهاء والشرف الــــة ـــعالي السناوالسيؤدد العيد الناس كله ملسه تبسع وفي فضله والدهر كالعبد كمغاص بحربنانه فغددا در البيانيسان يساق في العقاد ان ســـودالبيضــاءبيــضمــن تـــوبالليـاليك لمسودة قلمم أقساليم البلاديم وثغ ورها للضبط والسلة ملك كتيبت كتابت فـــردبجيــش النصر في جنـــد الأسمر الخطيئ تسابعه في حكم والأبي ض الهندي والنسائبسات بحسلة أسدا مثل وم قمغل ول قالحد

وهي طويلة.

ثم قال: ولوأوردت من كلامه طرفاً لظهر عجز الأفاضل، واعترفت بالقصور ذوو الفضائل، فلايحسن ذكر البحر في الجداول، ولا العرش في المنازل، فأنا أؤثر أن أفرده بقسم لايمتزج بسواه، ولايتبهرج به من في جملته أوردناه، ولعلم يأذن لي في ذلك ، فلا سبيل إليه إلا بإذنه، ولا نفاذ للتصرف إلا بعد الفكاك (١٤٤٠) من رهنه.

قلت: وقد قالت الشعراء فيه فأكثروا، وقد تقدم لأبي الحسن بن الذروي فيه أبيات حسنة عامي حجه، وللتاج أبي الفتح البلطي فيه:

لله عبد درحي عبد دالدرحي على صراط وي على صراط وي ينم على صراط وي ينم على الله عبد دالدر وي ينم على الله عبد داره المناب وي المدى مستقي مهد ذرى المعدى مستقي مهد ذرى المعدى مستقي مهد ذرى المعدى مستقي وعلى وعلى وم الناب ما الله وم وهد دى موسى الكلي موسى الكلي وهد دى موسى الكلي مي وي جن وي التهج دانس في جن حلى الناب مستهد دانط وي جن حلى الناب مستهد دانط وي الكلي مستهد دانط وي التهج الناب والي الناب الن

وللقاضي السعيد هبة الله بن سناء الملك فيه من قصيدة: عبددالسرحيم على البريسة رحمة أمنت بصحبتها حلول عقابها

ياسائلا عنه وعين أسبابه نال السهاء فسله عسن أسبابها والدهر يعلم أن فيصل خطب بخطسى بسراعتسه وفصل خطابها ولقدعات رتب الأجل على الورى بسم\_و منصبه\_اوطي\_بنص\_ابها وأتته خاطبة إليه وزارة ولط\_\_\_الماأعي\_تعلى خط\_\_ابها مالقبوه بها لأن بعلمها أسمأءه أغنته عسسن ألقسابها قال الزمان لغيره إذرامها تسربت يمينك لستمن أتسرابها اذهب طريقت لست من آرائها وارجمع وراءك لست مسن أربسابها وبعيز سيدنا وسيدغيرنا ذلت من الأيسام شمس صعسابها تعنسوا لملوك لسوجهه بسوجه وههسا لابـــلتساق لبـابــهبـرقـابها شغ للسوك بهايق ولفس مشغ ولية بالذكر في محرابها في الصوم والصلوات أتعب نفسه وضمان راحتهعلى اتعهابها وتعجل الاقلاع عسن لذاته ثق\_\_\_ة بحس\_ن م\_\_\_آلها وم\_\_\_آبها فلتفخر الدنيابسائس ملكها منه ودارس علمها وكتهاجها

صـــــــقامهـــاقــــقامهـــا عالها وهـــــــابها

وله أيضا من أخرى:
وسالت من أي المعادن ثغرها
فوجدت من عبد الرحيم المعدنا
أبصرت جوهر ثغرها وكلامه
فعلمت حقاان هذا من هنا
ذاك الكلم من الكمال بمنزل
لايدرك الساعي إليه سوى العنا
يسدنو من الافهام إلا أنه

قلت: كان والده تولى القضاء بعسقلان، وأنفذ ولده الفاضل إلى مصر، فاتصل بكتاب الدولة المصرية أبي الفتح بن قادوس وغيره، وفتح الله عليه في هذه الصناعة ففاق فيها أهل عصره، مضافاً إلى ما منحه الله تعلل من علو قدره، وقد سبق من ترسلاته ما يشهد لعظيم أمره، وقرأت من نظمه:

وسيف عتيسق للعلاء فيإن تقل رأيست أبسابكسر فقل وعتيسق فزر بسابه فهو الطريسق إلى الندى ودع كه بساب ما إليه طسريسق

وله أيضاً:

سبقت مباسداء الجميل تكرماً

ومامثلك م فيمن تحدّث أو حكى
وقد كان ظني أن أسابقك مبه
ولكن رحمه الله بمقبرته بالقرافة.

وقرأت في تاريخ أبي على حسن بن محمد بن اسماعيل القليوبي الذي ذيله على تاريخ أبي القاسم السمناني قال: حدثني الملك المحسن أحمد بن السلطان صلاح الدين أن يوم موت الفاضل اتفق دخول الملك العادل إلى مصر، وأخذها من ابن أخيه الأفضل.

قال: دخل العادل من باب، وخرجنا نسرع بالجنازة من باب آخر، قال: وأكثر أهل مصر يذكرون أن كتبه التي جمعها مقدار مائة ألف محلد، وكان يجمعها من سائر البلاد. قال: وسمعت قاضي القضاة ضياء الدين القاسم بن يحيى الشهرزوري ببغداد أيام ولايته يحدث أن القاضي الفاضل لما سمع أن العادل أخذ الديار المصرية دعا على نفسه بالموت، خشية أن يستدعيه وزيره صفي الدين بن شكر إليه أو يجري في حقه إهانة، وكان بينها مقارصة فأصبح ميتاً، وكانت له معاملة حسنة مع الله تعالى، وصلاة بالليل كها ذكروا عنه رحمه الله.

قلت: وأخبرني القاضي الشهيد ضياء الدين بن أبي الحجاج صاحب ديوان الجيش رحمه الله أن القاضي الفاضل بعد صلاح الدين لم يخدم أحداً من أولاده، وكانت الدولة بأسرها تأتي إلى خدمته إلى أن توفي، قال: ولما قدم العادل مصر وملكها بات وأصبح فزار قبر الشافعي رضى الله عنه، وجاء إلى قبر الفاضل فزاره، قال ابن أبي الحجاج: وأنا حاضر ذلك.

## ثم دخلت سنة سبع وتسعين

قال العماد: ففيها توفي الأمير عز الدين ابراهيم بن شمس الدين بن محمد بن المقدم في حصن أفاميه، وفيها أو في سنة ست قبلها توفي السلطان خوارزم شاه بن تكش بن ايل أرسلان بن أتسز بن محمد، وهو الذي زالت دولة السلجوقية بملكه، واجتمع له مع خوارزم، خراسان، والعراق، ولما مات قام ولده علاء الدين مقامه.

قال: وفيها كتب السلطان العادل للأمير فخر الدين إياز شركس بأعمال تبنين، وهونين، وبانياس، والحوله، وما يجري معها، وكانت مع الأمير حسام الدين بشاره، فحاصره وأنجده الملك المعظم عيسى ابن السلطان من دمشق، فسلم البلاد وخرج.

قال: وفيها توفي الأمير بهاء الدين قراقوش، وهو من القدماء الكرماء، وشيوخ الدولة الكبراء، أمير الأسدية ومقدمها، وكريمها ومكرمها، ولم أر غيره خصياً لم تقاومه الفحول، ولم يؤثر في محال مأثراته المحول، وله في الغزوات والفتوحات مواقف معروفة، ومقامات موصوفة، وهو الذي احتاط على القصر، حين استتبت على متوليه أسباب النصر، وذلك قبل موت العاضد بمدة، ولما خطب لبني العباس بالديار المصرية تسلم القصر بها فيه، واستظهر على أقارب العاضد وبنيه، وتولى عمارة الأسوار المحيطة بمصر والقاهره، وأتى فيها بالعجائب الظاهرة، وكان معاذ الإلتجاء، وملاذ الإرتجاء، غير أنه نسب إلى اللجاح لشدة ثباته وفرط جوده، ولا يكاد يعجم لصلابة عوده، ولما توفي تسلم العادل داره بها حوته من الذخائر، وصارت اقطاعاته للملك الكامل.

قال: وفيها نقل إلى العادل عن غلام الأمير أيبك الفطيس أن جماعة قد عزموا على الفتك بالعادل حال ركوبه، وأسند أصل ذلك إلى الملكين

المعز اسحق والمؤيد مسعود ولدي صلاح الدين رحمه الله، فأحضر الغلام وعصره فهات ولم يقر، واعتقل المعز والمؤيد ونزع من اتهمه في ذلك من الأمراء الصلاحيه، وتكلم الناس بأحاديث في هذه القضية.

قال: وفي هذه السنة اشتد الغلاء، وامتد البلاء وتحققت المجاعة وهلك القوي، فكيف الضعيف، ونهك السمين فكيف العجيف، وخرج الناس حذر الموت من الديار، وتفرق فرق بمصر في الأمصار، ورأيت الآرامل على تلك الرمال، والجهال باركة تحت الأحمال، ومراكب الفرنج على ساحل البحر على اللقم، تسترق الجياع باللقم، فقل من إلى الشام خلص إلا بعد أن قل عدد أهله ونقص.

قلت: ثم زالت تلك الشدة بعد مدة، وتوفي العهاد الكاتب رحمه الله مصنف هذه الكتب: الفتح، والبرق، وهذه الرسائل الثلاث العتبى، والنحلة، والخطفة بدمشق في أوّل شهر رمضان من هذه السنة، وهي سنة سبع وتسعين وخمسهائة، ودفن بمقابر الصوفية بالشرف القبلى.

وفي هذه السنة تـوفي الشيخ أبو الفرج عبد الـرحمن بن علي بن الجوزي الواعظ وغيره رحمهم الله.

وتوفي الملك الأفضل بسميساط في سنة اثنتين وعشرين وستهائة، وحمل إلى حلب فدفن بها

وتوفي الملك الظاهر بحلب في سنة ثلاث عشرة وستمائة.

وفيها توفي بدمشق الشيخ تاج الدين أبو اليمن زيد بن الحسن الكندي، ودفن بالجبل وغيره رحمهم الله.

وتوفي الملك العادل أبو بكر بن أيوب بدمشق في سنة خمس عشرة

وستهائة، وابنه المعظم في أواخر سنة أربع وعشرين وستهائة، وأخواه الأشرف والكامل في سنة خمس وثلاثين وستهائة رحمهم الله ووفق من بقي من أهل بيتهم وأصلح ذات بينهم آمين.

#### 米米米

آخر الجزء الثاني من الأصل المنقول منه، الذي هو بخط المؤلف.

والحمد لله وحده وصلى الله على من لا نبي بعده. على يد العبد الضعيف المفتقر إلى رحمة ربه اللطيف ، محمد بن أحمد البودري المغربي الأزهري.

آخر الجزء الشاني من المروضتين بأخبار الدولتين النورية والصلاحية لأبي شامة رحمه الله.

# حواشي الجزء الأول حسب تقسيم المؤلف

```
١ -- سورة الرعد-- الآية : ٩.
                                                          ٧--سورة ابراهيم --الأية ٣١٠.
                                                           ٣-سورة الطارق-الآية : ٩.
                                                        ٤ -- سورة هود --. الآية: ١٢٠.
                                                        ه -- سورة القمر -- الآيات: ٤-٥.
                                             ٦... روآه الإمام الترمزي في كتاب الشمائل
                           ٧-- انظره عن أبي داود في جامع الأصول لابن الأثير ج ٨ ص ١٩.
      ٨--صحيح مسلم ـ ط. دار الفكر بيروت ج٢ ص ٣٢ - باب فضل الجلوس في مصلاه بعد
                                                                                الصبح.
                                               ٩--انظره في جامع الأصول ج١١ ص ٧٩٢.
                                                          ١٠ -- سورة الحاقة--- الآية :٨.

    ١١ - في حاشية الأصل: «قف، كان المؤلف اختصر تاريخ ابن عساكر».

                                                       ١٢ ـــسورة الذاريات—الآية :٥٥.
١٣ -- في حاشية الأصل: ولد نور الدين سنة ١١٥ وتوفي سنة ٢٩٥، وولد صلاح الدين سنة ٣٢٥
                                                                       وتوفي سنة ٨٩٥.
                               ٤ ١ -- ديوان ابي تمام ـ ط. دار المعارف القاهرة ج٣ ص ٢٥٢.
                           ٥١ -- في حاشية الأصل: قف على أن نور الدين كان حنفي المذهب.
          ١٦- في حاشية الأصل: قف على أن الزهد خلق القلب من محبة الدنيا لاخلق اليد عنها.
              ١٧ -- أي لايذكرن بقبيح ، كان يصان مجلسه عن رفث القول. النهاية لابن الأثير.
                                                        ١٨- أي أوضحهم وعداً. القاموس.
                               ١٩ ---سنا البرق الشامي للبنداري ـ .القاهرة ١٩٧٩ ص ١٦.
   ٢٠ ــ في حاشية الأصل حاشية، قال المؤلف: هو عبد المؤمن بن هبة الله بن حمزة الأصفهاني
 الحنفي، ولقبه شوروه _ بشين معجمة مفتوحة ، وراء ساكنة بين واوين مفتوحتين ، وآخره هأء ،
                                            والله أعلم. كذا في الأصل المنقول من خط مؤلفه.
                                        ٢١--ليست هذه الأبيات في المطبوع من تاريخ إربل.
                                           ٢٢ -- في الحاشية: قف على هذه المنقبة العظيمة.
                         ٢٣-انظر تاريخ حلُّب لابن الشحنة ـ ط. طوكيو ١٩٩٠ ص ١٠٥٠.
                                                       ٢٤ -- سورة الفرقان -- الآية: ٦٣.
                                                         ٥٧ -- سورة النور-- الآية: ١٥٠
                                                       ٢٦ -- سورة الزمر-- الآية ١٠٠.
                                                     ٢٧ ــسورة الأنعام ــ الآية : ١٦٠.
                                                      ٢٨--- سورة البقرة -- الآية: ٢٦١.
                                                          ٢٩ --- سورة ص--- الآية: ٢٩.
                                                      ٣٠ --- سورة الانفطار-- الآية: ١٩.
                                                   ٣١ --- سورة آل عمران --- الآية ١٩٥٠.
```

٣٣ — انظر الخريدة — قسم بلاد الشام -ج ١ ص ١٢٣.

٣٢ -- لم تصلنا ترجمة نور الدين في الأجزاء الموجودة من بغية الطلب في تاريخ حلب لابن العديم.

```
٣٤ - تخمط: تكبر وغضب، القاموس.
                                              ٣٥ -- دأيت للشيء: ختلته وراوغته. القاموس.
                                                     ٣٦ -- الشلق الضرب بالسوط وغيره،
   ٣٧ — الجث — القطع ، أو انتزاع الشجر من اصله، وبالضم: ما أشرف من الأرض حتى كاكمة
                                                                                صغيرة.
                                                     ٣٨--- أجن الماء إذا تغير لونه وطعمه.
                  ٣٩ -- في هامش الأصل: حاشية -الجناجن -بجيمين ونونين - عظام الصدر.
    • ٤ - في هامش الأصل: الشرر أحكام الفتل وابرامه، والسحل دونه، أي أمضى منه في الأمور
                               الكبار وفي الصغار، والذماء: بقية الروح في المذبوح، والله أعلم.
                    ١ ٤ -- ليلة الهرير هي إحدى ليالي القادسية، وكذلك هي إحدى ليالي صفين.
                                            ٢٤ - من أمثال العرب يعنى إبطان غير المظهر.
                                                                   ٣٤ — الابرنز: الأمير.

 3 3 --- وقم: قهر وأذل. القاموس.

                                     ٥ ٤ -- الكرينة المغنية، ولا أدري إذا كان الكرين: المغنى.
    ٣٤ -- تاريخ دولة أل سلجوق للعماد الأصبهاني بتهذيب البنداري، ــ ط. القاهرة ١٩٠٠ ص
                                                                         .144---144
                                               ٧٤ -- القلة: أعلى مكان بالقلعة أو بالحصن.
٤٨ --- قبر زنكي قرب مشهد الإمام على رضي الله عنه، ومكان هذا المشهد حيث باب بغداد في الرقة،
                          وعلى مقربة من هذا الباب جرت حفريات رجحت مكان القبر وحددته.
                                          ٤٩ -- تاريخ دولة أل سلجوق ص ١٨٩ -- ١٩٠.
              • ٥ - خبز مصنع من طحين معجون بالسمن والسكر. أو خبز بلا أدم (بقسماط)
                                        ١٥ -- صحيح مسلم-- كتاب الحدود ـ ٥ ص ١١٧.
                                                                    ۲٥- بزرك: عظيم،
                                                      ٥٣- سورة التوبة -- الآية : ١١١.
                                                      ٤٥--- سورة الصافات--- الأية: ٤٤.

    ٥ صرت هذه الكلمة من قبل في تاريخ ابن القلانسي، ووقتها خيل لي أنها تصحيف «حظائر»

      ولكن التكرار بالرسم نفسه نفى هذا الاجتهاد، ولدى السؤال تبين لي أن فطائر جمع فطيرة،
                والفطيرة قطعة الأرض واضحة المعالم لافرق إن كانت مزروعة أو بدون زراعة.
                                       ٥٦ - حبيب النجار، ومثواه كما هو رائج في انطاكية.
                                                           ٥٧ --- ديوان أسامة ص ١٧٠.
                                                         ٨٥--- سورة فاطر--- الآية : ٤٣.
                                                                ٥٩ -- جفخ ٠ فخر وتكبر.
                                                        · ٦-- سورة الأنعام-- الآية: ٩٦.
                                                                    ٦١ --- سرطته: بلعته.
                                                                    ٦٢ — الزبرج الزينة
```

```
٦٢ --- يفيل: يخطىء.
                                                        ٦٤--- آخر صفوف الحرب.
                                                    ٦٥--- سدك به لزمه وتولع به.
                               ٦٦- السرق الحرير، والشليل الثوب يلبس تحت الدرع.
                      ٧٧ -- الأرين النشيط، وسرير الميت أو تابوته، والسيف. القاموس.
                               ٨٨ - الأنب- ثمر الباذنجان، والغاصى: القليل المتفرق.

 ٦٩ — الكسم الحشيش الكثير، والصوار: القطيع من البقر.

                                                   ٧٠- العرار: الصياح والمراخ.
                                                   ٧٧-- الخبار: مالان من الأرض.
             ٧٧ -- العلاب --- جمع علبة ـ وهي النخلة الطويلة والقدح الضخم يحلب فيها.
                              ٧٣ -- الشجن الحزن والهم، وشجنته الحاجة عبسته.
                                 ٧٤-- الضجم: عوج في الفم والشدق، وضغمه: عضه.
                                                     ٧٥ -- ديوان أسامة ص ١٦٢.
                                                      ٧٦ - ديوان أسامة ص ٧٦.
                                                     ٧٧ — ديوان أسامة ص ٢٩٠.
                                                     ٧٨ — ديوان أسامة ص ٢٨٧.
                                                    ٧٩ -- ليست في ديوانه المطبوع.
                                              ۸۰ ــ دیوان اسامهٔ ص ۲۰۳ ــ ۲۰۹ .
                                                 ٨ ٨- القنس الأصل ، أعلى الرأس.
                                     ٨٢ -- ديوان أسامة ص ٤٠ - ١٤ (عدة أبيات).
     ٨٢ -- كتاب العصا لاسامة - ط. القاهرة ١٩٧٢ ضمن نوادر المخطوطات ج١ ص ٢٠٧.
٨٤ - جاءت قصيدة ابن رزيك في ديوان أسامة مع رد آخر غير هذا لأسامة ص ١٣٦ --- ١٣٧.
                                              ٥٨--- ديوان أسامة ص ٢١٣-- ٢١٧.
                                     ٨٦ -- ديوان أسامة ص ١٤٠ -- ١٤١ مع فوارق.
                                                           ٨٧ -- بط الجرح شقه.
                                             ٨٨ --- ديوان أسامة ص ١٧٥ --- ١٧٧.
                ٨٩ -- الخريدة -قسم مصر -ط - القاهرة ١٥٩١ ج ١ ص ١٧٢ -- ١٨٣.
                                                    ٩٠ — ليست في ديوانه المطبوع.
                                          ١٩ - الخريدة - قسم مصر- ج١ ص ١٧٤.
                                          ۹۲ - الخريدة - قسم مصر - ج۱ ص ۱۸۰.
                                          ٩٣ --- الخريدة ــ قسم مصر ــ ج١ ص ١٨٠.
                                             ٩٤ - ديوان أسامة - ص ٢٨١ ـ ٢٨٣.
                                                  ه ٩ --- سنا البرق الشامي ص ١٩.
                                                     ٩٦ - ليسا في ديوانه المطبوع.

 ٩٠ --- سورة الأعراف الآية ٩٥.

                                 ٩٨ -- الضريدة -- قسم مصر -ج ١ ص ١٨٩ - ٢٠٠.
                                         ٩٩ — الخريدة — قسم الشام - ج٢ ص ٣٥.
```

```
١٠٠ — سنا البرق الشامي ص ٢٢ — ٢٤.
                                                ١٠١ -- انظر سورة آل عمران ـ الآية: ٢٦.
                                                 ١٠٢ --- سورة أَل عمران--- الآية : ٢١٦.
                                                     ١٠٢ -- سورة البقرة-- الآية: ٢١٦.
                                                      ٤٠٠ -- سورة النساء-- الآية: ٥٥.
                                                     ١٠٥ -- سورة النحل-- الآية: ٩١.
                                         ١٠١-- الخريدة ـ قسم الشام -- ج ١ ص ٢٧٧.
                                                    ١٠٧ -- سورة الأنفال-- الآية : ٤٢.
                                                  ١٠٨ - سورة القصص -- الآية: ٨٣.
                                                     ١٠٩-- سورة الرعد-- الآية: ٤٣.
                                  ١١٠ - ديوان عرقلة الكلبي ـ ط. بيروت: ١٩٩٢ ص ٥٥.
                                                  ١١١ — ديوان عرقلة الكلبي ص ١١٠.
                                                         ١١٢ -- ديوان عرقلة ص ٩٤٠.
                                                         ١١٢ — ديوان عرقلة ص ٦٤.
                       ١١٤ -- ديوان عرقلة ص ٥٢. الخريدة ـ قسم الشام - ج١ ص ١٨٠.
                                                    ١١٥- سورة النحل-- الآية : ٥٢.
                                                     ١١٦ - سورة النحل- الآية: ٢٦.
                                                      ١١٧ سورة الأنفال-- الآية : ٢٤.
                                    ١١٨ — الخريدة ـ قسم مصر ـ ج١ ص ٢٣٥ — ٢٣٧.
                                                 ١١٩ --- سورة آل عمران- الآية: ١٧٤.
  ١٢٠ --- كذا وهو وهم فقد عاشت الخلافة الفاطمية / ٢٧٠/ سنة هجرية من ٢٩٧ حتى ٦٧٥ (
    ٩٠٩ ـ ١١٧١) ، وكان القائد جوهر الصقلبي قد استولى على مصر سنة ٣٥٨ / ٦٦٩ م، وبعد
                             ذلك بوقت قصير انتقل الخليفة المعز إلى القاهرة المؤسسة حديثا.
                                                  ١٢١-- ديوان العرقلة ص ٣٧--- ٣٨.
١٢٢ ـ سبورة الصف - الآية: ٨ . وحديث المصنف عن تاريخ الدولة الفاطمية ونسب أتمتها صادر
 عن التعصب ، ذلك أن مسألة النسب مبتوتة من حيث الصحة، أصف الى هذا أن اسم المهدي عبد
الله وليس عبيد الله وكنت قد عالجت هذه المسالة بالتفصيل بكتابي الجامع بأخبار القرامطة ،
                                                                 ج ۱ ص ۷۷ ـــ ۱۰۷.
  ١٢٣ -- سورة الكهف-- الآية: ١٠٤. وكنت قد نشرت مادونه القاضي عبد الجبار في تثبيت دلائل
                               النبوة في كتابى الجامع بأخبار القرامطة ج١ ص ٢٩٥- ٣٣٠.
                                                      ١٢٤ --- سورة الأسراء_الآية ٥٨.
        ١٢٥ — زرا هي أزرع الحالية وسمسكين هي الشيخ مسكين الحالية وهما على مقربة من
                                                                           بعضهما.
                                ١٢٦ -- متح الماء: نزعه، والمقصود هنا رفع زنكي إلى القلعة.
                                         ١٢٧ - الفريدة قسم الشام ج٣ ص ٢٤ - ٥٠.
   ١٢٨ -- طمام موضع على مقربة من صنعاء، وكان سوقاً مشهوراً. معجم المدن والقبائل اليمنية
                                                   لابراهيم المقحفى ـ ط. صنعاء ١٩٨٥.
```

```
١٢٩ — الفريدة — قسم الشام — ج٣ ص ١٠٢ — ١٠٤.
                                                   ١٣٠ --- سورة البروج-- الآية: ٢٠.
                               ١٣١ -- الخريدة -- قسم مصر -- ج ١ ص ١٨٦ -- ١٨٧.
                                                 ١٣٢ — سورة الشورى — الآية : ٤١.
                                                   ١٣٢ — سورة البقرة --- الآية: ١٩٤.
                                                        ١٣٤ — ديوان عرقلة ص ٧٠.
                ١٣٥ -- منامات الوهراني ومقاماته ورسائله -- ط. القاهرة ١٩٦٨ ص ١٤.
                                                      ١٣٦ --- ديوان أسامة ص ١٥٨.
                       ١٣٧-- المعرفة والتاريخ للفسوي ـ ط. بيروت ١٩٨١ ج٢ ص ٣٦٧.
                                               ١٣٨ -- ليست في ديوان أسامة المطبوع.
                                                    ١٣٩ --- سورة التوية-- الآية: ٥٨.
                                            ١٤٠ -- سورة الليل -- الآيتان: ١٤ -- ١٥.
                                                        ١٤١ ليست في ديوانه المطبوع.
                                                     ١٤٢-- سورة النبا-- الآية : ٢٠.
                          ١٤٢ -- الأعلاق الخطيرة -- قسم الشام ج٢ ص ٢٨٤ -- ٢٨٨.
                                                    ٤٤٤ --- سورة الرعد --- الآية : ٣٨.
٥٤٠ --- كذا وهو وهم قائم على تجاهل زمن كل من ابن أبي حصينة والمعري المتقدم على أسامة ،
                                           ولا وجود لطائية أسامة في ترجمته في الخريدة.
                  ١٤٦ - أي أقسم بالنبي صلى الله عليه وسلم وبالامام على كرم الله وجهه.
                                  ١٤٧ -- الخريدة قسم الشام -- ج١ ص ٢٠١ -- ١٩٥.
                                ١٤٨ — الخريدة — قسم الشام — ج١ ص ٢٠٤ — ٢٠٤.
                                                 ١٤٩ -- سورة الأنعام-- الآية : ١٦٤.
                               ١٥٠ — الخريدة — قسم الشام — ج٢ ص ٣٣٦ — ٣٣٩.
                                ١٥١-- الخريدة -- قسم الشام -- ج١ ص ١٩١ -- ٥٩٥.
                                        ١٥٢ -- الخريدة --- قسم مصر --- ج١ ص١٠٦.
                             ١٥٢ — لاترجمة للعثماني في قسم مصر المطبوع من الخريدة.
  ١٥٤ -- الخريدة -- قسم الشام -- ج٢ ص ٣٦٤. وللشاتاني ترجمة جيدة في بغية الطلب لابن
                                         العديم على أساسها يقوّم نص الخريدة المنشور.
                                                        ٥٥١ -- ديوان العرقلة ص ٦٥.
                   ١٥١ -- محلة كبيرة ذات أسواق بالجانب الغربي من بغداد. معجم البلدان.
                                                   ١٥٧ -- سورة فصلت-- الآية : ٢٦.
  ١٥٨ --- هذا بعض بيت ورد في الحماسة لابي تمام بشرح التبريزي ـ ط. بيروت ـ دار القلم ج١
                                                                ص ٢٤١ والبيت هو:
                                                            أبى القتل إلا آل صمة إنهم
                   أبو غيره والقدر يجرى إلى القدر.
                                                  ٥٩ --- سورة النساء-- الآبة : ١٠٠.
```

## حواشي الجزء الثاني من الروضتين

```
    ١ الأمج: حر وعطش، والشديد الحر، القاموس.
    ٢ مورة آل عمران الآية: ٣٤ .

                                                                          ٣-- سورة الأنفال- الآية: ٦١ .
                                                                         ٤-- سورة الأعراف-- الآية: ٨٧ .
                                  ٥-- ديوان سبط ابن التعاويذي- ط دار صادر بيروت ص ٢٦٠ - ٤٢٤
                                                                            ٦-- سورة البقرة- الآية: ٢٤٪.
٧-- هِذُهُ القبورُ في المدرسة الشامية البرانية، التي باتت الآن في موقع متوسط داخل دمشق، وقد جرى ترميمها
                                                    ٨- أنظر موسوعة أطراف الحديث ح ٧ص ٤٤٧،٤٤ .

    إلى عَلَما الشَّارة إلى قصة السَّرباء والانتقام منها حين جدع قصير أنفه، فقيل في الأمثال لأمر ماجدع قصير

                                                                    1٠- سورة آل عمران- الآية: ١٩٦.
                                                                       ١١ -- سورة المجادلة -- الآية: ٢٢ .
                                                                    ١٢ --- سورة آل عمران -- الآية: ١٧٤ .
                                                                  ١٣ -- سورة الفجر- الآيتان: ١٣ -- ١٤ .
١٥ - هو زيد بن الحسن زيد بن زيد، من شيوخ ابن العديم، ترجم له في كتاب بغية الطلب ج ٩ ص
                                                                         ١٦ --- سورة الواقعة --- الآية: ٦٥ .
                                                                           ١٧ - سورة الزمر- الآية: ٢١ .
١٨ - لعلها زالة التي ذكرها الحميري في الروض المعطار وقال عنها: مدينة صغيرة عامرة بينها وبين أوجلة
                                                                              التي بأرض برقة عشرة مراحل.
                                                                            ١٩ --- سورة طه -- الآية: ٣٧ .
                                                      ٢٠- الخَرِيدة- بداية قسم شعراء الشام ص ١٣٦. ٢٠- سورة التوبة- الآية: ٣٦.

    ٢٢ -- السّها: كوّكب خفي من بنات نعش الصغرى. القاموس.
    ٣٢ -- سورة ألّ عمران -- الآية: ٢٦

    ٢٤ - سورة الأحزاب - الآية: ٢٧ .
    ٣٥ - سمق سموقا: علا وطال. القاموس.

                                                                      ٢٦ - سورة الروم - الأيتان: ١ - ٢٠ .
                                                                          ٧٧ - سورة مريم - الأية: ٢٦.

    ٢٨ - التيوع: كل بقلة إذا قطعت سال منها لبن أبيض حار يقرح البدن. القاموس.

                                                                         ٢٩ -- سررة الرحمن -- ألآية: ١٣ .
                                                                             ٣٠- سوَّرة التَّينَ- الآية: ١ .
                                                       ٣٦- انظر موسوعة أطراف الحديث ج ٣ ص ٣٠٦.
                                                       ٣٢- انظر موسوعة أطراف الحديث ج ٣ ص ١٤٦ .
٣٣- سورة الفجر — الآيتان: ٧--٨ .
                                                            ٣٤ – موسوعة أطراف الحيديث ج ٤ ص ٤٢٢ .
                                                                          ٣٥-- سورة يوسف--- الآية: ٨٤ .
                            ٣٦ - تدقّق رواية العهاد هذه على ماجاء لدى وليم الصوري وصاحب ذيل تاريخه.
```

```
٣٧- سورة الفتح- الآية: ٤ .
         ٣٨ - سورة القدر- الآيتان: ٣-٤.
        ٣٩ - سورة آل عمران -- الآية: ١٤٨ .
                ٤٠ -- سورة النبأ- الآية: ١٤ .
               ٤١ -- سورة الروم - الآية: ٤٧ .
             ٤٢ -- سورة الفرقان-- الآية: ٢٦ .
                ٤٣ - سورة هود- الآية: ٤٣ .

 ٤٤ - سورة فاطر - الآية: ٢.

           ٥٥ -- سورة الأنبياء -- الأية: ١٠٥.
                 ٤٦ --- سورة طه--- الآية: ٣٧ .
               ٧٤ - سورة الاسراء - الآية: ١.
          ٤٨ -- سورة آل عمران -- الآية: ٣٧.
٤٩ -- سورة التوبة -- الآية : ١١١.
            • ٥- سورة الشورى- الآية: ١٣ .
               ٥١ -- سورة النور-- الآية: ٥٥ .
              ٥٢ - سورة المائدة - الآية: ٢١.
٥٣- الفتخ من العقبان اللينة الجناح. القاموس.
              ٥٤ — سورة النحل — الآية: ٩٠ .
             ٥٥ - سورة الأنعام - الآية: ٥٥ .

 ٢٥ -- سورة الفاتحة -- الأيتان: ١ -- ٢ .

               ٥٧ - سوَّرة الأنعام- الآية: ١ .
           ٥٨ - سورة الاسراء - الآية: ١١١.

    ٩٥ -- سُورَة الْكهف -- اللّاية: ١.
    ١٠ -- سورة النمل -- الآية: ١٠.
    ١٠ -- سورة سبأ -- الآية: ١.

                 ٦٢ -- سورة فاطر- الآية: ١.
     ٦٣-- سورة النجم-- الأيات: ١٤--١٧.
            ٦٤ -- انظر الآية ٢٦ من سورة النور.
            ٦٥ - سورة النساء - الآية: ١٧٢ .
              ٦٦ - سورة المائدة - الآية: ١٧.
             ٦٧ -- سورة الأنفال-- الآية: ١٠ .
              ٦٨ - سورة النحل- الآية: ٩٢ .
          ٦٩ - سورة الأعراف - الآية: ١٧٥ .
             • ٧-- سورة الأنفال-- الآية: ٦٥ .
         ٧١ -- سورة آل عمران -- الآية: ١٦٠ .
           ٧٢- سوَّرَة الأحقاف- الآية: ١٥.
               ٧٣ — سورة النمل — الآية: ١٩ .
                ٧٤ – سورة هود – الآية: ٣٨ .
         ٧٥ — سورة آل عمران — الآية: ١٧٥ .
    ٧٦ - سورة الدخان - الآيات: ٢٥ -- ٢٨ .
             ٧٧ - سورة الفرقان - الآية: ٣٨.
                ٧٨- سورة غافر- الآية: ٨٥.
                ٧٩ - سورة فاطر- الآية: ٣٤.
            ٨٠- سورة الزمرّ- الآية: ٧٤ .
٨٨- سورة الأعراف- الآية: ٤٣ .
```

```
٨٢-- سورة يونس-- الآية: ١٠ .
                                                                                      ٨٣- سورة ابراهيم- الآية: ٣٤.
٨٤- سورة مريم- الآية: ٨٤.
                                                                               ٨٥ -- سورة الواقعة -- الآيتان: ٢٥ --٢٦
                                                                                        ٨٧ - سورة الحجر- الآية: ٢١ .
                                                                                       ٨٧- سورة الطلاق- الآية: ٧.
                                                                                     ۸۸— ليست في ديوانه المطبوع.
۸۹— سورة التوبة— الآية: ۱۱۱.
                                                                                       ، ٩ ـــ سورة النوبة -- الآية: ٢٦ .
                                                                                     ٩١ - سورة الأنفال- الأية: ١٧ .
                                                                                  ٩٢ -- سورة آل عمران- الآية: ٣٤.
                                                                                     ٣٣ --- سورة الفرقان-- الآية: ٢٦ .
                                                                                        ع ٩ - سورة الحاقة - الآية: ٧.
                                                                                     ه ٩ -- سورة يوسف- الآية: ٧٧.

    ٦٩ - الأسل نبات، والرماح والنبل وشوك النخل، وعيدان تنبت بلا ورق يعمل منها الحصر القاموس.
    ٩٧ - الخريشت بالفارسية: الخيمة - الايوان. نوع من أنواع الدروع.
    ٩٨ - قلعتان عظيمتان من أعمال إربل. معجم البلدان.
    ٩٩ - سورة النساء - الآية: ١٠٠.

                                                                                     . ١٠٠ سورةطه- الآية: ١٣٢ .
                                                                                    ١٠١ -- سورة الحج- الآية: ٠٤٠
                                                                                    ١٠٢- سورة محمد - الآية: ٣٥.
                                                                                ١٠٣ - سورة الأحزاب- الآية: ٢١.
                                                                            ١٠٤ -- سورة آل عمران-- الآية: ١٥٩.
                                                                                  ٥٠١- سورة النوبة - الآية: ٢٤.
                                                                                 ١٠٦ - سورة القمر- الأية: ٨.
١٠٧ - سورة الأنبياء- الآية: ٩٦.
                                          ١٠٨ - ديوان حاتم الطابي - ط دار ممادر بيروت ص ١٥ مع نوارق. ٩٠ - سورة هود - الآية: ٣٤ . ١٠ - سورة الأنعام - الآية: ٦٤ .
                                                                           ١١١ - سورة آل عمران -- الآية: ١١٠٣ .
                                                                            ١ ١ - سورة الأنعام - الآية: ٣٥ .
١٧ - سورة الأنعام - الآية: ٣٥ .
١ ١ - سورة آل عمران - الآية: ٣٠ .
                                                                               ١١٥ - سورة الإنسان - الآية: ٣٠.
                                                                               ١١٦ - سورة الأنعام - الآية: ٩١ .
                                                                                ١١٧ - سورة النمل - الآية: ٧٣ .
                                                                                ١١٨ - سورة الحشر- الآية: ١٠.
                                                                                  ١١٩ – سورة المزمل – الآية: ٢.
                                                                            ١٢٠ - سورة آل عمران - الآية: ١٣.
                                                                               ١٢١ - سورة المائدة - الآية: ١٤.
                                                                               ١٢٢ - سورة الحج - الآية: ٠٤. ١٢٢ - سورة يوسف - الآية: ١٤.
                                                                           ١٢٤ - سورة آل عمران- الآية: ١٦.
                                                                         ١٢٥ - سورة آل عمران - الآية: ١٠٣.
١٢٦ - يروى أن هذا قاله عبد ألله بن الزبير أثناء معركة الجمل، فقد اصطرع هو والاشتر النخعي - مالك بن
```

```
الحارث، فنادى بهذا النداء.

١٩١١ - الحريدة -- قسم الشام، ح ٢ ص ٣٣٤ -- ٣٣٥.

١٩١ -- سورة العاديات -- الآيتان: ٩ - ١ .

١٩١ -- سورة الأنبياء -- الآية: ١٠٢ .

١٩١ -- سورة التوبة -- الآية: ١٠٠ .

١٣١ -- سورة التوبة -- الآية: ١٠٠ .

١٣١ -- المدرسة التي أسسها وحملت اسمه، حيث باتت من أهم مراكز التعليم في بلاد الشام.

١٣١ -- الشعر دعبل بن علي الحزاعي -- ط دمشق ١٩٦١ ص ٧١ .

١٣١ -- سورة التوبة -- الآية: ٢٢ .

١٣١ -- سورة التوبة -- الآية: ٢٢ .

١٣١ -- سورة التوبة -- الآية: ٢٢ .

١٣١ -- سورة القبل فقال: إلى عدم تصديق عمر بن الخطاب رضي الله عنه خبر وفاة النبي على عندما سمعة المدة الأولى فقال: إن رسول الله ﷺ لم يمت، ولكن ربه أرسل إليه ..... ١٠ .

١٣١ -- سورة القلم -- الآية: ١٤ .

١٣١ -- سورة القلم -- الآية: ١١ .

١٤١ -- سورة البنكبوت -- الآية: ١١ .

١٤١ -- سورة المنكبوت -- الآية: ١١ .

١٤١ -- سورة المنكبوت -- الآية: ١٩ .
```

## 

# المحتوى

ما استأنفه السلطان بمصر والشام من نقل الولايات بين اولاده	_٣
باقي حوادث هذه السنة	-11
فصلَّ حول قمص طرابلس	-14
سنة ٥٨٣ ــ معركة حطين	_4.
حطین من روایة ابن شداد	_44
فتح عكا وغيرها	_£V
فتح طرابلس وجملة من البلاد الساحلية	_07
فتح تبنين وصيدا وبيروت وجبيل ومجيىء المركيس الى صور	<b>_</b> ○A
فتح عسقلان وغزة والداروم وغيرها	77_
فتح البيت المقدس	_TT_
رواية ثانية عن فتح القـدس	9
نزول السلطان على بيت المقدس	_٧٣
يوم الفتح وبعض كتب البشائر	_٧٨
كتب عن فتح القدس	ΓΛ_
قصائد في فتح القدس	_9 Y
اقامة الجمعة بالأقصى	_1.9
رواية العماد في البرق	_114
خطبة جمعة التحرير	-110
منبر الأقصى	_171
أحوال الصخرة المقدسة	-170
اخلاء الفرنج للقدس	_177
قصائد قدسيات	_171
هصار صور وفتح هونين	_181_
ورودرسل التهاني من الأفاق والعتاب من العراق	_160
باقي حوادث سنة ٥٨٣	_107
سنةً ٨٤٥	_100
أمر عكا وكوكب	_109
دخول السلطان الساحل وفتوحاته	171_
فتح انطرطوس	_171_
فتح جبلة	o
فتح اللاذقية	_\7\
فتح صهيون وغيرها	_1\/1
فتح بكاس والشغر والسرمانية	_\Y£

#### - 1977 -

فتح حصن برزية	~1 VV
فتح حصن دربساك	_174
٠ فتح بغراس	_\^&
عقد الهدنة مع صاحب انطاكية	_\ <b>\</b> \\
فتح الكرك	-144
فتح صفد	-191
فتح <b>کرک</b> ب	-198
باقي حوادث هذه السئة	-199
سنة ٥٨٥	-7.4
فتح شقيف أرنون	_4.0
تجمع الفرنج لغزو عكا	_Y · A
ہزول الفرنج علی عکا	_717
المصاف الأعظم على عكا	_ ۲۱۸
باقي حوادث السنة بمرج عكا	_
ورود خبر ملك الالمان	377_
سنــة ۸۸۰	_Y <b>Y</b> X
قدوم الملوك وحريق الابراج	-78.
ما كان من أمس ملك الإلمان	<b>L37</b>
الوقعة العادلية على عكا	_Y0 &
من أخبار ملك الالمان	_ ۲ o ۸
الخال البطس الى عكا	_474
وصبول ابن ملك الالمان	_Y7o
احراق ماحوصر به برج الذبان	~Y7A
حوادث أخر متفرقات	_444
رسالة من القاضي الفاضل من مصر الى السلطان	_477
مراسلة ملك المغرب	~YAA
نسخة الكتاب الى ملك المغرب	-797
نتاثج المراسلة	_Y4A
موقف القــاضي الفاضل بشأن مراسلة ملك المغرب	3·7-
خروج الفرنج الى رأس الماء	-217
ادخال البدل الى عكا	_٣17_
باقي حوادث هذه السنة	_~~·
سنة ۸۷۰	377_
سقوط عكا	-779
ماجرى بعد انفصال امر عكا	-450
ماجرى بعد خراب عسقلان	_٣٥٢
باقي حوادث هذه السنة	_T°A

#### - 4444 -

سنة ۸۸ه \_ 477 عزم الفرنج على قصد القدس \_٣٦٧ مفاوضات الصلح -474 ماجرى بعد الهدنة **\_**٣٨٤ مسير السلطان من القدس الى دمشق \_491 أمور أخرى جرت \_44V سنة ۸۹ه \_2.0 مرض السلطان ووفاته \_£ · ¥ تركة السلطان ووصف اخلاقه \_£ Y . تاريخ مولد السلطان 373\_ مواظبته على القواعد الشرعية \_£ Y £ انقسام مملكته بين اولاده واخوته \_11. وفاة صاحب الموصل \_227 رسالة العماد - العتبى والعقبي \_20. رسالة العماد نحلة الرحلة -209 رياح وبروق وعواصف في مصر \_ \$7. رسالة العماد - خطفة البارق وعطفه الشارق 173\_ سنة ١٤٥ FF3\_ سنة ٥٩٥ \_£7A سنة ٥٩٦ \_{240 انابة الكامل بن العادل في مصر \_EV9 وفاة جماعة من الأعيان -844 وفاة القاضى الفاضل **AA3**\_ سنة ٩٧٥ -297 الحواشى -299